سَعْدِى الشِّيرَازِى

شاعر الإنسانية

عصره . حياته . ديوانه "البوستان"

تأليف

دكتور

محمد موسى هنداوى

المدرس بكلية دار العلوم

جامعة فؤاد الأول

ملتزم الطبع والنشر مكتبة الخانجى

القاهرة

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

٤٠ شارع نوبار باشا (سابقا شارع الدواوين)

١٩٥١

سعدي الشيرازي

شاعر الإنسانية

عصره . حياته . ديوانه "البوستان"

تأليف

دكتور

محمد موسى هنداوي

المدرس بكلية دار العلوم

جامعة فؤاد الأول

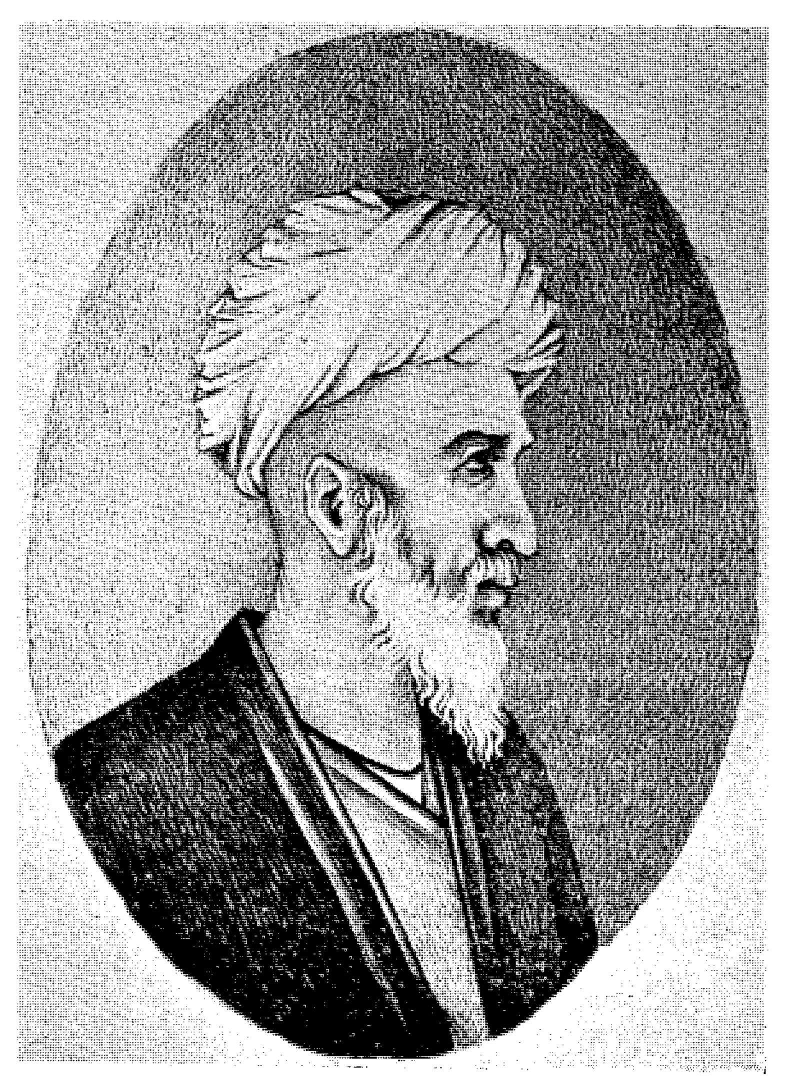
ملتزم الطبع والنشر مكتبة الخانجي

القاهرة

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

٤٠ شارع نوبار باشا (سابقا شارع الدواوين)

١٩٥١



صورة الشاعر « سعدي الشيرازى » عن كتاب « تاريخ أدبى ايران »
عصر المغول للأستاذ « على أصغر حكمت » ترجمة عن « تاريخ
الأدب الفارسى » للأستاذ براون

الاهداء

إلى ...

العزيزَيْن على نَفْسى ، القَريبَيْن إلى قلبى .

من هيّآ لى سعادة الحياة من جُهدهما .

وخفَّفا عنى آلامها بالكثير من عطفهما ،

وأغدقا عَلَىَّ فيض الحنان من قلبيهما ،

إلى والدى العزيز . . . .

و إلى روح والدتى العزيزة . . . .

إليكما معاً . . . . . . أقدم هذا الكتاب .

فهو ثمرة من ثمار رعايتكما ،

ورمز الاعتراف بفضلكما .

ابنكما الوفى

محمد موسى هنداوى

بنام خداوند جان آفرين
حكيم سخن درزبان آفرين

البيت الأول من «البوستان»

فهرست الموضوعات

ص ص

ص ص

القسم الثانى

تقـــديم

بقلم حضرة صاحب العزة أستاذى الجليل الدكتور عبد الوهاب عزام بك
سفير مصر بالباكستان

بسم الله الرحمن الرحيم

— ١ —

هذا الكتاب عن الشاعر الفارسى الكبير الشيخ سعدى الشيرازى وكتابه المنظوم « البوستان » .

وهو ثمرة طيبة من ثمرات دراسة الآداب الإسلامية الشرقية فى قسم اللغة العربية ، ومعهد اللغات الشرقية من كلية الآداب ، من جامعة فؤاد الأول إلى ثمرات أخرى أثمرتها الكلية فى عشرين عاماً .

أخرجت كلية الآداب فى هذه السنين كتباً قيمة ، وأبحاثاً مجدية ، عرضت على قراء العربية صوراً من الآداب الإسلامية غير العربية وأبحاثاً فيها . وهى آداب تصلها بالعربية صلات متينة ، فهى تستمد من العربية ومنابعها وتحدث — هى والأدب العربى — عن تاريخ واحد ، وتقرب عن عواطف متواصلة .

— ٢ —

والشيخ سعدى شاعر عظيم ، يرى بعض أدباء الفرس أنه أعظم شعراء الفارسية ، شملت نظراته جوانب الحياة كلها ، وتجلّت فى منظوماته المقاصد الإسلامية الجليلة ، والغايات الإنسانية السامية .

هو — لا ريب — من كبار شعراء الإنسانية .

— ٣ —

و إن البحث الأدبى ، ولاسيما تقصى مذاهب شاعر ، أو كاتب ، والتعريف بالبيئة التى أثرت فيه ، والمنابع التى أمدته ، لما يشق على الباحثين حتى فى أدبهم ، دب اللغـــة التى يتكلمون بهـا ، و يتعلمون ، و ينثرون ، و ينظمون ، وهو — لا ريب — أشق وأصعب مجالا ، وأبعد غاية ، وأعسر منالا ، على من يدرسون أدب لغة غير لغتهم ، وقلّ أن يمكّن لهم هذا إلا بعد طول الدرس ، وكثرة المران ، مع سلامة الطبع ، وصحة النظر . ولا بد — مع هذه كلها — من الاستعانة بالباحثين من أهل اللغة أنفسهم ، فهم أبصر بلغتهم ، وأقدر على سبر أغوارها ، و إدراك دقائقها ، والتمييز بين صوَرها ، وألوانها ، و إحساس روائحها ، وطعومها .

فالتصدى للـكتابة عن شاعر كبير كالشيخ سـعدى الشيرازى ، ومنظومة كبيرة من منظوماته ، يبشر بأن خريجى كلية الآداب مولعون بالمباحث الصعبة ، مقدمون على المطالب البعيـــدة ، و يُبين عما بلغته دراسة الآداب الشرقيـة فى هذه الـكلية من سعة ، وعمق ، مهدًا للإقبال على المطالب الصعبة ، والطموح إلى الغايات البعيدة .

— ٤ —

وقد احتمل تلميذنا الدكتور محمد هنداوى مصاعب كثيرة ،ولقى عناء كبيراً ، حين طمحت همته إلى البحث الواسع الشاق ، فاختار لرسالته الشيخ « سعدى الشيرازى » : عصره — حياته — ديوانه « البوستان »

تابع البحث سنين ؛ قرأ البوسـتان وكثيراً من منظومات الشاعر ، واطلع على ما كتبه أدباء إيران ، والمستشرقون فى تاريخ سعدى ، وعصره ، وفى أدبه ،

وكتاب البوستان خاصة ، ورجع إلى أمهات الكتب الفارسية التى يرجع إليها فى هذا الموضوع .

— ٥ —

وقد تناول فى كتابه العصر الذى عاش فيه الشاعر ، وقدم له بذكر الحوادث الهائلة التى طلع بها هذا العصر ؛ حوادث الغارات المغولية على البلاد الإسلامية ، ثم صور أحوال السياسة والحضارة فى هـذا العصر جهد الطاقة ، و بين آثار هذا كله، فى معيشة الشاعر، وفى أدبه، وتتبع ماأنشأ الشاعر فى هذه الحوادث من شعر، وما جاء فى كلامه من إشارة إليها .

وخص الإقليم الذى عاش فيه سعدى ، والدولة التى سيطرت على هذا الإقليم فى حياته ، ببحث مفصل ، فبيَّن كيف نجا إقليم فارس من غارات المغول ، وأجمل أخبار دولة آل زنكى التى أظلت فارس فى ذلك العهد ، واتصل بها الشاعر وعاش فى كنفها ، ولقى من رعايتها ما جعله ينتسب إلى أحد ملوكها فيتلقب بالسعدى انتساباً إلى سعد بن زنكى أحد ملوكها، ويقدم البوستان إلى إبنه أبى بكر بن سعد.

وذلكم بحث أدبى ، تاريخى ، قيم ، لا يظفر به الكاتب إلا بعد جِدّ ودأب .

وكذلك عنى المؤلف بتاريخ الشيخ سعدى ـ من مولده إلى وفاته ـ فلما وفَّى التاريخ حقَّه، عمد إلى « البوستان» فأطال البحث فيه ، تكلم عن نسخ الكتاب الجديرة بالثقة ، وذكر شروحه فى الفارسية والتركية ، ثم تكلم عن مقدمة الكتاب ، وأبوابه ، وقصص كل باب ، وعدد أبيات كل قصة ، والحادثة التى تضمنتها ، والإنسان الذى ذكرته .

وقد شق على نفسه بالتدقيق ، والإحصاء ، ووضع الجداول ـ فيسَّر ، لكل طالب ـ ثمرات هذا البوستان ، وقدَّم لكل باحث مفاتيح أبوابه ، فذلل صعبا ويسَّر عسيراً ، فله شكر كل معنًى بالشيخ سعدى ، و بوستانه .

وكان الدكتور هنـداوى قد اعتزم ترجمة البوستان كله إلى العربية ، ونشر الترجمة ، فعسى أن يتبع بحثه القيم عن سعدى ، والبوستان ، نشر الترجمة العربية ، ثمرة أخرى طيبة من ثمرات درس الآداب الاسلامية فى جامعة فؤاد .

والله يجزيه خيراً كِفاء ما احتمل من مشقة ، ولقي من عناء ، وما وقف على البحث والكتابة، من ، فـكره ، ووقته ، وماله ، ويوفقه لمتابعة البحث والتأليف. وهو ولى الهداية والتوفيق « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً » .

عبد الوهاب عزام

كراچى ٥ ربيع الأول سنة ١٣٧٠ هـ

١٥ ديسـمبر سـنة ١٩٥٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بالبحث

— ١ —

تعرّفتُ على هذا الشاعر الكبير منذ دراستنا فى معهد اللغات الشرقية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، وعرضتْ علينا نماذج من كتابه البوستان فكشفت لنا عن كثير من مواهب هذا الرجل .

وصح العزم لدى — فيما كان يقدر لى — أن أتناول هذا الشاعر ، وكتابه هذا بالدراسة والتحليل ، فأعرض لتلك النواحى السامية التى بدأنا نلمسها فى دراستنا ، فكان أن صح العزم على اختياره موضوعا للدراسة للحصول على درجة الدكتوراه .

والبحث عن هذا الشاعر — بل عن أية شاعر — له منهج محدود ، لا بد أن يتناول نواحى ثلاثاً :

١ — الحديث عن العصر الذى عاش فيه الشاعر من الناحية السياسية العامة والخاصة — فى الدولة والإقليم — والإلمام بالحركة العلمية فى العصر ، لبيان مدى تأثير كل ذلك فى تكييف حياة الشاعر ، وتأثيرها فى إنتاجه .

٢ — الحديث عن الشخصية بما يتناول أطراف حياتها ، ومذهبها فى الحياة ، وتحقيق ما يدور حولها من آراء وخلافات .

٣ — الحديث عن الإنتاج — كله أو بعضه — إذا كان هذا البعض مستقلا يمكن أن يستخلص منه أفكار الشاعر ، وآراؤه ، ومذاهبه .

فأما الحديث عن العصر ، فقد رأيت أن هذا الشاعر ليس مواطناً فى إمارة فارس وحدها ، ولا فى دولة إيران كلها ، بل مواطناً عالميا ـ إن صح هذا التعبير ـ فكان لا بد لى أن أصور حالة إيران كلها فى ذلك العصر ، بل الحياة فى محيط البيئة الإسلامية التى كانت تجاور إيران شرقا ، وغربا ، والتى كان لها صدى كبير فى حياة الشاعر ، وفى تلوين إنتاجه .

ومن هنا كان لزاما على — فى مدخل الموضوع — أن أصور بقدر الإمكان أهم الأحداث السياسية ، فى تلك البيئة عامة ، وأن ألتقط هذه الصور من الكتب المعاصرة التى تصدت لهذا ، كى أرسم صورة تقريبية للحياة العامة فى ذلك العصر .

وكان من الواجب كذلك — حين أعالج هـذا الموضوع — أن أتجنب الدخول فى تفاصيل الحروب الطاحنة ، التى شنها المغول على تلك المواطن ، وأن أتجنب ذكر الأسباب والمسببات ، والخطط العسكرية ، وطريق الجيوش ، ونتائج المواقع .فان كل ذلك مما يعنى المؤرخ السياسى ويساير طبائع المنهج المألوف لديهم .

أما مهمة الدارس للأدب ، أو لعصر من العصور ، من وجهة نظر الأدب فهى مهمة يسيرة فى ظاهرها ، ولكنها عسيرة فى داخلها . ذلك لأنه إنما يتصدى لدراسة أهم الأحداث السياسية — إن وجدت — أو الأحداث العامة ، ومدى تأثيرها فى حياة الأدب ، أو فى حيـاة الأديب ، والاجتهاد فى ربط الحوادث بالإنتاج إن كان لهـا صدى فيه .

* * *

وبهذا مضيت فى الفصل الأول،صورت بقدر الإمكان ،حالة البيئة قبيل الغزو وحالتها فى مختلف المواطن خلال الغزو ، وتعرضت لأهم الحوادث التى حدثت وكان

لها تأثير فى إنتاج الشاعر ، وعقبت على كل ذلك بصور من شعره فى كل حادثة بقدر الإمكان، و بذلت جهداً لتصحيح موقف بعض المؤرخين من حوادث المغول فى أرض الخلافة الإسلامية ، وما كانوا يسندونه خاصة إلى قائد الجيوش — هولاكو — فى تحطيم الخلافة ، وفى مصير مكتبات بغداد ، وفَصلْتُ فى هذا مسترشداً بما كتبه مختلفو المؤرخين من الإيرانيين القــدماء ، وما كتبه بعض العرب ، والمستشرقين .

* * *

وفى فصل الحضــارة ، أثبت من تاريخ المغول عند مختلف المؤرخين من الغربيين وغيرهم ، أنهم لم يـكونوا أعداء للحضــارة بالمعنى الذى عرف عنهم وتتبعت بعض ألوان الحضارة ، وخاصة ما كان يتصل منها بتشجيع العلوم والعلماء والنهوض بالإنتاج العلمى ، وما أحاط المؤرخين من بسطة الحياة ، حتى ظهر فى هذا العصر كثير من أعلام التاريخ الذين مكنت لهم الدولة فبلغ بعضهم مناصب الوزارة .

* * *

فلما انتقلت إلى الفصل الثالث من هذا الباب ، وهو دراسة الأسرة الحاكمة فى إمارة فارس ، التى كانت عاصمتها شيراز — موطن الشاعر — التزمت المنهج التاريخى التفصيلى لأعضاء هذه الأسرة ، ولكنى أفضت القول فى دراســة ألوان الحياة من الوجوه الهامة ، فى عصر الأمير الذى عاش الشاعر فى كنفه ، و بخاصة الحركة العلمية فى عهده ، ومدى تأثير لون الحياة نفسها فى إنتاج الشاعر ، وحققت فى هذا الفصل بعض وجوه الخلاف بين المؤرخين ، ورجال الأدب ، فيما كان يتصل بالشاعر ، وحكام هذه الإمارة .

وكان النظر فى هذا الباب جديراً بهذا كله ، ذلك لأنه يحيط بألوان أساسية من الحياة السياسية ، والحضارة ، لتشخيص حياة الشاعر وإنتاجه على ضوئها ، تشخيصاً قريباً من الصواب ، وكان التماس تأثيرها فى هذا الإنتاج مما أطال النظر كذلك ، ولكنه كان لا غنى عنه .

— ٣ —

وفى الباب الثانى — وهو الخاص بحياة الشاعر نفسه — تتبعت أطراف حياته منذ مولده حتى نهايته ، وفصلتُ — جهد الطاقة — فى كثير من الخلاف حول المسائل الهامة ، التى لا تزال موضع جدل ومناقشة ، وحاولت — فى كل ذلك — أن أرسم صورة صحيحة ، أو قريبة من الصواب ، لحياة هذا الشاعر ، وتطورها ، وتأثرها بلون الحياة التى كان يعيش فيها : فى منزله ، وفى موطنه ، وفى إمارته وفى دولته ، وأخيراً فى البيئة الإسلامية التى كانت تحتويه ، ويجوب بعض نواحيها والتى وجهت الطريق لكثير من الأفكار التى أخذ ينظمها فى كتابه البوستان ، حتى أخرجت منه شاعراً من أكبر شعراء الأخلاق ، ومن أعظم شعراء الإنسانية بوجه عام ، تشيد بذكره — حتى اليوم — البيئة الإسلامية كلها ويشارك في الإشادة به الذين عنوا بدراسة الاستشراق فى الغرب .

— ٤ —

أما الباب الثالث وهو البحث فى ديوانه — أو مثنويه البوستان — فقد تخيرته من إنتاج الشاعر جميعه ، ذلك لأنه أهم كتاب يعرض للدراسة الأخلاقية ، ويوضح كثيراً من مذاهب الشاعر ، وآرائه ، فهو — وحده — جدير بالدراسة ، وقد قسمت البحث فيه إلى قسمين أساسيين .

(ا) بحث تاريخي .

(ب) دراسة تحليلية .

وقد شمل البحث فى الأول كل ما أمكن أن يدور حول تاريخية البوستان . عن الباعث لهذا اللون من الشعر ، وعن تسميته ، ومكانته بين المثنويات ، وأهم النسخ الموجودة ، والفروق بينها ، وعن أبوابه وموضوعها ، وعن طريق الشاعر فى أداء قصصــه .

أما الدراسة التحليلية، فقد كانت عوضاً عن الترجمة الصامتة . ذلك أن الترجمة — وحدها — ترضى حاسة الأديب ، قبل أن تسد حاجة الباحث العلمى، كما يشير إلى ذلك أستاذنا معالى الدكتور طه حسين باشا ، فيما قدم به غزليات حافظ الشيرازى . فالترجمة — من هذه الناحية — عمل تكميلى لا أساسى . ذلك لأننا بصــدد بحث علمى يطــالبنا أن نكشف عما فى طرفى الكتاب من أفكار ، وإذا فُهمتْ المقاصد من أبواب الكتاب ، كان الرجوع إلى الترجمة أمراً يسيراً ، على أن الترجمة كانت قد تمت — بطبيعة الحال — لتكون أداة للبحث عند النظر فى ذلك التحليــل ، وسأقوم — عما قريب — بعرضها على القراء فيما أشــار إليه أستاذى الدكتور عزام بك .

وقد شملت الدراسة التحليلية ، تحليل المقدمات وما تطويه من أفــكار ، ثم تحليل القصص التى تدور حول أشخاص تاريخيين أو على ألسنة الحيوان ، فيما تضمنته أبوابه المختلفة .

وكان لابد أن أعيِّن حدود القصة قبل الحديث عن أفكارها أو موضــوعها ولهذا وضَــعتُ الجداول ، ثم اتبْعتُ تحليل القصص بالإشارة إلى الأفكار العامة التى نادى بها الشــاعر فى مختلف قصص الباب كله .

والقصص التي عرضنا لتحليلها هى أقوى القصص — لا نزاع — فى إثبات أفكار الشاعر وآرائه ، وإلا فكيف يهتم بأن يسند أدوارها أعظم الشخصيات الملائمة لها ؟؟ كما أنها القصص التي اهتم لها الدارسون من الغرب والشرق ، بل اهتم لها المصورون العالميون ، فصوروا حوادث بعضها . كما نلاحظ ذلك فى إحدى النسخ القيمة المخطوطة بدار الكتب المصرية ، والتى على بعضها توقيع المصور الإيرانى الخالد — بهزاد — والتى زادت من قيمة المخطوطة فعرض فيها مبلغ خيالى بلغ ٣٠ ألف جنيه ، وقد نقلنا بعضها فى هذا الكتاب .

* * *

هذه هى دراستى للموضوع ، أقدّمها اليوم ، وأقدم معها هذه الألوان التى كشفت عن الشاعر الكبير « سعدى الشيرازى » . ولعلى أكون قد وفقت فى أن أقدم للقارىء الكريم — وكل ذى رغبة فى التماس شىء من آثار الشاعر — صورة صادقة تحبب إليه التماس الترجمة الكاملة لهذا الكتاب التى سأنشرها عما قريب ، والتى سأتبعها بدراسة وترجمات أخرى لبقية آثاره — منثورة ومنظومة — لعلى أكون قد ساهمت بنصيبى فى نقل تراث أجنبى إلى لغتنا ، وإضافة ثروة جديدة إليها ، عن شاعر من كبار شعراء الإسلام . ولعلى أكون قد ساهمت بنصيبى كذلك فى إحياء هذا الشاعر .

والله أسأله التوفيق والسداد ؟ **المؤلف**

٢٢ ربيع الآخر سنة ١٣٧٠ هـ

٣٠ ينــــاير سنة ١٩٥١ م

مقدمة

لمحة عن إيران ووضعها السياسى فى القرن السابع الهجرى

تعتبر المنطقة التى تقع فيها إيران إقليما قائماً بذاته ، ولهـذا الإقليم مقوماته الطبيعية التى تجعل منه وحدة مستقلة ، وقد هيأ له موقعه وسهولة مسالكه منذ القدم مكانة جعلته بمثابة الجسر يعبر عليه الغزاة من الشرق إلى الغرب و بالعكس .

فاجتازه الإسكندر الأكبر فى فتوحاته إلى الشرق قبل الميلاد ، ومضى عليه العرب فى غزواتهم حتى الهند فى القرن الأول الهجرى ، واجتاحه المغول خلال القرن السابع الهجرى ، ونفذوا منه إلى الشام وأوربا فى الغرب .

أما من الناحية السياسـية فى مطلع ذلك القرن فقد كان ينقسم إلى قسـمين أساسـيين :

الجزء الشمالى ، وتدخل فيه منطقة خراسان ، وكان أغلبه تحت حكم « ملوك خوارزم » و بعضه تحت حكم « الإسماعيلية » فى منطقة صغيرة جنوبى بحر قزوين تسمى « بلاد الجبل » .

والجزء الجنوبى منه وأهم ما فيه « ولاية فارس » وكانت مستقلة ، و بعض ولايات أخرى صغيرة .

وكان يجاور هذين القسمين من الغرب بلاد الخلافة الإسلامية .

و يمكن أن نصور حال البلاد خلال القرن السابع الهجرى بما يأتى :

كانت بلاد إيران فى مستهل ذلك القرن تتمتع برخاء فى العيش ، وازدهار فى الحياة ، وتقدم فى العلوم ، ورقى فى كل ألوان الحضارة . تزخر مدنها بوفرة من

أجلة العلماء ، ويتسابق حكامها وولاتها فى رعايتهم ، وتهيئة الحياة رخية هانئة لهم.

وكان الموطن الإسلامى موطناً عاماً لكل مواطن فى أية بيئة من بيئاته ، يتنقل فيها كيف يشاء ، ويحل فيها متى شاء، تتلقاه مدنها وأهلوها وكأنما يحل معهم وطناً وينزل عليهم أهلا . لا فرق فى هذا بين من كان من أبناء الشرق أو من أبناء الغرب .

وفى أوائل هذا القرن فجىء العالم الإسلامى فى — الجانب الشرقى منه — بسيل جارف اجتاح أقاليمه ومدنه بظهور المغول ، ومسيرهم نحو البلاد الإسلامية المجاورة لهم .

وكانت أهم دولة اصطدموا بها فى الطريق دولة « ملوك خوارزم » وكانت تبسط سلطانها على بلاد ما وراء النهر والجزء الشمالى من إيران ، وامتد حكمها من سنة ٤٩١ هـ حتى سنة ٦٢٨[1] هـ .

وكان يقوم على حكمها السلطان « محمد شاه » حين فجأه المغول ، ولم يحتمل هذا السلطان ضغط هجماتهم المتواصلة ، وما زال يفر من مكان إلى مكان وهم فى أعقابه حتى لجأ أخيراً إلى جزيرة ببحر قزوين ومات بها فى نفس العام الذى هاجمه فيه المغول وهو سنة ٦١٧ هـ . فتولى الدفاع بعده ابنه « جلال الدين منكبرتى » وقاد الجيوش فى بسالة وشجاعة قل أن يوجد لها نظير .

ولا نستطيع ونحن نسجل له بعض مآثر تاريخه أن ننسى ذلك الموقف الذى وقفه جلال الدين نفسه وتلك البطولة التى مثلها حين عيل صبره ، وضاق به المجال، ولم يبق إلا أن يسقط أسيراً أو قتيلا ، فألقى بنفسه من مرتفع على شاطىء نهر السند ، وهو على صهوة جواده ، يبغي النجاة إلى لقاء جديد ، بعد أن التقى بفئة

---

(١) حمد الله المستوفى . تاريخ گزيده ص ٤٨٦ طبعة جب التذكارية .

قليلة من رجاله بجيش المغول اللجب ، وأوشك أن ينتصر عليهم بهذه الجماعة ، لولا سوء الحظ ونفاذ المقدور ، فكان عملاً فدائياً أقرب إلى الأسطورة منه إلى الحقيقة[1] .

ومع ذلك لم تحطم أعصابه هذه الحادثة ومضى يحمل نفسه بيده ، يذيقهم العذاب و يذيقونه ، حتى قضى الله أمراً كان مفعولا ، فتلاشت قوته و بادت دولته سنة ٦٢٨ ﻫ[2] .

وفى الجزء الجنوبى الغربى من إيران كانت تقوم أكبر ولايات الجنوب وهى « ولاية فارس » كان على حكم هذه الولاية فى ذلك العهد أمير من تابكة آل سلغر هو « سعد بن زنگى » الذى حكم ما بين سنة « ٥٩١—٦٢٣ﻫ[3] » فتمكن — ببعد نظره — أن يحافظ على استقلال ولايته والنجاة بها بعيداً عن ذلك الغزو المرير ، ورضى أن يحافظ على استقلاله الذاتى ، والاعتراف به مقابل دفع الجزية لهم ، فأمن بهذا شر ذلك المصير الذى آلت إليه إمبراطورية «ملوك خوارزم» .

كان يجاور هذين القسمين من الغرب ، بقايا ممتلكات الخلافة فى العراق ، وكان يقوم عليها فى ذلك الوقت « الخليفة المستعصم » .تجنب الخليفة سياسة المسالمة وارتكب كثيراً من الأخطاء التى سنعرض لها ، مما أدى إلى القضاء على خلافته وعلى دولته سنة ٦٥٦ ﻫ .

و بجانب ذلك كانت هناك ولايات أخرى بعيدة عن المحيط الذى سنعرض له فى دراستنا ، أصاب بعضها غزو المغول وطواها فيما طوى ، وكان أهمها منطقة

---

(١) انظر محمد المنشى النسوى «سيرة جلال الدين منكبرتى» ص ٨٥ طبعة باريس وانظر تصوير القصة فى كتاب الأوابد للدكتور عزام بك .

(٢) ابن الأثير ج ١٢ ص ٢٣٥ المطبعة الأزهرية .

(٣) شيرازنامه ص ٥٢ و ٥٤ طبعة طهران .

« قلاع الاسماعيلية » فى « بلاد الجبل » جنوبى بحر قزوين ، وقد أقاموا حكومتهم فى تلك المنطقة ما بين سنة ٤٨٣ إلى ٦٥٤ [1] هـ . استطاع المغول أن يتغلبوا بدورهم أيضاً على تلك الطائفة ، حتى إذا فرغوا منها سنة ٦٥٤ هـ تقدموا إلى العراق ، فإذا انتهوا منه مضوا فى طريقهم إلى الشام حيث التحموا بالمصريين وأمراء الشام فى عدة مواقع ، كان من أهمها موقعتان عظيمتان هما موقعة «عين جالوت» سنة ٦٥٨ هـ [2] . وموقعة « مرج الصُّفر » التى حدثت سنة ٧٠٢ هـ [3] . وقد كتب النصر فى هاتين الموقعتين للمصريين ، فارتد المغول على أعقابهم ، ثم تتابع الضعف عليهم ، حتى انقضت حكومتهم التى أسسوها شمالى إيران فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى .

هذا تصوير سريع لسير هذه الحركة التى استغرقت قرابة قرن من الزمن ، هو القرن السابع الهجرى من بدئه تقريباً حتى نهايته ، وأخذت جزءاً من أوائل القرن الثامن .

لكن بالرغم من هذا لم يخل عصر المغول من جانب مشرق بإيران ، فسرعان ما نهض العالم من كبوته ، كما اندمج هؤلاء فى الجماعة الإسلامية بعد توطنهم بينها واتصالهم بأبنائها ، فأخذوا فى بناء الحضارة من جديد ، وارتقت العلوم فى هذا العهد ، واستخدموا كثيراً من أبناء تلك الأمة فى مناصب الدولة وكراسى الوزارة وكثيراً ما كانوا يأخذون بمشورتهم ويعملون بآرائهم ، مما كان لكل هذا تأثير كبير على العلوم والحضارة بل على الحياة العامة كذلك مما سنفصله فيما بعد .

---

(١) تاريخ گزيده ص ٥١٧

(٢) أبو الفداء — المختصر فى تاريخ البشرج ٣ ص ٢١٤ وابن الفوطى فى الحوادث الجامعة ص ٣٤٤ وان كان يجعل هذه الحادثة سنة ٦٥٩هـ .

(٣) أبو الفداء ج ٤ ص ٥٠

عاصر الشاعر معظم هذه الأحداث ، فولد فى طليعة القرن السابع الهجرى ، وشاهد ما حل بالعالم الإسلامى من تخريب ودمار ، وتحركت نفسه للكوارث التى ألمت به ، وخاصة ما حل بالخلافة الإسلامية ، وما أصيبت به بغداد من أهوال ، واتصل بكبار رجال الحكومات فى هذا العصر ، وكان لكل ذلك أثر فى مجرى حياته وفى ألوان شعره مما سنعرض له بعد .

الباب الأول

الفصل الأول

القرن السابع الهجرى من الناحية السياسية العامة
فى إيران وبلاد الخلافة وكيف صوره المؤرخون؟؟

حال البلاد قبل الغزو :

والرجوع إلى تصوير المؤرخين لحال البلاد فى ذلك العصر يعطينا فكرة عن مدى الرخاء ، وسعة العيش وتقدم العلوم ، ورفاهية الحياة .

وينقل ابن خلكان فى كتابه « وفيات الأعيان » نص خطاب بعث به « ياقوت الحموى » إلى القاضى الأكرم « أبو الحسن الشيبانى » وزير حلب يصف فيه بلاد خراسان ، وما كانت عليه قبيل غزو المغول نقتطف منه قوله :

« كانت والله مورقة الأرجاء رائقة الأنحاء ذات رياض أريضة وأهوية صحيحة مريضة » ، ثم يمضى فى وصف رقيق حتى يقول عنها إجمالا « وجملة أمرها أنها كانت أنموذج الجنة بلا مين . فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ العين » .

ثم يصور فرار « السلطان محمد » منها ورحيله عنها بقوله « كم تركوا فيها من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين »[1]

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢١٣ طبعة الحلبى .

ويشارك الجويني — عطا ملك — فى كتابه « جهان گشاى » « ياقوتا » فى وصفه لها كذلك قبل الغزو المغولى بقوله عنها :

« مطلع السعادة والمبرات ، وموضع المراد والخيرات ، ومنبع العلماء ، ومجتمع الفضلاء ، ومربع العظماء ، جاء عنه فى الخبر ، العلم شجرة أصلها بمكة وثمرها بخراسان» [1] .

ويعطينا « ياقوت » فكرة صادقة عما لقيه بإحدى مدن ذلك الإقليم وهى مدينة « مرو » وما وجده فيها من المكتبات الغنية ، التى كان يتردد عليها ، والتى انتفع بها كثيراً فى مؤلفاته . يرد ذكر هذا فى موضعين أحدهما فى كتابه « معجم البلدان » والآخر فى خطابه السابق الذى أثبت نصه « ابن خلكان » .

فأما ما ورد عنها فى كتابه « المعجم » [2]، ففى قوله عن مرو « إن فيها عشر خزائن للوقف ، لم أر فى الدنيا مثلها كثرة وجودة. منها خزانتان فى الجامع ، إحداها يقال لها العزيزية ، وفيها اثنا عشر ألف مجلد ، والأخرى يقال لها الكمالية وغيرها » إلى أن يقول بعد ذلك :

« وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلى منها مئتا مجلد ، وأكثرها بدون رهن » ثم يختم عبارته بقوله: « وأنسانى حبها كل بلد وألهاني عن الصحب والولد وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره فهو من تلك الخزائن » وكان « ياقوت » قد تركها سنة ٦١٦ هـ [3] .

ويقول عنها فى سياق الكلام من خطابه السابق فى « وفيات الأعيان » .

وكان المقام «بمرو الشاهجان» المفسر عندهم بـ «نَفَس السلطان» . فوجد

---

(١) جهانگشاى ج ١ ص ٤

(٢) معجم البلدان . مدينة مرو ص ٣٥

(٣) توفى ياقوت سنة ٦٢٦ هـ — انظر ابن خلكان ج ٢ ص ٢١٤

بها من كتب العلوم والآداب ، وصحائف أولى الأفهام والألبــاب ، ما شغله عن الأهل والوطن ، وأذهله عن كل خل صفى وسكن ، فظفر منها بضالته المنشودة ، و بغية نفسه المنقودة ، فأقبل عليها إقبال النهم الحريص ، وجعل يرتع فى حدائقها و يستمتع بحسن خلقها وخلائقها » إلى أن يقول: « وأعتقد المقام بذلك الجناب إلى أن يجاور التراب » .

و بمثل هذا التصوير الرقيق يشارك « الجوينى » « ياقوتا الحموى » أيضاً فى تصويره لها ببيتين رقيقين من الشعر فى قوله :

بــلد طيب ورب غفــور   وثرى طينه يفوح العبــيرا
وإذا المرء قدم السير منــه   فهو ينهاه باسمه أن يســيرا

وفى عبارته « فهو ينهاه باسمـــه » — إشارة لطيفـــة إلى معنى الـكلمة وتركيبها . فهي تتكون من الميم التى تؤدى معنى النهى فى الفارسية و « رو » من مصدر « رفتن » أى الذهاب . فمعنى كلمة « مَرَوْ » لا تذهب ، وذلك إشارة إلى قوله فهو ينهاه باسمه .

هجوم المغول وكيف صوره المؤرخون فى مملكة خوارزم وايران الشمالية ؟

لا نعرض هنا لذكر أسباب هذا الهجوم بالتفصيل ، ولا للعلاقات التى كانت بينهم و بين البلاد الإسلامية المجاورة ، فلسنا فى حاجة إلى ذلك ، كما أن البحث لا يدعو إليه .

ونكتفى بأن نورد ما سجله « ابن الأثير » المعاصر لهذه الأحداث فى ذكر الأسباب التى دفعت المغول إلى الهجوم على بلاد « خوارزم مشاه » ، ثم إلى غيرها.

ففى أحداث سنة ٦١٧ هـ تحت عنوان «ذكر خروج التتر إلى تركســتان ،

وما وراء النهر وما فعلوه »[1] يقول « وكان السبب فى ظهورهم أن ملكهم ويسمى جنگيزخان المعروف بتموجين كان قد فارق بلاده ، وسار إلى نواحى تركستان ، وسير جماعة من التجار الأتراك ، ومعهم شيء كثير من النقرة والقندر وغيرها إلى بلاد ما وراء النهر — بخارى وسمرقند — ليشتروا له ثياباً للكسوة ، فوصلوا إلى مدينة من بلاد الترك تسمى « أوترار » وهى آخر ولاية « خوارز مشاه » ، وكان له نائب هناك فلما وردت عليه هذه الطائفة من التتر ، أرسل إلى « خوارز مشاه » يعلمه بوصولهم ، ويذكر له ما معهم من الأموال ، فبعث إليه « خوارزمشاه » يأمر بقتلهم ، وأخذ مامعهم من الأموال وإنفاذه إليه ، فقتلهم وسير مامعهم ، وكان شيئاً كثيراً ، فلما وصل إلى « خوارز مشاه » فرقه على تجار بخارى وسمرقند ، وأخذ ثمنه منهم » .

هذا ما أورده « ابن الأثير » فى ذكر الأسباب ، يتضح منه — إلى أى حد — ترجع أسباب هذه الحرب إلى السلطان « محمد خوارز مشاه » .

ونستطيع أيضاً أن نعتمد على ما ذكره هذا المؤرخ فى تصوير هجوم المغول ، وحوادثهم فى بعض المدن التى استولوا عليها ، وقد ظفرت هذه الصورة بتقدير عظيم عند كثير من المؤرخين الذين عرضوا لدراسة هذا العصر فى بعض نواحيه[2] .

ويبدو مدى تأثير تلك الصورة فى نفسية « ابن الأثير » حتى أنه تردد أن يسجلها ، ولكنه أذعن أخيراً تحت مشورة أصدقائه .

وترد هذه الصورة فى فصل له تحت عنوان « خروج التتار إلى بلاد الإسلام[3] » يقول فيه « لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة ،

(١) ابن الأثير ج ١٢ ص ١٦٦

(٢) G. Brown: A Literary His. of Persia. v. 2. pp. 427-430

Arnold: The Preaching of Islam.

انظر ترجمته « الدعوة إلى الاسلام » ص ١٩٠ للدكتور حسن إبراهيم وآخرين .

(٣) ابن الأثير ج ١٢ حوادث سنة ٦١٧ هـ .

استعظاماً لها ، تاركاً لذكرها ، فأنا أقدم إليه رجلا وأؤخر أخرى ، فمن ذا الذى يهون عليه ذلك ، فياليت أمى لم تلدنى ، وياليتنى مت قبل هـذا وكنت نسياً منسياً » ويذكر أنه يتردد فى ذكر تفاصيلها ، إلا أنه استجاب تحت مشـورة أصدقائه ، ثم يمضى فيسجل .

« هذا الفعل يتضمن الحادثة العظمى ، والمصيبة الكبرى ، التى عفت الأيام والليالى عن مثلها ، عمت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قال قائل إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن ، لم يبتلوا بمثلها لـكان صادقاً ، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها » .

ثم يقارن بينها وبين ما سلف من أحداث التاريخ التى أحدثت هزات عظيمة حتى عهـده ، ويخص بالذكر ما فعله بختنصر ببنى إسرائيل من القتل والتشريد ، وتخريب بيت المقدس ، ثم يمضى فى عرض البلاد التى تقدموا إليها ، وتم فتحها فى حياته[1] بقوله :

« فان قوما خرجوا من أطراف الصين ، فقصدوا بلاد تركستان ، مثل كاشغر وبلاسغون، ثم منها إلى بلاد ماوراء النهر ، مثل سمرقند وبخارى وغيرها، فيفعلون بأهلها ما نذكر ، ثم تمر طائفة منهم إلى خراسان ، فيفرغون منها ملكا وتخريباً وقتلا ونهباً ، ثم يتجاوزونها إلى الرى وهمذان وبلاد الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق ، ثم يقصدون بلاد آذربيجان وأرانية ويخربونها ، ويقتلون أكثر أهلها ، ولم ينج إلى الشريد النادر » .

ومن المؤرخين المعاصرين — أيضاً — لهذه الأحداث ، والذين كان لهم مركز ممتاز فى دولة ملوك خوارزم « محمد المنشى النسوى » المتوفى سنة ٦٣٠ هـ

(١) انتهى ابن الأثير من كتابه بعد إتمام ج ١٢ حوادث سنة ٦٢٨ هـ وتوفى سنة ٦٣٠ هـ انظر ترجمة حياته فى ابن خلكان ج ١ ص ٣٤٧

وصاحب « سيرة جلال الدين منكبرتى » يعرض أيضاً باختصار صورة لهذا الغزو فى قوله :

«وهل بلغك أن طائفة خرجت من مطلع الشمس ، فقطعت الأرض إلى باب الأبواب[1] ، فعبرت بلاد قفجاق وشنت على قبائلها غارة شعواء ، وخبطتها بالسيوف خبط عشواء ، فلم تدرس أرضاً إلا نهبتها ، ولا بلداً إلا خربتها ، ثم رجعت إلى صاحبها من طريق خوارزم بعد هذه الدورة سالمة غانمة ، وقد أهلكت حرث البلاد ونسلها. إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»[2] .

ويغنينا « الجويني » عن الإطالة فى التعبير بكلمات قصار ، ولكنها تدل دلالة قوية على تصوير هذه الحادثة ونتائجها . وذلك فى عبارته التى أوردها على لسان أحد أبناء بخارى ، الذين فروا من هول الغزو ، وقد سئل عما شاهده فأجاب بالعبارة الآتية :

« آمدند ، وكندند ، وسوختند ، وكشتند ، وبردند ، ورفتند [3] » أى جاءوا ، وهدموا ، وأحرقوا ، وقتلوا ، ونهبوا ، وذهبوا .

وهذه العبارة مقابلة تقريباً لما ذكره « ابن الأثير » فى قوله من عبارته السابقة : « فيفرغون منها ملكا ، وتخريباً ، وقتلا ، ونهباً» .

وظل صدى عبارة « الجوينى » يتردد بين كثير من المؤرخين الذين جاءوا بعده فأشار إليها باختصار صاحب « تاريخ گزيده[4] » من مؤرخي القرن الثامن الهجرى . وترجمها سجعاً مؤرخ عربى فى القرن العاشر هو « أبو العباس أحمد

---

(١) مدينة تقع على الشاطىء الغربى من بحر قزوين .
(٢) سيرة جلال الدين منكبرتى ص ٢٤
(٣) جهانگشاى ج ١ ص ٨٣
(٤) تاريخ گزيده ص ٥٧٤

ابن يوسف الدمشقى الشهير بالقرمانى[1] » . فى قوله « هجموا، وهدموا ، وأحرقوا، وأزهقوا ، ونهبوا ، وذهبوا » ..

ومن الظواهر التى تسترعى أنظارنا بالإضافة إلى ما تقدم من تصوير المؤرخين لرفاهية الحياة ، وازدهارها بهذه الأقاليم، ماذهبوا فيه مذهب المغالاة فى تقدير عدد السكان فكان سكان كل من بخارى وسمرقند يجاوز المليون[2] . كذلك يذكر «براون» نقلا عن «رشيد الدين» « أن الجيش الذى حاصر مدينة « خوارزم » كان تعداده خمسين ألفا،قتل كل واحدمنهم أربعة وعشرين سجيناًأومحاصراً[3] ».

كما يقول آرنولد « إن جيش المغول بعد أن تحول عن هراة خرج أربعون من أهلها من مخبئهم فراراً من الموت ، وكان هؤلاء التاسعون هم البقية الباقية من سكانها الذين يربو عددهم على مائة ألف[4] . »

ويذكر الجوينى فى فصل له عن أحوال مدينة مرو يمتد إلى الثلاثين صفحة يذهب فيه إلى أن عدد القتلى فى تلك المدينة بلغ مليونا وثلثمائة ألف قتيل[5] .

على أن هناك ظاهرة أخرى، تلفت أنظارنا كذلك هى أنهم — منذ فتوحاتهم الأولى — كانوا يرغبون فى معرفة الطبقات التى يأسرونها ، وتمييزها عن بعضها ، و إحاطة رجال الفن منهم برعايتهم الخاصة ، أما الجنود فإنهم كانوا يلقون شر المصير.

يقول ابن الأثير فى عبارة له « أمر چنگيزخان أن يكتبوا له أسماء تجار البلد ورؤسائه وأرباب الأموال والصنائع فى جريدة ليعرضوا عليه » ثم يستطرد

---

(١) انظر كتابه — أخبار الدول وآثار الأول . طبع بغداد ص ٨٦

(٢) جهانگشاى ج ١ ص ٩٤

(٣) G. Brown : A Literary His. of Persia. v. 2. p. 438
وجهانگشاى ج ١ ص ١٠٠ — ١٠١

(٤) الدعوة إلى الاسلام ص ١٩٠ . ترجمة الدكتور حسن إبراهيم وآخرين .

(٥) جهانگشاى ج ١ ص ١٢٨

فى عرض ما انتهى إليه الأمر بقوله « فلما وقف على النسخ أمر أن يخرج أهل البلد منه « مرو » ولم يبق فيه أحد ، فجلس على كرسى من ذهب ، وأمر أن يحضر أولئك الأجناد الذين قبض عليهم ، فأحضروا وضربت رقابهم»[1] .

وربما جد من الأسباب — لدى المغول — ما يحملهم على المغالاة ، وارتكاب الفظائع فى الاستيلاء على المدن والتنكيل بأهلها ، وكان من أهم ذلك أن يتعرض أحد أمرائهم أو مشاهير قادتهم إلى القتل . فيذكر صاحب « سيرة جلال الدين منكبرتى » ما فعلوه فى مدينة نيسا بور ، وقد قتل فيها أحد أمرائهم قوله « قصدوا نيسابور فى عامتهم ، ليذيقوا أهلها نكال طامتهم ، حتى إذا قاربوها خرج أهلها مناوشين ، فأصابت صدر تفجاق اللعين نشابة تمكنت من محل سره فانتقل إلى نار الله الموقدة » .

ثم يمضى فى تعداد بعض الأساليب الحربية وأسلحتها التى استعملوها فى حصارهم لتلك المدينة مما كان معروفاً فى عصرهم وذلك فى قوله « حتى أزاحوا عللهم بها فى المتاريس ، والدبابات ، والمجانيق ، والجملونات ، فساقوا إليها ونصبوا فى نهارهم ذلك مائتى منجنيق مكملة الأسباب، فرموا بها واستولوا عليها بعد ثلاثة أيام» ثم يستطرد فيعرض لأسماء كثير من الأقاليم والمدن التى فتحوها فى حياته[2] وذلك فى قوله :

« فهذا قياس مطرد فى سائر مدن خراسان وخوارزم والعراق ومازندران وآذربيجان والغور وغزنه وباميان وسجستان إلى تخوم الهند ، فلو ذكرت مفصلة لم يتغير فيها إلا اسم المحاصِر والمحاصَر فلا حاجة إلى التطويل» [3] .

ويذكر « براون » أنهم فعلوا فى مدينة « باميان » مثلما فعلوا بمدينة نيسابور

---

(١) ابن الأثير ج ١٢ ص ١٨١ . المطبعة الأزهرية .
(٢) توفى هذا المؤرخ سنة ٦٣٠ هـ .
(٣) سيرة جلال الدين منكبرتى ص ٥٣ و ٥٤

بعد أن قتل أهلها أميراً مغولياً فدمروها عن آخرها حتى بقيت خالية من السكان لمائة سنة بعدها [1] .

هذا تصوير سريع أشار إليه المؤرخون المعاصرون لهذه الأحداث ، تبين منه إلى أى حد يصـــــورون رفاهية الحياة فى تلك البلاد قبـل الغزو ، و إلى أى حد يصـورون ماعانته تلك المدن وسكانها وكيف احتملت مرارة ذلك الغزو الفظيع .

* * *

الشاعر وتصويره لهذه الأحداث :

لم تمض هذه الكوارث دون أن تؤثر فى نفسية الشاعر ، فعرض صداها فى كثير من أشعاره ، تردد فى مناسبات مختلفة ، لم يعرض لها عرضاً مستقلا .

وتصوير الشاعر لهذه الأحداث مهما يكن فى مناسبته ، أو فى أسلوبه ، يعطى أيضاً صورة لما كان عليه العالم الإسلامى فى ذلك الوقت من اضطراب ومحن ألمت به .

ونستطيع أن نأخذ تصويره لهذه الحوادث من أربعة مواضع :

أولا — فى كتابه « بوستان — باب الرضا — » فى القطعة الثالثة . يعرض الشاعر لقصة بطل من المحاربين فى مدينـة « أصفهان » ، يحدثه عن شجاعته ، وبسالته فى حرب التتار . ويورد فى الحديث بعض أسلحة الحرب وملابسهم فى أزمانهم ، كما يصف معركة من المعارك .

يدور مغزى القطعة حول « القضاء والقدر » ، وأن القضاء إذا لم يسعف الإنسان فلن تسعفه شجاعته وقوته ومعداته . يجرى الحديث بينهما فى سؤال الشاعر له .

---

(١) G. Brown : A Literary History of Persia v. 2, p. 439.

— قلت له ، أيها السيد الذى كان يصيد الأسد المصورا . . .
ماذا حل بك حتى صرت كالثعلب الهرم . . . ؟

— تبسم ضاحكا ، ثم قال ، منذ تقاتلنا مع التتر .
أخرجت من رأسي حديث الظفر . . . . .

— رأيت الأرض ، والرماح المشرعة فيها ، كأنها زرع من غاب .
والأعلام المرفوعة فوقها كأنها نار ذات لهب .

— انهم طائفة تصرع النمور ، وفى قوة الأفيال .
مدرعين بالحديد من رؤوسهم حتى حوافر الخيل .

— وحين لمحنا الجيش يثير الغبارا .
اكتسينا بالدروع واتخذنا قلانسا المغافرا .

— وأثرنا الجياد العربية عليهم كأنها السحاب .
وصببنا السهام الفولاذية عليهم كأنها المطر .

— وصارت الأرض ، من زرقة الغبار فوقنا كأنها سماء .
تلمع فيها السيوف والخوذات وكأنها نجوم .

— كنا نكاد نخرق الشعر بالسهام والأسنة .
لكن لما لم يكن لنا حظ ولينا الأدبارا .

— لما كان الطالع معرضاً عنا .
كان المجن أمام سهم القضاء كأنه لا شيء[1] .

---

(١) بدو گفتم سرور شیر گیر   چه فرسوده کردت چو روباه پیر؟
بخندید کز روز جنگ تتر   بدر کردم آن جنگجوی زسر
زمین دیدم أزنیزه چون نیستان   گرفته علمها چو آتش در آن
گروهی پلنگ أفگن وپیل زور   در آهن سربرد وسم ستور
همان دم که دیدیم گرد سیاه   زره جامه کردیم ومغفر کلاه
چو أبراسب تازی برانگیختیم   چو باران بلارک فرو ریختیم
زمین آسمان شد زگرد کبود   چو أنجم درو برق شمشیر وخود
بتیر وسنان موی بشکافتیم   چو دولت نبد روی برتافتیم
چو طالع زما روی برپیچ بود   سپر پیش تیر قضا هیچ بود

ثانياً — وفى مقدمة بعض نسخ « گلستان »[1] يصف اضطراب العالم، وتأثير ذلك فى نفسه ، حتى أنه خرج من موطنه يرفه عنها ، مشيراً إلى أن العالم صار فى نظره مضطرباً معقداً كأنه شعر الزنجى ، وحين كان الناس يحاربون بعضهم البعض كأنهم الوحوش الكاسرة . فإذا أمضى مدة فى رحلاته عاد بعدها إلى موطنه ، فوجده تحت ظلال الأمير العادل « أبى بكر بن سعد » فرأى الحياة قد عادت إلى هدوئها ، ورأى النمور قد تحررت من طباعها .

— ألا تدرى لماذا خرجت مغترباً أطوّف فى البلاد ؟
ولماذا أمضيت زمناً بعيداً عن الوطن والأحباب . ؟
— نزحت بعيداً حين رأيت محن الأتراك . . . .
وحين صار العالم معقداً كأنه شعر الزنجى .
— الناس — كافة — من بنوة آدم لكنهم . . . . . .
كالذئاب المتعطشه للدماء بمخالبها الحادة .
— وحين عدت إلى موطني وجدت السعادة تظلله .
ووجدت النمور الكاسرة قد تحررت من طباعها .
— رحلت من موطنى حين كان العالم فى عهده الأول .
يفيض بالمحن ، والاضطراب ، والشدائد .
— ثم آويت إليه حين كان يظلله عهد السلطان العادل .
الأتابك أبى بكر بن سعد بن زنگى[2]

---

(١) گلستان سعدى نسخة platts طبع لندن سنة ١٨٧٤ م ص ٥

(٢) ندانى كه من در أقاليم غربت | چرا روزگارى بكردم درنگى ؟
برون رفتم أز تنگ تركان كه ديدم | جهان درهم أفتاده چون موى زنگى
همه آدمى زاده بودند — ليكن | چو گرگان بخونخوارگى تيز چنگى
چو باز آمدم كشور آسوده ديدم | پلنگان رها كرده خوى پلنگى
چنان بود در عهد أول كه ديدم | جهان پر ز آشوب وتشويش وتنگى
چنين شد در أيام سلطان عادل | أتابك أبو بكر بن سعد زنگى

ثالثاً — وفى قصيدة فارسية يرثى فيها « الخليفة المستعصم » يستهلها ببيت يحذر فيه الإنسان ألا يأمن إلى الحياة ، فدورة الأيام قاسية وانقلاب الحياة مرير ، ويصور فى هذا البيت « أن الإنسان مهما يبلغ خياله فلن يدرك ما حدث ، فخيال الإنسان عاجز عن إدراك تلك الفظائع التى حدثت » (١) .

رابعاً — وفى قصيدة عربية يرثى فيها « المستعصم » أيضاً ، يعرض لتلك الفتنة التى اجتاحت العالم وتنقلت فيه من قطر إلى قطر ، نأخذ منها ما يصور هذه الحوادث .

نعوذ بعفو الله من نار فتنـــة	تأجج من قطر البلاد إلى قطر
بدا وتعـــالى من خراسان قسطل	فعاد ركاما لا يزول عن البدر
إلام تصاريف الزمان وجوره	تكلفنا ما لا نطيق من الأصر (٢)

* * *

ولاية فارس بإيران الجنوبية وكيف صور المؤرخون مواجهتها للغزو ؟؟؟

كانت ولاية فارس — التى تقع إلى الجنـــوب الغربى من إيران — هى البلاد الإيرانية الهامة التى اجتازت هذه المحنة بسلام. ولا نعرض هنا لتاريخ هذه الولاية فى هذا الفصل بالتفصيل ، فلا حاجة إليه ، وإنما نصور فقط أهم الأحداث التى حدثت ، وآراء المؤرخين فيها أثناء مجىء المغول إلى إيران، ونرجىء تفصيل تاريخها وحكامها وصلة الشاعر بهم إلى فصل آخر .

ونذكر هنا — فى إيجاز — كيف اجتازت هذه الولاية تلك المحنة ، ونجت

---

(١) زينهار أز دوركيتى وانقلاب روزكار درخيال كس نيايد كانچنان كردد چنين
كليات سعدى . نشر فروغى ص٤٨٦

(٢) كليات فروغى ص ٤١٣

من هول الغزو وبطش المغول، ويبدو لنا أن مطامع القوم لم تكن تتحايل على الاستيلاء على الأقاليم التى تدخل فى طاعتهم، فلم يصطنعوا الحوادث من جانبهم لإدماج بعض الإمارات التى رغبت أن تدخل فى الولاء لهم .

وكان من حسن حظ تلك الإمارة أن تولى حكمها إبان الغزو أمير من أسرة « آل سلغر » التى بدأت حكمها على أنقاض حكومة السلاجقة فى تلك الإمارة قبيل القرن السابع الهجرى . ذلك الأمير هو الأتابك « سعد بن زنگى » .

رأى « سعد » ألا طاقة له بمقاومتهم ، وأنه إن فعل ، فلا بد من ضياعه ، وضياع ملكه كما ضاع ملك « السلطان محمد وابنه جلال الدين » ، فذهب يقدم فروض الولاء للمغول — عندما دنوا من ولايته — هو وغيره ممن كانوا على بعض الولايات الأخرى ، التى كانت تواجه الغزو بعد إمبراطورية «ملوك خوارزم» .

ويذكر صاحب «جامع التواريخ» ماقام به «سعد بن زنگى» وغيره فى مواجهة المغول بقوله :

« چون خبر وصول رايات جهانگير در أطراف شايع ومستفيض گشت ، سلاطين وملوك هرمملكتى أز ممالك إيران به بندگى حضرت متوجه شدند ، أز روم سلاطين عز الدين ، وركن الدين ، وأز فارس سعد پسر أتابك مظفر الدين [1] » .

وبهذا رسم « سعد » الطريق لمن جاء بعده لأن يدخلوا فى طاعتهم . فلما تولى ابنه « أبو بكر » سار على تلك السياسة التى رسمها أبوه بل توسع فى رضائهم فمدهم بجيش لفتح بغداد [2] تحت قيادة ابن أخيه « محمد شاه بن سلغرشاه » كما أرسل لهم البعوث للتهانى بعد إتمام فتحها [3] ، ودفع لهم ما التزمه من أتاوات

---

(١) جامع التواريخ ص ٥١٠ . باريس نشر كاترمير .

(٢) الأستاذ قزوينى — سعدى نامه ص ١٠٥

(٣) حبيب السير ص ١٣٠ طبعة بمبى .

وخراج وداوم على سياسة حسن المودة ، مما دل على بعد نظره و إصابة تدبيره ، كما استحق — فى نظرهم — أن يلقب لقباً مغولياً هو « قتلغ خان[1] » ومعناه « الملك المبارك[2] » و بهذا سلمت فارس من الحرب ، بل هيأت لها تلك السياسة الرشيدة حياة هادئة مكنتها من تنظيم أمورها ، فالتجأ إليها كثير من العلماء ، وتغنى الشعراء بعهدها .

ويذكر « بارتولد » فى كتابه « تاريخ الحضارة » «أن ولايات الجنوب بايران — فارس وكرمان — سلمتا من عادية الجيش المغولى ، ودامت الحياة القديمة فى المدن الكبرى ، وخاصة فى شيراز ، فلهذا اكتسبت فارس حظوة عظيمة لم تنلها من قبل — من حيث الحضارة الإيرانية — وقد حمت الأدب الفارسى الدولة « السلغرية » التى اجتازت فتوح المغول سليمة ، والدولة « المظفرية » التى حكمت نصف قرن بعد تفرق المغول . فبأولى الدولتين ، يرتبط اسم الشيخ سعدى شاعر القرن السابع الهجرى ، و بالثانية حافظ الشيرازى[3] » .

* * *

الشاعر وتصويره حالة فارس فى ذلك العهد :

أشرنا سابقاً إلى قطعة للشاعر فى مقدمة «گلستان» يذكر فيها كيف كان عهد فارس فى ظل أبى بكر حين عاد إليها من هجراته .

كذلك يشير الشاعر إلى ما فعله أبو بكر من مصانعته المغول وحفظ ولايته من الدمار حتى صارت الملاذ لكل إنسان . وذلك فى كتابه « بوستان » فى قطعة يمدح بها أبا بكر بن سعد و يشبه فارس فيها بأنها « كالبيت العتيق» يأمن

---

(١) وصاف ص ١٥٦ طبعة بمبى

(٢) الأستاذ فزوينى — سعدى نامه — هامش ص ١٠٦

(٣) تاريخ الحضارة الاسلامية — ترجمة الأستاذ حمزة طاهر ص ٩٤

إليها اللاجيء ويقصدها الناس من كل فج عميق، ثم يقول إنه إذا كان «اسكندر» قد أقام سداً من الحديد والقطر بينه وبين يأجوج، فإن «أبا بكر» أقام بينه وبينهم سداً من الذهب، إشارة إلى ما كان يدفعه من أتاوة وخراج، وذلك فى بعض أبيات ترجمها الدكتور عزام بك فى فصل له عن «سعدى» فى كتاب «قصة الأدب فى العالم[1]» وترجمتها.

فمن يبغ أمناً بهذى الفتن	فليس له غير هذا الوطن
فطوبى لباب كبيت العتيق	حواليه من كل فج عميق
لقد صد اسكندر بالحديد	وبالقطر يأجوج يبنى السدود
وقد فقت اسكندرا فى النوب	أقمت ليأجوج سد الذهب[2]

* * *

المغول فى أرض الخلافة. تصوير الموقف بين هولاكو والخليفة

وقبل تصوير ما تم بين المغول والخلافة، لا بد أن نقف عند هولاكو وحده وقفة نضطر إليها. فهذا الاسم لا يزال وقعه يدوى فى آذان العالم الإسلامى، نظراً لما حيك حول شخصيته من العنف والقسوة، وما انتهى إليه مصير الخليفة والخلافة، وما أصاب بغداد وسكانها فى الحصار، وما قيل عن مصير دور العلم، وخزائن الكتب، من الإحراق، أو الإغراق، أو النهب. وتحقيق هذه المسائل

---

(١) انظر قصة الأدب فى العالم ج القسم الثانى ص ٥٠٨ للدكتورين أحمد أمين بك وزكى نجيب محمود

(٢)

گراز فتنة آيد كسى در پناه	ندارد جز إين كشور آرامگاه
فطوبى لباب كبيت العتيق	حواليه من كل فج عميق
سكندر بديوار روئين وسنگ	بكرد أز جهان راه يأجوج تنگ
تراسد يأجوج كفر أز زر است	نه روئين چو ديوار اسكندراست



صـــوره للقــائد المغولى « هولاكو » الذى قاد الجيوس فى فىح
بغداد وأزال الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ
عن كىاب « العراق بين احىلالين » للأسىاذ على العزاوى

بشيء من الاطمئنان لا شك يحتاج إلى جهد ووقت . ونحن فى معرض الحديث عن المغول وسياستهم فى الفتح ، وقهر المدن من جانب ، ورغبة فى تصحيح موقف المؤرخين عن هولاكو بالذات من جانب آخر . نمضى فى تحقيق هـذه المسائل فى شيء من التحفظ ، ولعلنا نصحح بعض الأحداث التى صورها الذين غالوا فى تصوير المغول .

ولا بد أن ندخل فى تقديرنا عند الخوض فى مناقشة هـذه الحوادث مسألة شعورية تأتى من داخل الإحساس الباطني . وهذا العامل نفسه هو الذى سيطر ، ولعله لا يزال يسيطر كذلك ، على الكثيرين إذا ما استمعوا لهذه الحوادث دون النظر إلى تمحيصها أو إدراك نتائجها .

فالشعور العـام فى الموطن الإسلامى ، أن المغول كانوا قبل أن يسلموا ، قوما كفرة بالإضافة إلى ما وصفوا به من بربرية ووحشية وعنف .

فالمواطن المسلم فى أى مكان حينما يستمع إلى مجرد أحداثهم العنيفة فى البلاد الإسلامية ، والتى استلزمتها سياسة الفتح نفسه وحب الانتصار — حينما يستمع المواطن إلى ما أصيب به العالم الإسلامى مهما قل — لا بد أن يتملكه شعور الألم والأسف والحزن العميق لما أصيبت به الجماعة الإسلامية فى هذا العصر ، ولا بد أن يشارك أخاه — إن قريباً وإن بعيداً — هذا الشعور الحزين .

هذا بالإضافة إلى مركز بغداد نفسه الذى توارثته عن الأجيال خلال القرون الخمسة الماضية ، تتضاعف فيها منزلتها جيلا بعد جيل ، وقرنا إثر قرن . كذلك زاد شعور أبناء بغداد — فى مختلف العصور — مرارة على مرارة بعد أن أبعد عنها مقر الحكم ، وبعد أن أصيبت بتلك الكوارث التى جعلت منها مدينة عادية ثانوية فى البيئة الإسلامية ، وتجردت عن بهاء الملك وسطوة السلطان ، فأحس بالألم لها — ولا يزال يحسه — أبناء العالم الإسلامى وخاصة قوم العراق .

فالرصافى — الشاعر العراقى المعاصر — يقول فى قصيدته رثاء الخليفة و بغداد :

وقد أثخنت بغداد من بعد قتله جروح بوار جاء بالحجج الشهب

وما اندملت تلك الجروح و إنما ببغداد منها اليوم ندب على ندب[1]

هذه العوامل كلها عندما تزدحم فى خواطر الناس فى البيئة الإسلامية ، لا بد أن يصيبهم الأسف العميق لتلك الأحداث التى أصابت العالم الإسلامى على يد المغول، وضاعف من أسفه وألهب شعوره زوال حضارة حملتها بغداد عبر القرون الخمسة.

هذا هو الشأن عند ما صور المؤرخون والأدباء شخصية هولاكو فى أحداث بغداد . ونحن لا نتحيز له أو عليه ولكننا نقدم النصوص والوثائق ونستخلص منها النتائج التى تحتملها .

وأهم ما يمكن أن يدرس فى هذا الموقف ، ويسند إلى هولاكو أمور ثلاثة :

أولا — هولاكو وسياسته مع الخليفة .

ثانياً — هولاكو وسياسته إزاء بغداد ورجالها .

ثالثاً — هولاكو وسياسته إزاء مكتبات بغداد ونهايتها .

أولا — هولاكو وسياسته مع الخليفة

ونحن على ضوء ما دونه المؤرخون المعاصرون لهذه الحوادث ، وما لمسناه من تصويرهم ، لا نستطيع أن نخلى الخليفة ورجال حكومته من مسئولية هذه الحوادث بقدر ما صدر من سوء تصرفاتهم أو عدم تقديرهم للمسئولية .

فالعالم الإسلامى ملتهب فى أتون حرب طاحنة فى الشرق منه قبل سقوط

---

(١) العراق بين احتلالين ج ١ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ تأليف الأستاذ عباس العزاوى . طبعة بغداد .

بغداد بثلث قرن تقريباً ، وكلما خمدت جذوة اشتعلت أخرى ، وذلك فى مملكة قوية واجهت المغول فيها جنود بواسل ، وامتدت رقعة أملاكهم أوسع مما كان له من السلطان .

ومع ذلك لم تنبه هذه الحوادث مشاعر الخليفة ، ولم توقظ غفلة رجاله ، حتى يستطيعوا أن يسلكوا سياسة أخرى غير تلك السياسة العقيمة التى وصفها المؤرخون والتى أدت إلى هذه النكبات [1] ، ولو تم لهم ذلك لتغير وجه التاريخ ولكن هكذا أراد الله .

وسنبين هنا أن سوء السياسة ، وسوء التدبير ، هما اللذان جرا هذه النكبات على الخلافة والخليفة ، وسنوضح أيضاً أن المغول لم تكن من سياستهم المرسومة ، ولا من سياسة هولاكو نفسه ، أن يأخذ الخليفة والخلافة بالشدة التى صورها بعض المؤرخين ، وأن المسألة — من أساسها — لا تعدو شعوراً عدائياً نحو الفاتح المغتصب الكافر ، من جانب أولئك المؤرخين الذين لونوا هذه الحوادث ذلك التلوين القاتم .

فأما السياسة المرسومة إزاء الخليفة والخلافة فلم تكن سياسة إزالة وإفناء ، وإنما كانت سياسة مودة وسلام : وكانت هذه هى السياسة نفسها التى نهج المغول على منوالها إزاء كبار الشخصيات الإسلامية وكبار المواطنين ، فيعرف عنهم أنهم كانوا يكرمون رجال الدين أيًّا كان موطنهم وأيًّا كانت شخصيتهم ، فيذكر « الجويني » أنهم حال فتحهم سمرقند تركوا القاضى وشيخ الإسلام ، ومن تعلق بهم وقد بلغوا خمسين ألفاً ، عفوا عنهم جميعاً [2] .

---

(١) انظر الفخرى لابن طبا طبا ص ٢٤٦ . المطبعة الرحمانية والحوادث الجامعة لابن الفوطى ص ٣٢٠ ووصاف ص ٣٤ وما بعدها وجامع التواريخ ص ٢٢٤ إلى ٢٢٨

(٢) جهانگشاى ج ١ ص ٩٤

وكذلك كان الأمر مع كبار رجال العلم ، فقد ذكر صاحب « تلفيق الأخبار » أنهم طلبوا إلى « الشيخ نجم الدين كُبرى » أن يخرج ولكنه أبى إلا الاستشهاد [1] .

أما السياسة التي رسمت لهولاكو بإزاء الخليفة ، فتتضح مما دونه صاحب « جامع التواريخ » في تلك الخطة التي رسمها « منكوقا آن » و بعث بها إلى القائد هولاكو ليلتزمها ، وترجمة هذه العبارة هي : « فإذا بادر خليفة بغداد بالطاعة فلا تتعرض له بأية حال من الأحوال ، فان تكبر وعصى فألحقه بالآخرين . كذلك ينبغي أن تجعل رائدك — في جميع الأحوال — العقل الحكيم والرأى السديد ، وأن تكون في جميع الأمور يقظاً عاقلاً ، وأن تخفف على الرعية من التكاليف والمطالب الشاقة ، وأن ترفه عنهم . فأما الولايات التي يصيبها الخراب فعليك أن تعيد عمارتها في الحال [2] » .

التزم هولاكو السير على هذا المرسوم الواضح ، ولو أدرك الخليفة هذه السياسة وما تؤديه من نتائج طيبة لاستجاب لها . ونحن نعتقد أن هولاكو كان يبر بوعده لو أن الخليفة اصطنع سياسة مرنة ، كالسياسة التي اتبعها حاكم ولاية فارس مثلا ، والتي أدت إلى الإبقاء على إمارته في نجوة من هذا الخضم العنيف الذى طوى في جوفه كل الحكومات التي واجهته ، والتي عارضته قبل مجيئه إلى أرض الخلافة.

وبالرغم من أن هولاكو أخذ الخليفة بالهدوء واللين ، والتزم سياسة الترفق

---

(١) تلفيق الأخبار ج ٢ ص ٢٣

(٢) جامع التواريخ ص ١٤٢ كاترمير ونص هذه العبارة « وأگر خليفهٔ بغداد بخدمت وطاعت مبادرت نمايد ، أورا هيچ وجه تعرض مرسان ، وأگر تكبر كند ودل وزبان رايك ندارد . أورا نيز بد يگران ملحق گردان ، وچنان بايد كه در همه أبواب عقل خرده بين و راى رزين را مقتدا وپيشوا سازى ودر جميع أحوال بيدار وهو شيار باشى و رعايارا أز تكليفات ومؤونات ناموجه آسوده ومرفه دارى وولايات خراب گشته را بحال عمارت بازآرى » .

التى رسمها له «قا آن»، فان الخليفة لم يوفق إلى كسب هذه السياسة لجانبه ، وفشل فى الوقت نفسه فى أحكام سياسـته ، وتدبير أمره ، مما أدى إلى القضاء عليه و إزالة الخلافة .

فحين قدم هولاكو منطقة قلاع « الاسماعيلية بالجبل » والتقى بهم ، وطال عليه الأمد ، ورأى فى القضاء على تلك الطائفة مصلحة مشتركة بينه و بين الخلافة — وقد كانوا شوكة فى ظهرها — طلب هولاكو من الخليفة مدداً لينجز القضاء عليهم ، لـكن الخليفة لم يستجب لهذا النداء ، وتخاذل عن المعونة ، وأفسد عليه الرأى جماعة من حاشيته ، ورجال دولتـه ، الذين لم يكونوا ليحسنوا سياسة أو تدبيرا [١] .

ولما لم يسعف الخليفة هولاكو بما طالب فى القضاء على هذا العدو المشترك ، وتجاهل الأمر . بعث إليه هولاكو خطاباً آخر يعتب فيه عليه و يحذره مغبة العداء والمناوأة ، و يطالبه بالاستماع لنصائحه إن رغب أن يظل رئيساً فى دولته ، و إلا فسيرى نهايته [٢] .

تملكت الخليفة حيرة، واضطربت سياسته ، وتردد مشيروه ، وضيق هولاكو الخناق عليه ، بعد أن انتهى وحده من القضاء على « الاسماعيلية » ، ولم يفد فى إغرائه بذل المال سخياً ، أو إرسال الهدايا الثمينة . ثم كان أن أرسل الخليفة أخيراً — لما لم تجد هذه الوسائل جميعاً — بخطاب إلى هولاكو ، رداً على خطابه ، يجمع فيه بين اصطناع القوة ، واتكاله على أمور لا يملك توجيهها . فالخلافة فى نظره مؤيدة بنصر من عند الله يؤتيه لها متى شاء .

---

(١) ابن العبرى ص ٤٧١

(٢) العراق بين احتلالين ص ١٥٥ — ١٥٦

ويذكر صاحب كتاب «العراق بين احتلالين » نص هذا الخطاب نأخذ منه قوله « إننا مع علمنا أن هولاكو يقصد لنا السوء ، ولكنه يسأل من الواقفين على الأحوال بأنه ما من ملوك وسلاطين قصدوا السلالة العباسية ودار السلام ، إلا كانت عاقبتهم وخيمة ، مع ما كان لهم من الصلابة والقوة ، لأن بناء هذا البيت محكم للغاية ، وسيبقى أبد الدهر[1] » .

ثم يذكر طرفاً من ألوان الخلاف الذى وقع بين بعض الحكومات السابقة و بين رجال الخلافة الإسلامية فى مختلف العصور ، و يذكر انتصار الخلافة على من حار بوها و بقائها سليمة .

والواقع — كما تصوره حوادث التاريخ — لم تستقر الخلافة فى أى عهد من عهودها أو تعش بعيدة عن التقلبات السياسية أو مطامع الملوك المجاورين لها .

فقد أصيبت الخلافة منذ عهودها الأولى بالكثير من الضعف ، أصابها فى ذاتها ، وأصابها فى مدى سيادتها ، وظلت خاضعة لموجات تتقاذفها تيارات مختلفة كان أشدها عليها ما حدث لها فى القرن الرابع الهجرى . فقد شهد هذا العصر أشد صراع عنيف واجه الخلافة العباسية ، بعد أن قامت دولة البويهيين الشيعيين، وتمكن الأمر لهم وأخذوا ينفسون على العباسيين — أتباع المذهب السنى — حكومتهم فى بغداد ، واحتدم الخلاف بين البيتين إلى حد أدى فى النهاية إلى ذلك الشلل الذى أصاب الخليفة « المستكفى » فى تصرفاته ، وفى مملكته ، والاستهزاء به على صورة مزرية ، و إلى استباحة قصوره ونهبها ، بل أدى الأمر إلى أكثر من ذلك فسملت عيناه بأمر الخليفة الجديد « المطيع لله » .

ولما قوى نفوذ آل بويه تنازعوا السلطان فيما بينهم ، وأصيبت بغداد على

---

(١) العراق بين احتلالين ص ١٦٢ — ١٦٣ .

أيديهم بأكثر مما أصاب مدينة أخرى ، فاستبيحت ، ونهبت أموال الناس ، وكان مقدار ما غنموه من الأموال المعروفة عشرة آلاف ألف دينار ألف [1] .

على أن ضعف الخلافة فيما بعد جعلها مطمعاً لكثير من الدول الأخرى التى جاءت بعدعهد آل بويه، إلى أن قدم غزو المغول فكان سيلا طاماً جارفاً، ساعده ضعف الخليفة وتخاذله وعدم إحكام سياسته ، تلك السياسة العرجاء التى اتبعها ، وكان من بينها انصرافه إلى جمع المال وحبسه فى أحواض بلغت من الاتساع حداً يصوره صاحب « تاريخ گزيده » فى قوله « إن من جملتها حوضاً بلغ خمسة أذرع فى مثلها تزن كل قطعة فيه ثلثمائة مثقال [2] » ذلك فى الوقت الذى عاش فيه كزا على الرعية ، وعلى الجند بصفة خاصة حتى منعهم أرزاقهم، وأسقط أكثرهم من دساتير ديوان العرض [3] ، وحتى آل أمرهم إلى سؤال الناس و بذل وجوههم فى الطلب فى الأسواق وفى الجوامع ، الأمر الذى حدا بهولاكو عندما وقع الخليفة فى يده — كما تذكر الرواية — أن يتهكم عليه حين ألح الجوع به . إذ أمر بتقديم طبق ملىء بالذهب ليأكل منه فلما أنكر الخليفة ذلك بقوله « كيف يمكن أن يؤكل الذهب ؟ » أجابه هولاكو بعد أن ترجمت له العبارة « إذا كنت تعرف أن الذهب لا يمكن أكله فلماذا لم تنفقه فى إصلاح جيشك ورعيتك حتى تفتدى نفسك وأمتك [4] » .

هذه هى السياسة العرجاء التى كان يسلكها الخليفة مع هولاكو ومع رعيته . وبجانب هـذا العرض التاريخى نذكر طرفاً من صفات الخليفة نفسه بما صوره

---

(١) ابن الأثير ج ٨ حوادث سنة ٣٤٥

(٢) تاريخ گزيده ص ٥٨٠ .

(٣) الحوادث الجامعة ص ٣٢٠ .

(٤) وصاف ص ٣٩

المؤرخون ونكتفى بماسجله «ابن طباطبا» فى كتابه «الفخرى» «وابن العبرى» فى كتابه «مختصر الدول» ففيهما الكفاية فى توضيح شخصيته، بجانب إيضاح سياسته.

فيقول صاحب الفخرى «كان المستعصم رجلا متديناً، لين الجانب، سهل العريكة سهل الأخلاق، خفيف الوطأة»: ثم يستدرك بقوله «إلا أنه مستضعف الرأى، ضعيف الظن، قليل الخبرة، بأمور المملكة، مطموعاً فيه، غير مهيب فى النفوس، ولا مطلع على حقائق الأمور، وكان زمانه ينقضى أكثره بسماع الأغانى والتفرج على المساخرة، وفي بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب جلوساً ليس فيه كبير فائدة، وكان أصحابه مستولين عليه، وكلهم جهال من أراذل العوام[1]».

أما «ابن العبرى» فيقول وفى سنة أربعين وستمائة بويع المستعصم يوم مات أبوه المستنصر وكان صاحب لهو وقصف، شغف بلعب الطيور واستولت عليه النساء، وكان ضعيف الرأى قليل العزم، كثير الغفلة عما يجب لتدبير الدول، وكان إذا نبه على ما ينبغى أن يفعله فى أمر التتار. أما المداراة والدخول فى طاعتهم وتوقى مرضاتهم، أو تجييش العساكر وملتقاهم بتخوم خراسان قبل تمكنهم واستيلائهم على العراق — فكان يقول — أنا بغداد تكفينى، ولا يستكثرونها لى إذا نزلت لهم عن باقى البلاد، ولا أيضاً يهجمون على وأنا بها، وهى بيتى ودار مقامى — فهذه الخيالات الفاسدة وأمثالها عدلت به عن الصواب، فأصيب بمكاره لم تخطر ببال[2]».

هذه السياسة المستضعفة المتخاذلة هى التى أدت إلى تلك النهاية المحتومة فقضت عليه وانتهت بزوال الخلافة.

---

(١) الفخرى ص ٢٤٤

(٢) ابن العبرى ص ٤٤٥

أما نهايته هو فلم يجمع فيها على أمر ويكفى أن نقول إنه كان من تقاليد المغول ألا يريقوا دماً ملكياً[1] . ويؤيد هذا ما أقر من فتوى أصدرها « الطوسى » في شأنه حين رغب هولاكو أن يقتله فأفتى بقوله « يقتل ولا يراق دمه[2] » وهى الفتوى التى أشار إليها الشاعر « الرصافى » فى قصيدته التى ذكرنا سابقاً بعض أبيات منها فيقول فيها :

هنالك والطوسى أفتى بقتله قروه بقتل آدب أفجع الأدب

والآراء متضاربة بين المؤرخين لا يدرك من خلالها على أى الصور قتل الخليفة أو مات ؟ وكثير من المؤرخين المعاصرين لهذه الحادثة لا يعينون نهاية أو يجمعون على رأى ، بل منهم من تضاربت آراؤه لا يستقر على واحد منها . وهكذا يقول « أبو الفداء » «ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله، فقيل خنق، وقيل وضع فى عدل ورفسوه حتى مات ، وقيل غرق فى دجله » ويختم العبارة بقوله : « والله أعلم بحقيقة ذلك[3] » .

« وابن طبا طبا » لا يعين وجها فى مقتله ، ويكتفى بقوله . « ثم استشهد المستعصم فى رابع صفر سنة ٦٥٦ هـ[4] » .

ويذكر « ابن العبرى » أنه قتل مع ابنه الأوسط ليلا عندما بدأ هولاكو فى أول رحلة من رحلاته بعد الفتح[5] .

والأمر كذلك بين مؤرخى الفارسية لا يجمعون على رأى . فيذكر صاحب

---

(١) هامش السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٤٠٩

(٢) طبقات الشافعية ج ٥ ص ١١٤

(٣) أبو الفداء ج ٣ ص ٢٠٣

(٤) الفخرى ص ٢٤٧

(٥) ابن العبرى ص ٤٧٥

« جامع التواريخ » أنه قتل مع ابنه الأكبر، وخمسة من خدمه كانوا يلازمونه ، وكان موتهم جميعاً فى قرية تسمى « وقف[1] » .

أما « الوصاف » فيؤيد الخلاف الكثير فى نهايته ، لكنه يذهب مذهب من قال إنهم أدرجوه فى لبد تجنباً لسفك دمه بالسيف ، ثم قتلوه وهو فى لبده ، و إن كان يخالف جميع المؤرخين مخالفة واضحة فى السنة التى قتل فيها ، فيجعل الحادث فى الرابع عشر من صفر سنة ٦٥٥ هـ[2] .

وسواء أكان من تقاليد المغول ألا يسفكوا دما ملكياً ، أو أن مركز الخليفة نفسه كان يستدعى أن يقتل على نوع مخصوص . فإنا لا نقر رأياً بعينه فى نهايته ما دمنا لم نجد وحدة فى الرأى بين المؤرخين على الصورة التى انتهى عليها ، وكل ما يمكن هو أن نترك نهايته مبهمة ، كما تركها بعض المؤرخين ، إن كان قد سقط الخليفة أسيراً فى أيديهم ولم يهلك فى الغارة وضرب المدينة ، أو لم يغرق فى دجلة إن كان قد طلب النجاة فراراً

* * *

الشاعر يرثى الخليفة ويمدح هولاكو :

كانت إزالة الخلافة العباسية ، وسقوط بغداد ، ونهاية الخليفة ميداناً فسيحاً لكثير من الأدباء يدلون فيها كل بما يعرض له .

وقد ساهم الشاعر بنصيبه فى ذلك ، فأفصح عن مشاعره بقصيدتين من غرر قصائده رثى فيهما « المستعصم » والخلافة و بغداد رثاء حاراً .

---

(١) جامع التواريخ ص ٣٠٤ كاترمير .

(٢) ورد هذا التاريخ فى عبارة عربية بقوله : « وبه انتهت الخلافة العلية وذلك فى الرابع عشر من صفر سنة ٦٥٥هـ » . وصاف ص ٣٩ — ٤٠ . ولعله سهو من النساخ .

وإحدى القصيدتين فارسية تبلغ ثمانية وعشرين بيتاً تضعها «كليات فروغى» تحت عنوان « در زوال خلافت بنى عبـاس » فى باب المراثى وهى قصيدة نونية مطلعها :

آسمانرا حق بود گرخون بگريد برزمين

برزوال ملك مستعصم أمير المؤمنين [1]

والقصيدة الثانية عربية من أطول قصائده ، بل لعلها أطولها على الإطلاق سواء فى قصائده العربية أو الفارسية ، إذ تبلغ مائة واثنين وعشرين بيتاً .

ولعله رغب أن يشارك المسلمين كافة شعورهم فينشد لهم قصيدة بلغتهم الدينية المشتركة بينهم .

وتضع « كليات فروغى » هذه القصيدة تحت عنوان « فى مرثية أمير المؤمنين المستعصم بالله وذكر واقعة بغداد » .

ومطلع هذه القصيدة :

حبست بجفنىَّ المدامع لا تجـرى فلما طغى الماء استطال على السكر [2]

★ ★ ★

الشاعر يمدح هولاكو :

وقبل أن نعرض لمدح الشاعر هولاكو ، نذكر طرفاً ممـا سجله فيه بعض المؤرخين ، ونخص بالذكر مؤرخاً معاصراً من الذين أرخوا بالعربية ، وهو صاحب « الحوادث الجامعة » يقول عنه : « كان عالى الهمة ، عظيم السياسة ، عارفاً بغوامض

---

(١) كليات فروغى ص ٤٨٦ .

(٢) نفس المصدر ص ٤١١

الأمور وتدبير الملك ، فاق على من تقدم بالرأى السديد والبأس الشديد والسياسة القاهرة ، وكان يحب العلماء والفضلاء ويحسن إليهم ويجزل صلاتهم ، ويشفق على رعيته ويأمر بالإحسان إليهم ، والتخفيف عنهم ، ولم يثقل عليهم ولا كلفهم ما جرت به عادة الملوك من التكليفات والتوزيعات وغير ذلك [1] .

ولعل هولاكو كان — حقاً — على صفات قوية جعلت شاعراً أخلاقياً كـ« سعدى الشيرازى» ، يعجب به ويمتدحه أيضا بعد ماظهر له من حسن سياسته وحسن أخلاقه ، وفى نفس الزمن الذى عز عليه فيه نهاية الخليفة وبغداد فيرثيهما فى قصيدتيه السابقتين .

ففى مقال للأستاذ «محمدبن عبد الوهاب القزوينى» موضوعه «ممدوحين شيخ سعدى شيرازى » يقسمه ثلاثة فصول يجعل الفصل الثالث منه بعنوان « در ذكر ممدوحين شيخ أز ملوك وأعيان خارج أز مملكت فارس » ذكر فيه مراثى الشاعر فى الخليفة وبغداد ثم ينتقل إلى الكلام على هولاكو فيمدحه لا يرثيه .

ويقول الأستاذ عن القصيدة التى يتكلم فى شأنها إنها لا يمكن إلا أن تكون فى مدح هولاكو نفسه . ومما يذهب إليه فى تدعيم رأيه أنها ترد فى نسخ أغلب الكليات تحت عنوان « در انتقال دولت أز سلغريان بقوم ديگر » . وقد انتهى سلطان السلغريين سنة ٦٦٢ هـ بانتهاء حكم « سلجوقشاه » وزواج «ابش خاتون» من أحد أمراء المغول ودخول فارس تحت حكمهم . ويقول إن كل هذا تم فى عهد هولاكو ثم يختم رأيه بهذه العبارة القاطعة :

« پس أصلا وأبدا جاى هيچ شك وشبهه نيست كه ممدوح شيخ در إين قصيده قطعاً وبدون أدنى ترديدى هولاكو است ، نه آباقا يا تكودار يا أورغون [2] » .

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٣٥٣

(٢) سعدى نامه ص ١٥٥

والقصيدة تبلغ أبياتها خمسة وأربعين بيتاً ، وتشترك مع القصيدة الفارسية التى رثى فيها « المستعصم » فى القـــافية أيضاً . ويعرض لمدحه حتى فى مطلعها فى قوله :

إين منتى برأهل زمين بود أز آسمان   وين رحمت جداى‌جهان بود بر جهان(١)

وترجمته : « هـذه منة من السماء على أهل الأرض ، وتلك رحمة من الله على العـالم »

ثانياً — هولاكو وسياسته إزاء بغداد ورجالهـا

كانت بغداد فى ظل حكم العباسيين من أكبر مدن الشرق قاطبة إن لم تكن أكبرها عامة ، فقد كانت حاضرة لعالم مترامى الأطراف يحج إليها القاصى والدانى . وكانت دار علوم كما كانت دار سياسة . ونحن نعتقد — ولعلنا لا نعدو الواقع — إذا قلنـا إن منزلة بغداد التى حافظت عليها ، وما كان فيها من آثار علمية ودينية ، تجعل هولاكو — فى مثل الظروف التى قدم فيها — يتبع سياسة الترفق كثيراً فى حصارها ، وفى المحافظة — بقدر الإمكان — على تراثها ومخلفاتها، تقديراً لها ، واستجابة لشعور حاشيته من رجال المسلمين .

ولعل هولاكو كان يقوم فى نفسه تقدير شخصى لتلك المدينـة العظيمة التى حملت لواء المدنية والحضارة زهاء خمسة قرون ، والتى جابت سمعتها أقطار المشرق والمغرب على ألسنة التجار الذين يجوبون ربوعه ، فيجعل منها قاعدة لحكمه الجديد فى مملكته العريضة .

ويرى بعض المؤرخين أن بغداد — مع فداحة الكارثة التى حلت بها — لم تلق على يد التتار مثل الذى لقيته بلاد أخرى على أيديهم، والسبب فى ذلك هو

(١) كليات فروغى ص ٤٥٧

أن هولاكو كان يريد أن يحتفظ ببغداد لنفسه ، وقد أمر فيما بعد بإصلاح بعض ما أفسدته جيوشه مثل إعادة بناء « جامع القصر » الذى كان من أكبر جوامع بغداد [1] .

على أن جهود هولاكو نفسه فى الإبقاء — بقدر المستطاع — على مظاهر الحضارة وخاصة فى مدينة كبغداد ، لا بد أن يحمله على أن يعمل لتنظيم الحياة سريعاً فى تلك المدينة .

كذلك لم تكن له ميول دينية ظاهرة ، بل كان على العكس ، يستجيب لرغبات مستشاريه من المسلمين ، ولعله — فى ذلك — راعى أقصى ما يمكن أن يراعيه حاكم غالب فى شعب مغلوب . كذلك راعى فى سياسته بعد — أن استقرت ثورة الفتح — أن يبقى على نظام الإدارة الدينى والمدنى على الشكل الذى كانت عليه البلاد أيام الخلفاء .. فيذكر « ابن العبرى » أن هولاكو بعد أن انتهى من أمر الخليفة قوله « ثم فوض عمارة بغداد إلى صاحب الديوان والوزير وابن درنوش » [2] . وفى «جامع التواريخ» أنه فى نفس اليوم الذى استشهد فيه الخليفة أقيم على الوزارة الوزير « مؤيد الدين ابن العلقمي » وعلى وظيفة صاحب الديوان«فخر الدين الدامغانى [3]» . ويذكر«الطوسى»فى ملحقه على«جهانكشاى» «فى ذكر كيفية واقعة بغداد» أن هولاكو رحل كذلك بعد أن انتهى من أمر الخليفة وأقام الوزير ، وصاحب الديوان ، وابن دربوس بأعمالهم فى بغداد ، كل منهم فى عمله الذى كان له [4] .

---

(١) السلوك ج ١ ص ٤١٠ هامش .
(٢) ابن العبرى ص ٤٧٥
(٣) جامع التواريخ ص ٣٠٦ كاترمير .
(٤) جهانكشاى ج ٣ ص ٢٩٢

هذا من ناحية تنظيم العمل بالمدينة . فقد ظهر فيها كذلك مدى الروح التى قابل بها هولاكو فتح مدينة بغداد ، ومعاملة رجالها بعد أن تم له الظفر .

أما أمر القتلى وتقديرهم فى بغداد فقد ظهر فيها المغالاة كثيراً عند المؤرخين حتى ذهب بعضهم إلى أنهم بلغوا ألف ألف وكسرا [١]، أو ألفى ألف [٢]. لكن من المحقق أن هذا العدد مبالغ فيه إلى حد كبير جداً ، خصوصاً إذا لاحظنا أن هذه هى آراء المتأخرين من المؤرخين . أما الذين عاصروا هذه الحادثة فمنهم من لم يشر — قطعاً — إلى عدد القتلى كما لاحظنا فى «جامع التواريخ» و«وصاف» من مؤرخى الفارسية أو عند « أبى الفداء » من مؤرخى العربية .

وأول من أشار إليها من الإيرانيين صاحب « تاريخ گزيده » إذ جعل عدد القتلى ثمانمائة ألف [٣] . ذاهباً فى هذا مذهب مؤرخ عربى آخر هو صاحب « الحوادث الجامعة » [٤] .

وأرجح الآراء التى نؤيدها أن القتلى — كما ذهب إليه هذان المؤرخان — لم يصلوا إلى مليون . بل من المؤرخين من يجعل عدد القتلى أقل من مائة ألف فيذكر صاحب كتاب « العراق بين احتلالين » عبارة نصها« وعلى القول إنهم يبلغون ثمانين ألفا ، كما فى تاريخ « مصلح الدين اللارى » نقلا عن « گلشن خلفا » . ثم يعقب عليها بقوله ، «ولا عبرة بقول من أبلغهم إلى ألفى ألف أو إلى ثلاثة آلاف ألف فالمبالغة ظاهرة جداً» [٥] .

(١) الخميس فى أحوال أنفس نفيس ج ٢ ص ٣٧٧
(٢) السلوك ج ١ ص ٤١٠
(٣) تاريخ گزيده ص ٥٨٠
(٤) الحوادث الجامعة ص ٣٣١
(٥) العراق بين احتلالين ص ٣٩٠

وعلى هذا فالذهاب بأن القتلى بلغوا مليونا أو مليونين أو أكثر من ذلك هو إغراق فى المبالغة ، ومزيد من تلوين التاريخ باللون الأسود القاتم ، استغلالاً لهذه الحادثة ، ومرضاة لمجاراة شعور العداء العام ضد هؤلاء الغزاة .

ثالثاً — هولاكو وسياسته إزاء مكتبات بغداد

وهذه مسألة أخرى توجب الكثير من الاهتمام والتحقيق ، فقد أراد المؤرخون أيضاً أن يضيفوا صورة جديدة من الصور البشعة ، يلهب تسجيلها حساسية كل إنسان ، ليشارك الناس شعور العداء نحو هؤلاء القوم ، فيعترف بعداوتهم للحضارة والعلوم ، على الوجه الذى صوره هؤلاء المؤرخون فى مصير مكتبات بغداد .

ونحن مع اعترافنا — إلى حد بعيد — بقسوة الأسلوب العسكرى الذى اتبع فى غزو المدن المستعصية فى مستهل أطوار الفتح الأولى ، ومع تقديرنا لآراء المؤرخين الذين عاصروهم واعتمدنا عليهم فى تصوير غزوهم الأول أيام « چنگيزخان » على الصور التى عرضنا لها سابقاً . مع اعترافنا — بذلك وتقديرنا لهذا — يجب أن نفرق بين مايستلزمه الغزو نفسه — من الوجهة العسكرية — من عنف وقسوة للوصول إلى الانتصار من أقرب الطرق و بأقل الخسائر ، و بين ما يسند إليهم من كراهية للمدنية أو الحضارة أو العلوم بشكل عام ، كراهية تؤدى بهم إلى إحراق الكتب عمداً بالنار ، أو إلقائها عمداً فى النهر ، على الصور التى ذهب إليها هؤلاء المؤرخون .

وسيبدو لنا — على الرغم مما يحاط به تاريخهم — أنهم كانوا يناصرون الحضارة مناصرة ساهم فيها كل فرد منهم بقدر ما امتد له السلطان ، أو طال به الحكم ، و بقدر ما اتسعت له ميوله المدنية .

ونحن هنا نعرض للتحقيق فى شأن كتب مكتبات بغداد . ومصير هذه المكتبات لا يعدو إحدى ثلاث .

إما أنها أحرقت عمداً أو عرضا ، وإما أنها ألقيت كذلك فى دجلة ، و إما أنها نهبت .

و يجب — قبل أن نخوض فى تحقيق هذه المسائل — أن يُعرف أننا إنما نقصد تصحيح ما يسند للمغول فيها بدافع الفعل المتعمد المقصود لذاته ، لا الفعل الذى يقع ولا اختيار لهم فيه ، الفعل الذى يمكن أن يسجله عليهم بعض المؤرخين .

وأول وثائق القضية — التى يستند عليها — يجب أن تؤخذ عن المؤرخين المعاصرين أولا ، أولئك المؤرخون الذين أرخوا لهذه الحوادث تاريخ مشاهدة وعيان ، ونتخير من هؤلاء ثلاثة من مؤرخي الفارسية ، وثلاثة من مؤرخى العربية وكلهم ثقة عدول .

نتخير من مؤرخى الفارسية ثلاثة فى ترتيب زمنى معاصر ،هم : « نصير الدين الطوسى » فى ذيله على « جهانگشاى » الذى أتمه سنة ٦٧٥ هـ فى حياة « عطا ملك » نفسه صاحب الكتاب ثم « رشيد الدين صاحب جامع التواريخ » الذى أتمه سنة ٧١٠ هـ وقد أدرك الكثير من الحوادث أيضاً ، وكان له و « لنصير الدين الطوسى » كما كان « للجوينى » من المكانة فى الدولة ، والتقدير فى نظر الحاكم والمحكوم ، والثقة بهم حداً بعيداً . ثم نضم إلى هذين « وصاف الحضرة » صاحب التاريخ المشهور « تاريخ وصاف » والذى أتمه سنة ٧٣٨ هـ .

وسيتبين من عرض أقوالهم فى أحداث بغداد أنه لم يظهر فيها قطعاً نص يفيد تدمير الكتب عمداً بالإحراق أو بالإغراق أو حتى بالنهب .

فأما « الطوسى » فلم يشر إلى شىء من ذلك قطعاً فى الذيل المنسوب إليه ،

ولا نظن أن عبارته الموجزة هى التى استدعت عدم الإلمام بذلك ، فاننا نعرف مدى اهتمامه باقتناء الكتب وتقويمها ، والسفر فى طلبها ، والتفتيش على ما يتصل بالرصد خاصة [1] . وهو يبدأ العبارة فى نهاية أمر بغداد بالإشارة إلى المفاوضات بين الخليفة وهولاكو ، ثم القبض على الخليفة وأولاده وأتباعه ، حتى يقول فى بغداد والإغارة عليها .

« وبعد أزآن فرمود تاشهزغارت كردند » ثم ينتقل مباشرة إلى الحديث عن قصر الخلافة بقوله « وپادشاه بمطالعهٔ خانهٔ خليفه رفت » ثم يعرض لنهاية الخليفة ، وما جرى من الحديث بينه وبين هولاكو بما صورناه سابقاً حتى يقول :

« چون ازغارت فارغ شدند . بعد آزيك هفته أهل شهرأمان دادند،وغنيمتها جمع كردند، وچهاردهم صفر پادشاه أزدرشهركوچ كرد، وخليفه را طلب فرمود » [2]

وترجمة هذه العبارة « حينما انتهوا من الإغارة أمنوا أهل المدينة بعدأسبوع،وجمعوا الغنائم،ثم رحل الملك فى الرابع عشر من صفر من المدينة، وأرسل فى طلب الخليفة».

فلم نتبين من هذا النص ما يشير — صراحة أو ضمناً — إلى ما أصيبت به مكتبات بغداد ، مع ما أسلفنا من الإشارة إلى قيمة الكتب فى نظر هذا العالم .

أما صاحب « جامع التواريخ » فيفيض المقام هنا عن نقل كل النص الذى ورد فى حصار بغداد ، لكنه يشير إشارة عامة إلى ما دمرته النار من اليابس والأخضر مستثنياً من ذلك بيوتاً معدودة ، ثم يشارك «الطوسى» فى قوله بذهاب هولاكو إلى بيت الخليفة ونص عبارته .

« وچهار شنبه هفتم صفر ابتداء قتل وغارت عام بود، ولشكر بيكبار در شهر رفتند ، وتروخشك مى سوختند ، مگرخانهٔ معدودى » [3]

وترجمةهذه العبارة:وفى الأربعاء السابع من شهر صفر ابتدأ القتل والإغارة العامة

(١) الحوادث الجامعة ص ٣٥ .

(٢) جهانگشاى ج ٣ ص ٢٩٠ .

(٣) جامع التواريخ ص ٢٩٨ . كاترمير .

فع الجند فى المدينـة مرة واحدة ، وكانوا يحرقون الأخضر واليابس يوتاً معدودة » .

ونحن نلحظ فى هذه العبارة شـيئين نشعر منهما مدى تحرى الدقة عند هذا خ وهما :

(١) الانتقال فى العبارة من المـاضى المطلق إلى الماضى المستمر . الأول فى فعل تند ، أى اندفعوا . والثانى فى فعل « مى سوختند » أى كانوا يحرقون .

(٢) فى الاستثناء فى قوله « مگرخانه‌معدودى » أى إلا بيوتاً معدودة .

ولـكن لا ندرى كيف نجت هـذه البيوت ؟ أكان نجاتها قصـداً أو أنها ت من البعد بحيث لم تصب ؟

هذا التحفظ فى التعبير أو التزام الدقـة يشعر بيقظة المؤرخ واهتمامه بتسجيل ، ما وقع ، فلو قد أصيبت مكتبات بغداد بشىء من هـذا لعرض له المؤرخ فيما من الإحراق . كذلك يذكر فى نهاية هـذه العبـارة التى تتصل بأحداث د قوله :

« و بيشتر مواضع شريفه شهررا چون جامع خليفه ومشهد موسى جوادعليه الرحمة نهاى خليفه سوختەشد [1] » وترجمتها أى — «وأحرقت أكثر مواضع المدينة ريفة كجامع الخليفة ومشهد موسى الجواد عليه الرحمة ومقابر الخلفاء » .

فهو هناك يذكر — استدراكا — ما نجا من الإحراق ، وهنا يخص بالذكر ، ما احترق ، فلم تكن مكتبات بغداد ذات نص خاص ، بل هى مسكوت مع ما لاحظناه من التزام الدقة فى عبارته ، ولا ندرى لم سكت عن الإشارة ذلك ؟ ؟

---

(١) جامع التواريخ ص ٣٠٢ كاترمير .

ألأنها لم تكن من الخطورة بحيث تساوى البيوت التى قال عنها إنها نجت؟؟ أم أن الإشارة إليها — إن كانت قد احترقت — تسىء إلى سمعة المغول فتحرك الشعور ضدهم ، وقد أشار إلى ما مس الأماكن التى تعتبر مقدسة وهى جامع الخليفة ، ومشهد موسى الجواد ، ومقابر الخلفاء ؟ ؟

أما « الوصاف » فإنه يستطرد كثيراً على طريقته فى الصناعة الشاقة ، وبالرغم من الإفاضة فى كل ما عرض له ، لم نعثر على نص خاص ، أو إشارة كذلك ، تلقى الضوء على هذه المسألة .

وفى عنوان له عن محاصرة بغداد وفتحها ونهاية الخليفة، يذكر أن الحصار حين امتد خمسين يوماً،واستعصت عليه المدينة،أقاموا المجانيق على المرتفعات وأعلى المنازل، وضربوها بالحجارة وقوارير النفط ، حتى صاح الأهالى بقولهم « لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده [1] » .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى أمر الرسل بين الخليفة وهولاكو ، وعرض المصاهرة بين البيتين ، ولكن المساعى فى ذلك فشلت ، حتى كان يوم ٤ صفر سنة ٦٥٥ هـ [2] فكان يوما « عبوساً قمطريراً يوما كان شره مستطيراً [3] » قبض فيه على الخليفة وأبنائه . ثم يشير إلى نهب المدينة ، ويفيض فى تعداد ما نهب من مقتنيات الخليفة خاصة ، لكنه لا يذكر بين ما نهب شيئاً من المكتبات .

كذلك يذكر أن الجيش أصاب من هذا النهب الكثير من أدوات الترف والزينة فى بيت الخليفة والنواب وأركان الحضرة ، والكثير من النقود وأصناف الحرير الأطلس والأكسون والمعتق ، وكذلك من موارد الصين ومصر والروم ،

---

(١) وصاف ص ٣٥

(٢) سبق أن أشرنا إلى أن هذا التاريخ مغاير لما اتفق عليه .

(٣) من استشهاد المؤلف نفسه ص ٣٦

وخيول العرب و بغال الشام وغلمان الروم والقفجاق ، وسرارى الترك والخطا والبربر مما لا يدخل تحت حصر .

وهكذا يمضي المؤلف فى ذكر ما سلب من المدينة وقصور الخلافة ، مشيراً إلى نوع الحياة المترفة التى كان يعيش عليها فى قصره ، ويجهد نفسه فى تعداد الأصناف التى سلبت دون الإشارة إلى ما أصاب مكتبات بغداد ، كما لاحظنا عموم العبارة التى تشير إلى استعمال قوارير النفط ، لكن لم نعرف ماذا أصيب بها ؟ ولو قد أصيبت بها المكتبات أو تعرضت للنهب لعرض لذكرها بين ما نهب من نقد أو حرير أو دواب أو غلمان .

وخلاصة هذه الآراء الثلاثة أنه لم يرد نص صريح عما أصيبت به مكتبات بغداد لا عمداً ولا عرضاً ، وسكوت هؤلاء المؤرخين عن ذكر شيء يشير إلى نهاية المكتبات يعطينا — وحده — دليلا سلبياً على أن المكتبات بقيت حيث هى لم تصب بسوء .

ومع ذلك — وكما قلنا سابقاً — نتخير أيضاً مع هؤلاء المؤرخين ، ثلاثة غيرهم من مؤرخي العربية المعاصرين لهذه الحوادث : نتخير منهم « ابن العبرى » المتوفى سنة ٦٥٨ هـ وصاحب « الفخرى » المتوفى سنة ٧١٠ هـ وصاحب « الحوادث الجامعة » المتوفى سنة ٧٢٣ هـ وهم أيضاً معاصرون لهذه الحوادث ، ونكتفى بأن نضع عباراتهم دون مناقشة فسنعرف منها أنها لم تعرض لأية إشارة لما أصاب مكتبات بغداد .

وعبارة ابن العبرى « وشرع العساكر فى نهب بغداد ودخل بنفسه « هولاكو » ليشاهد دار الخليفة ، وتقدم بإحضار الخليفة فأحضروه ، ومثل بين يديه ، وقدم جواهر نفيسة ولآلىء ، ودرراً معبأة فى أطباق » إلى أن يقول :

« وبقى النهب يعمل إلى سبعة أيام ثم رفعوا السيف وأبطلوا السبى » [1] .

وصاحب الفخرى يقول « وأحاط الجيش ببغداد من جميع جهاتها ، ثم شرعوا فى استعمال أسباب الحصار ، وشرع العسكر الخليفى فى المدافعة والمقاومة إلى يوم التاسع عشر محرم ، فلم يشعر الناس إلا ورايات المغول ظاهرة على سور بغداد من برج يسمى « برج العجمى » — إلى أن يقول « وتقحم العسكر السلطانى هجوماً ودخولا ، فجرى من القتل الذريع ، والنهب العظيم ، والتمثيل البليغ ، ما يعظم سماعه جملة . فما الظن بتفاصيله ؟؟ » [2] .

أما صاحب الحوادث الجامعة فيقول « ووضع السيف فى أهل بغداد يوم الاثنين خامس صفر ، وما زالوا فى قتل ونهب وأسر وتعذيب الناس بأنواع العذاب» إلى أن يقول فى عبارة تشعر بما قاله صاحب جامع التواريخ فى قوله « فلم يبق بين أهل البلد ومن التجأ إليهم من أهل السواد إلا القليل ، كذلك نجت بعض بيوت منها بيوت النصارى ، وبيوت بعض التجار الذين تعرفوا على أمراء المغول أثناء غزوهم، ودار الوزير ابن العلقمى، ودار صاحب الديوان ابن الدامغانى، ودار حاجب الباب ابن الدوامى ، وما عدا هذا فانه لم يسلم فيه أحد إلا من كان فى الآبار والقنوات ، وأحرق معظم البلد ، وجامع الخليفة ، وما يجاوره ، واستولى الخراب على البلد » [3] .

هذه أيضاً هى النصوص التى وردت عند مؤرخى العربية فى موضوع حصار بغداد وإصابة بعض بيوتها بالإحراق أو النهب . لم يرد فيها نص صريح عن مصير المكتبات إحراقاً أو إغراقاً أو نهبا .

---

(١) مختصر الدول لابن العبرى ص ٤٧٥

(٢) الفخرى ص ٢٤٧

(٣) الحوادث الجامعة ص ٣٢٩

أما تعميم النص عند بعض المؤرخين فى قولهم «وأحرق الأخضر واليابس[1]» أو « وأحرق معظم البلد [2] » فمع أنه لم يرد فيه ذكر لشأن المكتبات صراحة ، فلن يتسع النص لأن يفهم منه ذلك ضمنا، وقد كان لشأن المكتبات وتقديرها عند أمثال هؤلاء العلماء مكانة ملحوظة ، بل كان لدى الكثيرين منهم خزائن كتب شخصية ، تدل على مبلغ عنايتهم بالعلوم ، وحرصهم على جمع الكتب والاهتمام بها .

فلو تعرضت المكتبات لشىء من تلك النهايات التى أصيب بها كثير من بيوت بغداد لأمكن النص عليها صراحة ، كما نصوا على غيرها ، لا أن يترك الأمر احتمالاً واستنتاجا .

فمن أين جاءت المسألة إذن ؟

ومن أول من نص عليها ؟

* * *

ابن خلدون أول من قال بإلقائها فى النهر

رأيه والرد عليه

لقد تشككت كثيراً وأنا أحمل هذا المؤرخ تبعة السبق فى هذه المسألة ، وحملنى هذا على أن أتمكن من قراءة ما بين يدى من النصوص وتفهمها ، ثم رجعت إلى غير واحد من المؤرخين المعاصرين من الإيرانيين والعرب كما مضى ، وتماديت فى التحرى وتتبع المسألة عند غير هؤلاء من المؤرخين حتى منتصف القرن العاشر

---

(١) فى عبارة صاحب جامع التواريخ من مؤرخى الفارسية انظر ص ٣٩ من الرسالة .

(٢) فى عبارة صاحب الحوادث من مؤرخى العربية فى النص السابق .

الهجرى ، لعلى أجد سابقاً لابن خلدون أو معاصراً له ، ممن سبقوه بها أو جاروه فيها ، فلم أجد [1] .

ونحن نأخذ الآن فى إثبات النص ومناقشته والرد عليه . وقد جاء هذا النص فى موضعين ، مع خلاف فى تقدير عدد القتلى [2] .

يقول « وتقبض على المستعصم فشدخ بالمعاول فى عدل تجافياً عن سفك دمه بزعمهم ، ويقال أن الذى أحصى فيها من القتلى ألف ألف وثلثمائة ألف ، واستولوا من قصور الخلافة وذخائرها على مالا يحصره العدد والضبط ، وألقيت كتب العلم التى كانت فى خزائنهم بدجلة معاملة بزعمهم لما فعله المسلمون بكتب الفرس عند فتح المدائن . واعتزم هولاكو على إضرام بيوتها ناراً فلم يوافقه أهل مملكته » .

ونحن نناقش ابن خلدون ، ونرد عليه بما يأتى :

أولاً — لم يثبت من النصوص السابقة — المعاصرة والمواطنة — نص يعين نهاية المكتبة إحراقاً بالنار أو إلقاء فى النهر ، أو حتى النهب . على أن مفهوم الإلقاء نفسه لم تحتمله أية عبارة وردت فيما عرضنا له من النصوص، وقد سبق أن دللنا على أنها لم تصب بحريق. فانفراد ابن خلدون بهذا النص — مع بعده زمناً وموطناً — وعدم مجاراته غيره من المعاصرين لهذه الحوادث ، كل هذا يحتاج منا إلى تحفظ فى الأخذ برأيه .

---

(١) رجعت إلى أبى الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ ه فى المختصر والمقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ ه فى السلوك، والسيوطى المتوفى سنة ٩١١ ه فى أخبار الخلفاء والديار بكرى المتوفى سنة ٩٦٦ ه فى الخميس .

(٢) النص المأخوذ من جزء ٥ ص ٥٤٣ طبع بولاق فى تاريخ هولاكو . ويرد النص أيضاً فى الجزء الثالث ص ٥٣٧ عند ذكر خلافة المستعصم . مع الخلاف فى جعل عدد القتلى ألف ألف وستمائة ألف.

ثانياً — يؤخذ من هذا النص أيضاً ، أنه فيما يتصل بنهاية الخليفة ، انفراده بجديد عمن أشرنا إليهم وهو قوله « شـدخ بالمعاول » أى ضرب . مع موافقته بعضهم فى أنهم وضـعوه فى عدل . لكنهم لم يذهبوا فى ضربه بالمعاول مذهبـاً يمكن أن يستمد منه ابن خلدون النص على ذلك . فالمفهوم أنه فى هذه المسـائل ناقل عمن سبقه ، ولم يسبقه أيضاً من قال إنهم ضربوه بالمعاول . فانفراده بالنص على هذا النوع من النهاية ، دون الاستناد إلى رأى أقدم منه يجعل فى الأخذ برأيه تحرجاً .

ثالثاً — على أن ابن خلدون فى موضوع واحد،ومناسبة واحدة— مع اختلاف موضع العبارة فى كتابه — يضطرب فى تقدير عدد القتلى ، ولايسـتقر على رأى واحد . فمرة يجعلهم ألفى ألف وثلثمائة ألف ، كما فى جزئه الخامس . ومرة يرفع هذا العـدد إلى ألفى ألف وستمائة ألف ، مع الاتفاق فى الموضوع نفسـه ، بل فى نص العبارة نفسها، وذلك فى جزئه الثالث .

ولسنا ندرى أى التقديرين يقارب الصواب أو يجانبه ؟ ؟ ولا السبب الذى حدا به إلى هذا التناقض فى حادثة واحدة .

وقد بينا سـابقاً مدى المغالاة فى تقدير عدد القتلى ، وكان ابن خلدون من أوائل الذين قالوا بهذا التقدير أيضاً ، مع مافيه من المغالاة دون أن يدرك مبلغهـا . وهو ما أدركه « البستانى » فى دائرة معارفه ، إذ نقل نص ابن خلدون فى دائرته برمته عند الحديث عن بغداد ، ولكنه استدرك فى نهاية العبارة كثرة القتلى فقال « ولا يخفى ما فى ذلك من المبالغة الظاهرة » .

رابعاً — إن النص جاء مخالفاً لما كان متوقعاً فيما يتصـل بالمكتبة ، فلو قد أثبت أنهـا احترقت — ولو عمداً — لجاز ذلك أكثر من أن تلقى بنهر دجلة ، وهنا موضع غرابة عملية تظهر فى إتمام هذا الفعل .

أتحمل الكتب على الأكتاف والسواعد لتلقى فى دجلة ؟ أم تحمل على العربات فتساق ليقذف بها فى النهر ؟

ولو تم هذا الأمر على كلتا الصورتين — بين أبصار الناس وأسماعهم — لكان حديثاً جرى فى الآفاق ، فكيف غاب ذلك عن المعاصرين من المؤرخين ؟ وكيف امتنعوا عن ذكره ؟ ولو قد حدث هذا — مع الإشارات التفصيلية التى فاضت بها كتبهم ، إلى ما أحرق، وما نجا ، وما نهب — وامتنعوا عن الإشارة إليه لعدوا كاتمين للوقائع المهمة التى لو حدثت فى مدينة كبغداد فى مثل هذه الظروف ، لأدركها كثير من الناس ، وأدركها الخاصة والعامة ، ولكان الحادث حديثاً جرى تداوله بين الأسماع .

خامساً — وأغرب من هذا وأمعن فى الغرابة أن يتهم أمتين بهذا العمل. أمة المغول وأمة العرب ، فيجعل المغول يعمدون إلى إلقاء المكتبات العربية بدجلة ، تشفياً لما أصاب مكتبات المدائن الفارسية على أيدى العرب ، فيصيب العرب والفرس معاً بإصابة تلك الحضارة المشتركة بينهما منذ خمسة قرون ، من وقت أن دخلت العربية بينهم رسمياً ، ومنذ أن كان أدبها هو الأدب الرسمى ، ثم الأدب الدينى .

وهل ثبت لدى ابن خلدون — وهو يؤرخ لهذه المسألة فى القرن التاسع الهجرى — أن العرب فعلوا هذا بمكتبات المدائن فى القرن الأول الهجرى ، حتى يتجنى عليهم هذا التجنى أيضاً ؟

سادساً — ثم هذا الاضطراب الموجود بالعبارة أيضاً . وكيف يكون ذلك؟ « واعتزم هولاكو على إضرام بيوتها ناراً فلم يوافقه أهل مملكته » بعد أن سبقتها عبارته « وألقيت كتب العلم التى كانت فى خزائنهم بدجلة » كيف يكون

هذا ؟ وماذا يفيد هولاكو — والفعل مسند إليه — من إحراق بناء أصبح بقاؤه — على هذا الوضع — لامعنى له بغير ما وجد له ؟

وهل يقبل هولاكو أن يبقى على المكان وحده بعد أن خلا من الكتب ؟ لاشك أن هذا الوضع — لو تم بشقيه — لدل على بربرية ووحشية وسوء تصرف ، وهذا ما لم يفهم عن هولاكو نفسه . ثم لماذا لم يوافقه أهل مملكته على إحراق المكان بعد أن خلا مما فيه . . . ؟ ؟ أقيمة المكان أغلى فى نظرهم من قيمة ما فيه . . . ؟ ؟ وأين كانوا وهولاكو يأمر الجند بحملها و إلقائها فى دجلة . ؟ ؟ وكيف إذا كان هولاكو يذعن لآرائهم ويستجيب لرغباتهم فلم يفعل فى إحراق المكان ، كيف لايهرعون إليه ويثنونه عن هذا الفعل الذى يصيبهم ويصيب العالم أجمع فى مدنيته ؟ ؟ . .

سابعاً — ومن كان أهل مملكته وحاشيته الذين يذعن لأمرهم إلا شخصيتين إسلاميتين هامتين من أجلة العلماء ، هما « عطا ملك الجويني ونصير الدين الطوسى» اللذان كانا من أكبر الشخصيات ومن أقرب الناس إليه، وأوثق الناس به ، واللذان بلغا من تقديره الشخصى لهما أن استجاب للأول فى رغبته إيقاف ضرب « قلاع الإسماعيلية » لينقذ مكتباتها ففعل[1] ، وبسط للآخر فى الأمر فجعل له الإشراف على كل الأوقاف ، ليأخذ منها مايشاء فى سبيل القيام بمهامه العلمية ، والذى أذن له فى أن يجوب جميع البلاد ليجمع كتب الرصد وغيرها مما يستفيدون منه[2]؟؟

ثامناً — على أننا نستطيع أن نضيف إلى هذا ما أدركه بعض المؤرخين والنقاد فى كتابات ابن خلدون التاريخية .

---

(١) مقدمة جهانگشاى للاستاذ محمد بن عبد الوهاب القزوينى ص . كز .

(٢) الحوادث الجامعة ص . ٣٥ .

فالمعروف أن مقدمة ابن خلدون هى خير إنتاجه ، وأروع ماصدر عنه ، وهى لاتزال حتى اليوم فى الصفوف الأولى بين مؤلفات علم الاجتماع .

أما كتاباته التاريخية فلم تكن صحيحة المنهج ، مستقيمة الحوادث ، بل سلك فيها مسلك الجمع والاختصار أحياناً أو الإضافة أحياناً أخرى ، وقد صور الحوادث الماضية تصويراً كيفما اتفق ، وقد رأينا بعض مظاهر اضطرابه فى تسجيل ظاهرة واحدة ، فى مكانين مختلفين من كتابه . ومن هنا كانت مكانة تاريخه — بين كتب التاريخ — أقل من مكانة مقدمته بين كتب الاجتماع ، فبينما ترتفع المقدمة إلى الذروة ، ينخفض مؤلفه فى التاريخ إلى حد يجعل الثقة به ضعيفة .

ومن هنا أيضاً كانت مكانة ابن خلدون بين علماء الاجتماع تفوق مكانته بين علماء التاريخ . والشىء الذى يمكن أن يعتمد فيه على تاريخ ابن خلدون — بشىء من الاطمئنان — هو ما كتبه عن دول المغرب فى موطنه ، أو الأحداث المعاصرة له .

تاسعاً — ونستطيع أن نضيف إلى هذه الآراء مارآه بعض المؤرخين فى كتابى ابن خلدون « المقدمة والتاريخ » .

يقول بارتولد فى كتابه « تاريخ الحضارة الإسلامية » عن مقدمة ابن خلدون « ان المقدمة المشهورة التى وضعها لكتابه فى التاريخ العام ابن خلدون الذى قام بأعمال الدولة فى أفريقيا الشمالية ومصر فى أواخر القرن الثامن ، لهى أول كتاب من نوعه فى الأدب العربى ، وتجربة وحيدة لتخليص التاريخ من القصص » إلى أن يقول فى تجنب ابن خلدون للآراء الحديثة التى جاء بها فى مقدمته عند تطبيقها فى كتابه « ولم يستطع ابن خلدون تطبيق نظريته على الأحداث التاريخية كما حدث لكثير من أصحاب النظريات فى الأزمان القديمة والحديثة . » ثم يمضى فيقول فى المقارنة بين المقدمة والكتاب .

فمقدمة « ابن خلدون » كمقدمة «ديودورس» تشبه جداراً مزخرفاً لواجهة جميلة، فاذا أخرجنا المقدمــة بقى كتابه مجموعة من حوادث . فهو كجميع جامعى القرون الوسطى ، ينقل روايات من سبقه من المؤرخين بدون تفسير فى معظم الأوقات»[1]

عاشراً — ومع ذلك فهناك بعض المــآخذ على ابن خلدون حتى فى مقدمته ، و يبدو فى بعض آرائه تعصبه ضد العرب ، ورأيه فيهم أنهم قوم هادمون للحضارة وهو الرأى الذى يأخذه عنه أيضاً بارتولد[2]، و يردعليه هذا الرأى الدكتور عزام بك بمــا ملخصه : أنه وضع العرب فى جانب ، و بقية الأمم فى جانب آخر ، وأقام المقارنة بينهم ، فلم تصلح المقارنة أساساً للمفاضلة . كذلك يرى أن ابن خلدون لم يلتزم السير على خطة واحدة حين نظر إلى البيئة وتأثيرها و إلى الجنس وتأثيره ، وخلط بين الإثنين فى التأثير فى الحضارة[3] .

هذه هى مناقشاتنا لآراء ابن خلدون والرد عليه.

والآن بعد أن حللنا الآراء التى عرض لها المؤرخون فى إحراق المــكتبات ،وناقشنا رأى ابن خلدون فى إلقائها بدجلة ، لم يبق إلا أمر واحد محل افتراض . فلنناقشه:

ذلك هو أن المــكتبات ربما قد نهبت أو امتدت إليها يد السلب ، وهذا إن تم —لا يتم إلا فى ظرف واحد— هو الظرف الذى اشتد فيه الحصار على المدينة، واختل نظام الأمن ، وأفلت الزمام من أيدى القابضين عليه ، وتنصل المشرفون على خزائن الــكتب من تحمل تبعة المحافظة عليهــا ، حتى لا يدفعوا أرواحهم المعرضة للخطر ثمناً لها ، وفى هذا لا يخلو الناهبون لهذه المــكتبات من أن يكونوا أحد نوعين :

---

(١) تاريخ الحضارة الاسلامية.بارتولد . ترجمة الأستاذ حمزة طاهر ص ٥٩—٦٠

(٢) المصدر نفسه ص ٦١

(٣) مقدمة المصدر السابق للدكتور عزام بك ص ٦ — ٧

١ — إما أنهم جماعة يفهمون قيمة الكتب ويدركون مكانتها ، وهؤلاء قد نقلوها فى تلك الظروف ليستفيدوا منها — إن تمكنوا من سلبها — فى أمان وهدوء ، فلا بد من المحافظة عليها بقدر الإمكان .

٢ — وإما جماعة من الرعاع والغوغاء الذين ينتهزون دائماً فرصة اختلال الأمن، فيمدون أيديهم إلى سلب كل ما تصل إليه أيديهم ، وهؤلاء لا بد أن يتحسسوا بأنفسهم من يدركون قيمة ما امتدت إليه أيديهم ، فيدفعونها إليهم ولو بأبخس الأثمان .

وهكذا — فى كلا الحالين — ينتهى الأمر إلى أن تؤول الكتب إلى أيدى عارفيها ومقدريها ، ولا تصاب الكتب نفسها بخسارة ما ، كما لا تتعرض الحضارة والعلوم بركود ، كالركود المتوقع من حرمان الانتفاع بها على الوجه الذى صوره المؤرخون إحراقاً بالنار، أو إغراقاً فى النهر .

وأسلم الآراء عندى أن المكتبة — إن كانت قد تعرضت لشىء — فإنها قد توزعت أثناء الحصار، أو نقلت بعده طوعاً لرغبات المغول . وعلى أى الحالات لم يؤثر هذا أو ذاك — قليلا أو كثيراً — فى سير موكب الحضارة على الصورة التى يصورها المؤرخون .

الفصل الثانى

الحضارة والعلوم فى إيران خلال عصر المغول
وأهم العوامل التى ساعدت على مسيرها

على الرغم من تلك الأحداث التى صورناها سابقاً ، والتى توضح بشكل عام بعض الجوانب التى تكشف عن خططهم فى الفتح . وعلى الرغم مما أصاب الأقاليم نفسها من التخريب والتدمير ، وماأصاب العلماء من التشريد والاغتراب — على الرغم من هذا كله — كان يوجد لهؤلاء جانب لماع مشرق من الحضارة فى إيران إبان ذلك العصر .

فمن خلال النار والدمار التى خلفتها فتوحاتهم ، بزغت على العالم أنوار مشرقة فى عهدهم وساهموا — بدورهم — بنصيب وافر فى تأسيس الحضارة، وعوضوا على العالم بعض ما أصابه من التدمير والتخريب . فأنشأوا الكثير من المؤسسات المدنية والاجتماعية ، وأعادوا تجديد ما اندثر منها أو تهدم ، أيا كان نوعه أو الغرض منه . كذلك أخذوا يشجعون العلماء ويرعونهم رعاية لعلهم فاقوا فيها غيرهم ، وبخاصة من عاش منهم فى إيران .

أما العوامل التى ساعدت على الحضارة والعلوم فهي مايأتى :

أولا — البيئة

ونحن إذا درسنا العوامل التى ساعدت على النهوض سريعاً من هذه الكبوة، لاننسى أن نجعل فى طليعتها ما يتصل بالبيئة نفسها . فمن المؤكد أن إيران

— بطبيعة موقعها — كانت موضع تقدير ورعاية عند هؤلاء الفاتحين ، حتى اتخذوا فيها عواصمهم دون غيرها . ومنذ القدم — وهذا الإقليم — يساهم بنصيب وافر فى تأسيس الحضارة أو السير بها .

ولم تكن فتوحات المغول — على عنفها وقسوة مسلكها — لتغير كثيراً مما كان لطبيعة هذا الإقليم ، أو لما توارثه رجاله عبر القرون الطويلة ، والتى جعلت فى مقدورهم هضم الحضارات المختلفة التى اتصلوا بها ، ثم وضعها فى أثواب جديدة .

وكثير من المؤرخين لا ينسون مبلغ الخدمات التى تؤديها طبائع الأقاليم فى خدمة الحضارة أو فى توجيهها . ويرى البعض أن هذا الإقليم كان من البقاع التى أمدت الإنسانية بكثير من العلوم والتى أفادت المدنية فى بعض نواحيها ، كما كان لموقعه بالذات أثر فى العلاقات بين الشرق والغرب .

ويذكر براون أن نظرة سريعة إلى خريطة هذا الإقليم تكفى لأن يفهم الإنسان أن تلك البقعة المتماسكة القديمة فى مدنيتها والتى تشغل المسافة بين الخليج الفارسى وبحر قزوين ، هى بمثابة الممر بين أوروبا وآسيا الصغرى من جانب ، وبين وسط آسيا وشرقها من جانب آخر ، مما جعل الغزاة يعبرون عليه من الشرق والغرب منذ أقدم العصور فى طريقهم للفتح هنا أو هناك [1] .

وهذه النظرة تثبت — على وجه عام — ما لهذا الإقليم من أثر فى الحضارة بحكم موقعه ، فلا شك أنه استفاد وأفاد من ذلك فائدة كبيرة .

على أن سيل التتار بالرغم مما يوصف به من أنه كان طامياً جارفاً مدمراً ، فإنه لم يجرف كل الزرع والشجر فى إيران ، ولم يذهب بالبذور كلها من هذه الأرض

(١) G. Browne : A Literary History of Persia v. 3 P. 3

الخصبة ، فنمت على الزمان بذور ، ونبتت بذور ولم تعدم إيران فى عصر التتار تقدماً فى العلوم والحضارة والآداب[1].

ثانياً — تشجيع المغول

وهناك أسباب أخرى دفعت تيار الحضارة كذلك فى هذا العصر ، وشجعت على المضى فيها ، وأهم هذه الأسباب مايرجع إلى المغول أنفسهم.

وهنا يجب أن نفرق بين جانبين : أحدهما سياسى ، والآخر مدنى . ولأجل أن تكون أحكامنا صحيحة على ظواهر عصر من العصور ، ينبغى أن نفصل دائماً بين الأساليب العسكرية أو السياسية ، وماتستتبعه من عنف وقسوة تدعو لها ضرورة الغزو ، ويدفع إليها حب الانتصار ، وبين السياسة التى توجه الحركات العلمية أو الأدبية . فكم من العصور كانت ميداناً للتخريب والتدمير كلما اقتضت سياسة الفتح أوتثبيت السلطان ذلك . ولكنها — من جانب آخر — كانت خصبة الإنتاج فى النواحى العلمية أو فى نواحى الحضارة بشكل عام.

ذلك لأن تيار الحضارة إنما يندفع فى مجراه بالقوة الكامنة المتوارثة فى الأمم أو فى الشعوب وطبيعة وضعها من جانب ، وبين ماينطوى فى طبائع حكامها من جانب آخر .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الروح الكامنة فى هؤلاء الفاتحين كانت — بوجه عام — روحاً طموحة مشجعة تعمل على مسايرة الحضارة ، أدركنا إلى حد بعيد تفسير هذا التناقض الذى تبدو ظواهره فى هذا العصر ، وذلك بوجود كثير من مظاهر الحضارة بالرغم مما وصف به عصرهم بالتدمير والتخريب .

---

(١) مقال للدكتور عزام بك فى كتاب قصة الأدب فى العالم ج ٢ ص ٥٠٧

ومع ذلك فكثير من المؤرخين يردون هـذا إلى عوامل مختلفة :

فيرى بارتولد « أن زعم المؤرخين بأن الحياة المدنية لم تدم إلا فى البلاد التى نجت من هجمات المغول زعم خاطىء » . ثم يمضى فيقول « فتحت بلاد متحضرة بأيدى قوم لم يتجاوزوا بعد درجة تقديم الإنسان قربانا ، وضرب — أحيانا — جميع الناس بالسيوف حين الاستيلاء على المدن ، ولم ينج من الموت إلا الصناع الذين يحتاج إليهم الفاتحون على أن يكونوا أسرى » . ثم يستطرد فيقول «فالذين شاهدوا أمثال هذه المشاهد المخيفة ظنوا بالطبع أن إصلاح تلك البلاد من جديد يحتـاج إلى آلاف السـنين » . ويعود فيعقب على هذا بقوله : « والحقيقة أن استيلاء المغول لم يكن سيئاً إلى هذا الحد ، وأول أسـباب هذا ، أن الفاتحين لم يستوطنوا هذه البلاد ، وقد اصطحب ملوك المغول مع قواتهم العسكرية — التى لم تكن كبيرة العدد — مستشارين مدنيين للاستعانة بهم فى الشئون الادارية وفى التعمير[1] »

على أن براون يذكر لهم أيضـاً جانباً آخر سلبياً أفادوا به الحضـارة من طريق غير مباشر ، ذلك أنهم بهجماتهم دفعوا بالأتراك العثمانيين من مجاهل خراسان إلى القسطنطينية فتحطمت الدولة البيزنطية وتشتت اليونان وحملوا كنوزهم إلى أوروبا . ثم أنهم باحتلالهم وفتوحاتهم، فتحوا الطريق عبر آسيا أمام السياح والرحالة أمثال « ماركوبولو ». فعرفت بذلك كل مجاهل آسيا إلى أوروبا[2].

وبجانب مشاركته أيضاً مؤرخى الإسـلام فى قولهم إن المغول كان من سياستهم أن يبقوا على الصناع والعمال[3] ليستفيدوا من خبرتهم فى بناء الحضارة .

---

(١) بارتولد . تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٩٥ . ترجمة الأستاذ حمزة طاهر .

(٢) G. Browne : A Literary His. of Persia. v. 2. p. 442

(٣) Ibid v. 2. p. 438

فإنه أشار إلى مدى ما أحاط به هولاكو علماء عصره من الإجلال والتقدير فيقول :

«إن هولاكو مخرب بغداد وعدو الإسلام - إلى حد بعيد - كان مقصداً لاثنين من كبار الكتاب الإيرانيين فى عصره، وهما الفلكى «نصير الدين الطوسى» والمؤرخ «عطاملك الجوينى» صاحب «جهانگشای» كما أنه فى عصر «غازان» ظهر كذلك مؤرخان شهيران هما «عبدالله فضل الله الشيرازى المعروف بوصاف الحضرة» «والوزير رشيد الدين فضل الله» ويعدان من أهم الكتاب الذين أرخوا بالفارسية فى عصرهم[1].

ثالثاً — عامل الزمن

ومن بين العوامل التى أدت إلى سير الحضارة العلمية فى هذا العصر عامل آخر يرده الدكتور «قاسم غنى» فى كتابه (تاريخ تصوف در إسلام) إلى الزمن . فيرى أن استيلاء المغول ظهر تأثيره الكامل على سير الحضارة فى القرون التى أعقبت حركتهم ابتداء من القرن الثامن ، أما تأثير هذه الحوادث فى نفس القرن الذى ظهرت فيه — وهو القرن السابع — فلم تكن ذات خطر. فإنه كان خاتمة لعصور النهضة التى سبقته ، ولم تنقطع فيه الحركة العلمية عن سيرها ، كما أن أعلام الأدب والتاريخ فى هـذا العصر، إنما هم ثمرة لمسير الحياة فى القرون السابقة ، وعد من بين هؤلاء الأعلام « مولانا جلال الدين الرومى ، والشيخ سعدى ، وعطا ملك الجويني ، ورشيد الدين فضل الله ، ونصير الدين الطوسى ، وياقوتا الحموى وابن الأثير ، ومحمداً المنشى النسوى»[2].

والدكتور «رضا زاده شفق» يوضح — فى تفصيل — هذه الظاهرة ويردها إلى عوامل مشتركة منها أن بذور الرقى العلمي والأدبى فى إيران أخـذت تنمو منذ عهد السامانيين و بلغت بمضى الأيام مبلغ النضج والكمال ، وظهر فى تلك المملكة

---

(١) G. Browne : A Literary History of Persia v. 2 p. 443

(٢) تاريخ تصوف در اسلام . للدكتور قاسم غنى ص ٤٩٨

مئات من العلماء المبرزين فى كل ناحية . فلما كانت حملة المغول نجت بعض الـكتب اتفاقا واحتفظ بمقدار منها فى المدن بعيداً عن عبث الأيدى ، كما فر كثير من العلمـاء ولجأوا خصوصاً إلى الولايات الجنوبية من إيران وفر البعض إلى الهند وآسيا الصغرى .

كذلك يرى أن المغول كانوا حقيقة فى بدء حركتهم يتعطشون لسفك الدماء لـكنهم بعد أن توطنوا إيران واندمجوا فى الناس ، وأخذوا يتقبلون أفـكارهم ، تغيرت طبائعهم شيئاً فشيئا ورغبـوا — تدريجياً — فى اعتنـاق المدنيـة الإسلامية والإيرانية [1] .

ويكاد يلتقى مع هـذا رأى آخر لصاحب كتاب « تلفيق الأخبـار وتلقيح الآثار » فقد وَفَّق هذا المؤرخ كذلك بين ما كانوا عليـه من التخريب والقتل وبين التقدم العلمى الذى ظهر فى عهدهم فيذكر « أنهم كانوا يخربون ويقتلون أول ظهورهم ، لـكن لم يؤخر ذلك فى انتقاص العلوم وطرد الخلل فى المعارف والفنون ، بل العلوم والمعارف جارية بعد ظهورهم على ما هى عليه قبل خروجهم ، فان خروجهم لم يكن لمعاداة الدين ولا لبغض الاسلام والمسلمين » [2] .

هذه الآراء المتعددة التى نظرت إلى ذلك العصر من زوايا مختلفة ، على تباين العصور والمواطن والشخصيات التى تناولتها ، تـكاد تجمع كلها على فـكرة واحدة وتلتقى عند رأى واحد ، ذلك أن عصر المغول — على ما كان فيه من أحداث جسام غيرت من وجه التاريخ — لم تهدم كل أسس الحضارة بل ظلت بذورها كامنة حتى إذا تهيأت لها الظروف والوسائل أثمرت وآتت أكلها . تلك الظروف التى استمد

---

(١) تاريخ أدبيات إيران — للدكتور رضا زاده شفق ص ٢٥٩ سنة ١٣٢١ هـ.ش طهران .

(٢) تلفيق الأخبار ج ٢ ص ٢٣

منها جميعها بارتولد رأيه ، حين قال فى حكمه على حضارة هذا العصر عبارته :

«و إذا كان فى تاريخ إيران عهد وقف فيه الشعب الايرانى فى الصف الأول من حضارة العالم فهو العهد المغولى ، مع أن كثيراً من العلماء يذهبون إلى أن المغول لم يعملوا فى إيران غير تخريب الحضارة»[(١)] .

ولعل بعض المؤرخين وقعوا فى هذا الاضطراب من مقايستهم للحضارة والعلوم مع الانقلابات التى تحدث فى الأمم أو العصور ، ويقيمون لهذا نظرية تكاد تكون متسقة — فى رأيهم — تلك النظرية التى تربط بين الحياتين السياسية والعلمية ربطاً طرديا ، فكلما وجدت ظروف تخريب وتدمير قاسوا عليها تأخير الحضارة والعلوم .

لكن هذه النظرية ثبت فسادها بالقياس إلى هذا العصر . كما أن هناك ظاهرة أخرى تؤدى إلى هدمها ، وهو ما ظهر فى القرن الرابع الهجرى فى الأدب العربى . وذلك فيما يشير إليه الدكتور عزام بك فى قوله عند دراسته لعصر أبى الطيب المتنبى : « لاريب أن العلوم والآداب تنمو وتزدهر فى ظلال الأمن والرخاء وفى رعاية الدول الرشيدة التى ترفع شأن العلماء والأدباء وتحرضهم على الجد والاستقصاء». إلى أن يقول ، «ولكن نمو العلوم والآداب وازدهارها ثم ذبولها وجفافها ، يتقلب فى أطوار عديدة بطيئة لايساير الأطوار السياسية ، فإذا نمت العلوم فى أمة قوية لا تؤتى ثمارها إلا بعد زمن مديد ، وربما يوافق ازدهارها زمن الضعف السياسى فى الدولة التى نمت فى ظلالها » ثم ينتهي من هذا بقوله « فلا ينبغي أن تقاس حال العلوم والآداب بالأحوال السياسية ، ولا يجوز أن تلتمس فى التاريخ مسايرة رقى العلوم وتدليها للقوة السياسية والضعف[(٢)] » .

---

(١) بارتولد — تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٩٨ . ترجمة الأستاذ حمزة طاهر .
(٢) ذكرى أبى الطيب المتنبى ص ٨—٩ للدكتور عزام بك .

هذه الشواهد فى مختلف العصور ، و بين مختلف الأمم ، وتحت ظلال مختلف الحكومات ، فى مختلف الأقاليم ، تهدم الرأى الذى يربط دائماً بين الحياتين السياسية والعلمية و يدعونا لأن نحتاط فى القياس على المساوىء السياسية مساوىء فى الحياة العلمية كذلك .

و إذا كنا قد لمسنا من خلال ماتقدم بعض الظواهر التى لعبت دورها فى سير الحضارة فى هذا العصر . فإن هناك عاملا آخر — عارضاً — لعب دوراً هاماً فى توجيه الحضارة كذلك .

رابعاً — الانقلاب الدينى وأثر الدين فى توجيه الحضارة

هذه مسألة توجب الكثير من الاهتمام والعناية ، ودراستنا لأطوار تاريخهم فى البيئة الإسلامية كشف لنا عن كثير من ميولهم الدينية ، تلك الميول التى تقلب بينها كثير من ملوكهم وأمرائهم .

فقد ثبت أنهم — منذ أيامهم الأولى — كانوا يحترمون رجال الدين، وخاصة المسلمين منهم ، كما احترموا العلماء ومكنوا لهم فى دولتهم ، وكثيراً ما كانو يستجيبون لرغباتهم . فيشير صاحب «جهانگشاى» أنهم عند فتحهم سمرقند فى عهد چنگيزخان ، دخلوا المدينة وساقوا الرجال والنساء إلى الخارج وكانوا مليوناً إلا القاضى وشيخ الإسلام والقوم الذين تعلقوا بهم ، وقد بلغوا خمسين ألفاً عفوا عنهم جميعاً [(١)] .

كذلك لم يتعرضوا لإغلاق معاهد العلم أو التدخل فى التوجيه الدينى ، فيذكر صاحب العراق بين احتلالين قوله « لما كان الفاتح لم يتعرض للمؤسسات الدينية أيام احتلاله كان من نتائج ذلك الاحتفاظ بالمعارف والعلوم ، ومن أوضح

(١) جهانگشاى ج ١ ص ٩٤

ظواهرها المدارس الكبرى مثل المستنصرية والنظامية » إلى أن يقول « فصارت خير واسطة للم الشعث واستبقاء الحضارة [1] ».

هناك إذن ظاهرة تسترعى أنظارنا هى أن المغول منذ فتوحاتهم الأولى لم يتملكهم شعور الغضب نحو المسلمين أو المنشآت الإسلامية ، بل استجابوا سريعاً لإرضاء شعورهم باحترامهم وتقديرهم واتبعوا فى سياستهم جانباً يرضيهم. فلم يتعصبوا لوثنيتهم أو ينتصروا لدين على دين ــ فى طول مملكتهم وعرضها ــ بل أدى تسامحهم الدينى إلى أن الأديان نفسها لعبت دوراً هاماً فى اكتسابهم وتوجيه سياستهم ، حتى ظفر الدين الإسلامى أخيراً على تلك الأديان التى كانت تتجاذبهم .

وهذه مسألة تكاد تكون وحيدة فى التاريخ العام ، ينفرد بها الدين الإسلامى وحده فلم يحدث فى تاريخ الأديان أو السياسة أن انتصر دين المغلوب على دين الغالب . و بإتمام تلك الحركة كسب الإسلام كسباً جديداً عوض عليه ما أصابه ، بل أهم وأجدى من كل ماأصابه .

أما من حيث حياتهم الدينية الأولى فقد كان لهم ديانة وثنية تسمى الشامانية وكانوا مع اعترافهم بإله عظيم قاهر لايؤدون له فروض العبادة ، و إنما كانوا يعبدون طائفة من الآلهة المنحطة و بخاصة تلك الآلهة الشريرة التى كانوا يقدمون لها القرابين والضحايا ، لما كانوا يعتقدون فيها من السلطان والقدرة على الأذى ، كما كانوا يعبدون أرواح أجدادهم التى كانوا يعتبرونها ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم [2] .

و بجانب ذلك وضع المغول لهم قانوناً يسمى « الياساق » أخذوا أنفسهم

---

(١) العراق بين احتلالين ص ٥٩٤

(٢) آرنولد. الدعوه إلى الاسلام ص ١٩١ ترجمة الدكتور حسن إبراهيم وآخرين

بتعاليمه ، ومن ثم التزموا فى معاملاتهم للأمم المغلوبة ما كان يقتضيه هذا القانون . وفضلا عن هذا كانت معاملاتهم لأهل الأديان تنطوى على التسامح وعدم التفرقة بين دين ودين ، بل كان من مبادىء هذا القانون كما يشير « الجوينى » أن كل من لا يعصاهم يأمن سطوتهم ، وكانوا يبالغون فى إكرام رجال الدين فيعفونهم من الالتزامات المفروضة على غيرهم[1] .

وهكذا كان شأن المغول منذ جنكزخان ، فقد كان يرمى فى سياسته — كما يقول براون — إلى المساواة بين كل العقائد ولا يستميل منها جانباً دون آخر[2] .

على أنه مالبث أن امتدت حركة الفتح سريعاً ، وانضوى تحت لوائهم كثير من الشعوب المختلفة ذات الديانات المتباينة من البوذيين والمسيحيين والمسلمين .

هنا نشأ صراع عنيف بين أتباع تلك الديانات وكلهم يعمل — جاهداً — على أن يسبق غيره فى اجتذاب هؤلاء إلى جانبه[3] .

وقد أفادت هذه الحركة كثيراً فى تطور عقلية هؤلاء الحكام إلى حد كبير وتطور روحهم الدينية على مدى الزمن ، ذلك أن بساطة دينهم — كما يرى آرنولد — لم تجعله يقوى على أن يقاوم طويلا جهود هذه الأديان الكثيرة الأتباع والأنصار ذات اللاهوت المنظم الذى يملك قوة الإقناع وسد حاجة العقل . ومن ثم كان لاتصالهم بتلك الشعوب المتباينة ذات الديانات المنظمة وصاحبة الأتباع الأقوياء تأثير كبير فى تطور هؤلاء ، فتأثروا بمدنيات تلك الشعوب ، وخرجوا عن

---

(١) جهانگشای ج ١ ص ١١

(٢) G. Browne : A Literary His. of Persia v. 2 p. 440

(٣) الدعوة إلى الاسلام ص ١٩١

بربرية بداوتهم الأولى ، حين وجدوا أنفسهم جنباً إلى جنب مع هذه الأجناس ذات الديانات الراقية [١] .

البوذية ونشاطها :

ويظهر أن البوذية كانت أسبق الديانات المختلفة إلى أحضان هؤلاء القوم واكتسابهم إلى جانبها ، فقد كان دعاتها من الشجاعة بحيث كانوا يجوبون ديارهم بل كانوا يقيمون المناظرات الدينية مع قساوسة المغول الشامانيين فى حضرة چنگيزخان [٢] .

وهكذا كان حكامهم الأول وقادتهم لايمانعون فى إقامة المناظرات الدينية ولو كان أتباع دينهم طرفاً فى تلك المناظرة .

على أنهم مع ذلك كانوا لايمنعون أن يؤلف جيشهم من أتباع ديانات مختلفة فيذكر صاحب كتاب أخبار الدول « أن عسكر چنگيزخان كان بين مسلمين ومشركين ويهود ولم يتعرض لأحد فى دينه واعتقاده [٣] » .

وقد أسرع بعض الحكام إلى الارتداد عن دين أجداده وآبائه واتخذوا ديناً غير دين قومهم ، وكان ذلك بطبيعة الحال راجعاً إلى جهود رجال الديانات المختلفة ، وقوة صلاتهم بالحكام ومكانتهم فى المجتمع وكان أول شخص من تلك الأسرة خرج على دين آبائه واعتنق البوذية هو « قوبيلاى خان [٤] » .

المسيحية ونشاطها :

أما المسيحية فلم تقل جهودها وجهود أتباعها عن جهود البوذية ورجالها ، بل

---

(١) آرنولد . الدعوة إلى الاسلام . ترجمه الدكتور حسن إبراهيم وآخرين ص ١٩١
(٢) نفس المصدر ص ١٩١
(٣) أخبار الدول وآثار الأول ص ٣٨٤
(٤) G. Browne : A Literary His. of Persia. v. 2. p. 440

كانت جهود هؤلاء تتجه إلى اكتسابهم ليكونوا إلى جانبهم ضد المسلمين — العدو المشترك — وكثيراً ما كانوا يغرونهم بكل الوسائل لاكتسابهم .

واشترك المدنيون منهم مع رجال الدين فى العمل سريعاً لانحيازهم للمسيحية . فكان السياسيون يرسلون الفواكه والهدايا الثمينة من السفارات المسيحية المختلفة إلى بلاط المغول فى قراقورم ، كما أن الرهبان والقسس واجهوا بشجاعة آلاف المخاطر والمصاعب لكى يكسبوا أكبر نصر يمكن أن يعود على كنيستهم [1] .

وسرعان ما وجد المغول أنفسهم فى المسيحية شريكا يعين فى القضاء على القوة المضادة التى كانت تقاوم غزوهم .

ثم ظهر عامل جديد لعب دوراً هاماً فى استمالة المغول إلى المسيحية ذلك هو نشاط الحريم فى البلاط المغولى . وكان هولاكو أول مغولى تزوج مسيحية وكانت زوجته تدعى « ظفرخاتون » [2] . وكانت كما يقول آرنولد محببة إليه فعملت على استمالة زوجها نحو إخوانها فى الدين [3] . كذلك تزوج إبنه « آباقاخان » من ابنة إمبراطور القسطنطينية .

على أن هولاكو وابنه آباقا لم يندفعا نحو النصرانية ، لكن نشاط الحريم ظل يسود البلاط الملكى بين المغول حتى أمكنهن إدخال أبنائهن فى هذا الدين .

فيذكر براون أنه عقدت معاهدات بين المغول والمسيحيين اعترف فيها بعضهم بالمسيحية واعتنقها كثير منهم ، و بعضهم من العائلة المالكة . فهناك اثنان من خانات المغول هما « تكودار احمد وألجا يتوخدا بنده » كانا فى أخريات حياتهما من المسلمين المتعصبين بينما عمدا فى طفولتهما وسميا باسم نقولا [4] .

---

(١) G. Browne : A Literary History of Persia. v. 2. p. 441

(٢) أخبار الدول وآثار الأول ص ٣٨٦ — ٣٨٧ .

(٣) آرنولد — الدعوة إلى الاسلام ص ١٩٨٠ ترجمة الدكتور حسن إبراهيم وآخرين

(٤) G. Browne : A Literary History of Persia. v. 2. p. 441

وبالرغم من أن المحاولات لاجتذاب المغول نحو المسيحية كانت مبكرة نشيطة متنوعة ، فإن هناك كثيراً من الأسباب التى أدت إلى فشل هذه الجهود المتواصلة ، وأظهرت الأيام أن تلك الآمال لم تكن إلا سرابا خادعا [1] كما يصورها آرنولد . ثم يتولى بسط الأسباب التى أدت إلى فشل هذه الجهود ويرجع الكثير منها إلى الخلافات الكثيرة بين أتباع هذه الديانة من اللاتينيين والإغريق والنسطوريين والأرمن .

كذلك يرمى النسطوريين منهم — وهم الذين ظهروا أولا فى ذلك المضمار — بأنهم بلغوا درجة كبيرة من الانحطاط والجمود والجهل بكتب صلواتهم المدونة بالسريانية ، واتجارهم بالمناصب الدينية ، وعدم مبالاتهم بجمع الثروات من وراء تعليم الطقوس الكنسية ، وكانوا يؤثرون جمع المال على تعاليم الدين [2] .

وهكذا انتهت هذه الحركة ولم تنجح هذه التأثيرات المختلفة التى قام بها هؤلاء من التودد ، وإرسال الهدايا أو التزاوج ، وامتلاء البلاط بالقسس والرهبان أو الاغراء بالعداوة المشتركة للمسلمين ، من كل هذه الحركات المفتعلة التى جاءت إليهم من الخارج لا من طبيعتهم ولا من ميولهم الروحية .

الاسلام ونشاطه وكيف دخل المغول فى الاسلام ؟؟

وفى تلك العبارة النزيهة التى سطرها آرنولد يبدو كيف أن الإسلام استطاع بعد كبوته أن ينهض تلك النهضة المباركة فيتغلب بتعاليمه على أولئك الفاتحين القساة فى عبارته :

« ولكن لم يكن بد من أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته

---

(١) آرنولد. الدعوة إلى الاسلام ص ١٩٨ ترجمة الدكتور حسن إبراهيم وآخرين.
(٢) المصدر نفسه ص ١٩٣

الأولى ، وأطلال مجده التالد، كما استطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى نشاط الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعاب أشدها لمناهضة منافسين قويين كانا يحاولان إحراز قصب السبق فى ذلك المضمار » ثم يمضى فيقول « وليس هناك فى تاريخ العالم نظير لذلك المشهد الغريب ، وتلك المعركة الحامية التى قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام ، كل ديانة تنافس الأخرى لتكسب قلوب أولئك القساة الذين داسوا بأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين فى جميع الأقطار والأقاليم [1] » .

ويبدو أن اضطراب المجتمع، وسطوة النساء، وبلبلة الأفكار الدينية فى نفس المغول، قد لعبت كلها دوراً خطيراً فى هذه الحركة على العموم.

وكما تدخل حريم القصور اللائى كن يدن بالدين المسيحى فى توجيه أزواجهن أو تنصير أبنائهن ، كذلك قد لعبت المسلمات نفس الدور بل لعل المسلمات قد قمن بدور أهم وإن لم تكن فى مراكز قوية تخول لهن فرض سلطانهن على المغول .

بدأت حركتهن فى اجتذاب المغول إلى الإسلام منذ أن اتخذن سبايا للبلاط المغولى ، ومع ضعف موقفهن ، فإنهن قمن بأدوار نبيلة شريفة كما يصفها آرنولد فى قوله « لا يبعد أن تكون سبايا المسلمين قد قمن بدور هام فى تحويل المغول إلى الإسلام،ويظهر أن المرأة شغلت مركزاً من مراكز الشرف والكرامة بين المغول، ويمكن أن نأتى بأمثلة كثيرة تؤيد أنه كان لها أثر ظاهر فى الشئون السياسية » .

وهكذا يمضى فيحدثنا عن قصة يبدو فيها مدى بلبلة الأفكار، واضطراب العقيدة الدينية عندهم فى الحادثة الآتية ،فى قوله «ويحدثنا وليم بروك أنه شاهد بنفسه

---

(١) آرنولد . الدعوة إلى الاسلام. ص ١٩١ . ترجمة الدكتور حسن إبراهيم وآخرين

تأثير إحدى النساء المسلمات وكيف وقف ذلك التأثير فى سبيل نشر تعاليمه الدينية» ويورد عنه القصة الآتية : « وفى عيد العنصرة أتى أحد المسلمين ، ع.دما أخذ فى شرح تعاليم الدين فى أثناء حديثه معنا ، فلما سمع عن نعم الله على الناس وعن التجسد وبعث الموتى ويوم الحساب ومحو الخطايا عن طريق التعميد ، رغب فى أن يعمد ، ولكن بينما كنا نعد العدة لتعميده ، امتطى صهوة جواده على حين غفلة ، قائلا إنه لا بد من أن يذهب إلى داره لاستشارة زوجته [1] » .

ونحن لانستطيع أن نغض أبصارنا عن عامل آخر له أهميته بجانب ذلك . فالبيئة التى يسودها سلطان المغول إذ ذاك بيئة إسلامية ، تدب فيها روح الإسلام وتعم مبادئه بين أرجائها ، وترتبط العلاقات الاجتماعية والروحية بجانب العلاقات السياسية فى تلك البيئة، ويأتلف أقوامها مع الحكام نتيجة للمعاملات العامة.

على أن المغول أنفسهم قد هيأوا لأهل تلك البيئة سلطاناً مدنياً وسياسياً بجانب ما كان لهم من النفوذ الروحى ، فرأينا كيف وفقوا فى اختيار جماعة يلقون إليهم زمام الأمور السياسية والإشراف على أقاليم بذاتها ، وكيف اختاروا للمناصب الخطيرة فى الدولة — وهو منصب الوزارة — أفراد أسرة إسلامية هى أسرة الجوينى، يستوزرونهم ويقيمون منهم حكاماً على أهم إقليم إسلامى فى ذلك الوقت وهو العراق العربى، بعد زوال الخلافة تقديراً للشعور الإسلامى العام .

وقد نجحت هذه الأسرة فى الفترة التى أشرفت فيها على الحكم والسلطان نجاحاً باهراً،وأدت خدمات جليلة للعالم الإسلامى وللحضارة الإسلامية بصفة خاصة لانستطيع أن ننساها ، كذلك خففوا من الأهوال التى لحقت بالعالم الإسلامى ، وفتحوا صدور الحكام على حب الرعية ، وهيأوا عقائدهم للدخول فى الإسلام .

---

(١) آرنولد الدعوه إلى الاسلام ص ٢٠١ هامش .

ومن بين ذلك لانستطيع أن ننسى جهود رجال الدين المسلمين الذين اتصلوا بالحكام ، وتوثقت الصلة بينهم حتى أسلسوا عقائدهم لتفهم الدين الإسلامى والدخول فيه فانطاعوا لهم بعد أن تبين أنه دين الطبائع لادين الصنائع .

الأمير « تكودار » أول من أسلم

ظلت هذه العوامل تعمل فى البيئة المغولية مجتمعة طوال حياتهم الأولى . وظل المغول أنفسهم فى تلك البيئة الدينية القلقة تتبلبل أفكارهم ، وتضطرب عقائدهم وتتجاذبهم الموجات المختلفة ، حتى انتهى الأمر أخيراً بأحد سلاطينهم إلى اختيار الدين الإسلامى . ذلك هو الأمير تكودار[1] الذى تسمى بالسلطان أحمد .

ولم يطل العهد بعيداً حتى جعله غازان ديناً رسمياً للدولة فى إيران — مقر حكومتهم — و إن كان ذلك بعد مدة أصابت الإسلام والمسلمين نكسة شديدة ، ما بين فترة السلطان أحمد وفترة غازان والتى بدأت بحكم أورغون .

أما كيف تم ذلك ؟ فيمكن أن نلخصه فيما يأتى :

تجمعت فى الفترة بين عهدى هولاكو والسلطان أحمد كل العوامل التى أدت إلى ارتداد السلطان أحمد عن دينه المسيحى واختياره الاسلام ، بالرغم من أنه تنصر فى طفولته وتعمد باسم « نقولا » .

وفى وثيقته إلى « قلاوون » سلطان مصر ، يتضح كثير من البواعث التى حملته على اختيار هذا الدين . ونحن لانسجل هذه الوثيقة بتمامها فلا حاجة إليها هنا ، ويمكن أن يرجع إليها فى الكتب التى سجلتها[2] ، ولكنا نكتفى فقط

---

(١) لايجمع المؤرخون على اسمه المغولى قبل الاسلام فيقول وصاف بهذا الاسم ص ١٠٥ ويقول صاحب جامع التواريخ إن اسمه تاكودار ص١٠٦ كاترمير بينما يشير أبو الفداء إلى أن اسمه بيكدار ج ٤ ص ١٨

(٢) وصاف ص ١٠٥

بتسجيل مقدمتها القيمة لنرى فى استهلالها كيف تخير السلطان أحمد الدين الإسلامى —؟ وكيف استطاع رجال الدين الرسميين بمراكزهم الدينية وحسن تمثيلهم لهذه المراكز أن يكسبوا إلى جانبهم هؤلاء الحكام الذين تتجاذبهم الديانات المختلفة ؟ .

تلك الوثيقة التى جعلت كتاب الغربيين أنفسهم يشعرون بمدى التغيير الظاهر الذى نشأ على طبيعة المغول فيذكر آرنولد مشيراً إلى ذلك .

« و إن من يدرك تاريخ المغول ليرتاح عندما يتحول فجأة من قراءة ما اقترفوه من الفظائع ، وما سفكوه من دماء ، إلى أسمى العواطف الانسانية ، وحب الخير التى أعلنت عن نفسها فى تلك الوثيقة التاريخية ، التى كتبها « تكودار أحمد » إلى سلطان المماليك فى مصر ، والتى يدهش الانسان لصدورها من مثل ذلك المغولى [1] » .

وقد حمل هذه الرسالة إلى قلاوون أكبر شخصية قضائية فى الدولة لدى السلطان أحمد وهو «قطب الدين الشيرازى» أقضى القضاة [2] وجعل معه رسولا آخر هو « الأتابك بهلوان » كما يبدو فيها مدى اعترافه بفضل شيخ الاسلام وتقديره له ، فإنه حببه إلى هذا الدين . يقول فى المقدمة :

« أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى بسوابق عنايته ونور هدايته ، قد كان أرشدنا فى عنفوان الصبا ، وريعان الحداثة ، إلى الإقرار بربوبيته ، والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة بصدق نبوته ، وحسن الاعتقاد فى أوليائه والصالحين من عباده وبريته ، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره

---

(١) آرنولد . الدعوة إلى الاسلام ص ٢٠٠

(٢) أبو الفداء ج ٤ ص ٧ . ووصاف ص ١٠٥

للاسلام . فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين و إصلاح أمور الاسلام والمسلمين ، إلى أن أفضى — من أبينا الجيد وأخينا الكبير — نو بة الملك إلينا ، فأفاض علينا من حلل ألطافه ولطايفه ما حقق به آمالنا فى جزيل آلائه وعوارفه، وجلى هدى المملكة علينا وأهدى عقيلتها إلينا » .

هذه هى المقدمة و يبدو منها أن هدايته للاسلام كان بمحض العناية الإلهية ، وأن ذلك كان منذ ريعان حداثته ، كما كان يتجاوب فى نفسه قبل الإسلام الميل إلى إعلاء كلمة الدين ، و إصلاح أمور الاسلام والمسلمين ، حتى تسلم مقاليد الأمور فكان ذلك من فيض الله عليه .

ثم يشير إلى الدور الذى قام به شيخ الإسلام بقوله « وقد عرضنا على مارأينا من دواعى الصلاح ، وتنفيذ ما ظهر لنا من وجه النجاح ، إذ كان شيخ الاسلام قدوة العارفين ، الذى هو نعم العون لنا فى أمور الدين ، فأصدرنا هذا الكتاب رحمة من الله لمن وعاه، ونقمة على من أعرض وعصاه» .

وفى الخطاب جانب سياسى لاداعى للإفاضة بالحديث عنه ، ولكن الذى يعنينا الإشارة إليه هنا،أن هذا الخطاب لم يؤد الغرض منه بين السلطانين،فاستمرت الحرب بين الدولتين ، ولم يحسم الخلاف بينهما إلا الحديد والنار على الرغم من اشتراك الدولتين فى دين واحد .

وفى رد السلطان قلاوون على السلطان أحمد يتضح كيف فشلت بينهما الوسائل لإيقاف الحرب . .وقد ناقش السلطان قلاوون فى رده وثيقة السلطان أحمد وعرض أغراضها الواحد تلو الآخر وأخذ يرد عليها ردوداً مفحمة .

يقول بعد المقدمة « فإنه ورد الكتاب الكريم المتلقى بالتكريم المشتمل على النبأ العظيم من دخوله فى الدين ، وخروجه عمن خالف من العشرة الأقربين. ولما

فتح هذا الكتاب فاتح الخبر المعلِم المعلَم ، والحديث الذى صح عند أهل الاسلام وأصح الحديث ما روى عن مسلم . توجهت الوجوه بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى فى أن يثبته على ذلك بالقول الثابت » و يمضى فى الخطاب إلى أن يقول « والحمد لله على أن شرح صدره للاسلام وألهمه شريف الالهام ، فحمدنا الله أن جعلنا من السابقين الأولين إلى هذا المحل العالى المقام وثبت أقدامنا فى كل موقف اجتهاد أو جهاد[1] » .

وفى هذا الخطاب أيضاً ردود على الجوانب السياسية فى خطاب السلطان أحمد كشف عن سوء العلاقات بينهما ولم يفد شيئاً فى إيقاف الحرب أو تخفيف أعبائها بل كان رده جذوة جديدة فى أتون تلك الحرب .

فقد تلقف السلطان قلاوون آخر عبارات خطاب السلطان أحمد وهى قوله إليه « وإن غلب سوء الظن بما تفضل به واهب الرحمة، ومنع عن معرفة قدر هذه النعمة فيه، شكر الله مساعينا ومهد عذرنا . وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . والله الموفق للرشاد والسداد، وهو المهيمن على البلاد والعباد وحسبنا الله وحده ».

تلقف قلاوون هذه الخاتمة ورد عليها بما يشعر بمدى الغيظ فى نفسه،وذلك في قوله « وأما الاستشهاد بقوله تعالى «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً » فما على هذا النسق من الود ينسج ، ولا على هذا السبيل ينهج ، بل لفضل التقدم فى الدين حقوق تراعى و إفادات تستدعى» .

ثم يختم إليه خطابه بآية قرآنية أخرى تتقدمها عبارته « سمعنا المشافهة التى حمّلت لسان أقضى القضاة قطب الملة والدين ، وكان منها ما يناسب مافى هذا الكتاب من دخوله فى الدين وانتظام عقده فى سلك المؤمنين ، ومابسطه من عدل

---

(١) وصاف ص ١١٥

و إحسان وسيرة مشهورة بكل لسان ، فالمنة لله عليه فى ذلك فلا يشينها ولا يشيبها منه بامتنان ، وقد أنزل الله على رسوله فى حق من امتن بإسلامه «قل لاتمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين » .

وهكذا تغلبت الروح السياسية وحب التوسع على كل رغبة فى وقف القتال ولم يستفد العالم الإسلامى من انتقال أحد سلاطين المغول إلى الإسلام ، بل استمر حب التوسع الاستعمارى يستولى على نفوسهم ولم يحسم ما بينهما من خلاف إلا الحديد والنار كما أسلفنا .

نكسة تصيب الاسلام والمسلمين

لم تمتد الحياة طويلا بالسلطان أحمد فقتل بعد عامين من حكمه فقد تولى عام ٦٨١هـ وقتل عام ٦٨٣هـ ، وقد فشل فى سياسته من جميع النواحى ، فلم يوفق فى إيقاف الحرب بينه و بين المصريين مع هذا التحول الجديد ، ولم يفكر فى بسط سلطان هذا الدين وجعله ديناً رسمياً ، وهى الحركة البارعة التى تمت — فيما بعد — على يد غازان ، فأمن بها التقلبات السياسية التى تستتر وراء الخلافات الدينية .

فكان إسلام السلطان أحمد وحده دون أن يحكم هذه الحركة أو ينميها باعثاً على الثورة عليه ، أضف إلى ذلك أن نظام تولية العرش عندهم لم يكن وراثياً بل كان لمن يقع عليه الاختيار من بينهم [١] ، أو لمن يكتب له الظفر من بين العصاة .

فلما أعلن السلطان أحمد إسلامه استغل أورغون ابن أخيه هذه الحركة واتهمه بخيانة شريعة آبائه وسلوكه سبيل العرب الذين لم يعرفهم أحد من أسلافه [٢] .

وانتهى الأمر بأن اتفق جماعة من الأمراء — وأبناؤه من بينهم — مع أورغون خان وقتلوه [٣] .

(١) كانت ولاية السلطان أحمد نفسه بالاختيار الذى تم بينهم — وصاف ص ١٠٥
(٢) آرنولد . الدعوة إلى الاسلام ص ٢٠٥
(٣) وصاف . ص ١٣٥ وآرنولد ص ٢٠٠

عادت الأمور الدينية بعد قتل أحمد إلى ما كانت عليه قبل إسلامه، بل اشتط الملوك منهم فى معاملتهم للمسلمين، وأصر خلفاؤه الثلاثة[1] الذين تولوا الحكم بعده على وثنيتهم ، وانتهز المسيحيون الفرصة ليلعبوا دوراً جديداً فى صرف الأسرة الحاكمة عن الدين الإسلامى [2] واستؤنف الصراع العنيف بين الأديان الثلاثة وخاصة بين الدينين القويين الإسلام والمسيحية .

وامتد هذا النزاع طويلا مدى عصر «أورغون وكيخاتو و بيدو» وهو قرابة اثنتى عشرة سنة ، استطاع الإسلام فى خلالها — على الرغم من قسوة مالاقاه أبناؤه — أن يصمد خلال تلك التيارات العنيفة ، وانتهى هذا الصراع آخر عهد السلطان بيدو ، وكانت رأسه ثمناً لكراهيته للاسلام وميله إلى المسيحية [3] .

أما أعنف هذه الفترات وأقساها على الإسلام وأشدها محنة لأبنائه ، فهى فترة أورغون التى أصيب فيها المسلمون والعالم الإسلامى بنكسة عنيفة فى خلال حكمه الذى امتد قرابة ثمانى سنوات .

فبعد أن استقر الأمر له وقتل السلطان أحمد ، وتفرغ لتنظيم مملكته ، غالى فى الاستبداد وأقصى المسلمين عن المناصب التى يشغلونها فى القضاء والمالية ، كما حرم عليهم الظهور فى بلاطه[4] ، ومنعهم من التدخل فى أمور الجيش[5] ،

---

(١) نذكر هنا ثبتاً يبين سنى حكم ملوك المغول فى إيران منذ هولاكو حتى نهاية القرن

هولاكو	٦٥٦ — ٦٦٣ هـ	آباقا	٦٦٣ — ٦٨١ هـ
تكودار	٦٨١ — ٦٨٣ هـ	أورغون	٦٨٣ — ٦٩٠ هـ
كيخاتو	٦٩٠ — ٦٩٤ هـ	بيدو	٦٩٤ — ٦٩٥ هـ
غازان	٦٩٥ — ٧٠٣ هـ	محمد خدابنده	٧٠٣ — ٧١٦ هـ

(٢) آرنولد . الدعوة إلى الاسلام ص ٢٠٠

(٣) G. Browne : A Literary His. of Persia v. 2. p. 444

(٤) آرنولد . الدعوة إلى الاسلام ص ١٩٦

(٥) وصاف ص ٢٤١

بل بالغ فى مظاهر العنف والاستبداد فأطاح بأسرة الجوينى — كباراً وصغاراً — على صورة بشعة، وأسرف فى النكاية وأمعن فيها، فولى إدارة الدولة رجلا يهوديا هو « سعد الدولة اليهودى » . فأصابت القوم حسرة مريرة وانطوت نفوسهم على الكراهية والبغض لهذا العهد ، وذلك الانقلاب الشنيع ، وتمكنت الحفيظة من نفوسهم للحاكم ورجاله إلى حد كبير .

ولم تكن أسرة سعد الدولة هـذا ذات أصل — بالإضافة إلى يهوديته — بل كان أبوه فى مبدأ أمره دلالا بسوق الصناعة بالموصل (١) .

وقد بسط أورغون يده فى شئون الدولة حتى دون الرجوع إليه ، بعد أن وثق به فارتفع شأنه وعلا نجمه ، وأذعن لأمره جميع لأمراء والحكام ، وأدخل كثيراً من أفراد أسرته فى إدارة حكومات الأقاليم فأسند إدارة مدينة دار السلام إلى أخيه فخرالدولة، الذى كان يضرب به المثل فى الجهل ، وجعل فارس تحت إمرة أخيه شمس الدولة ، ولو لم تكن خراسان و بلاد الروم تحت إشراف أمراء المغول أنفسهم لطمع فى أن يولى عليها بعض جهاله كما يذكر الوصاف (٢) .

ولم يقتصر الأمر على مد السلطة لأسرته، بل عمل على اتساع نفوذ طائفة من بنى جلدته . فقد استغل اليهود مركز سعد الدولة وتغلغلوا فى الحكومة ، وتورطوا فى ذلك إلى حد أحفظ الناس عليه .

وقد تندر بعض فضلاء بغداد بذلك وأشار إلى هذه الأمور بقوله (٣) :

---

(١) أبو الفداء ج ٤ ص ١٨ وانظر :

G. Browne : A Literary His. of Persia v. 3 p. 32

(٢) وصاف ص ٢٣٧

(٣) نفس المصدر ص ٢٣٨ . وانظر :

G. Browne : A Literary His. of Persia. v. 3 p. 32

يهود هـذا الزمان قد بلغـوا مرتبـة لا ينالهـــا فلك

الملك فيهم والمـال عنـدهم ومنهم المسـتشـار والملك

يامعشر الناس قد نصحت لـكم تهـودوا قد تهـود الفلك

فانتظروا صيحة العـذاب لهم فعن قليل ترونهم هلكوا

ولم يسعد الحظ طويلا « سعد الدولة » فأصابته نكبة أودت بحياته سريعاً وشرب من الكأس التى طالما جرعها غيره ، فتوفى من أمد له فى السلطان وهو « أورغون » . وفى أعقاب وفاته قتل سعد الدولة .

وفى تلك النهاية يقول أحد الشعراء قصيدة على وزن القصيدة السابقة ورويها يرد عليها . نظمها الإمام العادل زين الدين على بن صاعد [1] الواعظ الدمشقى . يقول فى مطلعها :

نحمد من دار باسمه الفلك هذى اليهود القرود قد هلكوا

وفى نهايتها يشير إلى تلك القطعة المتقدمة بقوله :

هجـوتهم أبتغى بهجـوهم جنان خلد يزينها البرك

رغماً لمن قال في قصيدته تهودوا قد تهـود الفلك

جاءت فترة قصيرة بعد عهد أورغون تولى فيها « كيخاتو بن آباقا » وامتد حكمه أربع سنوات ، ثم جاء بعـده ابن عمه « بيدو » وقصر حكمه فلم يجاوز بضعة أشهر ، وقد اجتاز العالم الإسـلامى فترتيهما فى أمن ودعة وخاصة فترة كيخاتو ، إذ لم يكن له اتجاه دينى يرمى إليه و يسلك فى سبيله سياسة عنيفة ، بل اشتهر بشىء من العدل وحسن السياسة يفسره هذان البيتان اللذان قيلا تصويراً لعهده :

---

(١) وصاف . ص ٢٤٦ — ٢٤٧ . وانظر :
G. Brown : A Literary His. of Persia v. 3 p. 34

فكأنما الجود الذى عم الورى لما تضاعف عدله لم يخلق
أعدى على أسد الشرى إنصافه يلقى فرائسه بقلب مشفق [١]

لكن القوم تآمروا عليه وقتلوه لأنه رمى بالفسق والفجور [٢] . فاذا جاء عهد « بيدو » آثر الدين المسيحى . وجهد فى وضع العقبات فى سبيل انتشار الإسلام بين المغول، فحرم على كل شخص أن يدعو لذلك الدين أو أن ينشر عقائده بينهم [٣] .

كانت هذه الفجوة التى حدثت بين عهد السلطان أحمد وعهد غازان الذى تولى بعد « بيدو » ميدانا للصراع العنيف بين الديانات من جديد ، وكان الدين فى ذاته سبباً لأن يدفع القوم إلى التخلص من السلطان الحاكم ، فقد كان يرجع إلى هذا السبب قتل السلطان أحمد بسبب غيرته على الإسلام وتحيزه إليه ، كما كان قتل « بيدو » بعد ذلك باثنتى عشرة سنة بسبب كراهيته للإسلام وميله إلى المسيحية [٤] .

غازان يسلم ويعلن الاسلام دينا رسميا

حين أقدم حكم غازان، أشرق على العالم — من جديد — نور الإسلام إذ مكن له هذا الحاكم من عدوان بقية الأديان عليه أو منافستها له وجعله دين الدولة الرسمى .

أما كيف أسلم غازان ؟ وكيف مكن لدينه ؟ وكيف جعله ديناً رسمياً ؟ فإننا نفرد له كلمة فيما يأتي :

بالرغم من هـذه الموجات المتعارضة لم تستقر الحياة الدينية على وضع خاص حتى أيام غازان . ولم يكن غازان نفسه بمنأى عن هذه التيارات ، فاتجهت عقيدته أيام شبابه إلى اختيار البوذية قبل اعتناقه الإسلام [٥] ، وقد ولاه أبوه أورغون

---

(١) وصاف . ص ٢٦٧
(٢) أبو الفداء ج ٤ ص ٣٢ . ووصاف ص ٢٦٨
(٣) آرنولد . الدعوة إلى الاسلام ص ٢٠٠
(٤) G. Browne: A Literary His. of Persia v. 2. p. 444.
(٥) آرنولد الدعوة إلى الاسلام . ص ٢٠٠

خان هو وأخاه « خر بنده[1] » على خراسان وجعل مشيرهما أميراً كبيراً هو الأمير « نوروز » .

وخلال إقامته بخراسان — أيام كان على دين الوثنية — عمل كثيراً على تشجيع ذلك الدين ، فشيد عدة معابد للبوذية فى خراسان ، وكان يسير كثيراً بمصاحبة الكهنة الذين ينتمون إلى هذا الدين ، والذين كانوا قد وفدوا إلى فارس فى جماعة كبيرة منذ بسط المغول سلطانهم فى هذه البلاد[2] .

فلما أسند العرش إلى « بيدو » احتدم النزاع بينه و بين غازان ، فجمع هذا قوما ممن دخلوا فى طاعته من أقربائه وسار إلى قتاله ، فلما بلغ بيدو ذلك سار للقائه . ولما التقى الجمعان أدرك غازان أن لا قبل له بمقاومته ، فراسله واصطلحا ، وعاد غازان إلى خراسان[3] .

وخلال هذه الأحداث لعبت شخصية أخرى دوراً هاما فى السياسة والعقيدة ذلك الدور الذى مثله « نوروز » فى تهيئة السبيل إلى اعتلاء غازان العرش ، والقضاء بمعونته على كل العقبات التى اعترضته ، وتهيئته من جانب آخر إلى اعتناق الإسلام[4] .

وقد مالأ نوروزُ غازانَ وناداه بلقب الأمير ، وتنبأ له بأنه سيظهر لحماية عقيدة الإسلام ، و إعادتها إلى سابق مجدها ، كما أعلن له أنه إذا اعتنق الإسلام أصبح حاكم بلاد الفرس[5] ، على أن هذا التأثير إن يكن قد جاءه من الخارج و بدافع سياسى ، فنحن لا نستطيع أن ننسى ما كان يتجاوب فى نفسية هذا الأمير من

---

(١) أبو الفداء ج ٤ ص ١٨

(٢) آرنولد . الدعوة إلى الاسلام. ص ٢٠٠

(٣) أبو الفداء ج ٤ ص ٣٣

(٤) وصاف . ص ٣١٦

(٥) آرنولد — الدعوة إلى الاسلام ص ٢٠١

القلق فى عقيدته الدينية ، وأنه كان من الذين يفكرون دائماً فى المسائل الدينية ، بل لم يكن من البساطة وسهولة الانقياد بحيث يتحول من دين إلى دين ، ومن عقيدة إلى عقيدة لمجرد عامل خارجى أو دافع سياسى .

وبهذا يشير آرنولد فى قوله « إن غازان كان بطبعه يميـل إلى تقليب نظره فى المسائل الدينية ، لأنه درس عقائد الأديان المختلفة المنتشرة فى زمانه ، واعتاد أن يقيم مناظرات مع أئمة كل من هذه الأديان » ثم يمضى آرنولد فى الرد على الذين اتهموا غازان أنه إنما دخل الدين الإسلامى استجابة لإلحاح بعض الأمراء والمشايخ وتوسلاتهم بهذا التساؤل الذى يلقيه .

« ويسأل من يتصدى للدفاع عن عقيدة غازان الوثنية . أى شعور خطير يمكن أن يثير اهتمام حاكم فى مثل هذه القوة والنفوذ فيلهمه تبديل دينه ؟ بل قل اهتمام أمير قام أسلافه الوثنيون بغزو العالم [1] » .

على أنه ما كاد غازان يعلن إسلامه الرسمى فى يوم مشهود، من أبصار الناس وأسماعهم، حتى اهتزت له من جديد أفئدة القوم ، وأيد الله دينه بنصر من عنده، وأدخل فيه جنوده وأتباعه ومن رغب فيه . وقد بلغوا كما يذكر « وصاف » مائتى ألف [2] . ولسان حاله كما يتمثل « قـل جاء الحق وزهق البـاطل إن البـاطل كان زهوقا » .

وكان أول عمل لغازان بعد إسلامه أن وطد للعقيدة الإسلامية الجديدة بين قومه وشـعبه ، فجعله الدين الرسمى للدولة . بحيث أصبح خلفاؤه من بعده يدينون كذلك بالإسلام .

---

(١) الدعوة إلى الاسلام ص ٢٠٠

(٢) وصاف ص ٣١٧

مظاهر الحضارة

فى عصر المغول بإيران

ونحن لا نتتبع كل ألوان الحضارة وآثارها فى عصرهم ، بل يكفى أن نشير إلى اهتمامهم بنوعين منهما :

١ — الحضارة المعمارية .　　　　٢ — الحضارة العلمية .

أولا — الحضارة المعمارية

والشىء الذى يسترعى النظر ، ويسجل لهم بكثير من التقدير ، أنهم كانوا محبين للتعمير ، ويكاد يذهب القدماء والمحدثون إلى ذلك ، فقد رأينا الكثيرين من المؤرخين يقولون عنهم — منذ فتوحاتهم الأولى أيام چنگيزخان — إنهم أبقوا على الصناع والفنانين ومهرة العمال الذين كانوا يجدونهم فى المدن المفتوحة ، ثم يبعثون بهم إلى بلادهم الأصلية ليواصلوا هناك إنتاجهم تحت إشرافهم ورعايتهم .

لم يكن هذا قاصراً على شخص منهم دون شخص ، بل كان ذلك شبه سياسة عامة ساروا عليها منذ عهدهم الأول .

ومع أن چنگيزخان — موحد أسرة المغول — لم يكن على ثقافة تشهد له بسابق الاطلاع على حضارات الأمم أو ثقافتها . لكنه — كما تشير الروايات — كان على حظ وافر من النبوع الفكرى ، وسرعة الاستجابة لكل مايستفاد منه .

فيذكر صاحب « أخبار الدول » عنه أنه « كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولكنه أسس بفكره قواعد لو أدركه الاسكندر ودارا لما وسعهما إلا اقتفاء أثره ، كما اخترع لنفسه قواعد فى الملك ، وأمر عقلاء مملكته أن يصنعوا له خطاً وقلماً فصنعوا له قلم المغول، ورتبوا له كتاباً سماه الياسق الكبير [١] » .

ويظهر أن موطنهم الأصلى كان يستهويهم كثيراً إلى حد أنهم كانوا يشفقون على حياة الفنانين والصناع أو أرباب الحرف بوجه عام حتى لقد يرحلونهم إلى تلك البقاع النائية — حيث موطنهم الأصلى — مهما بلغ عددهم .
فيذكر « سيد أمير على » أنهم فى مدينة سمرقند بعد أن أباحوها وقتلوا سكانها أبقوا على ثلاثين ألفاً من أمهر صناعها [٢] وأرسلهم جنكيز إلى أبنائه فى الشمال والشرق . ثم يمضى فيوضح القصد من ذلك فى قوله « وهو عنايتهم بتجميل مسقط رأس الغازى » .

وقد احتملت بلاد مملكة «خوارزم شاه» وخراسان كثيراً من هذا العناء، فالذين نجوا من أبنائها حرموا من الحياة فيها . فيذكر «الجوينى» أنهم حين قدموا مدينة خوارزم، وتم لهم فتحها ، أرسلوا أرباب الحرف من بنيها إلى بلاد المشرق ، وهناك — كما يقول — مواضع كثيرة من تلك الجهات عامرة بأهل خوارزم [٣] .

وكانت هذه الاتجاهات تسير لدى المغول وكأنما تتم فى شكل سياسة عامة .
فيذكر بروان أن المغول إذا أبقوا على حياة أحد من سكان مدينة أذعنت لهم ، فانما ليستفيدوا من مهارته [٤] أو ليستخدموه ضد أبناء جنسه فى ميدان القتال .

---

(١) أخبار الدول وآثار الأول ص ٣٨٤

(٢) سيد أمير على — مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى — ص ٣٣٧ ترجمة الأستاذ رياض رأفت .

(٣) جهانگشاى — ج ١ ص ١٠١

(٤) G. Browne : A Literary His. of Persia v. 2 p. 434

ومع هذا فقد أدت هذه الحركات العنيفة أيضاً إلى أن يفر — خوف الأسر وسوء المعاملة — كثير من الصناع والعلماء من وجه المغول إلى الجهات التى يمكن أن يحتموا بها . فكما ذكرنا سابقاً لجأ بعضهم إلى الولايات الجنوبية من إيران واستظلوا بحكامها ، كذلك قد هرب كثيرون منهم إلى الأقطار التى تقع فى الغرب من حركتهم ووفد إلى مصر وغيرها من الأقطار الإسلامية كثير من الصناع والفنانين [١] .

أما المنشآت التى يمكن أن تسند إليهم فى مملكتهم أو داخل الممالك الإسلامية فنشير منها إلى ماعرض له بعض المؤرخين :

فيذكر صاحب «جهانكشاى» — أن قاآن حينما انتهى من حروبه مع الخطا شيد عاصمة له تعرف « بقراقورم» أحضر لها الصناع وأرباب الحرف من بلاد الخطا وبلاد الإسلام ، وجعل لها بضعة أبواب . أحدها خاص بالملك ، والثانى لأولاده والثالث للخواتين ، والرابع للعامة [٢] .

وبجانب ذلك كانوا يشيدون بعض ما فيه مظاهر الترف والراحة لأنفسهم فقد طلب قاآن أن تقام له عاصمة أخرى يأوى إليها فى الربيع ، فشيدها له المهندسون المسلمون وأطلق عليها « قرشى سودى » يصفها الجوينى أنها بناء جميل مرتفع ، زين بأنواع النقوش الجميلة ، وأعدت فيها الفرش ، وهيئ له فيها عرش، وشقت إليها قنوات المياه [٣] .

على أن حظ العمائر الإسلامية لم يكن بأقل من حظ العمائر الأخرى . بل لعل الاهتمام بها كان كثيراً ، فقد جدد ما اندرس منها أو أصابته يد التدمير ، كما

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن — الفنون الايرانية ص ٢٩ طبقة دار الكتب الثانية.
(٢) جهانگشاى ج ١ ص ١٩٢
(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٩٣

استحدثوا الكثير منها . فيذكر صاحب جامع التواريخ ، أن أورغون أعاد تجديد مكان يسمى « باغ منصوريه » بعد أن درست وعفت آثارها [1].

ويشير الجويني أنه بالغ في تجميلها حتى كانت الجنان تغير منها، وحتى كانت مضرب المثل في جمالها عند الشعراء فتغنوا بها [2] .

على أن سياسة التعمير كانت في ميولهم حتى منذ وثنيتهم الأولى ، ولم يفرقوا في هذه السياسة بين دين ودين ، فكانوا يبادرون بتجديد ماخربته أيديهم سواء أكان من العمائر الدينية أو المنشآت العامة ، فيذكر الجويني وينقل عنه صاحب جامع التواريخ أن هولاكو بلغ مكاناً يسمى « خبوشان » وكان عاصمة أصابها التخريب ، وتوقفت عنها موارد المياه ، وتهدمت جدر المسجد الجامع بها . ولما كانت من رغبات المليك — كما يقول الجويني — الميل إلى التعمير ، عرض عليه أمر هذه المدينة ، فأصغى لرأيه وأمر أن يعاد تجديدها وعمارتها ، وإقامة الأسوار بها ، وخفض عيش الرعية ، كما أن كل ما أنفقه عليها كان من خزانته الخاصة ، ولم تتحمل الرعية شيئاً منها، فعاد إليها أهلها بعد أن هجروها سنوات [3].

وقد ساهمت السيدات أيضاً في إقامة المنشآت، بل بالغن في تقدير شعور الرعية

---

(١) جامع التواريخ ص ١٨٢ . كاترمير .

(٢) جهانگشاى ج ٣ ص ١٠٤ — ١٠٥

(٣) جهانگشاى ج٣ ص ١٠٥ . ونص عبارته «واز آنجا كوچ بود، تا بخبوشان رسيدند وآن قصبه ايست كه أز أول خروج لشكر مغول تاإين سال‌معطل وخراب مانده بود، وأبنيه وأماكن‌آن بياب گشته، وتمامت كاريزها بى‌آب شده چنانك بيرون ديوارهاى مسجد جامع ديوار برپاى نبود . وبيشتر أزآن سكان و رعاياى آن ربعى أز آن قصبه را بيع كرده بودم. چون هوس وميل پادشاه بعمارت خرابيها مشاهده أفتاد، قضيهٔإين قصبه عرضه داشتم. پادشاه آن سخن را اصغافرسود ، وبتأسيس عمارت كاريز ورفع‌أبنيه ونصب بازار وخفض‌عيش رعايا وجمع إيشان يرليغ داد. چنانك‌هرچه در عمارت آن صرف مى شد أز خزانهٔ نقد فرسود تابر رعايا حمل نيفتد.. .»

فأمرن ببعض المنشآت العلمية والدينية . فيذكر عن أم هولاكو ، وكانت تسمى « سرقتنى » أنها شيدت مدرسة عالية مشتملة على ثلاث طبقات ببخارى وقفت عليها أوقافا لاتعد ولا تحصى مع ميلها إلى النصرانية على ماقيل وفوضتها إلى الشيخ « سيف الدين الباخرزى »(١) .

أما المنشآت العامة فقد عني بها تجديداً أو إنشاء ، ففى دائرة المعارف الإسلامية مادة تبريز ، أنه أنشىء بها فى عهدهم مسجد ومدرستان ، إحداهما للشافعية والأخرى للحنفية ، وبيمارستان ومرصد كالموجود بمراغة . ومكتبة ومكان للدواوين ، ومكان يسكن فيه المشرفون على هذه المنشآت ، وصهريج لشرب المياه ، وحمامات مزودة بالماء الساخن ، وحبست أوقاف تبلغ جملتها مائة تومان من الذهب للانفاق منها على المنشآت(٢).

وهكذا كانوا يبالغون فى إرضاء الناس ، وإرضاء أصحاب المذاهب المختلفة فى العقيدة الاسلامية . كذلك يذكر عن السلطان « خدابنده » أنه عندما أسلم كان يأخذ فى جميع أسفاره خيمتين يدرس فى إحديهما على المذهب الحنفى والأخرى على المذهب الشافعى ، وتسميان بالمدرسة السيارة ، وكان طعام الطلبة ووظائفهم من مطبخه وخزائنه ، وكان يخدم بنفسه الشيخ علاء الدين السمناني (٣).

وقد اهتم الجوينى كثيراً بالتخفيف على الرعية والمساهمة فيما يعود عليها من وسائل الترفيه والرعاية . ففى أحداث سنة ٦٧٠ ه يذكر صاحب الحوادث الجامعة أن علاء الدين الجوينى أمر بعمارة موضع فى نهر جعفر من أعمال واسط سماه

---

(١) تلفيق الأخبار ج ٢ ص ٢٤
(٢) مادة تبريز ص ٥٤٥ من الترجمة .
(٣) تلفيق الأخبار ج ٢ ص ٢٤

« المأمن » و بنى فيه ديوانا وجامعاً وخانا وحماما وسوقا ، وانتقل إليه خلق كثير .
كذلك كانت زوجته تساهم فى إنشاء العمائر والمدارس ، فقد ذكر هذا المؤلف فى حوادث سنة ٦٧١ هـ أن المدرسة التى أمرت بإنشائها قد تكاملت فى تلك السنة ووقفتها على الطوائف الأربع [١] .

على أنه إذا كان حظ المنشآت الدينية والمنشآت الاجتماعية — التى تفيد حياة المجتمع الإنسانى — كبيراً اهتم به كثير من ملوكهم ووزرائهم، فان المنشآت الأثرية والمنشآت العلمية لم يكن حظها بأقل من ذلك .

فقد كانت العمائر الإسلامية تعرف بضخامتها وعظمتها ، ونالت القباب التى تحتوى الأضرحة كثيراً من عناية سلاطين الإسلام فى مختلف الدول ومختلف العصور ، فمقبرة محمود بن سبكتكين فى غزنه والسلطان سنجر السلجوقى فى مرو قبل هذا العصر كانتا من أكبر العمائر الإسلامية وأفخمها وأروعها .

فاذا امتد الزمن إلى عهد المغول فقد مكن لسلاطينها من بسطة الحياة والترف والرخاء ما جعلهم ينفقون بسخاء على تلك العمائر والمنشآت .

فيذكر عن غازان أنه سنة ٦٩٩ هـ عقد العزم على أن يتخذ مدينة « شام » مقراً لراحته الأبدية ، فشيد بها بناء أكثر ارتفاعا من الگنبد الذى ابتناه السلطان سنجر فى مرو ، وكان يعتبر — حينذاك — أكثر الأبنية ارتفاعا فى العصر الإسلامى [٢] .

ونتهى من هذا إلى الإشارة بما ذكره الدكتور زكى محمد حسن فيما يتصل بحركة المغول وتأثيرها على فن العمارة بقوله :

---

(١) الحوادث الجامعة — ص ٣٧٢

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ص ٥٤٥ من الترجمة.

« والواقع أن التخريب الذى ينسب إلى غارات المغول ، بولغ فى نتائجه بعض المبالغة . فقد حدث حقيقة أن كسدت صناعة البناء وتهدمت عمائر كثيرة وهاجر الصناع والفنانون إلى آسيا الصغرى و إلى مصر » ويمضى فى عبارته إلى أن يقول: « ولكن ما فعله المغول وتيمور وخلفاؤه فى سبيل الفن وتشجيع الفنانين يجعلنا نغض الطرف عما حدث فى حروبهم الأولى من تدمير واضطهاد [1] » .

ثانياً — الحضارة العلمية

كانت حركة المغول فى أولها — كما صورنا سابقاً — مثاراً لهجرة القوم من أوطانهم فراراً من هول الغزو وخشية أن يقعوا طعمة للسيف والقتل ، ورأينا أن هذه الحركة دفعت فى طريقها كثيراً من العلماء والمحققين ورجال الأدب إلى الفرار من موطنهم والاتجاء إلى الدول التى يظنون الاحتماء بها .

كذلك قلنا إن بعض الولايات الإيرانية — وخاصة الجنوبية منها — حافظت على سيادتها ودخلت فى طاعة الغزاة . وأمنت هول الغزو وشره ، وكانت بمثابة الحرم الآمن لجأ إليها الكثيرون من رجال العلم والأدب ، وكانت أهم هذه الولايات هى ولاية فارس التى كان على حكمها «سعد بن زنگى» واستخلفه عليها ابنه « أبو بكر » فى طلائع تلك الحركة .

أما من حيث روح الغزاة أنفسهم بالنسبة لكبار الشخصيات والمبرزين فى الدول التى فتحوها وخاصة بإيران ، فإنها كانت روح مسالمة ، سلكت فى الإبقاء عليهم منهجاً سلمياً لا غبار عليه ، وبهذا فتحوا الطريق أمام موكب الحضارة

---

(١) الفنون الايرانية — للدكتور زكى محمد حسن — ص ٣٠ طبعة دار الكتب .

ليسير فى الاتجاه الذى رسمته له الظروف ، وكثيراً ما كانوا يستجيبون لرغبات كبار الشخصيات ، حتى فى أحرج الظروف وأشق المواقف .

ومنذ أيامهم الأولى،وهم يعملون على الاندماج فى الجماعة الإسلامية، و يتخيرون من بينهم رجالا يقومون بتوجيه شئون الدولة .

فهذا « قاآن » ولما تستتب الفتوحات بعد أو يستقر له الغزو ، نراه ينصح « أورغون خان » — وقد ولاه شئون الدولة — أن ينتخب جماعة لمعونته فى تدبير شئونها .فتم اختياره على ثلاثة هم ابنه المسمي « كراى ملك ، واحمد بيتكجى — الكاتب — والصاحب علاء الدين عطا ملك »[1] .

ثم تظهر مع الأيام شخصية علاء الدين ، و يبدو نفوذه عند الحكام والقادة فينصاعون لمشورته و يأخذون بآرائه ، فقد أذعن له هولاكو عند فتح قلاع الاسماعيلية فى إنقاذ المكتبات ، كما أسلفنا ، وقام بنواح كريمة للتخفيف عن الرعية وساهم بنصيبه فى إذكاء الحياة العلمية .

و بالرغم مما أصيب به هذا العصر من أحداث ، شهد وفرة من أجلة العلماء الذين برعوا فى مختلف العلوم والفنون ، سواء أكانت من العلوم النظرية أو العملية أو المدنية ، وهذا يدل على أن البيئة نفسها ، وحسن معاملة الحكام للرعايا والعلماء بصفة خاصة، كانت تهيىء لهذه الكثرة التى نلحظها ،طيب الحياة وحسن الإنتاج.

ومما لاشك فيه أن بعض العلوم قد نالت رعاية الحكام لها أسبق من غيرها، وهى العلوم التى تتصل بالحياة العملية ، فقد اتجه همهم — بادىء ذى بدء — إلى التعمير والإنشاء ، وتشجيع العلوم التى تساعد عليها .

---

(١) جامع التواريخ ص ١٦٤ . كاترمير .

ويذكر بارتولد أنهم لم يبالوا بالعلوم الدينيــة — بالطبع — قبل الاسلام ، ولـكنهم اجتهدوا لإنهاض حياة المدن،وترقية الصناعة والتجارة، مراعين فى ذلك منافعهم ، الخاصة وقاموا بحماية العلوم ذات الخطورة العمليــة كالطب والرياضة والهيئة [1] .

كما يجاريه فى هــذ الرأى تقريباً — مؤرخ شرقى آخر هو صاحب كتاب « تلفيق الأخبار » فيشير إلى أنهم كانوا منـكبين على العلوم والفنون خصوصاً الرياضيات منها ، وذلك قبل فراغهم من فتح البلدان [2] .

أما المنشآت العلمية التى تشير إلى هذا النوع من العلوم العملية ، والتى ظهرت مبكرة فى عهد هــذه الدولة ، فهو المرصد الإيلخانى الذى أنشأه هولاكو بمدينة مراغه ، وذلك بمعونة العالم الرياضى « نصير الدين الطوسى » وجماعة معه [3] .

كان نصيرالدين قبل التقائه بهولاكو يعمل لدى الاسماعيلية فى قلعة « آلموت » فى خدمة رجل من رجالهم ، فلما فتحت القلعة حضر بين يدى هولاكو ، وبذلك يشير صاحب « الحوادث الجامعــة » بقوله « لما فتحت آلموت خرج نصير الدين محمد الطوسى وكان فى خدمة علاء الدين محمد بن الحسن الاسماعيلى ، وحضر بين يدى هولاكو فحظى عنده وأنعم عليه ، فعمل الرصد بمراغه سنة ٦٥٧ هـ » [4] .

ويلتقى هذا المؤرخ مع صاحب « تاريخ گزيدة » فى أن الرصد عمل بمعونة

---

(١) بارتولد — تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٩٥ . ترجمة الأستاذحمزة طاهر .

(٢) تلفيق الأخبار ص ٢٣ من الجزء الثانى .

(٣) تاريخ گزيده ص ٥٨١ . وعبارته . أز آثار هولاكوخان زيج خانى است كه خواجه نصير الدين الطوسى ،باتفاق مؤيد الدين عروضى وفخر الدين اخلاطى ودبيران قزوينى ساخته است » .

(٤) الحوادث الجامعة ص ٣٤١ .

بعض الشخصيات التى تنسب إلى جهات مختلفة ،و يتفقان كذلك على تسمية بعضها فيذكر فى أحداث سنة ٦٥٧ هـ قوله « وفيها وضع نصير الدين الطوسى الرصد بمراغه،وعين فيه جماعة منهم المؤيد العروضى من دمشق ، والفخر المراغى من الموصل والفخر الأخلاطى من تفليس ، والنجم دبيران القزوينى ، ومحيي الدين المغربى ، وكانوا يتولون عمله إلى أن انتحر فى سنة ٦٧٢ هـ »[١] .

وقد امتدت سطوة هذا العالم ،ومكن له من القيام بعمله ووضعت تحت تصرفه أوقاف كثيرة كان يديرها بنفسه، وأخذ يجوب البلاد ليجمع ما يفيد الرصد من الكتب . ففى حوادث سنة ٦٦٢ هـ يشير هذا المؤلف إلى أن نصير الدين وصل بغداد لتصفح الأحوال والنظر فى أمور الوقوف ، والبحث عن الأجناد ، ثم انحدر إلى واسط والبصرة وجمع من الطرق كتباً كثيرة لأجل الرصد[٢] .

كذلك قام هذا العالم بكتابة ذيل على كتاب « جهانكشاى » للجوينى ،ضمنه حوادث سقوط بغداد ونهاية الخليفة . وهو من خير مايرجع إليه فى تلك الحادثة ، نظراً لمعاصرته لها ، ولوجوده فيها ، ولمركزه العلمى والاجتماعى .

و بجانب ذلك نهض بعمل آخر يدل على براعته فى الرياضة والعلوم ، فقد عمل مقابلة بين الشهور العربية والشهور المغولية ، وأثبتها فى جدول قائم بذاته ابتداء من سنة ٥٩٩ هـ وهى سنة جلوس چنگيزخان حتى مائة سنة بعد ذلك مما جعل الأستاذ القزوينى يشير إلى مبلغ أهميته وقيمته[٣] .

وقد برع هذا المؤلف بجانب ذلك فى كثير من العلوم المختلفة ، فى الإلهيات والطبيعيات والمنطق والفلسفة والأخلاق . فيذكر ابن العبرى هذا بقوله :

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٣٥٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٤١

(٣) تعليقات جهانگشاى ج ١ ص ١٠٣ للاستاذ القزوينى .

« وفى هذا التاريخ (٦٧٥ هـ) توفى خواجه نصير الدين الطوسى الفيلسوف صاحب الرصد بمدينة مراغه . حكيم عظيم الشأن فى جميع فنون الحكمة ، واجتمع إليه فى الرصد جماعة من الفضلاء والمهندسين ، كان تحت حكمه جميع الأوقاف فى جميع البلاد التى تحت حكم المغول ، وله تصانيف كثيرة منطقيات وطبيعيات و إلهيات اقليدس والمجسطى ، وله كتاب أخلاق بالفارسية فى غاية ما يكون من الحسن ، جمع فيه نصوص أفلاطون وأرسطو فى الحكمة العملية » .

ثم يمضى فى هذا إلى أن يذكر بعضاً من فضلاء عصره بقوله « وكان من الفضلاء فى زمانه نجم الدين القزوينى ، منطقى عظيم صاحب كتاب العين ، ومؤيد الدين العروضى ، وفخر الدين المراغى ، وقطب الدين الشيرازى، ومحيى الدين المغربى . ومن الأطباء المشهورين فخر الدين الأخلاطى ، وتقى الدين الحشائشى[1] » .

العناية بالعلوم التاريخية وأهم المؤلفات فيها

لقى علم التاريخ عناية كبيرة من الحكام ، وتفتحت الحياة لرجال التاريخ كما تفتحت صدور الحكام لهم ، وتقلب أغلبهم فى كثير من المناصب الرفيعة ، وابتسم لهم الحظ ، ونال بعضهم مركز الوزارة ، وتمكن هؤلاء بحكم مناصبهم فى الدولة أن يشاهدوا الأحداث ، وأن يلموا بها إلمام عيان ، كما فتحت لهم أبواب خزائن الكتب وزودوا بكل ما يطلبون ليقوموا بأعمالهم العلمية على الوجه الذى يرتضيهم .

وهناك كثرة ملحوظة من الكتب القيمة التى ألفت فى ذلك العصر — القرن السابع الهجرى — والتى تعتبر عمدة المراجع التاريخية باللغة الفارسية فيما دار خلاله من حوادث ، وهى فى ذاتها دليل قاطع على ما كان عليه سادة الحكم من رغبة صادقة فى تشجيع العلم ، والتوسع على العلماء ، و إبلاغ بعضهم أسمى المناصب .

---

(١) ابن العبرى ص ٥٠١

وقد أشار كثير من مؤرخى الآداب الذين عرضوا للحديث عن هذا العصر إلى هذه الظاهرة فى معرض كلامهم على الحركة العلمية .

فيذكر الدكتور عزام بك فى الفصل الذى كتبه عن حالة الأدب فى عصر المغول عبارته « والذى يثير إعجاب المؤلف فى هذه الحقبة . التأليف التاريخى وحده، فقد عنى التتار بتسجيل أخبارهم وتدوين مآثرهم وتعريف الناس بسير آبائهم ، فألفت كتب فى التاريخ هى أحسن ما أنتجه عصر من عصور إيران » (١)

بل كانت هذه الظاهرة موضع غرابة كذلك عند الأستاذ القزوينى . ففى مقدمته على جهانكشاى يقول « ومن الغريب أن فن التاريخ فى عهدهم نال رواجا ملحوظا ،وارتقى رقياً عظيما، ودونت فيه أحسن الكتب التاريخية (٢) » .

وبمثل هذا يذهب الدكتور رضا زاده شفق فى كتابه « تاريخ أدبيات إيران » فى قوله « إن بعض فروع العلوم — وخاصة ما يتصل منها بفن التاريخ — قد كان لها شأن عظيم (٣) .

وقد ذكر الأستاذ القزوينى فى مقدمته على «جهانكشاى» أهم الكتب التاريخية التى ظهرت فى هذا العهد ، وجعل فى مقدمتها ذلك الكتاب ، وكتاب « جامع التواريخ » وكتاب « وصاف » وكتاب « تاريخ گزيده » وغيرها . ثم يخص بالذكر الثلاثة الأولى ويفاضل عليها كتاب تاريخ جهانگشاى (٤) .

---

(١) قصة الأدب فى العالم ج ٢ ص ٥١٣ . للدكتورين أحمد أمين بك و زكى نجيب
(٢) جهانكشاى ج ١ ص د من المقدمة .
(٣) تاريخ أدبيات إيران. للدكتور رضا زاده شفق ص ٢٥٩ ،سنة ١٣٢١ هـ.ش .طهران
(٤) مقدمة جهانكشاى ج ١ ص هـ .

وعبارته : « شك نيست كه مهمترين اين كتب على الاطلاق سه كتاب — يعنى جهانگشاى وجامع التواريخ ووصاف — وتاريخ جهانگشاى برآندوى زمانا — وشايد رتبة — سمت تقدم دارد » .

ولما كان لهذا الكتاب — كما أشـــار الأستاذ القزوينى — مكانته العلمية بين مؤلفات هذا العصر . فإنا سنخصه بكلمة ، ونشير إلى شيء من تاريخ حياة صاحبه .

وليس يحملنا على هذا مكانة الكتاب بين غيره من الكتب فحسب ، بل هناك كثير من المزايا التى لم تتوفر لغيره من الكتب التى ألفت فى ذلك العصر ، كما أن هناك كثيراً من الاعتبارات التى تحملنا على أن نفرد كلمة لصاحبه وذلك لما يأتى :

١ — إن صاحبه — كما أشرنا — دخل فى وظيفة المغول مبكراً وتنقل فى مملكتهم بحكم مركزه ، وشارك فى مشاهدة كثير من الوقائع ، والتقى بكثير من الشخصيات فى رحلاته، وجمع الكثير من المعلومات عن تاريخهم.

٢ — يعتبر هذا الكتاب أنفس وأيسر الكتب التاريخية ، وهو خير مثال للأدب المنثور فى ذلك العصر بجانب قيمته العلميـة ، فمؤلفه أديب بارع جمع إلى مكانته العلمية، بساطة التعبير وسهولة الأداء ، والابتعاد عن الأسلوب المزخرف ، الذى أصيب به غيره من المتأخرين عنه أمثال الوصاف . ولهذا يعتبر ذلك الكتاب أهم نموذج للنثر فى عصره .

٣ — لقد عاصر مؤلفــه شاعرنا — سـعدى الشيرازى — الذى نؤرخ له وتلاقيا ، كما كانت بينهما مودة مما سنعرض له . كذلك كان للشـاعر مدائح فيه وفى أخيه شمس الدين .

ولهذا كان جديراً بأن نفرد له ولمؤلفه كلمة دون غيره .

كتاب جهانگشاى :

وهذا الكتاب نشره الأسـتاذ القزوينى « فى سلسلة جب » وقدم له، يقع فى ثلاثة مجلدات تشمل النواحى الآتية :

١ — المجلد الأول :وفيه ديباجة طويلة ، وفصل فى عادات المغول وقوانينهم القديمة ، ثم فصل فى القوانين التى وضعها چنگيز والتى تعرف باسم « الياسا » ثم يتحدث المؤلف عن تاريخ جنگيز وخروجه وفتوحاته فى بلاد ما وراء النهر وإيران ،وإزالة مملكة خوارزمشاه وغيرها، ثم فصل فى تاريخ ابنه أوكتاى قاآن وابنه كيوك خان .وينتهى بفصلين مختصرين عن حياة جوجى وجغطاى ابنى چنگيز

٢ — المجلد الثانى : ويشرع فيه مباشرة فى تاريخ ملوك خوارزم ويبسط الكلام فيما يتصل بسلاطينهم الأخيرين ، وخلال هذا الفصل يأتى على شىء من تاريخ ملوك الترك الكفار فى بلاد ما وراء النهر وتركستان ، وملوك الترك المسلمين ، وفى آخر هذا المجلد يعرض لتاريخ حكام المغول وولاتهم على إيران من عهد أوكتاى قاآن إلى مجيء هولاكو .

٣ — أما المجلد الثالث فيبدأ بتاريخ منكوقاآن الذى تولى سنة ٦٤٩ هـ . ثم تفصيل حركة هولاكو على بلاد إيران وقمعه الاسماعيلية ثم يبسط الكلام فى تاريخ اسماعيلية « آلموت » حتى انقراضهم على يد هولاكو .

وهناك ملحق يتصل ببعض نسخ المجلد الثالث فى شرح واقعة بغداد كتبه « نصير الدين الطوسى »

ولصاحب جهانگشاى رسائل أخرى — بالإضافة إلى كتابه المذكور — فله رسالة تسمى « تسلية الاخوان » ضمنها تصوير المحن التى أصابته من وشاية اصطنعها « مجد الدين اليزدى » ثم رسالة أخرى لا يعلم عنوانها ألفها بعد الرسالة الأولى ، وهى متممة لها .

ويذكر الأستاذ القزوينى أن منها نسخة بالمكتبة الأهلية بباريس وذلك فى مقدمته على جهانگشاى .

وبالإضافة إلى هاتين الرسالتين له بعض مكاتبات ورسائل ضمن مجموعة من رسائل « منتخب الدين بديع » الكاتب الجويني .

قيمة هذا الكتاب بين المؤلفات ومدى الرجوع اليه

أثبت الأستاذ القزويني في مقدمته على جهانگشاى كثيراً من الكتب العربية والفارسية التي رجعت إلى هذا الكتاب والتي استعانت به في كثير من موضوعاته وفصوله .

فممن نقلوا عنه من العرب «أبو الفرج غريغوريوس بن هرون الطبيب المالطى المعروف بابن العبرى » المتوفى سنة ٦٨٥ هـ . وهو من النصارى اليعقوبيين المقيمين بمراغه، والذين كانوا معاصرين لعطا ملك الجوينى، وله تاريخ عام مطول بالسريانية ويقول عن مؤلف جهانگشاى إنه عديم النظير ، كما يذكر أن كل ما يتصل بتاريخ الخوارزمشاهيين والاسماعيلية والمغول — مما أثبته فى كتابه — مأخوذ من جهانگشاى ، وكذلك فى مؤلفه الآخر بالعربية المسمى « تاريخ مختصر الدول » الذى اختصره من مؤلفه الكبير السريانى .

وممن أخذوا عن جهانگشاى من مؤلفى العربية « ابن طباطبا » الذى ألف كتابه « الفخرى » سنة ٧٠١ هـ واقتبس منه عدة فقرات فى كتابه .

وهناك كتاب آخر بالعربية يقع فى عشرين مجلداً « لشهاب الدين أحمد بن فضل الله الكاتب الدمشقى » المتوفى سنة ٧٤١ هـ . يسمى « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» نقل فى الجزء الثالث منه عدة فصول من جهانگشاى مترجمة إلى العربية ومنها فصل بعنوان « ذكر خروج چنگيزخان وابتداى انتقال دولت ومملكت ملوك جهان بدو » وفصل آخر بعنوان « ذكر أبناء چنگيزخان » مطابقان لما فى مسالك الأبصار .

أما الكتب الفارسية فمنها كتاب « رشيد الدين فضل الله » وزير غازان وأولجايتو . المسمى « جامع التواريخ » وقد ضمنه محتويات الأجزاء الثلاثة من جهانگشاى ، وبعض المواضع نقلها باختصار ، مثل تاريخ المغول فى خراسان وإيران ، وأحياناً يبسط الكلام كما فى تاريخ چنگيزخان منذ بدأت حياته حتى شرع فى فتوح البلاد الغربية ، وتاريخ أولاده وأحفاده .

والكتاب الثانى الذى أخذ عن جهانگشاى بالفارسية هو كتاب «الوصاف» لمؤلفه «عبد الله بن فضل الله الشيرازى» لخص فى مجلداته الثلاثة كتاب جهانگشاى من أوله إلى آخره ، وجعل الجزء الرابع من كتابه ملحقاً له ، ويصرح المؤلف نفسه فى ديباجته أن كتابه ذيل لجهانگشاى ، وقد شرع فيه حيث انتهى جهانگشاى أى من سنة ٦٥٥ هـ وامتد حتى سنة ٧٢٨ هـ .

ويشيد « الوصاف » كثيراً فى ديباجة كتابه بكتاب جهانگشاى ومؤلفه ويقول فى مقام التواضع :

وما أنا إلا قطرة من سحابة ولو أننى صنفت ألف كتاب

كذلك يقول الأستاذ القزوينى إن هناك بعض الكتب الأخرى التى أخذت عن جهانگشاى .

منها كتاب « البناكتى » المسمى « روضة أولى الألباب فى تواريخ الأكابر والأنساب » ومؤلفه أبو سليمان داود بن أبى الفضل البناكتى ألف فى حدود سنة ٧١٧ هـ .

ثم كتاب « روضة الصفا » ويقع فى سبعة مجلدات ، وهو فى تاريخ الإسلام وتاريخ إيران وخاصة تاريخ المغول والتيموريين حتى أواخر عصر السلطان أبى الغازى حسين بيقرا ، ومؤلفه محمد بن خاوندشاه المعروف « بميرخواند » المتوفى سنة ٩٠٣ هـ .

كذلك أخذ عنه « غياث الدين خواندمير » صاحب « حبيب السير » الذى ألف فى عصر الدولة الصفوية ، وهو تاريخ عام مشهور ، سجل الحوادث من البدء حتى وفاة الشاه « اسماعيل الصفوى » ويقع فى ثلاثة مجلدات ، وتوفى المؤلف سنة ٩٤١ هـ .

حياة الجوينى وصلة الشاعر به وبأخيه

اعتمدنا فى عرض حياة هذا المؤرخ الأديب على ما كتبه أيضاً الأستاذ القزوينى فى مقدمته على جهانگشاى . بالإضافة إلى ما أمكن الرجوع إليه من المراجع التى سيرد ذكرها . ونحن نتتبع أهم الأحداث فى تاريخ حياته ، وتاريخ أسرته متجنبين الاستطراد الذى لا يحتمله هذا الفصل .

كانت أسرة الجوينى إحدى الأسر القديمة المشهورة بايران . تناوبت الأعمال الهامة وتوارثتها ، فى دول السلاجقة وملوك خوارزم والمغول ، وأسندت وظيفة صاحب الديوان — وهى إدارة الشئون المالية — إلى كثير من أفراد تلك الأسرة، وبهذا عرف أغلب أفرادها بصاحب الديوان .

وقد ظفر بعض أعضاء هذه الأسرة بمناصب فى الدولة أعلى من ذلك ، كما كان الحال مع شمس الدين محمد، أخى علاء الدين صاحب جهانگشاى . فقد أسند إليه آباقا ابن هولاكو وظيفة (الوزير الأعظم) وجعله صاحب الكلمة المطلقة ، وكان أيسر أعماله ما يتصل بالديوان ، لكنه عرف أيضاً (بصاحب الديوان) .

وهكذا كان الشأن مع علاء الدين نفسه ، فانه بعد أن أسندت إليه إدارة حكومة العراق العربى عقب زوال الخلافة . كانت له — بطبيعة الحال — أعمال الديوان أيضاً فى تلك الولاية ، فاشتهر كذلك بصاحب الديوان .

أما نسب هـذه الأسرة فيعود إلى الفضـل بن الربيع — صـاحب خلفاء بنى العباس — وكان هو وأبوه من قبل ، قد فوضت إليهما الحجابة والوزارة .

وأما أجداد الجوينى فانهم اتصلوا بالملوك المعاصرين لهم من الخوارزمشاهيين والسلاجقة . اتصل جده الثانى — لأبيه — بالسلطان تكش بن إيل أرسلان ، وشاهد الحرب التى وقعت بينه و بين السلطان طغرل آخر سلاطين السلاجقة بولاية جوين .

كذلك اتصل خال جده هـذا بالسلاجقة . وكان يسمى « منتخب الدين بديع » كان من مشاهير كتاب عصره المقربين كثيراً للسلطان سنجر ، وجعله رئيس ديوان الإنشاء فى حكومته ، وكان له دالة على هـذا السلطان ، يحضر معه مجالس شرابه و يتندر و إياه كثيراً ، و يحكون من هذا أنه لما وقعت الحرب بين السلطان سنجر وبين آتسز، وقع الشاعر المشهور رشـيد الدين الوطواط شاعر آتسز فى يد رجال السلطان سنجر ، وكان الوطواط قد هجاه هجاء لاذعا ، فلما قبض عليه ورفع الأمر إلى السلطان تعرض له خال الجوينى هذا مستشفعاً .

وكان السلطان قـد أقسم ليقطعن الوطواط إلى سبعة أقسام ، فقال للسلطان بهذه المناسبة ، إن الوطواط طائر ضعيف لا يمكن تقطيعه إلى سبع قطع ، فلو تفضلت فأصدرت أمرك بأن يقطع قطعتين ، ضحك السلطان سنجر وعفا عنه .

وكان جد الجوينى — عطا ملك — يسمى شمس الدين محمدا . يشتغل أيضاً فى بلاط السلطان محمد الخوارزمشاهى ، وأسندت إليه أعمال الديوان فى عهده ، وفى عهد إبنه جلال الدين .

أما أبوه بهاء الدين محمد ، فكان ملازما لحكام المغول وعمالهم ، وأسندت إليه أيضاً وظيفة صاحب الديوان ، وكثيراً ما كان ينوب عن حكام المغول فى خراسان

وجميع البلاد الغربية عندما كانوا يذهبون لمقابلة الحاكم العام فى موطنهم الأصلى وفى سنة ٦٣٣ ﻫ بعث فى رسالة إلى أوكتاى قا آن، فأكرم وفادته وبالغ فى احترامه وأسند إليه وظيفة صاحب الديوان فى عموم المملكة .

وفى سنة ٦٥١ ﻫ بلغ بهاء الدين الستين من عمره ، فعزم على أن يقضى بقية حياته بعيداً عن أعمال الديوان . لكن لما كان الأمراء لم يرغبوا فى اعتزاله العمل عزم على الذهاب إلى العراق ، فلما بلغ أصفهان توفى فى تلك السنة .

أما عطا ملك صاحب جهانگشاى . فقد ولد سنة ٦٢١ ﻫ ، وقد اضطلع بعمل الديوان والكتابة — كما يذكر عن نفسه — قبل أن يبلغ سن العشرين . ثم انتظم فى سلك الكتاب الخصوصيين للأمير أورغون الذى تولى شئون الجانب الغربى قرابة خمسة عشر عاما من سنة ٦٤١ ﻫ إلى سنة ٦٥٤ ﻫ وهى السنة التى قدم فيها هولاكو إلى إيران، وكان تحت قبضة حكمه كل البلاد التى فتحت غرب نهر جيحون.

وكانت علاقة علاء الدين بالأمير أورغون فى مدة إدارته علاقة طيبة وكثيراً ما كان يصطحبه فى أسفاره أو فى ذهابه إلى حاضرة ملكهم ، وكان يقوم دائماً فى تلك الأسفار بعمل الكاتب الخاص .

وقد بكر فى اصطحابه له إلى عاصمة ملكهم بينما كان لا يزال فى السابعة عشرة من عمره ، وهناك فى « قراقورم » العاصمة أمضى عطا ملك عاما ونصف عام فى بلاط منكوقا آن ، — وكما يقص عن نفسه — لقى من مشورة أصدقائه وتشجيعهم له أن ينهض بكتابة مؤلف يقيد فيه آثار المغول وتاريخهم ، ينسخ به آيات القياصرة ويمحو به روايات الأكاسرة [1] .

ويبدو أن المؤلف أحجم عن القيام بهذا الموضوع ، ولكنه تحت مشورة أصدقائه وإلحاحهم نهض بهذا العبء ، خاصة بعد أن تهيأت له ظروف لم

(١) المقدمة ص كه .

تتكامل لغيره ، فإنه أمضى ما يقرب من عشرة أعوام بين بلاد المغول والممالك التى فتحوها ، ورأى بعينى رأسه كثيراً من الوقائع الهامة ، وتجمعت له — فى الوقع — سبل التعرف على أخبارهم وحوادثهم سماعا أو عيانا ، ولهذا بدأ يقيد معلوماته وملاحظاته ، وشرع فى تأليف كتابه سنة ٦٥٠ هـ وانتهى منه سنة ٦٥٨هـ .

أما فى عهد هولاكو فقد ظلت له أيضاً مكانته ، وكثيراً ما كان يصاحبه فى حركاته،و ينتقل معه خلال حرو به وخاصة حروبه ضد الاسماعيلية ، وكانت له أياد بيضاء فى إنقاذ مكتباتهم ، كما أنقذ مافيها من آلات الرصد والآلات الأخرى .

وبعد أن أبقى على المصاحف النفيسة منها ، وبعض الكتب الهامة ، وما فيها من آلات علمية ، ترك بقية ما فيها من كتب الاسماعيلية التى تتصل بأصول مذهبهم أو فروعه عرضة للنهب أو التدمير . لكنه أنقذ منها كتاباً وحيداً هو الذى يتصل بتاريخ حسن الصباح نفسه المسمى « سرگذشت سيدنا » والذى أثبت المؤلف مختصره فى كتابه المجلد الثالث ، ومنه خلاصة أكثر تفصيلا فى كتاب «جامع التواريخ» وضعها صاحبه فى المجلد الثانى فى تاريخ اسماعيلية «آلموت» وهذه الخلاصة التى اشتمل عليها الكتابان المذكوران لا نظير لها فى غيرهما من الكتب الأخرى .

كذلك صاحب هولاكو فى فتح بغداد ، بعد أن فرغ من قلاع الاسماعيلية واتجه إليها سنة ٦٥٥ هـ . وفى سنة ٦٥٧ هـ فوضت إليه حكومة بغداد كما يصرح المؤلف فى رسالته « تسلية الاخوان » وظل عطا ملك بقية مدة هولاكو على حكومة بغداد . فلما توفى هولاكو سنة ٦٦٣ هـ وتولى بعده آباقا جعل ممالك بغداد وفارس إلى « سوغونجاق أغا » من أمراء أسرتهم الكبار، وجعل على بغداد علاء الدين الجويني نيابة عن « سوغونجاق » .

وخلال مدة حكم آباقا (٦٦٣ هـ — ٦٨٠ هـ) التى امتدت ثمانية عشر عاما كان علاء الدين يدير شئون حكومة بغداد مستمداً سلطته من سوغو نجاق .

وجه علاء الدين جميع همته — خلال تلك الفترة — إلى تعمير البلاد ، وراحة الرعية ، وألقى عن كاهل الفلاحين والمزارعين كثيراً من الأعباء المالية ، و بذل جهداً مشكوراً فى إنشاء القرى و إصلاح المزارع وشق القنوات ، ولم يمتد الخراب الذى أصاب بغداد والعراق العربى — بسبب حروب المغول — كثيراً . فسرعان ما دبت الحياة فيها من جديد ، وارتد إليها العمار ، واشتغل الناس بالزراعة وتضاعف دخل العراق ، وعمرت البلاد حتى صارت أكثر رخاء منها أيام الخلفاء .

وقد امتدت حكومة علاء الدين على بغداد أربعة وعشرين سنة ، أمضى ست سنوات منها فى عهد هولاكو من سنة ٦٥٧ هـ إلى سنة ٦٦٣هـ ، وقريباً من ثمانية عشر عاما فى سلطنة آباقا حتى سنة ٦٨٠هـ ، ثم قرابة عام واحد فى عهد السلطان أحمد . وخلال هذه المدة وشى به كثير من أعدائه انتقاماً منه ، وقد آتت هذه الوشايات ثمارها فقضت على الكثيرين من أسرته .

نذكر من بين هذه الوشايات مادبره صاحب الفخرى المعروف « بابن الطقطقى » . كان من مشاهير رجال المال بالعراق واستأجر بعض الأملاك بدون أجر ، فحصل بذلك على ثروة طائلة واتسع أمره شيئاً فشيئا ، فأرسل خطاباً إلى آباقا خان يطلب عزل علاء الدين من حكومة بغداد . فأرسل «شمس الدين الجوينى» وزير المملكة الأعظم بهذا الخطاب إلى أخيه « علاء الدين » ببغداد وكتب له أيضاً خطابا أرفقه معه ، أثبت فيه هذين البيتين :

كم لى أنبه منك مقلة نائم   يبدى سباتا كلما نبهته
فكأنك الطفل الصغير بمهده   يزداد نوما كلما حركته

أما الوشاية التى حيكت قبيل وفاته فقد كانت عنده من الأهمية بحيث ألف فيها رسالة خاصة سماها « تسلية الاخوان » . وعمل رسالة أخرى تعتبر ذيلا للرسالة الأولى كتبها قبل أن تفجأه المنية بشهور .

دبر تلك الوشاية شخص يسمى « مجد الملك اليزدى » . كان من أهل يزد ، يعمل أبوه وزيراً لحكامها من الأتابكة الذين عرفوا بأتابكة يزد ، واتصل مجد الملك ببهاء الدين محمد بن شمس الدين الجوينى فى أصفهان فاختاره لبعض الأعمال الهامة.

لكن سرعان ما وقعت الوقيعة بينه و بين أفراد هذه الأسرة وأخذ يوغر صدر المغول عليهم ، ولفق على علاء الدين أخباراً ، فأشاع عنه أنه اتصل بملوك مصر .

لم تؤد هذه الوشايات إلى النتيجة المطلوبة فى نظر مجد الملك ، فافتعل مكيدة أخرى ، وأخذ يشيع عنه أنه يحصل من أموال بغداد كل سنة ما يقرب من مائتى ألف دينار لم يرسل شيئاً منها إلى الخزانة العامة .

لكن هذه المكيدة لم تؤت ثمارها أيضاً ، فأخذ يحيك غيرها كذلك ، وما زال مجد الملك يفتعل المكايد و يدبر المؤامرات لعلاء الدين وأسرته حتى أوقعه أخيراً سوء طويته فيما كان يدبره لهم من القتل فقتل ، ثم قطعوه إربا وأرسلوا بكل عضو من أعضائه إلى قطر من الأقطار كما يشير الوصاف إلى ذلك (١) .

كذلك يذكر صاحب «الحوادث الجامعة» فى أحداث سنة ٦٨١هـ أن السلطان تكودار أحمد بعد أن جلس على العرش أعاد الصاحبين شمس الدين وعلاء الدين إلى منصبيهما ، بعد أن أبعدا عنهما بتأثير وشاية مجد الملك ، وسلم هذا إلى الصاحب علاء الدين فقتله قتلة شنيعة ، إذ أرسلت أطرافه إلى البلاد وسلخ رأسه وحمل إلى بغداد (٢) .

---

(١) وصاف ص ١٠٩

(٢) الحوادث الجامعة ص ٤١٩

خاتمة حياة المصنف ومصير أسرته :

أما نهاية المصنف فانه بعد جلوس السلطان أحمد بن هولاكو وقع خلاف شديد بينه و بين ابن أخيه أورغون بن آباقا بن هولاكو .

وكان شمس الدين وأخوه علاء الدين من ألزم الناس بالسلطان أحمد ومدبرى أمور مملكته ، ولهذا حنق عليهما أورغون ، وكثيراً ما كان ينسب وفاة أبيه آباقا إلى تدبير شمس الدين . إذ يقال إنه مات مسموماً ، وكان هذا أيضاً سبباً فى مضاعفة البغضاء عليهم .

وفى سنة ٦٨١ ه قدم أورغون من خراسان إلى بغداد . فلما بلغها طلب جميع ما تحت يد علاء الدين ، وكان لهذا نائب يسمى « نجم الدين الأصغر » مات حديثاً فى بغداد ، فأصدر أورغون أمراً حتى يخرجوه من المقبرة ويلقوه فى الطريق .

فلما بلغ الخبر علاء الدين تألم كثيراً وأصابه صداع توفى به ، ودفن فى الرابع من ذى الحجة سنة ٦٨١ ه فى بلدة تسمى « مغان» ثم جيء به إلى تبريز فوورى التراب فى مقبرة « جرنداب » وقد أسعفته المنية قبل أن يشارك بقية أفراد أسرته نهايتهم المشؤومة . فانهم شربوا كأساً مريرة فى نهاية محزنة بعد ذلك بقليل .

فأخوه شمس الدين — الوزير الأعظم — منذ أواخر عهد هولاكو وابنيه آباقا وتكودار — أى ما يقرب من اثنين وعشرين عاما — لقى حتفه المشئوم هو وأبناؤه بأمر أورغون سنة ٦٨٣ ه

كذلك قتل حفيده على بن بهاء الدين بن شمس الدين فى « كاشان » ، و يعتبر مدفنه مزاراً من المزارات التى تقصد ، وأصيب أخوه « على » بعلة الصرع فمات بها عندما سمع بتلك الكوارث ، كذلك قبضوا على منصور بن علاء الدين فى نفس السنة واستشهد على جسر بغداد .

وفى سنة ٦٩٣هـ وصل تبريز صاحب « تاريخ وصاف » ، وزار مقابر الأسرة فى « جرنداب » مترحماً عليهم ، وأثبت فى تاريخه وصفاً مؤثراً لخاتمة شمس الدين وأبنائه الأربعة يحيي وفرج الله ومسعود وأتابك ، وابن أخيه و بقية أفراد أسرتهم وذلك فى قصيدة نثبت منها ما يأتى :

يا جرنداب من مقابر تبريـ	ـز سقاك الحيا الملث الهامى
فلقد أطبقوا ثراك على	غر وجوه ، على خدود كرام
ضم شمساً مقرونة بعلاء	ونجوماً حكت بدور التمام
سبعة قد بكت عليهم نجوم	سبعة فى ضيائها والظلام
فرج الله ، ثم يحيي ، ومسعود	وهرون ، منجد المستضام
وأبوهم محمد ، قد تقضوا	وجميع قتلى بحد الحسام
وشجانى مثوى عطا ملك	صاحب ديوان ملك دارالسلام
فعلى تلكم القبور تحايا	مردفات من ربنا بالسلام (١)

و يتمثل وصاف كذلك بهذه الأبيات عندما مر بمقبرة علاء الدين .

عظمنا ، فحيتنا مساعيه إنها	عظام المساعى ، لا العظام البواليا
مررنا به فاستوقفتنا رسومه	كما استوقف الروضُ الظباءَ الجواريا
وقفنا فأرخصنا الدموع وربما	تكون على سؤم الغرام غواليا
ولما تجاهشنا البكاء ولم نطق	عن الوجد إقلاعاً،عذرنا البواكيا (٢)

* * *

السعدى وأسرة الجوينى

كان الشاعر على صلات قوية بالصاحبين ، علاء الدين وأخيه شمس الدين، وهناك كثير من القصائد فى مدحهما ، و بجانب ذلك يذكر الرواة قصصاً ترمى إلى صلاته بهما ومدى تقديرهما له .

---

(١) وصاف ص ١٤٣

(٢) نفس المصدر ص ١٤٢

فأما ما يدور حول قصته مع علاء الدين ، فإنه أرسل لعامله بشيراز عشرة آلاف دينار ليسلمهـا للشيخ — وكان إذ ذاك فى معتكفه بمدينته — فلمـا بلغ الرسول شيراز كان العامل قد قضى نحبه لعدة أيام مضت ، فعاد الرسول ثانية ، و يقال إن الشيخ بعث بأبيات إلى علاء الدين فهم منها أنه لم يسمع بأمر الرسول والمال ، و بلغ الخبر شمس الدين الجوينى ، فبعث إلى أخيه علاء الدين ليرسل بخمسين ألف أخرى مشفوعة بالرجاء فى قبولها ، لينفق منها الشيخ على ما يراه من وجوه الخير بشيراز .

تسلم الشيخ المال الذى أرسل إليه ، وجعل منه رباطا بقلعة قهندز (١)

ومن هذا القبيل أيضاً قصة يسندها الرواة إلى شمس الدين نفسه ، فيقال إنه بعث إلى الشيخ بخمسمائة دينار مع غلام ،فاختلس الغلام منها خلال الطريق مائة وخمسين ، فأدرك الشيخ ذلك فكتب إلى شمس الدين يرمز إليه بقوله :

« خواجه تشريفم فرستادى ومال — مالت فزون باد وخصمت پا يمال
هر بدينـارى سالى عمر باد — تا بمانى سيصد و پنجاه سـال »

ومعناها « بعث لى مولاى خلعة ومالا. فليزد الله فى مالك ، و يهلك أعداءك وليمد فى عمرك بقدر دنانيرك ، فتعيش ثلثمائة وخمسين عاماً » .

أدرك شمس الدين أن المال الذى أرسل إل الشيخ قد نقص ، وعرف مقدار ما أخذ منه ، وتقول الرواية إنه ترضى الشيخ واعتذر له .

وقصة أخيرة تشير إلى تكريم الشيخ و إجلاله من الصاحبين معاً ، ذلك أن الشيخ حينما عاد من أحد أسفاره إلى الحج فى طريقه إلى تبريز،اتفق أن رآهما قادمين فى الطريق فى صحبة آباقا ، فلما رأياه على بعد ، ترجلا فى الحال ، وانحنيا أمامه ، وقبلا يديه ورجليه ، كما أظهرا بالغ السرور بلقائه . تعجب آباقا من ذلك وسألهما.

---

(١) كليات فروغى ص ٤٢

مَن الشيخ ؟ فأجاباه إنه أبوهما ، ولما كان قد عرف أن أباهما توفى أنكر عليهما ذلك ، فقالا له إنه أبوهما وشيخهما « سعدى الشيرازى » . فسأله آباقا نصيحة ، فقال له الشيخ « إنك لا تستطيع أن تحمل من الدنيا إلى العقبى شيئاً سوى الثواب أو العقاب،وأنت مخير بين الأمرين ، فطلب إليه آباقا نظم هذا المعنى شعراً ، فنظم الشيخ فى الحال بيتيه :

« شهى كه حفظ رعيت نگاه ميدارد   حلال بادخر اجش كه مزد چوبا نيست
وگرنه راعى خلق است زهر مارش باد   كه هرچه ميخورد أو جزيهٔ مسلما نيست »

ومعناهما « إن المليك الذى يحافظ على الرعية ، ليكن حلالا له ما يأخذه من الخراج ، فان لم يكن راع لها ، فليكن سماً زعافاً ما يأخذه من جزية المسلمين » .

بكى آباقا حين سمع هذين البيتين ، وسأل الشيخ عدة مرات ، هل أنا راع أم لا ؟ فيرد الشيخ إذا كنت راعياً فالبيت الأول ، و إلا فالبيت الآخر .

ويذهب الأستاذ القزوينى إلى أن هـذه القصص يبدو عليها أثر الوضع والانتحال ، ولا تخلو فى وقائعها من المبالغة الظاهرة .

وسواء أصحت القصص أم لم تصح ، فإنها لم تغير شيئاً من وقائع صلة الشيخ بالصاحبين،فَصِلته بهما ثابتة قوية،إذ أسندت إليهما أكبر أعمال الدولة فى حكومة المغول ، وعرفا بالعـدل والإنصاف ، وأقاما كثيراً من المنشآت الخيرية ، واهتما بأمر الرعية اهتماماً بالغاً ، وكانت مكانتهما فى البيئة الإسلامية فى المحيط الذى يعيشان فيه مكانة لا تدانيها مكانة ،شهد بها الكثيرون ممن عاصروهم أوأرخوا لهم .

وصلة الشاعر بهما تبدو من مدائحه فيهما ، وهـذه المدائح من غرر ما نظمه الشاعر فضلا عن كثرتها كثرة ملحوظة [1] .

---

(١) أنظر مدائحه « فى علاء الدين » فى الصفحات الآتيـة من كايـات فروغى ٤٣١ ، ٤٣٩ ، ٤٥١ ، ٤٦٠ ، فى قسم القصائد وص ٧٣٨ فى قسم البدائع وانظر مدائحـه فى شمس الدين فى الصفحات الآتيـة من النسـخة المذكورة . ٤٤٤ ، ٤٦٥ ، ٨١٥
وانظر سعدى نامه . قزوينى ص ١٥٥ — ١٦٠

الشاعر لم يرث أحدا من آل الجويش :

رأى هنرى ماسيه فى تعليل هذه الظاهرة والرد عليه :

وهذا شىء يستلفت النظر إلى حد ما ، ويدعو إلى التساؤل . ذلك أن الشاعر على مبلغ صلته بأسرة الجوينى وحرصه على مدحهم ، ومع امتداد الحياة به ، ومشاهدته ما حل بهم من تعذيب وتشريد وقتل ، مع كل هذا ، لم يثبت للشاعر — قطعاً — شىء فى رثائهم .

ألم يدرك الشاعر هذه المأساة ؟ ألم تهز حادثتهم مشاعره ؟ ألم يؤثر له مراث فى غيرهم أو مدائح بعد عهدهم ؟ .

كل هذا يدعو إلى التفكير .

وقد ذهب الأستاذ « هنرى ماسيه » فى تعليله لهذه الظاهرة مذهباً لا نراه معه . ونحن نعرضه ونناقشه .

يرى أن الشاعر إما توفى قبل وفاة عطا ملك الجوينى ونزول النكبة بأخيه وأبنائه ، و إما كانت وفاته بعد هذه الحوادث بقليل ، تلك الحوادث التى حدثت ما بين سنة ٦٨١هـ وسنة ٦٨٣هـ و بهذا يعلل سكوت الشاعر عن رثاء هذه الأسرة .

ونحن نثبت — أولا — النص الذى ورد فيه هذا الرأى منقولاً عن دائرة المعارف الإسلامية فى موضوع « سعدى الشيرازى » . ثم نرد عليه . ونأخذ بعد ذلك فى تعليل هذه الظاهرة بما يعن لنا . و بما يرتبط بحوادث العصر ، وتاريخ الشاعر نفسه .

As in S'a di's works there is no allusion whatever to the tragical death of both the brothers, D. Juwaini (1282 — 1283) Massé thinks that the Poet have died before, or very shotly after these events.

ونحن نرد على هذا الرأى بالأمور الآتية :

أولا — ثبت عند الرواة أن الشاعر توفى بعد نكبة الجوينيين . فعلاء الدين

توفى سنة ٦٨١ ﻫ كما أسلفنا . وشمس الدين وأولاده وأبنـاء علاء الدين أصيبوا بالكارثة سنة ٦٨٣ ﻫ .

ثانياً — مع اختلاف الرواة فى تحديد وفاة الشاعر ، فإنهم جعلوها بعد هذين التاريخين بثمانى سنوات على أقل احتمال ، وباثنتى عشرة سنة على أبعد احتمال ، ويشير إلى هذا الأستاذ عباس إقبال فى قوله : « در خصوص أيام حيات سعدى أمر محقق إينكه أو در يكى أز سنوات ٦٩٠ يا ٦٩١ يا ٦٩٤ ﻫ فوت كرده » (١)

وسنرى فيما يأتى عند التعرض لحياة الشاعر نفسه ، أن هناك شبه اتفاق بين المؤرخين على الرأى الذى يقول بوفاة الشاعر سنة ٦٩١ ﻫ . وهو الرأى الذى قال به دولتشاه (٢) » .

ثالثاً — ثبت من مدائح الشاعر أنه عرض فى إحداها لمدح أحد ولاة شيراز سنة ٦٨٦ ﻫ ذلك هو — كما يقول الأستاذ القزوينى — مجد الدين أسعد الرومى . والذى ظل فى منصبه حتى ٦٨٨ ﻫ . ويستمد هذا من عبارة لصاحب « شيرازنامة » . يقول الأستاذ القزوينى فى عبارته : « مجد الدين بن أسعد رومى بتصريح صاحب شيراز نامه (٣) ، در سنه ششصدوهشتاد وشش ، يعنى در أواسط عهد أورغون بحكومت شيراز منصوب شد ، وتاسنهٔ ششصد وهشتاد وهشت درآن وظيفه باقى بود (٤) » .

يثبت من هذا أن الشاعر مدح أحد الحكام فى عهد أورغون خان وأن الحياة قد امتدت به حتى تلك السنة . وهذه القصيدة التى نظمها سعدى فى مجد الدين مطلعها :

« جهان برآب نهادست وزندگى برباد غلام همت آنم كه دل بدونهاد »

(١) عباس اقبال — سعدى‌نامه ص ١٦

(٢) تذكرة الشعراء — دولتشاه ص ٢٠٩ . طبعة ليدن .

(٣) شيراز نامه ص ٧٢—٧٣ (٤) سعدى نامه ص ١٤٦

يثبت من هذا — فى غير تردد — أن الشاعر توفى بعد هذه السنوات كما رأينا ، وكما ذكره الرواة ، وجرت به وقائع حياة الشاعر .

تفسير هذه الظاهرة :

يمكن تعليلنا لهذه الظاهرة بالأمور الآتية ، مستمدة من منطق الحوادث ، ومن طبيعة الشاعر نفسه .

أولاً — فى هذا التاريخ ما بين سنة ٦٨٣ هـ و ٦٩٠ هـ وقع العالم تحت تأثير تلك السياسة العنيفة التى اتبعها أورغون ورجال حكومته فى الولايات الإسلامية ، وعصفت بالعالم الإسلامى فى ذلك المحيط تلك العواصف المريرة ، وأصيب بتلك النكسة القاتلة التى أشرنا إليها سابقاً ، والتى بدأت بحكم أورغون فى أعقاب مقتل السلطان أحمد ، فكممت الأفواه ، واحتبست الأنفاس فى الصدور ، وانطوت القلوب على لوعة حرى .

فلم يتمكن الشاعر من أن يعرض إحساسه . ولم يحبس المدامع بجفنيه فحسب كما صور رثاءه للخليفة، ولكنه هنا حبس أنفاسه فى صدره أيضاً ،ولم يستطع هو أو غيره — تحت ظلال هذا الإرهاب — أن ينبس ببنت شفة فى قوم قضى عليهم الحاكم العام بمثل تلك النهاية ، وإلا كان معادياً للحكومة الرئيسية فيعرض نفسه لشدائد لا طاقة له باحتمالها .

ثانياً — ويمكن بالإضافة إلى هذا العامل قولنا إن الشاعر كان فى هذا الوقت — من أخريات حياته — معتكفاً فى شيراز لا يساهم بالكثير أو بالقليل فى مجرى السياسة العامة فى الدولة وتصوير ما يجد فيها من الحوادث ، وكان موطن التوجيه السياسى العام فى غير شيراز ، بل فى غير فارس نفسها ، فاعتكف الشاعر فى تلك الظروف ، ورضى أن يقبع فى عقر داره ، يستمع للأحداث العامة فى الدولة دون

أن يفصح عنها أو يعبر عن رأيه فيها ، وإن كان هـذا لم يمنع من اتصاله الضيق ببعض الحكام الذين كانوا فى فارس أو شيراز نفسها ، الذين رأى فيهم أنهم يؤدون خدمات جليلة لموطنه .

ثالثاً — يلاحظ كذلك أن الشاعر كان مقلا فى مدائحه ، وكان مقلا أكثر من ذلك فى مراثيه ، وكان المدح كما يقول الشاعر مخالفاً لطبعه . يقول عند ما أقدم على مدح حاكم شيراز « أبى بكر بن سعد » حاكم ولايته الذى هز مشاعره، وقدم له كتابه البوستان مشيراً إلى أن المدح ليس من طبعه .

« مرا طبع أزين نوع خواهان نبود سر مدحت پادشاهان نبـــود »

ومعناه « ليس لى طبع الراغبين فى هذا النوع، وهو أن أمدح السادة الملوك » .

رابعاً — ونحن يمكن أن نقسم مراثيه — على قلتها — إلى نوعين :

نوع رثى فيه أشخاصاً داخل موطنه من رجال حكومة الأتابكة الذين عاصرهم ، أو من الولاة الذين تولوا أمرها من أبناء وطنـه تحت إشراف حكومة المغول .

ونوع رثى فيه جماعة خارج موطنه ، فى الموطن الإسلامى العام .

فمن النوع الأول رثاؤه لأبى بكر بن سعد ، وابنه سعد بن أبى بكر ، ووزيرهما فخر الدين أبى بكر (١) ومرثية أخيرة لرجل من عظماء شـيراز يسمى عز الدين أحمد بن يوسف (٢) .

هذه هى مراثى الشاعر فى أشخاص حكموا شيراز أو كانوا ذوى صلة بحكومتها. أما مراثيه فى أشخاص خارج شيراز فلم توجد له مراث — قطعاً — فى غير الخليفة المستعصم فى مرثيتيه اللتين أشرنا إليهما سابقاً .

ومن المعروف أن نهاية الخليفة طوت معها نهاية الخلافة أيضاً فى حادثة هزت

---

(١) سعدى نامه ص ١٣٢—١٣٣ (٢) المصدر نفسه ص ١٦١

جوانب العالم الإسلامى كله ، فتناول الشعراء والأدباء — كل فى موطنه — هذه الحادثة وأظهروا شعورهم نحوها بما فاضت به قرائحهم ، وكانت مساهمة « سعدى » فى رثائه للخليفة مشاركة منه للشعور الإسلامى العام من جانب ، وإظهاراً لما يكنه نحو الخلافة وموطنها بغداد من جانب آخر . فيبدو فى هاتين المرثيتين مدى شعوره بالمرارة أيضاً على بغداد ، وفقدها سطوة الملك وبهاء السلطان ، وهى المدينة التى كان لها فى نفسه أكبر الذكريات حيث تناول فيها علومه الأولى .

وهكذا نرى الشاعر مقلا فى مراثيه ، فلا غرابة ألا يرثى أحداً خارج موطنه غير الخليفة ، ولا مبرر أن نلتمس لهذا بعض الأسباب التى تجانب الواقع ، إن كان لا بد لنا أن نعلل سكوت الشاعر عن رثائه لهذه الأسرة .

الفصل الثالث

ولاية فارس ومظاهرها فى القرن السابع الهجرى

أصل التسمية وأقسامها :

تشمل هذه التسمية منطقة فى إيران ، تقع إلى الجنوب الغربى منها فيما يجاور الخليج الفارسى ، وحوض الدجلة والفرات . وترجع هذه التسمية إلى عهد الدولة الأسطورية الأولى ، التى تسمى بالپيشدادية ، إذ يقال إنها أخذت من « فارس ابن طهمورث [1] » أحد ملوكها .

ومن المؤرخين من يرجعها إلى اسم « بهلو بن سام بن نوح [2] » ثم استخدمت هذه الكلمة فيما بعد للدلالة على المملكة نفسها [3] .

وكانت مملكة فارس قديماً ، تمتد من نهر جيحون حتى حوض نهر الدجلة والفرات [4] ، ثم قصرت دلالتها على الولاية الجنوبية الغربية .

وكانت هذه الولاية تمتد مائة وخمسين فرسخاً فى مثلها، بشكل مربع التكوين. يتاخم ركنها الشمالى أصفهان وكورها ، والشرقى كرمان وكورها ، والجنوبى المحيط الهندى ، والغربى خوزستان وكورها [5]

وكان لهذا الإقليم مكانته منذ القدم ، ففيه نشأت الدولة الأولى ، وفيه

---

(١) حاشية الشاهنامه العربية ج ١ ص ٢٠ للدكتور عزام بك وانظر أحسن التقاسيم ص ٤٢١

(٢) شيراز نامه ص ١٤

(٣) فارس نامه ص ١١٩—١٢٠

(٤) شيراز نامه ص ١٥

(٥) فارس نامه ص ١٢١

ظهرت الحضارة القديمة ، وفيه اتخذت أول عاصمة وهى اصطخر فارس ، ولا تزال فيه حتى الآن معالم تلك الحضارة القديمة . وتطور الزمن بهذا الإقليم فحكمته دول قبل الإسلام . كان آخرها دولة آل ساسان ، فلما جاء الإسلام أشاد به كثير من المؤرخين .

ويذكر « ابن البلخى » حديثاً عن النبى عليه السلام قوله « لو كان هذا العلم معلقاً بالثريا لناله رجال من فارس[1] » . ويروى صاحب شيرازنامه هذا الحديث على رواية أخرى بجعل كلمة الدين بدل العلم[2] .

ويورد صاحب « نزهة القلوب » قوله عليه السلام « إن الله خيَّر بين خلقه من العرب قريشا ومن العجم فارسا[3] » .

والأمر لا يقف عند هذا فى تمجيد أبناء ذلك الإقليم ، بل يذهب بعض المفسرين إلى أن القرآن وردت فيه إشارات إليه وإلى أبنائه فى مواضع مختلفة ، فالآية « بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد » يرى بعض المفسرين أنها تشير إلى اعتداء اليهود على سيدنا زكريا ويحيى بالقتل ، فأرسل الله عليهم « كودرز الأشكانى » من أبناء فارس . كما يرى بعضهم أيضاً فى قوله تعالى « ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون » أن ذلك إشارة إلى أبناء فارس[4] .

ويذكر ابن البلخى عن النبى عليه السلام — وقد سئل — لماذا هلك عاد وثمود ومن جاراهم سريعاً وامتد ملك الفرس مع عبادتهم للنار ؟ فقال « لأنهم عمروا البلاد وعدلوا فى العباد[5] » .

---

(١) فارس نامه ص ٧

(٢) شيراز نامه ص ١٥

(٣) نزهة القلوب ص ١١٢

(٤) شيراز نامه ص ١٥

(٥) فارس نامه ص ٥

أما أقسامها فيذكر « البشارى » فى كتابه « أحسن التقاسيم » أنها تحتوى ست كور. هى — من ناحية خوزستان — فى حدها الغربى كما يأتى: « أرجان . أرد شيرخره . داراب جرد . شيراز . شابور . اصطخر [1] » لكن ابن البلخى يجعلها خمس كور.هى: « اصطخر . دار ابجرد . أرد شيرخوره . شابور خوره .قباد خوره [2] » ويأخذ عنه هذا التقسيم صاحب «شيرازنامه [3]» وصاحب « نزهة القلوب [4] » . هذه هى أقسام فارس وكورها التى ذهب إليها المؤرخون .

فارس فى ظل الاسلام :

منذ عهد الإسلام الأول وعيون المسلمين تتطلع إلى فتح هذا الإقليم ، كما كانوا يرسلون إليه الكثير من الناس للتعرف على أحواله . ففى عهد الحجاج أرسل من قِبَله — حين كان على العراق — من ينقل إليه أخباره ، فلما عاد وصفه بقوله « جبال ورجال وفيه من كل بلد بلد[5] ».

وكانت الجيوش العربية قبل أن تدخل فارس تعسكر فى موضعين : أحدهما بالكوفة شمالا ، والآخر بالبصرة جنوباً ، ونفذت الجيوش التى كانت تعسكر فى البصرة إلى فتح البلاد المجاورة لها ، ففتحت البحرين وعمان ومكران وكرمان وفارس وخوزستان ، وكانت هذه البلاد من مضافات البصرة [6] .

وبدخول الإسلام بلاد فارس أقيمت بها المساجد ، وهدمت أبنية الكفر[7] ومهد الفتح أمام السياح والمؤرخين فدخلها كثير من المسلمين ، كما كانت نقطة ارتكاز اتسع منها الفتح شرقاً إلى الهند وأواسط آسيا .

ويشبه « المقدسى » طبيعتها وجوها بإقليم الشام . إذ يقول عنها حين سئل

---

(١) أحسن التقاسيم ص ٤٢١
(٢) فارس نامه ص ١٢١
(٣) شيراز نامه ص ١٥
(٤) نزهة القلوب ص ١١٣
(٥) فارس نامه ص ٤
(٦) فارس نامه ص ١٢٠
(٧) شيراز نامه ص ١٧

كيف وجَدْت فارس ؟ . يجيب « وجدتها أشبه الأقاليم بالشام ، لأنها تجمع أضداد الثمار ، وبها جروم ، وسرود [1] ومعتدلات وجبال مشجرة عامرة ، وعسل وزيتون ، وبركات ، لم أرها بعد الشام إلا بفارس » ، ثم يمضى فيقول « إلا أنه معدن الجور والفساد ، حار الأطراف ، بارد السرود ، ورسوم المجوس به ظاهرة ، وأكثر الضياع مقطتعة [2] » .

شيراز :

فى هذا الإقليم الجنوبى الغربى قامت — وسطه تقريباً — مدينة جديدة إسلامية ، نقلت إليها دفة الملك بعد العاصمة القديمة اصطخر ، تلك العاصمة التى ظلت حاضرة الإقليم حقبة طويلة من الزمن .

ففى عهد عبد الملك بن مروان — حين كان الحجاج عامله على العراق — جعل أخاه محمداً بن يوسف نائباً عنه فى إدارة هذا الإقليم ، فأسس مدينة شيراز [3]

ومن الآراء ما يجعل هذه المدينة أقدم فى تاريخها من ذلك ، إذ يقال إن « شيراز ابن فارس » هو الذى بناها قديماً ، وإنما مصرها المسلمون حين فتحوا الإقليم واستطابها الملوك فنزلوا بها [4] .

ويذكر صاحب « شيرازنامه » أن ملوك العجم القدماء كانوا يظنون مكانها صومعة سليمان ، ومن هذا كانوا يتفاءلون بها [5] .

ويزعم بعض المؤرخين أن السبب الذى دفع « محمداً بن يوسف الثقفى » إلى بنائها أنه رأى فى المنام جماعة من أهل الكرامة تهبط فى مكانها ، وقالوا له سيظهر فيها آلاف من رجال التصوف ، وستكون منبعاً للحكمة والطهارة ، كذلك يقال إنه

---

(١) الكلمة معربة عن گرم بالفارسية بمعنى حار . وسرد بمعنى بارد .

(٢) أحسن التقاسيم ص ٤٢١

(٣) فارس نامه ص ١٣٢

(٤) أحسن التقاسيم ص ٤٢٣

(٥) شيراز نامه ص ٢٠

رأى فى منامه يخط دائرة فى مكانها ، ولهذا استدعى المهندسين وأمرهم أن يقيموا بنـاء شيراز[١] . ومن الآراء ما يجعل عمارتها قد جددت على يد « محمد بن القاسم ابن عقيل » ابن عم محمد بن يوسف الثقفى سنة ٧٤ هـ [٢].

وظلت عمائر هذه المدينة تزيد على الزمن، وفى عهد عمر بن عبد العزيز أنشىء بها بعض المساجد ، وأسس بها عمر بن الليث مسجداً سماه المسجد العتيق [٣] .

فلما انتقل ملك المدينة إلى الديالمة زادت عمـارتها كثيراً ، وأول من غلب عليها ، « على بن بويه » فلما توفى تولى بعده ابن أخيه « عضد الدولة » الذى تبناه من قبل [٤] ، وفى عهده ذاع صيتها وانتشر خبر رفاهية الحياة بها فى جميع الأقطار فقصدها كثير من الناس ، وجاب إليها كثيراً من رجال الجيش وأقامهم بها حتى ضاق اتساعها ، فأنشـأ خارجها مكاناً سماه « گردفناخسرو » [٥] يصفه صاحب شيرازنامه «أنه كان مدينة كبيرة أقام وسطها سوقا بلغ ما يحصل منه سنويا ستة عشر ألف دينار ،كانت ترسل إلى ديوان عضد الدولة»، ولم يبق من ذلك المـكان حتى — عهد صاحب شيرازنامه — شيئاً ، وكان العامة يطلقون على مكانه « سوق الأمير » [٦] .

وفى عهد « صمصام الدولة بن عضد الدولة [٧] » رأى أن يقيم عليها سوراً ، لـكن صاحب «مراصد الاطلاع» يقول إن الذى بنى هذا السور هو «أبوكاليجار» ويجعل طوله اثنى عشر ألف ذراع وعرض حائطه ثمانية أذرع [٨] .

أما أحسن أبنيتها ، فدار شيدها عضد الدولة يصفها « المقدسى » وصفاً يدل على مقدار عظمتها ، يقول : « و بنى بشيراز داراً لم أر فى شرق ولا فى غرب مثلها، ما دخلها عامى إلا افتتن بها ، ولا عارف إلا استدل بها على نعمة الجنة وطيبها ،

---

(١) شيرازنامه ص ٢١
(٢) نزهة القلوب ص ١١٤
(٣) شيرازنامه ص ٢٤
(٤) أحسن التقاسيم ص ٤٤٩
(٥) فارس نامه ص ١٣٢
(٦) شيراز نامه ص ٢٥
(٧) نزهة القلوب ص ١١٤
(٨) مراصد الاطلاع ج ٢ ص ١٣٩

وخرق فيها الأنهار ، ونصب عليها القباب ، وأحاطها بالبساتين والأشجار ، وحفر فيها الحياض ، وجمع فيها المرافق والعدد ، وسمعت رئيس الفراشين يقول « فيها ثلثمائة وستون حجرة ودارا » .

ثم يصف خزانة الكتب التى بها بقوله « وخزانة الكتب على حدة ، عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد ، ولم يبق كتاب صنف إلى وقته — من أنواع العلوم كلها — إلا وحصله فيها . . والدفاتر فيها منضدة على الرفوف لكل نوع بيوت وفهرسات ، فيها أسامى الكتب لا يدخلها إلا وجيه ، وطُوِّقت فى هذه الدار كلها أسفلها وعلوها » ، وهكذا يمضى « المقدسى » فى عبارته إلى أن يختمها بقوله : « وأظنه بناها على ما سمع من أخبار الجنة » (١) . ثم تناوب شيراز الضعف وأصيبت — آخر عهد الديالمة — بأحداث جسام قضت على رونقها وبهائها (٢) ، وأدت إلى تخريب كثير من عمائرها (٣) .

فإذا انتقلت الولاية إلى حكم السلاجقة ، ظلت كذلك عاصمة الإقليم نفسه ، وقد بدأ هؤلاء حكمهم فيها سنة ٤٥٨ ﻫ . وبقيت تحت حوزتهم خمسة وثمانين عاما ، حتى تولى أمرها « الأتابكة السلغريون » فاستقلوا بالولاية ، وأقاموا حكومتهم فى عاصمتها .

ولما حل السلاجقة أعادوا تجديد ما خرب منها ، كما وجهوا عنايتهم أيضاً إلى الإنشاء ، فأقاموا المدارس ، وأوقفوا عليها كثيراً من الخيرات (٤) .

فلما انتقلت هذه الولاية إلى حكم الأتابكة سنة ٥٤٣ ﻫ ، أخذ شأنها فى عهدهم يعلو شيئاً فشيئا ، وبلغت ذروتها فى عهد « أبى بكر بن سعد »

---

(١) أحسن التقاسيم ص ٤٤٩

(٢) فارس نامه ص ١٣٣

(٣) شيراز نامه ص ٢٦

(٤) شيراز نامه ص ٢٤

وسنعرض إلى الكلام على مكانتها العلمية فى عهد هذا الأمير ، ومدى ما كانت عليه من الرخاء وسعة العيش وأمن الحياة ، بالإضافة إلى ما بيناه سابقاً — من وصف الشاعر لها فى عهده ، ووصفه هذا الوطن بالحرم الآمن يحج إليه الناس من كل فج عميق .

ونضيف إلى هذا ما قاله فيها صاحب « شيراز نامه » شعراً [1] :

بها يسكن الطبع النفور ويغتدى   بآنس من قلب المقيم قريعها
يحن إليها كل قلب كأنها   يشاد برنات القلوب ربوعها
فكل ليالى عيشها زمن الصبا   وكل فصول الدهر فيها ربيعها

* * *

فارس قبيل حكومة الأتابكة

انتقلت فارس إلى أيدى السلاجقة منتصف القرن الخامس ، بعد أن كانت تابعة لحكومة آل بويه ، إذ انتزعها منهم السلطان « ألب أرسلان السلجوقى » سنة ٤٥٨ هـ[2] . وبقيت فارس يتولى شئونها نواب عن السلطان الحقيقى مدى خمسة وثمانين عاما، تقلد الحكم فيها ستة حكام هم : « فضلويه شبانكاره ، وركن الدين خمارتكين ، والأتابك جاولى ، والأتابك قراجه ، والأتابك منكوبرس ، والأتابك بزابه »[3] .

وكان « فضلويه » حاكماً معيناً من قبل الديالمة ، فلما انتقل حكم فارس إلى السلاجقة أُقر على البقاء فى الولاية ، حاكماً عليها فى عهد السلطان « ألب أرسلان السلجوقى » . ولكن سرعان ما اضطربت الأمور بينهما ، فسار إليه نظام الملك

---

(١) شيراز نامه ص ٢٢   (٢) وصاف ص ١٤٨
(٣) حبيب السير ص ١٢٧

ليرده عن عصيانه ، فتحصن فضلويه بقلعة اصطخر ، فحاصره بها نظام الملك وقتله فيها . وفى هذا يقول الشاعر :

فضل من الله العزيز ونعمة ... كُفَّت فضول البغى من فضلون [1]

و بانقضاء أيامه على فارس انتهت سلطة الديالمة و بدأ سلطان السلاجقة .

فلما انتقل الملك إلى هؤلاء ، تخيروا جماعة — ممن كانوا يقومون فى بلاطهم ببعض الوظائف — إلى إدارة الأقاليم التى دخلت فى حوزتهم ، وكان من بين هؤلاء رئيس أسرة الخوارزمشاهيين المسمى « آنوشتگين » فقد كان تركى الأصل يعيش فى بلاط السلاجقة ، ولاه ملكشاه ولاية خوارزم ، ومنه تأسست أسرة « ملوك خوارزم [2] » ومنهم أيضاً « تغ تگين » مملوك تكش السلجوقى مؤسس أسرة الأتابكة فى دمشق [3] .

و يلاحظ أن أغلبية ولاة السلاجقة على فارس كانوا يلقبون «بالأتابك» ابتداء من جلال الدين الجاولى . فهو أول من لقب به من نوابهم [4] ، وكل من خلفه على الحكم من النواب تمتع به كذلك .

فما معناه ؟ وهل له علاقة بتلك الأعمال الإدارية ؟ وكيف اتسع حتى سمعنا عن انتشاره بين حكام الولايات المختلفة فى طول إمبراطورية السلاجقة وعرضها ؟ .

الكلمة تركية الأصل « أتا » بمعنى الجد أو الأب . وكلمة « بك أو بيك » لقب أو رتبة . و يفسر ابن الأثير هذه الكلمة « بالأمير الوالد » ومن عبارته فى « نظام الملك» على لسان «ملكشاه» قد رددت الأمور كلها ، كبيرها وصغيرها

---

(١) شيراز نامه ص ٣١٩ (٢) تاريخ گزيده ص ٤٨٦

(٣) مقدمة شيراز نامه — ص . ل .

(٤) وصاف ص ١٣٨ وحبيب السير ص١٢٧

إليك ، فأنت الوالد ، وحلف له وأقطعـه إقطاعا زائداً على ما كان من جملته طوس مدينة نظام الملك ، وخلع عليه ولقبه ألقاباً من جملتها « أتابك » ومعناه «الأمير الوالد[1]» ، فظهر من كفايته، وشجاعته ، وحسن سيرته، ماهو مشهور».

واستعملها المؤرخون المحدثون من الإيرانيين بمعنى «نائب السلطنة» فيذكر الأستاذ «بهمن كريمى» فى مقدمته على كتاب « شيراز نامه » أن السلاجقة لم تكن لهم دراية بالأمور الإدارية . وإنما كانوا يوصفون بالشجاعة والقوة لا بحسن السياسة ، وذلك راجع إلى حياتهم البدوية . فاختار كل واحد منهم فى إدارة شئون مملكته جماعة ممن يطمئنون إليهم ، من مماليكهم الأوفياء ، وأغلب هؤلاء المماليك كانوا ممن وفدوا من بلاد القفجاق » .ثم يمضى فيقول :

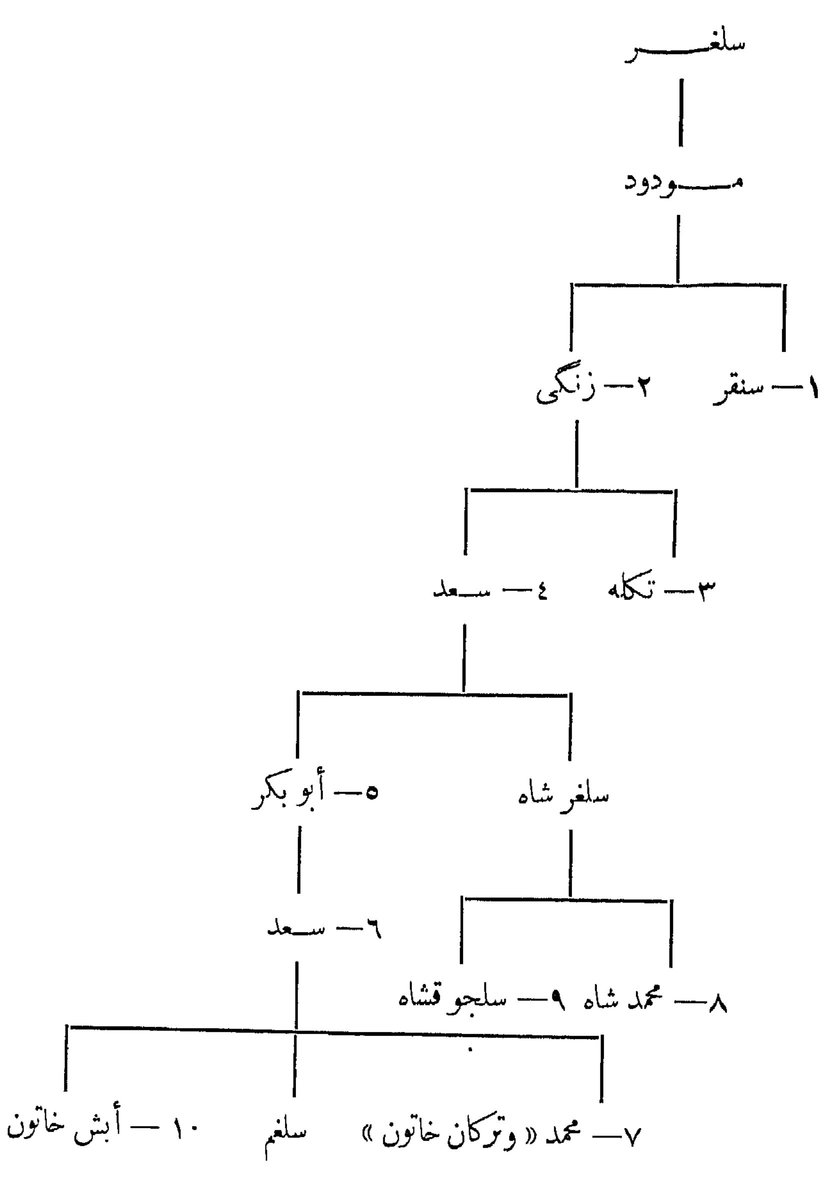
«فلما زال عصر السلاجقة الكبار ، وضعف ولاة العهد بعدهم عن إدارة شئون الدولة ، وجزئت دولتهم ، رفع مماليك السلاجقة كل واحد من الأمراء إلى كرسى السلطنة ، وجعلوا يديرون دفة الأمور عنهم باسم « نائب السلطنة » أو باسم« أتابك» . وبعد مدة ،تقلص حكم السلاجقة ، فاستولوا هم على السلطان واستقلوا فى ولاياتهم[2]» .

---

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص٣٣ .المطبعة الأزهرية. (٢) مقدمة شيراز نامه ص ل.

أتابكة فارس

نستطيع أن نصور أعضاء بيت الأتابكة — الذين نعرفهم تاريخياً — بهذه الشجرة . وندل على ترتيب من حكم منهم .



ن بلاد القفچاق ، ترجع إلى قبائل تركمانية الأصـل .
، ـتة ، حينما أدركها الضعف والانحلال [1] . ويجعل
لاء التركمانيين خمسين ألفاً ، تفرقوا فى
ملغر » وأبناؤه وأتباعه . نزلوا بخراسان ، ونشروا
وا الاضطراب ، حتى اضطر السلاجقة أن يضموه
صب الحجابة ، ثم نزح هو وأولاده وأتباعه إلى إقليم

كان بين ابنه « مودود » و بين الأتابك « بزابة » صداقة . رغب هذا فى الرحيل إلى أصفهان، فاستدعى«مودودا» ليقيمه على فارس مكانه،ولـكن« بزابة» لقى حتفه بعيداً عن فارس . فطمع هذا فى الملك وشجعه عليه ضعف السلاجقة . وانتهى الأمر بأن حوّل السلطان لأسرته [3] .

١ — سنقر بن مودود : ٥٤٣—٥٥٨ ﻫ

تولى الحكم سنة ٥٤٣ ﻫ وارتفع شأنه ، وهو أول من وضع تاج السلطنة على رأسه من أعضاء هذه الأسرة [4] ، وسار فى الرعية بالعدل والإنصاف ، ووقعت بينه و بين حاكم خوزستان مصادمات عنيفة انتهت بانتصاره عليه . وكان من منشآته بشيراز رباط سمى باسمه. وكذلك شيد مسجداً يعد من أهم مساجد شيراز [5] يعتبره صاحب تاريخ گزيده من مساجد الجمع [6] . وكانت وفاته سـنة ٥٥٨ ﻫ وامتدت حكومته أربعة عشر عاماً .

---

(١) وصـــاف ص ١٤٨ — (٢) حبيب السير ص ١٢٧

(٣) شيراز نامه ص٤٨ — (٤) وصـــاف ص ١٤٩

(٥) شيراز نامه ص ٥٠ — (٦) تاريخ گزيده ص ٥٠٥

٢ — زنگی بن مودود: ٥٥٨ — ٥٧١هـ

ما كاد يستولى على العرش حتى ائتمر به بعض رجال أسرته ، لإقصائه عن الملك ، وتتويج أحدهم المسمى « ألب أرسلان [١] » .

لكن المؤامرة افتضح أمرها قبل أن يتمكنوا من تنفيذها ، فراسل « أرسلان ابن طغرل » وطلب منه النجدة ، فأسعفه بها ، وسأله أن يقره على البقاء فى الملك فأجابه إلى ذلك [٢] .

وكان من منشآته بشيراز ، تجديد مزار الشيخ « أبى عبد الله محمد بن الخفيف الشيرازى » ، وأقام بجانبه رباطاً أوقف عليه أوقافاً كثيرة ، وامتد حكمه أربعة عشر عاماً ، وتوفى سنه ٥٧١ هـ [٣] .

٣ — تكله بن زنگی: ٥٧١ — ٥٩١هـ

تولى العرش بعد أبيه ، عقب وفاته ، وثار عليه أحد أتابكة آزربيجان المسمى « جهان بهلوان » إذ انتهز فرصة خلو شيراز من الجيش ، فاتجه نحوها وأعمل القتل فى أهلها. لكن الأتابك «تكله» تغلب عليه وهزمه [٤]. كذلك خرج عليه ابن عمه « طغرل بن سنقر » وجمع جيشاً ، وقدم به شيراز ، لكن الحرب لم تدم طويلا بينهما ، فأسره «تكله» وقضى على ثورته [٥] .

ويقال إنه تخير شخصية عظيمة من رجال فارس ليسند إليها منصب الوزارة ، ذلك هو « أمين الدولة الكازرونى [٥] » ، وأطلق يده فى تدبير شئون الدولة . كان هذا الرجل مشهوراً بالتقوى والصلاح ، فأنشأ رباطاً ومدرسة اشتهرت بمدرسة «أمينى» [٦] أقامها قرب المسجد العتيق .

---

(١) شيرازنامه ص ٥١

(٢) تاريخ گزيدة ص ٥٠٥

(٣) حبيب السير ص ١٢٨

(٤) وصاف ص ١٥٠

(٥) شيرازنامه ص ٥١

(٦) حبيب السير ص ١٢٨

وقد بسط تكله العدل فى ولايته ، حتى امتدحه أحد الشعراء المسمى « عز الدين السحمرة » بقصيدة جاء فيها :

لعمر المعالى إن « تكلة » قد حوى — من الملك ما لم يحو منه أعاجمه
فأين أنوشروان منه وعدله — وأين سليمان النبى وخاتمه
تفرد بالآفاق « تكلة » شاهنا — فلا من يحاربه ، ولا من يقاومه[1]

وكانت وفاة تكلة بن زنگى سنة ٥٩١ هـ ، وامتد حكمه عشرين عاماً .

٤ — سعد بن زنگى : ٥٩١ — ٦٢٣ هـ

كان سعد من الشجاعة ، والقوة ، وسعة الحيلة ، والمران السياسى ، ماجعله يمكن لدولته الناشئة ، بل يمد نفوذه ، وفتوحاته إلى غيرها . تولى شئون الدولة وهى مقبلة على قحط ألم بها ، لم تشهد له مثيلا من قبل ، حتى اضطر الناس أن يأكلوا كل مايمكن أكله ، ثم أعقبه وباء كبير أهلك كثيراً من الناس [2] .

وقد واجهته أحداث خارجية ، اضطر لأن يخوض غمارها لينقذ إمارته من هولها . ففى سنة ٦٠٠ هـ أغار عليه الأتابك « أزبك بن بهلوان » مع شخص آخر يسمى « كلجه » [3] . وقصدا شيراز ، وأعملا فيها غارة شعواء ، وفتكا بأهلها . وفى هذا يقول الشاعر « عز الدين پنجره » :

ألا هات السلاف ولاتشجه — فقد زج الأسى فى القلب زجه
وضاق علىَّ من أسفٍ إهابى — لعمرى ! طرت لو صادفت فرجه
لعلّى ان طربت ذهبتُ غما — تعال الناس من فتكات كلجه
أطال غلابنـا وجنى أذانا — وأتلف مالنا من غير حجة

---

(١) شيراز نامه ص ٥١ — (٢) تاريخ گزيدة ص١٠٦

(٣) وصاف ص ١٥٢

وقائلة إلام يسكون نحسى فقلت إلى بلوغ السعد برجه[1]

على أنه لم تكد فارس تتنفس من هول هذه الغارة ، حتى فوجئت بغارة أخرى سنة ٦٠٢ ﻫ ، شنها عليها السلطان « غياث الدين بن السلطان محمد خوارزمشاه » . كان أبوه قد ولاه « كرمان » فى حياته فاشتهر بسلطان كرمان ، ثم ذهب أول عهده إلى العراق وانضم إليه جماعة من أتباع أبيه هناك ، واتفق معهم على حرب « الأتابك سعد » واتجهوا نحو فارس ، وهزم الأتابك ، وعانت إمارته من تخريب « غياث الدين » الأمرين ، ثم عاد عنها[2] .

حروبه وسياسته الخارجية :

بعد أن اجتازت إمارته تلك المحن ، التى واجهته فى مستهل توليته العرش ، وجه عنايته إلى تدبير شئونه ، ثم أخذ يمهد للفتوحات الخارجية ، فاستخلص « كرمان وسيرجان » ونصب على حكومتها ابن أخيه «عماد الدين زيدان[3] » .

ولما انتهى من ذلك ، اتجه أيضاً نحو العراق ، واستولى على أصفهان ، لكنه التقى فى تلك الجهة بشخصية مارست الخطوب وعركتها . ذلك هو السلطان « محمد خوارزمشاه » ووقعت بين الإثنين مصادمات قوية ، أبدى فيها «سعد بن زنگى » من البسالة وضروب الشجاعة ما جعل السلطان محمداً يعجب به أيما إعجاب .

وفى إحدى الحروب — سنة ٦١٤ ﻫ — عزم الأتابك على لقاء جيش « السلطان محمد » بنفسه ، فاتجه نحو الرى على رأس سبعمائة فارس ، فانهزم جيش السلطان ، وفى تلك الحرب أبدى «سعد» من الأقدام والجرأة ما أدهش «السلطان محمداً» ، فأمر جيشه ألايصيبه بسوء — إن تمكنوا منه — و إنمايحملونه

(١) وصاف ص ١٥٣ (٢) حبيب السير ص ٨٨

(٣) شيراز نامه ص ٥٢ ويذكره وصاف باسم محمد بن زيدان ص ١٥١

إليه أسيراً ، فلما وقع فى أيديهم ، حملوه إلى « السلطان محمد » ، فأكرم وفادته ، وأعز جانبه ، ورحب بمقدمه[1] .

وانتهى الأمر بين الجانبين ، بأن طلب السلطان عقد الصلح بينهما ، ويتزوج ابنه « جلال الدين » من ابنة سعد « ملك خاتون » [2] ويدفع ثلثى خراج فارس إلى السلطان ، فأجابه سعد إلى ذلك [3] .

لكن هذه الأمور لم ترض ابنه « أبا بكر » فدبر الأمر فى غيبة أبيه ، مع جماعة ممن التفوا حوله ، من الأعيان والأمراء ، فألَّبهم على أبيه ، وطلب منهم البيعة فبايعوه ، فلما أحس سعد بذلك ، عاد إلى فارس يؤازره جيش من الخوارزمشاهيين — حلفائه الجدد — فامتنع الابن من تسليم البلاد إلى أبيه وجمع العساكر ، وخرج للقائه . فلما تراءى الجمعان ، انحازت عساكر فارس إلى صاحبهم ، « الأتابك سعد » وتركوا ابنه فى خاصته ، ومع ذلك حمل على أبيه ، فلما رآه أبوه ، ظن أنه لم يعرفه . فقال له أنا فلان ! فقال — إياك أردت [4] ! وانتهى الأمر بهزيمة أبى بكر ، وأخذه أسيراً ، فزج به فى قلعة « سفيد » [5] كما يذهب إلى ذلك صاحب « شيراز نامه » ، وفى قلعة « اصطخر » كما يذهب إلى ذلك صاحب « تاريخ وصاف » [6] .

فلما قضى الأمر وفَّى « سعد» بعهده « للسلطان محمد » [7] ، ولسان حاله — كما يقول وصاف — « إذا قلت فى شىء نعم ! فأتمه فإن نعم دَيْن على المرء واجب » [8] .

أما سياسته نحو المغول ، فأهم ما قام به أنه جنب إمارته ذلك السيل الجارف ، الذى بدأ يظهر من ناحية المشرق ، فى زحفهم نحو الغرب ، فحين ترامى إلى

---

(١) وصاف ص ١٥٣
(٢) شيراز نامه ص ٥٢
(٣) وصاف ص ١٥٤
(٤) ابن الأثير ج ١٢ ص ١٤٦
(٥) شيراز نامه ص ٥٣
(٦) وصاف ص ١٥٤
(٧) حبيب السير ص ١٢٩
(٨) وصاف ص ١٥٤

أسماع الناس خبر قدومهم مظفرين ، سارع هو إلى إعلان الطاعة مع بعض أمراء الولايات الأخرى . وهذا ما ذكره صاحب « جامع التواريخ [1] » وأشرنا إليه سابقاً [2] فى تصويرنا الحالة فارس، وكيف واجهت غزو المغول، وذلك فى الفصل الأول.

اصلاحاته الداخلية :

على الرغم من الحروب الخارجية ، والفتن الداخلية ، التى منيت بها فارس فى عهده ، فانه وجه همه كثيراً إلى تنظيم الأمور الداخلية ، فاختار لإدارة البلاد معه وزيرين هما « ركن الدولة صلاح الكرمانى وأبو نصر أسعد [3] » . وكان الأخير ممن يجيدون قرض الشعر بالعربية والفارسية. وكثيراً ما كان «سعد» يرسله على رأس بعثات سياسية بينه و بين السلطان محمد الخوارزمشاهى ، فكان هذا يكرم وفادته و يجله ، كما كان يقارضه الشعر [4] . كذلك وجه الأتابك همه نحو التعبير ، فأنشأ كثيراً من العمائر الدينية ، والعسكرية ، والمدنية .

أنشأ الجامع الجديد بشيراز ، وهو المشهور بـ « جامع نو » ، ويقال عنه إنه لم يكن فى جميع بلاد فارس والعراق وأغلب الأقاليم ، مسجد أوسع منه ، فانه كان يعد أكبر من مسجد الكوفة ، الذى أسسه الإمام على ، والمشهور أنه أكبر المساجد بالبلاد العربية [5] فى ذلك العصر . كذلك أقام الأسواق العامة ، وشيد الحوانيت ، و بنى — على الطريق إلى تبريز — رباطا يسمى رباط « شهر الله » وأوقف عليه القرى والمزارع والبساتين والحمامات [6] .

كذلك احتاط للناحية العسكرية ، فأنشأ سوراً عظيما يحيط بشيراز مكان السور الذى أنشأه « جلال الدين الجاولى » والذى كان قد تهدم [7] .

---

(١) جامع التواريخ ص ١٥٠ كاترمير
(٢) انظر ص ١٨ سابقاً
(٣) حبيب السير ص ١٢٨
(٤) وصاف ص ١٥٠—١٥١
(٥) شيراز نامه ص ٥٤
(٦) وصاف ص ١٥٥
(٧) شيراز نامه ص ٥٤

الاضطراب فى سنة وفاته وتحديدها :

وهناك خلاف بين المؤرخين فى تحديد سنة وفاة سعد ، يشير إليـه الأستاذ القزوينى فى مقاله «ممدوحين شيخ سعدى شيرازى» ، و يناقش الآراء التى عرضت لهذا . وهو يأخذ بالرأى القائل بأن وفاته كانت سنة ٦٢٣ ه لا سنة ٦٢٨ ه .

ونحن نلخص رأيه فيما يقول — توفى « سعد بن زنگى » سنة ٦٢٣ ه ، كما يذهب إلى ذلك صاحب « جامع التواريخ ، والوصاف ، وروضة الصفا ، وحبيب السير» ، وليست وفاته سنة ٦٢٨ ه كما يذهب إلى ذلك صاحب «تاريخ گزيده» و يتبعه صاحب «لب التواريخ»و«جهان آرا» — وهنا يشير الأستاذ القزوينى إلى أنه كان قد جاراهم فى هذا الرأى ، فى مقدمته لـكتاب « المعجم فى معايير أشعار العجم »، ولـكنه يجعل ذلك من قبيل السهو ، وهذا فى عبارته :

« وماينز دركتاب المعجم فى معايير أشعار العجم بمتابعت إيشان همين قول را نقل كرده بوديم ، بدون شك سهو واضح است» .

ثم يرمى رأى صاحب « تاريخ گزيده » بالفساد والبطلان ، بما سنعرض له فيما بعد ، ونواصل هنا مناقشته لهذا الرأى ، وتدليله على عدم صحته بقوله :

١ — إن ابن الأثير أثبت فى حوادث سنة ٦٢٥ ه أن صاحب بلاد فارس وقد عينه بالاسم وهو الأتابك « أبو بكر بن سعد » قد عاون « جلال الدين منكبرتى » فى حربه مع المغول . وذلك دليل على أن « سعدا » كان قد توفى قبل ذلك .

٢ — يصرح الوصاف أن « عميد الدين أسعداً الأبزرى » وزير « سعد ابن زنگى » وصاحب القصيدة المشهورة « بالشكنوانيه » والتى مطلعها :

من يبلغن حمامات ببطحاء ممتعـات بسلسال وخضراء

قد زج به أبو بكر فى السجن ، هو و ابنه ، بعد وفاة « سعد » ، وقد توفى « عميد الدين » المذكور سنة ٦٢٤ ه . وهذا دليل كذلك على وفاة «سعد »قبل هذا العام .

٣ — يصرح الوصاف أيضاً ،أن أبا بكر فتح جزيرة « كيش »وقتل آخر ملوكها يوم الثلاثاء الثانى عشر من جمادى الآخر سنة ٦٢٦ ﻫ ، و بديهى أن هذه الحادثة —التى عينت باليوم والشهر والسنة— برهان واضح على أن هذه السنة،هى إحدى سنوات حكم « أبى بكر » . فكيف يكون أبوه قد توفى سنة ٦٢٨ ﻫ . كما ذهب إلى ذلك صاحب « تاريخ گزيده » ؟ [١] .

انتهى تلخيص رأى الأستاذ القزوينى ، ورده على صاحب « تاريخ گزيده»

و بهذا يمكن التأكد من وفاة «سعد بن زنگى» فى سنة ٦٢٣ ﻫ ، كما ذهب إليه صاحب «جامع التواريخ» و«وصاف» . وهما — من حيث الزمن — أسبق من صاحب «تاريخ گزيده» وكذلك — من حيث الثقة — أحق بالاطمئنان .

وسنعود لمناقشة رأى آخر جاء به صاحب « تاريخ گزيده » فى موضع — تخلص الشاعر — والذى اعتمد عليه أيضاً الأستاذ القزوينى ، وذلك فى دراستنا لحياة الشاعر فى الباب الثانى .

وقد اتخذ « سعد بن زنگي » طرته هذه العبارة « وارث ملك سليمان،مظفر الدنيا والدين سعد بن أتابك زنگى » وكان توقيعه « الله بس [٢] » .

و يرى صاحب حبيب السير أن « تخلص الشاعر » مأخوذ من اسم هذا الأمير [٣] .

لماذا لم يمدح الشاعر هذا الأمير مدحامستقلا ؟

كانت حياة الشاعر الأولى ، فى عهد هذا الحاكم ، فقد تفتحت عيناه على حكم يبسطه « سعد بن زنگى » على فارس . وفى شيراز ، أخذ يدرج الشاعر إلى الحياة العامة ، يتناول من أساليب المعارف الموجودة فى عصره ، ما قدر له تناوله ، بين

---

(١) سعدى نامه ص ١٠٢—١٠٣ (٢) وصاف ص ١٥٥

(٣) حبيب السير ص ١٢٨

أهله ومعلميه . وشاء القدر أن يموت أبوه ، وهو لايزال فتى صغيراً غض الأهاب . وتشير بعض الروايات [1]، إلى أن أباه كان فى رعاية هذا الحاكم ، الذى أظل الفتى برعايته كذلك بعد وفاة أبيه .

فلما تفتحت الحياة للشاعر ، وتناول من التحصيل والمعارف ، قدراً يمكنه من قرض الشعر ، كانت نفسه أعز عليه من أن يجعل شعره وسـيلة للارتزاق ، أو التزلف فيتقرب للملوك والحكام من طريق الشعر .

وعلى الرغم من أن الشاعر لم يبكر فى إنشاد القصائد ، التى يمدح بها الناس ، أو لم تمكنه الحياة أن يكون شاعر مدح ، فإن هذا لايعنى ألا يكون الشاعر مبكراً فى ألوان الشعر الأخرى ، أو فى نظم الشعر بوجه عام . فكلياته تجمع الكثير من ألوان الشعر ، وهى — فى مجموعها ، وموضوعها ، وكثرتها — تدل دلالة واضحة على أن الشاعر بكر فى النظم منذ وقت يسمح له بإنشاد هذا القدر الضخم من الشعر . ومع ذلك فلم يعرض الشاعر — قصداً — لمدح «سعد بن زنگى» — حاكم فارس — فى صدر حياته الأولى ، و إن كان قد مدحه — عَرَضاً — فى المواضع التى سنعرض له .

ولا يصعب علينا تفسير هذه الظاهرة ، إذا لاحظنا هذه الاعتبارات الآتية :

١ — نلاحظ أنه لم ينشد شيئاً من القصائد فى لونى المدح أو الرثاء ، حتى حدود الخمسين من عمره تقريباً . فإنه كان يزهد فى هـذا النوع . كما أشرنا إلى ذلك سابقاً . وكانت أول مدائحه ، ما قاله يمدح فيها « أبا بكر بن سعد » فى مقدمة كتابه « بوستان » .

وأول مراثيه مارثى فيها الخليفة « المستعصم و بغـداد » وكان تاريخ تقديمه «البوستان» سنة ٦٥٥ ﻫ وقصائده فى الخليفة سنة ٦٥٦ﻫ .

---

(١) دولتشاه — تذكرة الشعراء ص ٢٠٢ طبعة ليدن .

٢ — كذلك يمكن أن يقال ، إنه فى الوقت الذى تفتحت فيه حاسته الشعرية ، فى عهد « سعد بن زنگى » قد عاف الحياة المضطربة في فارس ، ورحل عنها إلى غيرها، يخفف عن نفسه، كما سنعرض إلى ذلك . فحتى موطنه الذى درج فيه لم يربط نفسه به ، ولم يعبأ بكثير أو قليل مما يدور فيه ، وقد بدأت رحلاته فى أواخر عهد هذا الأمير .

٣ — يرى الأستاذ القزوينى أن « سعدى » فى سنة ٦٢٣ هـ — وهى السنة التى توفى فيها سعد بن زنگى — كان لا يزال شاباً فى حدود العشرين أو فوقها بقليل ، ومن البديهى — فى رأيه — أنه فى تلك السن لم ينضج شعره ، كذلك لم يكن من الشهرة بحيث يستطيع معاشرة الملوك والكبراء [١] .

هذا ما يفسر لنا — إلى حد ما — تلك الظاهرة ، وهى عدم وجود مدائح للشاعر فى « سعد بن زنگى » مستقلة . وهى الظاهرة التى أخذ منها بعض رجال الأدب أن « سعدى » لم يتخلص باسم هذا الأمير ، و إنما كان تخلصه مأخوذاً من اسم حفيده « سعد بن أبى بكر » وسنشير إلى ذلك عند الكلام على تخلصه .

ومع ذلك فهناك بعض المواضع التى عرض فيها الشاعر لمدح هذا الأمير ، لكنها تجيء فى ثنايا مدائحه لابنه « أبى بكر بن سعد [٢] » .

٥ — أبو بكر بن سعد : ٦٢٣ — ٦٥٨ هـ

لو أردنا تمثيل حياة هذه الأسرة ، لكانت أشبه بخط ، يكوّن مثلثاً . تبدأ إحدى نقط القاعدة عند أول حاكم منها ، وهو « سنقر » ثم يأخذ هذا الخط فى الارتفاع — تدريجياً — حتى يبلغ القمة فى عهد « أبى بكر » . إذ يعتبر عصره

---

(١) سعدى نامه ص ١٠٤

(٢) انظر كليات فروغى ص٢٤٢، ٣٠٥ وسعدى نامه ص ١٠٢ — ١٠٥

فى الحقيقة العصر الذهبي لهذه الأسرة . ثم يأخذ شأنها فى الانخفاض، حتى تنتهى إلى عهد « أبش خاتون » وهى النقطة التى ينتهي عندها الخط الذى نصور به حياة تلك الأسرة .

والواقع أن هـذا الأمير — كما قدمته معظم الـكتب — يعتبر على قمة أمراء الأتابكة من حيث طول الحـكم ، واستقرار النظـام ، واتساع نطاق الفتوحات ، وتشجيع العلماء ، وكثرة المنشآت .

ونحن نشير إلى طرف مما سجله بعض المؤرخين فى التعريف به . فصاحب « شيراز نامه » يقول :

« أتابك أبو بكر چراغ دودمان سلغر وواسطهٔ قلادهٔ سلطنت بود ، بحكم وراثت واستحقاق على الاطلاق درخطهٔ فارس مالك تاج وتخت گشت . وكوكب دولت درعهد أو بأوج ارتقاء واقتران يافت » .

إلى أن يقول :

فالدين مستبشر ، والمجد مبتهج والعرف منهمر، والملك مفتخر[1]

ويذكره « محمد بن قيس » فى كتابه « المعجم فى معايير أشعار العجم » بعبارة مستفيضة نثبت منها ما يأتى :

« خدواند پادشاه معظم ، خاقان أعظم ، مالك رقاب الأمم ، مولى ملوك العرب والعجم ، أعدل ولاة العالم ، أكمل رعاة بنى آدم ، مظفر الدنيا والدين ، غياث الاسلام والمسلمين » إلى أن يقول : « وارث ملك سليمان السلطان الأعظم أتابك أبو بكر بن سعد (٢)» .

ويرى الأستاذ القزوينى أن كلمة « أبا بكر» اسما له وليست كنية[3]. كذلك يذكر «الوصاف» أنه لقب بلقب « قتلغ خان » وهو لقب تركى ، استحقه

(١) شيراز نامه ص ٥٥ (٢) المعجم فى معايير أشعار العجم ص ٨

(٣) سعدى نامه ص ١٠٦

من « قا آخان » حين دخل فى طاعة المغول ، ودفع ما التزمه اليهم ، وعبارته « والتزام خراج وأتاوات نمود ، قا آن سيورغاميشى را يرليغ بالقب قتلغ خان أرزانى داشت » (١) .

ومعنى « قتلغ خان » كما يفسرها الأستاذ القزوينى « قتلغ بمعنى مبارك وسعيد » « وخان بمعنى ملك » فمعناها « الملك السعيد » (٢) . ويسجل بعض المؤرخين اسمه مقروناً بهذا اللقب . فيؤرخ له صاحب « شيرازنامه » تحت عنوان « ذكر أتابك مظفر الدين قتلغ خان أبو بكر بن سعد بن زنگى بن مودود السلغرى » (٣) .

أما كلمة « مظفر الدين » فهى لقب عرف به جميع ملوك السلغريين، من أولهم حتى آخرهم ما عدا أبش خاتون (٤) .

كيف تولى أبو بكر الحكم ؟

عرفنا سابقاً أن أبا بكر — حين رأى أباه قد انهزم فى حربه مع السلطان محمد الخوارزمشاهى ، وتنازله عن ثلثى خراج فارس ، وقبوله زواج ابنته من جلال الدين — حين رأى ذلك ، عقد العزم على الخروج على أبيه ، فى جمع من حاشيته ، وخواصه لكن الأمر انتهى بانتصار أبيه عليه ، وزجه فى السجن ، فأمضى فيه سبع سنوات (٥) .

فلما دنا الأجل من أبيه ، فكر فيمن يخلفه على الأمر ، فأرسل فى طلب ابنه « أبى بكر » ففك إساره ، وجيء به ، فتولى شئون فارس ، كما يذكر صاحب « شيرازنامه » .

---

(١) وصاف ١٥٦ (٢) سعدى نامه ص ١٠٦
(٣) شيراز نامه ص ٥٥ — ووصاف ص ١٥٥
(٤) سعدى نامه ص ١٠١ (٥) شيراز نامه ص ٥٥

ولكن مؤرخاً آخر، هو صاحب « جامع التواريخ » ويأخذ برأيه الأستاذ « القزويني » يذكر أنه كان بين وفاة أبيه وتوليته بضعة شهور، وأنه ظل حبيساً في قلعة « سپيد » ، فلما قضى « سعد بن زنگى » ، أخفى أمر وفاته، وزيره « غياث الدين اليزدى » ، وبعث سراً من أطلق أبا بكر من سجنه، وجيء به بين يدى الأمراء ، والجيش ، فأعلن لهم أن « الأتابك سعدا » . قد مات ، وأنه استخلف على الولاية ، ولى عهده « أبا بكر » فرضخ هؤلاء للأمر ، وأعلنت امارته [١] .

أما تاريخ ولادته ، فلم يعلم على وجه التحديد ، لكن لما كان قد بلغ السابعة والستين عام وفاته ، كما يصرح بذلك « رشيد الدين [٢] » وكانت وفاته في الخامس من جمادى الآخر سنة ٦٥٨ هـ ، كما يذهب إلى ذلك أيضاً نفس هذ المؤرخ وغيره [٣] ، فلا بد أن يكون مولده في حدود سنة ٥٩١ هـ .

ولما كان عهد « أبى بكر » هو أزهى العصور وأطولها ، إذ يبلغ ستة وثلاثين عاما ، وعاش في عهده الشاعر ، واستظل برعايته ، بعد أن عاد إلى موطنه ، فإنا نفرد كلمة لمظاهر الحياة في عهده ، ونقسم الكلام فيها إلى ما يأتى :

١ — السياسة الخارجية .

٢ — السياسة الداخلية .

٣ — الحركة العلميـة .

---

(١) سعدى نامه ص ١٠٧

(٢) جامع التواريخ ص ٣٣ طبع بلوشه وسعدى نامه ص ١٠٧

(٣) شيراز نامه ص ٦١ — ويجعل وفاته في جمادى الأولى سنة ٦٥٨ هـ . وبهذا يذهب صاحب « تاريخ گزيده » أيضاً وان لم يذكر الشهر . ص ٥٠٨

أولا — السياسة الخارجية

كان « سعد بن زنگى » قد صانع الخوارزم مشاهيين ، والمغول من بعدهم ، وأدرك — ببعد نظره — ألا حيلة له لمقاومة هذا الطغيان ، فدخل فى طاعتهم ، وقبل أن يتمتع بالاستقلال الذاتى — داخلياً — وأن يدفع لهم الجزية ، إبقاء على إمارته ، وبهذا سلمت الإمارة من غارة المغول ، كما رسم بهذه الخطة الطريق لابنه من بعده ، فسار عليها ، وبهذا ظل عرشه فى مأمن من تقلب الأحداث ، ووجه همه إلى الإصلاح الداخلى ، الذى كانت ولايته محتاجة إليه أشد الاحتياج نظراً لما قاسته من أهوال الحروب والتخريب فى الفتن المتتالية ، التى انتابت الولاية بأجمعها ، وخاصة فى الحرب التى نشبت بين أبيه و بين « أزبك بهلوان » و بينه و بين « السلطان محمد وابنه غياث الدين[1] » . وهى الحروب التى أسلفنا الإشارة إليها فى عهد أبيه .

وكان دخوله كذلك فى تحالف مع المغول ، خطوة موفقة ، أمنته على إمارته، ووطدت له الحكم ، فتهيأ لوجوه الإصلاح الأخرى ، التى تطلبتها ولايته . ويشير المؤرخون إلى أن تصافيه مع المغول ، كان حركة بارعة ، دلت على بعد نظر و إصابة رأى . فيذكر «وصاف »[2] :

« وبر كمال عافيت أنديشى ، واصابت تدبير أو إين نكته دليلى قاطع أست ، كه چون پادشاه گيتى ستان چنگيزخان برسلوك وممالك‌سالك شد، وعالميان‌را آثار بأس وسطوت لشكر تتار معلوم گشت ، اظهار ايلى كرد وتنسقات وعرضات درصحبت برادر زادهٔ خود تهمتن ، ببندگى قا آن فرستاد ، والتزام خراج وأتاوات نمود . قا آن سيور غاميشى را يرليغ بالقب قتلغ خانى أرزانى داشت ، وسلطنت ممالك موروث بروى مقرر فرمود » .

---

(١) شيراز نامه ص٥٦ (٢) وصاف ص ١٥٦

على أن الأمر لم يقف « بأبي بكر » فى مصانعة المغول إلى هذا الحد ، بل نراه يبالغ فى ذلك مبالغة ملحوظة . فقد أمد جيش المغول حين حصاره بغداد بجيش من قبله — وهو الأمير المسلم ، السني المذهب ، المتفق مع الخليفة الإسلامى ، فى دينه ومذهبه — أرسل جيشاً تحت امرة ابن أخيه « محمد شاه ابن سلغر شاه [1] » فلما تم الفتح لهولاكو ، عاد فأرسل ابنه « الأمير سعداً ابن أبى بكر لتهنئته [2] » .

لكن هذه السياسة ، التى رسمها سعد، وانتهجها أبوبكر،ومضى عليها خلفاؤه من بعده ، إن كانت قد أمنتهم على البقاء فى الحكم ، إلا أنها فتحت الباب على مصراعيه للتدخل الأجنبى الذى أصابها من المغول فى توجيه السياسة العليا للولاية. فشعر الأمراء من بعده أن المغول لابد من اعترافهم بمن يتولى شأن الإمارة ، وستبدو هذه الظاهرة فيمن خلفه ، فإن الذين جاؤا بعده كانوا ولاة ضعافا ، قصر عهدهم ، وطال نزاعهم ، مما أدى إلى التدخل الفعلى من المغول ، وتوجيه السياسة حسب ما تمليه رغباتهم ، إلى أن قضى نهائياً على سلطان الأتابكة أيام « أبش خاتون » .

و بعد أن مكن «الأتابك أبو بكر » لإمارته فى الداخل ، واستتب له الأمر، وصانع المغول ، وأمن غائلتهم ، وجه همه نحو توسيع رقعة بلاده ، وكان الجانب الغربى من ولايته مطمح أنظاره . ذلك أن الجانب الشمالى كان يجاور مملكة الخوارز مشاهيين ، وقد بدأ يدخلها المغول من الشمال ، منحدرين من الشرق ، والجانب الجنوبى منها ، يحيط به ساحل المحيط الهندى ، والجانب الغربى بلاد العرب ، لا يفصلها عنها إلا ذلك الخليج الضيق خليج فارس .

كان بهذا الخليج عدة جزر متناثرة ، على القرب من شاطئيه ، ذات غلات

---

(١) سعدى نامه ص ١٠٥ (٢) حبيب السير ص ١٣٠

قيمة ، يتولى شئون الجزء الشرقى منها ، أسرة قديمة تعرف بأسرة « بنى قيصر » و يتولى الجانب الغربى بعض أمراء العرب .

رغب « أبو بكر » فى ضم هـذه الجزر إلى إمارته ، وامتدت مطامعه إلى عبور الخليج الفارسى ، والاستيلاء على البحرين ، وعلى بعض الجزر القريبة منها . فبدأ فتوحاته بالتوجه إلى جزر الجانب الشرقى ، فى الخليج الفارسى، وكانت أسرة « بني قيصر » تشرف على إدارة جزيرة قرب الشاطىء تدعى جزيرة « قيس[1] » وكانوا يتولون أمورها منذ أيام الديالمة . فإذا كان عصر الأتابكة بفارس ، كان حكامها على وفاق ، وحسن جوار ، مع أمراء تلك الأسرة . ففي عهـد « سنقر بن مودود » بدأوا يرسلون الرسل من قبلهم لتقديم فروض الولاء .

فإذا كان عهد « أبى بكر » أُسند أمر هذه الجزيرة إلى رجل منهم يدعى « ملك سلطان بن قوام الدين بن تاج الدين بن شـاه بن جمشـيد » . لم يرض بالإذعان لأبى بكر ، وشق عصـا الطاعة عليه ، فجرد أبو بكر جيشاً ، واستولى على الجزيرة بأكملها ، فأضيفت إلى ممتلـكات فارس[2] .

كان هذا إيذاناً بفتح بقية الجزر الموجودة بالشاطىء الشرقى ، فلما سقطت جزيرة قيس ، وجه فتوحاته إلى جزيرة أخرى تدعى« كيش»، وقتل آخر ملوك أسرة « بنى قيصر » المسمى « ملك سلطان » واعمل القتل والتنكيل فى أتباعه ، وقد سقطت هذه الجزيرة فى الثانى عشر من جمادى الآخر سنة ٦٢٦ هـ[3] .

لـكن القائد الذى تولى فتحها وكان يسمى « سيف الدين أبا نصر علياً بن

---

(١) وصاف ص ١٧٠ (٢) وصاف ص ١٧٥

(٣) المصدر نفسه ص ١٧٥

قباد » أراد اغتصاب الملك لنفسه ، فى تلك الجزيرة ، فأعلن العصيان على الأتابك ، إلا أنه لم يظفر بذلك . وتم الأمر لأبى بكر على هاتين الجزيرتين ، بل على جميع بلاد الساحل الشرقى فى سنة ٦٢٨ هـ .

لم تقف مطامع أبى بكر عند استيلائه على جزر الجانب الشرقى ، من الخليج الفارسى ، بل امتدت مطامعه إلى الاستيلاء على جزر الجانب الغربى كذلك ، وكانت هذه الجزر تابعة لأمراء من العرب .

بدأ بفتح جزيرة تسمى « أوال » وتشتهر « بالبحرين » ، وقضى على أميرها المسمى « محمداً بن محمد بن أبى ماجد [١] » ثم فتح « القطيف » وتم له ذلك فى يوم الجمعة الثانى من ذى الحجة سنة ٦٣٣هـ [٢] . ولما انتهى من فتحها أقام عليها أميرين عربيين هما « عصفور بن راشد بن عمير ومانع بن على بن ماجد ابن عمير » وقبلا أن يؤديا الجزية له سنوياً ، و بلغ مقدارها اثنى عشر ألف دينار مصرية [٣] .

شغلت هذه الفتوحات كثيراً من حكم « أبى بكر » فقد بدأت سنة ٦٢٦ هـ وانتهت سنة ٦٣٣ هـ . وقد أدى فتح هذه الجزر إلى علو منزلته ، وارتفاع شأنه ، وتناقل الناس سطوته على امتداد المحيط الهندى من خليج البصرة ، حتى سواحل الهند ، كما يقول « وصاف » .

بل يقول « صاحب حبيب السير » إن بعض بلاد الهند كانت تذكر اسمه فى الخطبة [٤] ، و بهذا تشير طرة توقيعه التى أثبتها « الوصاف » كما يأتى « وارث ملك سليمان ، عادل جهان ، سلطان البر والبحر ، مظفر الدنيا والدين أبو بكر » وكان توقيعه « الحكم لله [٥] » .

---

(١) وصاف ص ١٧٩

(٢) حبيب السير ص ١٣٠

(٣) وصاف ص ١٧٩

(٤) حبيب السير ص ١٣٠

(٥) وصاف ص ١٧٨

ثانياً — السياسة الداخليـــة

اشتهر «أبو بكر» باليقظة، والحذر، وحسن اختيار الناس، و بلغ من حرصه على الإشراف بنفسه على أمور الدولة، أن كاف وزراءه وعمـاله الرجوع إليه . فى كل الأمور — صغيرها وكبيرها — وكان يحاسبهم بنفسه، فى أوقات فراغه، وكل من ثبت إهماله فى عمله رفعه منه [١] .

كان أبوه فى عهد حكمه قد استوزر رجلا يسمى «ركن الدين صلاحا الـكرمانى» لـكن لم تطل وزارته كثيراً، إذ ضعفت الثقة به، فعزل [٢] فولى بعده «الصاحب السعيد عميد الدين أسعداً الأبزرى» . فلما انتقل الحـكم إلى أبى بكر، أبعده عن الوزارة، إذ أحاطت به الشكوك والتهم، وثبت عايه أنه كان متصلا مع خصوم أبيه، وهو السلطان «محمد خوارزمشاه» . كما سمع عن قصيدة له مدح فيها السلطان على خلعة نالها من أمير المؤمنين، جاء فيها قوله :

وقيت الردى، يا من بأفعـاله غدا	لواء المعـالى والمحامـد عاليـــا
وأضحى به روض الشرائع ناضراً	وأمسى به صـدر الممالك حاليـا
صـوارمك البيض البواتر غادرت	ديار الأعادى، مقفرات خواليـا
غـدا لمعـاليك الزمانُ مُواليـا	مطيعاً، وأبنـاء الزمان، مَواليا
وجاءتك من دار الخـلافة، خلعة	بعليـاك، نالت مفخراً، ومعاليا
كذا القطرات النازلات من السما	ء إذا ما حللن البحر، صرن لآليا [٣]

أحس «أبو بكر» من خلال تلك القصيدة أن الشـاعر فى إشارته للخوارزمشاهى، يسىء إلى أولياء نعمته . فإذا عرفنا أن الحرب كانت بين الأسرتين وأن أبا بكر غضب على أبيه، بسبب قبوله شروط الصلح الفادحة، وأنه نفر من

---

(١) وصـــاف ص ١٥٧ (٢) حبيب السير ص ١٢٩
(٣) وصاف ص ١٥٦

تنفيذها ، وشق عصا الطاعة على أبيه ، حتى ألقى فى غياهب السجن ومكث به سبع سنوات

إذا عرفنا كل ذلك ، أدركنا — إلى أى حد — كان مبلغ تأثير هذه القصيدة فى نفس أبى بكر ، وخاصة فى مثل عبارته «غدا لمعاليك» فاحتدم الغضب بنفس أبى بكر ، ولم يجد بداً من أن يزج بهذا الوزير فى السجن ، ومعه ابنه «تاج الدين محمد» فى قلعة «شكنوان» . فنظم فى ذلك رباعية بعث بها إلى «أبى بكر» كى يخلصه من هذا السجن هى :

« اى وارث تاج وملكت وأفسرسعد   بخشاى خداى رابجان وسر سعد
بر من كه چونام خويشتن تا هستم   همچون ألف إيستاده ام برسرسعد» (١)

فلما استقر فى السجن ، أنشد قصيدة عربية مشهورة مطلعها .

من يبلغنّ حمامات ببطحاء   ممتعات بسلسال وخضراء

وتعرف هذه القصيدة « بالشكنوانية » نسبة إلى القلعة التى حبسا فيها ، فلما تعذر عليه الورق والمداد لكتابتها ، أملاها على ابنه ، فنقشها على الحائط حتى حفظها، وظل الوزير بالسجن حتى توفى سنة ٦٢٤ هـ ، و بعد وفاته ، أخرج ابنه ، فروى القصيدة على « صفى الدين أبى الخير بن أبى الفتح السيرافى » ابن خال الصاحب السعيد الوزير (٢) .

أما وزراؤه الذين عينهم بنفسه فكثيرون ، يذكر صاحب « شيرازنامه » أن أشهر هؤلاء الوزراء هو الأمير « مقرب الدين أبو المفاخر مسعود » والأمير « فخر الدين أبو بكر » ، وكان « أبو المفاخر مسعود » محل تقدير واحترام من مشايخ عصره ، ومن أشهر آثاره مدرسة عالية، أقامها بالسوق، واشتهرت « بمدرسة مقرب»

---

(١) شيرازنامه ص ٥٧   (٢) وصاف ص ١٥٦

ثم أقام بالقرب منها ، رباطا متصلا بالمسجد العتيق بشيراز ، وأنشأ بجوار الرباط ، داراً للحديث ، وأخرى للعلاج . كما شيد سبيلا للشراب ، لم يكن له مثيل فى شيراز علواً واتساعا ، ووقف على تلك المنشآت أوقافا كثيرة (١) .

ويذكر صاحب « تاريخ گزيده » أنه كان رجلا حسن الطوية ، خبيراً ، لم يبلغ شخص آخر ما بلغه من المنزلة فى عهده ، وكل إليه « أبو بكر » تربية أولاده وخواتينه . (٢) .

أما الوزير الأمير « فخر الدين أبو بكر » فقد أمضى عهده كذلك ، فى إقامة المنشآت الهامة ، فابتنى على مقربة من باب قصر الأتابك ، مسجدا جامعا ، وأقام بجواره رباطا ، وداراً للحديث وداراً للعلاج (٣) ، وجعل الجميع فى مكان واحد .

ويشير الأستاذ القزوينى إلى اسمه كاملا فى قوله « الأمير فخر الدين أبو بكر ابن أبى نصر الحوايجى » ويقول عنه إنه كان أول أمره ممن تخيرهم « أبو بكر » لتدبير شئون مأكله ، ومن هذا كانت نسبته « الحوايجى » ثم ابتسم له الحظ ، وارتقى حتى نال الوزارة (٤)

وهذا الوزير هو الذى مدحه الشاعر « سعدى » فى مقدمته على « الگلستان » بعبارة جاء فيها

(أمير كبير ، عالم عادل ، مؤيد مظفر منصور ، ظهير سرير سلطنت ، ومشير تدبير مملكت ، كهف الفقراء ، ملاذ الغرباء ، مربى الفضلاء ، محب الأتقياء ، افتخار آل فارس يمين الملك ....) (٥) .

كذلك يقال إنه رثاه بقصيدته التى مطلعها .

«وجود عاريتى دل در نشايد بست ‏ همانكه سرهم جان بود دل بنيش بخست» (٦)

---

(١) شيراز نامه ص ٥٩ ‏ (٢) تاريخ گزيده ٥٠٧
(٣) وصاف ص ١٦٠–١٦١ ‏ (٤) سعدى نامه ص ١٣١
(٥) كليات فروغى ص ٧٨ ‏ (٦) سعدى نامه ص ١٣٢

أما الأتابك « أبو بكر » نفسه ، فيجمع المؤرخون على أنه لم يترك وجهاً من وجوه الإصلاح ، إلا نهض به ، فقد وجه همه فى الإصلاح الداخلى ، إلى جميع نواحى الحياة ، سواء ما كان يتصل منها بالحياة الدينية، أو العلمية ، أو الاجتماعية، أو السياسية . فابتنى المساجد ، وشيد المدارس وأقام المستشفيات ، وأصلح القرى ، وغرس الحدائق العامة ، واعتنى بالمزارع ، وأقام الطواحين ، وشيد الأربطة ، كل ذلك فى جميع نواحى فارس،وحبس عليها الأوقاف الكثيرة لينفق منها [1].

ثالثاً — الحركة العلمية فى شيراز فى عهد أبى بكر

يبدو أن الروح الدينية كانت متغلغلة فى نفس هذا الأمير إلى حد كبير ، فبالرغم من أنه ألقى فى السجن وزيراً استوزره أبوه من قبل ، وألحق به ابنه كذلك ، فان هذا التصرف كان لما رآه فيهما من خصلة النفاق الوضيعة ، ولأن تدبير أمور الدولة يحتاج إلى الاستعانة بمن يخلص له النصح ، ويصدق المشورة ، فكان هذا هو الباعث الذى حدا به إلى إلقاء الرجل وابنه فى السجن .

وقد بالغ «أبو بكر» فى احترامه لرجال الدين إلى حد الإسراف ، بل إلى حد كراهيته للعلوم الأخرى المنطقية والفلسفية ، وكراهيته لرجالها كذلك . وسنفسر هذه الظاهرة فى نفسية هذا الأمير ، لعلنا ندرك منها كيف تكيفت حياته الشخصية ، بل الحياة العامة فى شيزار عاصمة ملكه ؟ بل لعلنا ندرك أخيراً — كيف أوحت هذه الحياة الدينية، التى طمح إليها « أبو بكر » — إلى شاعر مثل «السعدى» أن يساهم فيها ، فينظم هذا النوع من شعره الأخلاقى التعليمى . لعل فيه ما يسد هذه الرغبات الطموحة إلى هذا التوجيه ، ولعل فيه كذلك ما يعالج هذه الأوضاع الاجتماعية ، التى آلت إليها الحياة العامة فى ذلك العصر ؟.

---

(١) وصاف ص ١٥٧ وتاريخ گزيده ص ٥٠٨ وحبيب السير ص ١٢٩ وشيراز نامه ص ٦٠

أما تربية « أبى بكر » الأولى فإنها كانت بين أحضان رجال الدين ، وقد حبب إليه أبوه معاشرة هـذه الطائفة ، واحترامها ، بل كان يحضر به — وهو لا يزال يافعاً — مجالس العلماء . وكانت فارس — إذ ذاك — تزخر بالكثير من العلماء الدينيين ، والمتصوفة على الإطلاق ، وظهر فيها — بوجه خاص — فى هذا العهد طائفة كبيرة من هاتين الجماعتين ، وكان رجالها محل تقدير الحكام، وملتقى رعايتهم وإكرامهم .

وكانت فارس فى عهـد أبيه « سعد بن زنـگى » تحتضن كثيراً من الشخصيات العلمية ، وكانت شيراز خاصة قبلة أنظارهم ؛ ومن كبار العلماء الذين كان يجلهم ويحضر مجالسهم ، مصطحباً ابنه « أبا بكر » معـه العارف العالم « روزبهـان » المتوفى سنة ٦٠٦ هـ يذكره صاحب « شيراز نامه » بعبارة كلها تقدير وإجـلال ، مشيراً إلى احـترام « سعد وابنـه أبى بكر » له وحضورهما مجالسه .

« شيخ شيوخ الزمان، سيد جلساء الرحمن ، شطاح فارس ميدان، أبو محمد روزبهان ابن أبى نصر البقلى، مقتداى أرباب طريقت، وپيشواى أصحاب حقيقت بود ،در فنون علوم نظير نداشت » إلى أن يقول :

« وأتابك سعد وأتابك أبو بكر بن سعد كه درآن عصر بسلطنت وايالت مملكت فارس اختصاص داشتند، بمحاورت ومعارضت آن حضرت مستبشر ومفتخر بودندى»(١)

فإذا عرفنا أن « أبا بكر » ولد فى حدود سنة ٥٩١ هـ وأن هذا الشيخ توفى سنة ٦٠٦ هـ ، وأنه خلال هـذا الزمن ، لم يتجاوز الخامسة عشر ، أدركنا مبلغ حرص أبيه على توجيهه إلى تلك النـاحية ، وأدركنا كذلك مبلغ حبه لطائفة رجال الدين بوجه خاص .

لازمته هذه الروح الطيبة ، نحو طائفة رجال الدين مدى حيـاته . ففى

---

(١) شيراز نامه ص ١١٦

سنة ٦٢٢ هـ حينما كان فى السجن ، على إثر الخلاف بينه و بين أبيه ، أرسل خطابا إلى الشيخ « عز الدين زر كوب » يلتمس الدعاء له . كما طلب إليه أن يبلغ قدوة الأبدال « نجيب الدين » ليكتب إليـه دعاء . فكتب الدعاء المطلوب ، وختمه بتلك العبـارة « يا لطيف أدركنا بلطفك الخفى » وقد طلب إليه أن يكررها فى اليوم ألف مرة (١) .

فلما تولى شئون فارس ، واستوى على العرش بعد أبيه ، جعل احترام طائفة رجال الدين نصب عينيه ، واجتهد — كما يقول صاحب « حبيب السير » — فى نصرة الدين الحق ، وإحياء علوم الدين ، و بذل جهداً فى ذلك لم يجعل لعلوم الحـكمة والفلسفة فى أيامه شأناً ، وفضل العباد والمتصوفة ، على غيرهم من رجال العلم و رجال الافتاء والمدرسين (٢) .

كذلك يشير « الوصاف » إلى أنه بالغ فى رعاية الدين الإسلامى ، واظهار شعائره، و إحاطة رجاله، إلى حد أرهب أصحاب العلوم الطبيعية والفلسفية وعبارته.

« وتاحدى در تقويت دين محمدى ، واظهار شعار اسلام مبالغت نمود ، كه در زمان أو هيچ آفريده ، بظاهر در علم حكميات وجدليات ومنطق ، كه ميزان معنى است شروع نيا راست كردن » (٣) .

بل لعله بالغ فى ذلك إلى حد كبير، فأساء معاملة الموجودين منهم ، فى عصره وأكرههم على الهجرة من شيراز ، فى قول « الوصاف » أيضاً .

« لا جرم چند أفراد أزأئمة نامدار وعلما بزرگوار بواسطت نسبت علم حكمت إزعاج كرد ، وقهرا وجبرا أز شيراز إخراج ، أز آن جملة امام صدر الدين محمود الأشنهى ، والامام العلامة توده پشتى ، ومولانا عز الدين ابراهيم القيسى (٤) »

و يؤ يد هذا ما ذهب إليه أيضاً صاحب « شيرازنامه » ، فى الفصل الذى

---

(١) شيرازنامه ص ٥٩ (٢) حبيب السير ص ١٢٩
(٣) وصـاف ص ١٥٦ (٤) وصاف ص ١٥٨—١٥٩

كتبه عن الأئمة والعلماء الذين عاصروا أبا بكر ، يذكر من بينهم « خواجه أمام الدين جاري المكنى بأبي نصر » وكان أستاذاً « لأبي بكر » لا نظير له في العلوم الشرعية ، ماهراً في العربية إلى أن يقول .

« وبنا بر آنچه غالب فن أو علوم شرعي بوده ، در خاطر أتابك أبو بكر نشانده بود ، كه گروهي علما كه بعلوم حكمت وأصول مهارتي دارند ، بخلافت سنت وجماعت درس ودو ر إيشان مي گذرد ، وعوام شيراز را اضلال ميكنند ، أتابك أبو بكر باخراج ايشان أز شيراز حكم فرمود . أز آن جملة صدر الدين أشنهي استحضار واستبصار أو بكليات علوم عقلي ، چون بياض نهار أز افامت بينت استفنادداشت ودد علم إلهيات وطبيعيات وهندسة وهيئة وجدليات وأدبيات سعي فرموده بود ، واين جمله درس گفتي ، وامام شهاب الدبن توده بشتي ، ومولانا عز الدين قيسي وجمعي أزأئمه ديگر هم أز اين مقدمات أز شيراز تبعيد فرمود » [1] .

ومن كبار الشخصيات الدينية التي عاصرت « أبا بكر » ونالت إعجابه ، وتقديره القاضي « جمال الدين أبو بكر بن يوسف بن أبي نعيم المصري » . تخيره أبو بكر ليتولى منصب قاضي القضاة بفارس كلها ، وكان من تصانيفه شرح مقامات الحريري . يقول عنه صاحب «شيراز نامه » .

« أتابك أبو بكر عظم معتقد سيرت حسنه وآداب وأخلاق مرضيه أو گشت . وچون فضائل وكمالات باطريق أخلاق حميده جمع داشت ، منصب قاضي القضاة فارس را بر أو مسلم فرمودند » [2] .

وقد مدح بعض الشعراء هذا القاضي بقوله :

بضاعتي المزجاة مولاي فاقبلن فأنت عزيز المصر بل أوحد العصر
وأوف لنا كيل العناية مفضلا يزد لك ربي بسطة الجاه والقدر [3]

يتضح من هذا أن فارس في عهد الأمير «أبي بكر» كانت تغلب عليها روح دينية صوفية ، وقد مكن لرجال الدين ، والصوفيين في حياته ، وبالغ في إكرامهم

---

(١) شيراز نامه ص٥٧—٥٨ (٢) شيراز نامه ص ١٢٦

(٣) وصاف ص ١٥٨

وتقديرهم ، فكان يحضر دروسهم ، وكان يطلب دعاءهم ويسأل رضاءهم . بل بالغ في احترامهم وتقديرهم إلى حد جعله يصغى لمشورتهم ويمد غيرهم من رجال العلوم النظرية .

تحديد السنوات التاريخية فى حياة بى بكر

يهمنا هنا ، فى تدوين عصر هذا الأمير ، أن نشير — بقدر الإمكان — إلى تحديد السنوات التاريخية لأهم المسائل فى حياته ، لنعرف مدى ارتباط الشاعر به .

عاصر الشاعر عهد هذا الأمير كله ، وأدرك السنوات الأخيرة من عهد أبيه « سعد بن زنگى » كما عاصر ابنه « سعداً بن أبى بكر » وسندرك من هذا التحقيق ، بعض المسائل الغامضة فى حياة الشاعر نفسه ، مما سنضطر إلى الكلام عليها فى موضعه .

ويدفعنا إلى هذا ما نلاحظه من الاضطراب الذى يتصل بحياة الشاعر وصلته بهؤلاء الأمراء مما وقع فيه المؤرخون قديماً وحديثاً . وأخص هذا الاضطراب ما يدور حول تحديد مولده ، وتعيين تخلصه ، وهل كان مأخوذاً من « سعد ابن زنگى » أو من حفيده « سعد بن أبى بكر » ؟ .

والسنوات التى أثبتها المؤرخون «لأبى بكر» —على قلتها— يمكن أن يستمد منها باقى تواريخ الأحداث الهامة فى عصره ، والتى لم يسجل تاريخها .

وليس هناك كبير خلاف بين المؤرخين فيما ذهبوا إليه من التحديد لبعض المسائل ، اللهم إلا ما يتصل بزمن توليته ، ، وقد أشرنا إلى ذلك الخلاف سابقاً . وانتهينا إلى الأخذ بالرأى الذى قال بأنه تولى سنة ٦٢٣ هـ ، وهو الرأى الذى اعتمده أيضاً الأستاذ القزوينى عند الكلام على سنة وفاة أبيه ، وتجنبنا الرأى

القائل بأن وفاته كانت سنة ٦٢٨هـ للأسباب التى بسطها الأستاذ القزوينى نفسه .

ولكن يبدو أن هناك خلافاً آخر فى سنة وفاته ، وإن كان هذا الخلاف هيناً عن الخلاف فى سنة ولايته، ذلك أنه لايعدو من الفرق الزمنى عاماً واحداً . فيجعل صاحب « شيرازنامه » وفاته فى جمادى الأولى سنة ٦٥٨[1] ، بينما يجعل « وصاف » هذا التاريخ سنة ٦٥٩ هـ[2] دون تحديد للشهر ، وإن كانا يلتقيان بعد ذلك ، فى تحديد مدة حكمه وسنه حين أدركته المنية ، فيجمعان على أن حكمه امتد ستا وثلاثين عاماً ، وأنه توفى فى سن السبعين .

« ورشيد الدين » وهو معاصر له ، يلتقى مع صاحب « شيرازنامه » فى سنة وفاته ، ويختلف عنه فقط ، فى تحديد الشهر ، فيجعله جمادى الآخر من العام نفسه[3] . ولكنه يذهب فى مدة توليته السلطان مذهباً مخالفاً للاثنين ، فهو يرى فى شىء من دقة التحديد ، أن مدة سلطنته هى أربعة وثلاثين عاماً وستة أشهر واثنا عشر يوماً[4] . فكأن وقت جلوسه على العرش كان فى أحد الجماد بين سنة ٦٢٣ هـ .

أما سنه وقت وفاته ، فإن « رشيد الدين » يخالف كذلك ماذهب إليه « وصاف » وتبعه فى الرأى صاحب « شيرازنامه » . فبينما يجعلان وفاته فى سن السبعين يجعل « رشيد الدين » سنة وفاته فى السابعة والستين .

ونحن — من جانبنا — نميل إلى الأخذ برأى « رشيد الدين » فإنه معاصر

---

(١) شيراز نامه ص ٦١

(٢) وصاف ص ١٨٠ . و يشير الأستاذ القزوينى إلى أن ماورد فى نسخة « بمبى » مخالف لبعض النسخ الخطية من كتاب وصاف . ويرى أن ذلك من سهو النساخ . فان أغلب المؤرخين يجمعون على أن سنة وفاته هى ٦٥٨ هـ . أنظر تعليقات ص ١٠٧ من سعدى نامه .

(٣) سعدى نامه ص ١٠٧ (٤) نفس المصدر ص ١٠٦

تماماً لعهد أبى بكر ، مما ساعده على تحرى الدقة فى التحديد الزمنى ، باليوم والشهر والسنة .

ونستطيع بهذا أن نستخلص سنة ولادته على وجه قريب من الدقة . فإنه لما كان قد توفى سنة ٦٥٨ هـ فى سن السابعة والستين فإن سنة ولادته تكون سنة ٥٩١ هـ .

وبجانب هذه السنوات — التى أشار إليها المؤرخون — نستطيع أن نستخلص السنوات التى وقعت فيها بعض الأحداث الهامة فى عصره ولم يشر المؤرخون إلى تحديدها . ونحن نعرف أنه كان سجيناً حتى سنة ٦٢٣ هـ حين وفاة أبيه ، وكان قد أمضى فى هذا السجن — كما يقال — سبع سنوات ، فكأن القبض عليه حدث سنة ٦١٦ هـ ولما كان هذا الأمير قد ولد سنة ٥٩١ هـ فكأنه قاد تلك الثورة ، وهو فى سن الشباب الطموح ، الذى يأبى على نفسه قبول الهزيمة والاستكانة . وعلى ذلك يكون وقت قيادته لتلك الثورة فى حدود الخامسة والعشرين ، وهو نفس السن المناسب لإدراك خطورة المؤامرة التى دبرها ، كما أنه السن التى يستطيع فيها أن يستحوذ على ثقة رجال الدولة والأمة معاً ، وخاصة فى مثل هذه المواقف التى تحتاج إلى رفع علم العصيان وإلى المغامرة والكفاح .

الشاعر وأبو بكر بن سعد

أهم شخصية اتصل بها الشاعر ، وارتبطت حياته بحياته ، فى كثير من مراحلها . وقد امتدت مدة حكمه بفارس إلى ما فوق الثلاثين عاماً . والشاعر قد عاصر هذا الأمير، واكتملت لهحاسته الشعرية فى عهده ، وانقاد له العنان ، فنضج شعره ، وسرى فى الآفاق، حتى وصف نفسه بأنه حاز قصب السبق فى البلاغة ، فى عهد « أبى بكر» .

« كه سعدى كه كوى بلاغت ربود　　در أيام بوبكر بن سعد بود

والقطعة التى يمتدح فيها هذا الأمير ترد فى « البوستان » تبلغ سبعة وأربعين

بيتاً كما فى كليات فروغى . وقد تضمنت هـذه القطعة عدة أغراض هامة ، تنقّل فيها الشاعر من غرض إلى غرض ، ومن وصف إلى وصف .

ويجدر بنا أن نلم بهـا ، فنحللها ونشير إلى أغراضها . وترد هذه القطعة بعد مقدمة فى مدح الذات الإلهية ، وقطعة فى مدح الرسول عليه السلام ، وأخرى فى سبب نظم الـكتاب .

وفى مطلع القطعة يذكر الشاعر أن طبيعته لم تألف هـذا النوع من مدائح الملوك والوقوف بأبوابهم . لـكن إن كان ذلك المدح على غير طبيعتـه ، فإنما اندفع إليه لغرض آخر ، هو تأريخ حياته الشخصية مع حيـاة الأمير الذى كان معاصراً له .

وإذا كانت الحياة قد جمعت بينهما ، فى بلد واحد ، وعصر واحد ، فلا أقل من أن يذكره الشاعر حتى يدرك الناس أن « سعدى » — وقد حاز قصب السبق فى البلاغة — كان فى عهد الأمير « أبى بكر بن سعد » . هذه هى أغراض الأبيات الثلاثة الأولى من المطلع .

« سرا طبع أزين نوع خواهان نبود   سربـدحت پادشـاهان نبـود
ولى نظم كردم بنـام فلان   مگر باز گويند صاحب دلان
كه سعدى كه گوى بلاغت ربود   در أيام بو بكر بن سـعد بود »

وفى ثنايا هذه القطعة كثير من الأوصاف ، وكثير من الأغراض . يتنقل فيها الشاعر من وصف إلى وصف ، ومن غرض إلى غرض . وأحيـاناً توجد مناسبة لهذا الانتقال ، وأحياناً لا توجد ، وكثيراً ما يعود الشاعر إلى غرض سبق الـكلام عليه .

وسنعالج الـكلام عليها من حيث الوحدة بينها فى الغرض ، لا من حيث ترتيب الأبيات فيها .

والشاعر نفسه يدرك أن صفات الأمير متعددة بحيث لا يحتمل كتابه هذا احتواءها أو يتسع لها ، بل لعل الأمر — لو عرض له بما يليق — لاحتاج إلى كتاب آخر بجوار هذا الكتاب . يبدو ذلك من بيتيه :

« برون بينم أوصاف شاه أز حساب   نگنجد درين تنگ ميدان كتاب
گر آنجمله را سعدى إنشا كند   مگر دفترى ديگر اسلا كند »

ونحن نستطيع بعد ذلك أن نقسم — بوجه عام — الأوصاف التى عرض لها الشاعر إلى ثلاثة :

١ — أوصاف سياسية تعرض سياسة هذا الأمير فى إدارته لدفة الحكم ، وحسن تدبيره لها ، وما كان لهذه السياسة من أثر ظاهر ، فى داخل مملكته وخارجها ، حتى استقر فيها النظام ، وساد الأمن بين ربوعها ، وانتشر فيها العدل.

٢ — أوصاف اجتماعية كمنت فى طوايا الأمير ، ونشىء عليها ، وكان لها أثرها الظاهر فى حياته الشخصية ، وحياة الذين أحاطوا به فى قصره أو إمارته .

٣ أوصاف عامة ودعاء لهذا الأمير فى ختام القطعة بأن يؤيد الله ملكه ويثبت قواعده ، ثم مدح لأبيه ، وترحم عليه .

ولنأخذ الآن فى عرض ما تقدم على النحو الذى ذهبنا إليه فى التقسيم وعلى نفس الترتيب :

١ ـ الأوصاف السياسية

ويظهر أن سياسة الرعية — بشىء من العدل والعطف ، والنظر فى شئونها بما يحفظ الحياة بينها هادئة مطمئنة — كان ذلك أمنية من الأمانى التى تعتلج فى النفوس القلقة المضطربة ، يرد لها طمأنينتها ، ويسكن من خواطرها على ماتلقى من خشونة الحياة وعنف السياسة .

كانت هذه أمنية النفوس فى تلك الأيام التى سادت فيها المحنة من جراء الغزوات المتتالية بفارس ، ومحنة الغزو المرير الذى منيت به الجماعة الإسلامية عامة فى هجوم المغول .

ولعل ما فطر عليه هذا الأمير من حب الرعية وسياستها بما يطمئنها كان دافعاً لهذا الشاعر أن تتحرك مشاعره . فينشد هذه القطعة وغيرها فى هذا الأمير ، وكلها تموج بأوصاف العدل، والقضاء على الظلم، والعمل بقدر ما فى وسعه لإراحة الرعية.

ولعل الشاعر لم نفته هذه اللفتة الطيبة، فى أن يضرب المثل بشخصية إسلامية كبيرة اشتهرت بالعدل بين الرعية ، ذلك هو سيدنا «عمر بن الخطاب» بل كانت منه لمحة لطيفة فى التقابل بين « أبى بكر الأمير » « وعمر الخليفة » فى هذا البيت ، مشيراً إلى عدله وحسن رعايته .

« جهانبان دين پرور داد گر نيامد چو بوبكر بعـــد أز عمر »

فإذا مائله « بعمر بن الخطاب » فى عدله ورعايته للدين . يأخذ بعد ذلك فى التحدث عن مظاهر هذا العدل ، فى مواضع مختلفة من القطعة . لايكاد يشعر بالمناسبة إلا و ينفذ منها ، للتحدث عن هذا العدل،وفى صورة جديدة .

وهو يصور عدله أولا تصويراً عاماً ، بأن الإنسان لا يرى فى عهده محنة وليس من يشكو ظلم القوة :

« نبينى در أيام أو رنجـــه اى كه نالد زبيداد سر بنجه اى »

بل لعل العدل فى عهده عدل لا نظير له ، عدل يستقر فيه الأمن . وتهدأ فيه النفوس الجازعة ، وتسكن الخواطر الهلعة ، أفلا يكفى أن يكون العدل مبسوطاً ؛ حتى لو ضل الابن — فى هذه الولاية — بعيداً عن أبيه ، لاطمأن كل منهما على نفسه ، و بعد الخوف عنه ؟.

« چنان سایه گسترده بر عالمی   که زالی نیندیشد أز رستمی » (۱)

وبهذا يتغنى الشاعر بعـدل الأمير ، غناء يدفعه ، بل يدفع كل من يستطيع الحديث ، إلى التحدث عنه ، وإلا فليعدم لسانه .

« ز بان آوری کاندرین أمن وداد   سپاست نگوید زبانش مباد »

فهو بهذا يشهد بنفسه على ما فى تلك الولاية من العدل بالرعية ، والأمن فى ربوعها ، بل ينكر على من يستطيع الـكلام ولا يتكلم بأن يحرمـه الله نعمة الـكلام .

وبجانب صفة العدل — التى تغنى بها الشاعر — وَصَفَه أيضاً بحسن التدبير ، وبعد النظر . وإذا كان الشاعر قد استطاع أن يجد القياس فى مماثلته فى صفة العدل « بعمر بن الخطاب » فانه كذلك استطاع أن يعقد مشابهة له ، فى هذه الصفة بما فعله « الإسكندر الأكبر » فى قوله مشبهاً له فىسياسته مع المغول :

« سکندر بدیوار رویین وسنگ   بکرد أز جهان راه یأجوج تنگ
ترا سـد یأجوج کفر أز ست   نه رویین چو دیوار اسکندر ست » (۲)

هذا بعض ما يصور به الشـاعر عدل الأمير ، وحسن تدبيره ، وذلك من الصفات السياسية .

٢ ــ الأوصاف الاجتماعية

أما صفاته الاجتماعية ، فنحن نقدم منها — أولا — صفة عامة . يذكره فيها بقوله إن العالم لا يذكر مثله عاقلا ، عريق الأصل ، منذ كان الوجود .

چنوئی خردمنـــد فرخ نژاد   ندارد جهان تاجهانست یاد

(١) ضرب الشاعر مـثـل الأب « زال » ومثل الابن « رستم » وكلاهما بطل من أبطال الايرانيين القدماء كناية عن مطلق أب وابن .

(٢) يشير الشاعر فى هذه الأبيات إلى قصة يأجوج ومأجوج فى سورة الـكهف «قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ؟ »

وإذا كان يوصف بذلك الأصل النبيل ، فقد بلغ — مع هذا — حداً من التواضع يشيد به الشاعر إشادة طيبة . فمع أن تاجه ، يكاد يلمس السماء ، فى علو ورفعة ، فان رأسه لا تزال — من التواضع — على الأرض .

«كله كوشــه برآسمـــان برين هنوز أز تواضع سرش بر زمـــين»

. وبجانب ما يذكر له من التواضع ، فإنه كذلك بار بالضعفاء والمعوزين . لم يعرض له مهموم فى حياته ، إلا خفف آلامه ، وسكن خواطره ، وهو فى هـذا مدفوع بحبه للخير . لا يبغى جزاء ولا شكورا .

«نديدم چنين گنج وملك وسرير . كه وقفست برطفل ودرويش وپير

نيامد برش دردناك أز غمى كه ننهاد بر خاطرش مـرهمى»

وهكذا كان للأمير من حدبه على الضعفاء ، ورعايته للمعوزين ، ذكر جميل يسرى فى الآفاق ، لاتخفى عنه خافية ، وينتشر صيت كرمه فى الحياة الدنيا.

«نه ذكر جميلش نهـان ميرود كه صيت كرم درجهان ميرود»

هذا الكرم الذى حدا بالشاعر أن يفاخر به ، ويشـيد بمآثر الأمير ، حتى كأنه بحر فى العطاء ، وكنز فى السخاء . . . لا ! بل إن البحر والكنز يستمدان وجودهما من وجوده .

«زهى بحـر بخشايش وكان جود كه مستظهر ند أز وجودت وجود»

وهناك صفة أخرى استلزمتها الظروف العامة ، التى كان يجتازها العالم الإسـلامى إذ ذاك ، فكثير من الناس كانوا يفتشون عن مأوى يلجأون إليـه ، ويأمنـون فيه على أنفسهم وأرواحهم ، من تلك النكبات التى واجهتهم فى حرب المغول .

فإذا كان الأمير باراً برعيته ، كريماً على أهلها ،عطوفاً عليهم ، فلن ينسيه ذلك أن يحمي ذمار اللاجئين إليه. وهكذا وجدوا فيه وفى إمارته ، الأمان والنجاة

والملاذ . بل وجدوا فيها الحرم الآمن . وهو فى هذه الصفة لا ينسى المقايسة أيضاً بين تلك الأمارة وعاصمتها « شيراز » و بين « البيت العتيق » :

«گرأزفتنه آيد كسى در بنـــــاه   نداردجز إين كشور آرا نگاه
نطوى لبـــاب كبيت العتيق   حـــواليه من كل فج عميق»

٢ ـ الأوصاف العامة والدعاء للأمير :

وفى ختامها . يعرض الشاعر — إجمالا — بيتاً ، يذكر فيه أن هذه الإمارة بلغت حظاً من حسن الإدارة . وترتيب أمورها واستقرار نظامها ، مما لا نظير له فى غيرها — حديثاً وقديماً ـ حتى مماكة « فريدون » التى كان يضرب بها المثل ، فيما سارت عليه من العظمة والقوة والجلال .

وهكذا يمضى الشـاعر فى تعداد عظمة هذا الأمير ، و بيان نواحيـه الطيبة ، ويعرض لنا صوراً مختلفة مما كان عليه ، من عدل وحسن تدبير ، ومن تواضع وكرم ، وحسن رعاية لمن يقصـده من اللاجئين .

والشاعر يعمد إلى تقوية هذه الصور التى يوردها ، بضرب الأمثلة المتكررة فى كل ما يعرض له من المعانى . وفى ختام هذه القطعة يسند الشاعر إلى نفسـه العجز والتقصير على أنه مهما أوتى من فصاحة أو بيان ، فلن يستطيع أن يوفيه شكراً على ما بدا من سياسته العادلة ، ومكارمه الكثيرة .

ولهذا لم يبق أمام الشاعر — أخيراً — إلا أن يختمها برفع أكف الضراعة لله وحده ، فهو الذى يستطيع أن يوفيه ماهو أهل له من جزاء ، فليكن الله معيناً له وراعيه . . .

«فروماندم أز شكر چندين كرم   همان به كه دست دعا گسترم
جهانت بكام وفلك يار باد   جهان آفرينت نگهدار بـــاد»

و بهذا يمضى الشاعر فى الدعاء للأمير استجابة لعجزه عن الوفاء بما يستحقه من شكر ومن تقدير .

وأخيراً ينتقل الشاعر — من هذا كله — إلى مدح والد الأمير ، والترحم عليه . هذا الوالد الذى لم تذهب ذكراه من الدنيا ، لأنه أنجب ولداً هو خير الأبناء وأحسنهم .

«نرفت أزجهان سعد زنگى بدرد — كه چون‌تو خلف نامبردار كرد»

و بعد أن يترحم على والد الأمير، فى بيتين آخرين يجد الشاعر الفرصة مناسبة للانتقال ، إلى مدح الحفيد ، وهو « سعد بن أبى بكر » فى قوله :

«گرأز سعد زنگى مثل ماند وياد — فلك ياور سعد بن بوبكر باد»

هذه هى القطعة التى يقدم بها الشاعر هذا الأمير للناس ، والتى أخذ منها بعض رجال الأدب أن الشاعر قدم كتابه « البوستان » لهذا الأمير .

وفى الكتاب عامة يردد الشاعر — فى مواضع مختلفة منه — أوصافاً لهذا الأمير ، تدور حول العدل ، والكرم أيضاً . تأتى فى بعض قطعه من بابى العدل ، والإحسان فى ذلك الكتاب[1] .

وهناك بجانب هذا مواضع وردت فى كتابه الآخر «الگلستان» عرض فيها لذكر هذا الأمير[2] .

أما القصائد التى نظمها الشاعر فقد ورد فيها قصيدتان فى رثائه خاصة[3] كما ورد ذكره عرضاً فى قصيدتى رثاء الخليفة[4] .

٦ — سعد بن أبى بكر ١٨ يوماً من سنة ٦٥٨ هـ

رأينا كيف صور المؤرخون عهد أبيه من قبل ، وأن عصره — بإجماعهم — كان أزهى العصور . بلغت الدولة القمة فى عهده ، من حيث الاستقرار ،

---

(١) كليات فروغى . بوستان ص ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٦ ، ٢٨٥ ، ٢٩٠ ، ٣٨٦

(٢) كليات فروغى ص ٧٥ ، ١٩٣ ، ٧٩٩

(٣) المصدر نفسه ص ٤٨٣ ، ٤٨٥

(٤) المصدر نفسه ٤١٤ ، ٤٨٦ وانظر سعدى نامه — قزوينى ص ١٠٥ — ١١٠

والاتساع ، والإنشاء ، والتعمير . ومن حيث الحياة العلمية ، حتى عد عصره بحق العصر الذهبي .

والواقع أنه ما كاد يموت « أبو بكر » حتى حل الضعف والانحلال بالدولة ووقف الإنشاء والتعمير . بل وقف النمو فى جميع نواحى الحياة ، وأخذت الحياة السياسية وغيرها ، تتدهور بعد عهد « أبى بكر »

وكان مرد هذه الأمور راجع — فى كثير من الأحيان — إلى قصر عهد أمرائها ، من جانب ، وإلى الفتن الداخلية — التى نشبت بين الأمراء وأولياء العهد للوثوب إلى كرسى الإمارة — من جانب آخر ، بل إن بعض الأمراء كان من صغر السن ، والضعف بحيث تدخلت السيدات فى الولاية عليهم ، وإدارة شئون الإمارة بأيديهم .

وبجانب هذه العوامل لا ننسى أن نذكر أن السياسة التى رسمها المغول فى شئون هذه الإمارة ، بدأت قبل هذا . لكن نفوذهم أخذ يقوى فى الإمارة على حساب ضعف حكامها ، ومد هؤلاء أيديهم للمغول ، يلتمسون السلطة ، وتثبيت العرش .

وكلما ضعف نفوذ الأمراء ، قوى نفوذ المغول ، حتى انتهى الأمر أخيراً بانتقال الحكم إلى أيديهم أيام « أبش خاتون » . فولوه بعض أمرائهم ، أو بعض من يتوسمون فيه حسن الإدارة ، وصدق الإخلاص لهم .

وسيتضح ذلك مما سيأتى ، ابتداء من عهد هذا الأمير . وهذا ما تصور عبارة « وصاف » .

« وأزآن تاريخ تا إمروز روزن بلا فراخ تر ميشود ، وعقدهٔ أمور مشكل ميگردد »

ويتمثل بهذا البيت فى تصوير تلك الحالة .

«لا يعجب الناس منهم إن هم انتشروا   مضى سليمان وانحل الشياطين[1]»

ونلاحظ أنه بعد أن تولى «سعد بن زنكى» عرش الإمارة بعد أخيه «تكلة» جعل تولية العرش وراثة تقليدية فى بيته ، فاستحضر ابنه « أبا بكر » وفك إساره من السجن ، وجاء به ليتولى عرش الإمارة بعد أن كان قد سجنه تأديباً له على خروجه عليه .

وسواء أكانت شخصية « أبى بكر » ساعدت على توليته العرش ، فوثب إليه بجدارة ، أو أنه لم يكن له مزاحم قوى ينافسه السلطان ، فإنه تولى العرش بعد أبيه ، وكان عليه — هو أيضاً — أن يمهد الأمر لإبنه « سعد بن أبى بكر » ولهذا أخذ يعده إعداداً يفتح له الطريق للوصول إلى العرش والمجىء به إليه، إن فاجأته المنية ، دون أن يرتب له الأمر .

كان أبو بكر يسير على سياسة حسن الجوار مع المغول ، منذ تولى عرش الإمارة ، وكان كثيراً ما يرسل الجيوش ، أو الوفود تلو الوفود ، وعلى رأسها أحد أمراء البيت ، لتساهم فى الفتوح ، أو فى تقديم فروض الولاء للفاتحين . ورأينا أنه أرسل ابن أخيه « محمد شاه بن سلغر شاه » لمساعدة هولاكو فى فتح بغداد .

وقد بكر أبو بكر فى توجيه ابنه كذلك نحو هذه السياسة ، ولعله انتظر عليه — فقط — حتى يمكن أن يتوسم فيه القيام بمثل هذه المهام ، فيجعله على رأس الوفود لتقديم التهانى ، أو إظهار الولاء لهولاكو .

وأول مرة ظهر فيها سعد على مسرح الحوادث ، كان فى تهيئة أبيه له ، بعد أن اجتاز عهد الصبا ، وافتتح عهد الشباب ، فأرسله على رأس وفد إلى هولاكو ليهنئه على فتح آخر قلاع الإسماعيلية سنة ٦٥٤ ﻫ[2]

(١) وصاف ص ١٨١
(٢) سعدى نامه — الأستاذ القزوينى — ص ١١٢

ومنذ ذلك العام — وكلما دعت المناسبة — كان أبوه يرسله إلى بلاط المغول لتمثيله فى تقديم التهانى ، أو مزوداً بالمال المتفق عليه أتاوة عن إمارته . فلما انتهى هولاكو من فتح بغداد، أرسله أبوه فى السابع من شعبان سنة ٦٥٦ ﻫ ليمثله فى تهنئته بهذا الفتح [1] ، فاستقبله هولاكو، استقبالاً حسناً ، وأعز جانبه وأكرم وفادته . فلما تم الأمر لهولاكو واتجه نحو الغرب يواصل فتوحه ، وبلغ بلاد اللور وأتم فتحها سنة ٦٥٨ ﻫ كان سعد قد أرسل — من قبل أبيه أيضاً — على رأس وفد لتهنئة هولاكو ، مزوداً كذلك بالهدايا النفيسة التى بعث بها أبوه [2] .

وفى أثناء عودته بالطريق سمع بوفاة أبيه ، وانتقال مقاليد الأمور إليه ، ولكن القدر لم يمهله بعد وفاة أبيه أكثر من ثمانية عشر يوماً [3] ، إذ مرض وهو فى الطريق . أصيب بزعاف واستسقاء فقضى نحبه ، دون أن يصل حتى إلى « شيراز » نفسها ، وكانت نهايته بمدينة تسمى « طبرتو » من أعمال آزربيجان .

كان أبوه وهو فى حياته قد بادر بزواجه مبكراً ، فعقد له على فتاة من بيت ملكى آخر هى « تركان خاتون » ابنة أتابك يزد « قطب الدين محمود شاه » وكانت كما توصف سيدة ذات سياسة وتدبير ، لم تكد تسمع بوفاة زوجها ، حتى عملت على نقل جثته إلى « شيراز » ودفنته بالمدرسة العضدية التى أنشأتها .

وينقل صاحب شيراز نامه عن « ابن الجوزى والثعالبى » أن الحاكم السادس فى الدولة الإسلامية ، ليس له نصيب وافر من الحكم . ويوردون من هذا القبيل « الحسن بن على » فى الخلفاء ، « ومحمداً الأمين » فى حكم آل عباس ، ويجعل هو

---

(١) جامع التواريخ — ص ٣٢٢ — كاترمير

(٢) شيراز نامه ص ٦١ وسعدى نامه ص ١١٢

(٣) وصاف ١٨١ ويذكر صاحب تاريخ گزيدة أنها اثناعشر يوما ص ٥٠٨

على هذا القياس حكم « سعد بن أبي بكر[1] » فإنه لم يظفر بأكثر من أيام محدودة ويقال إنه بالرغم من هذا قد ضربت السكة باسمه [2] بمجرد وفاة أبيه ، ونودى به فى المساجد أميراً ، فى المدة القصيرة التى أعقبت أباه، وقبل حضوره إلى شيراز . لكن هذه أعمال تقليدية تمت فى غيبته بحكم التقاليد الموروثة .

متى ولد هذا الأمير ؟

والتحقيق التاريخى فى حياته القصيرة ، نعتمد فيه على ما سجله المؤرخون . وعلى ضوئه نفترض بقية التواريخ للأحداث الهامة فى حياته ، كى نحدد — بقدر الإمكان — تاريخ مولده،ومدى حياته بالتقريب، لندرك منها هل يمكن أن ترتبط حياته بحياة الشاعر نفسه ؟ وهل بلغ سناً يمكن أن يحمل رجلا فى سن الشاعر ومنزلته بحيث يجعل تخلصه مأخوذاً من اسم هذا الأمير . . . . ؟ ؟

ويمكننا بالرجوع إلى بعض التواريخ ، التى حدثت فى حياة أبيه ، أن ندرك منها التواريخ الهامة فى حياته الشخصية ، فقد ذكرنا سابقاً أن المؤرخين فى شبه اتفاق جعلوا وفاة أبيه ، فى أحد الجماديين سنة ٦٥٨ ﻫ ، وأنه توفى بعد أبيه بثمانية عشر يوماً ، فالفرق بين تاريخ وفاة الابن ووفاة الأب لاتعدو أياماً قصاراً .

والمؤرخون كذلك يقولون إنه أنجب من زواجه ولداً هو « محمد بن سعد » وكان لا يزال صبياً ، لايتمكن من إدارة دفة الأمور بنفسه ، فأشرفت عليه أمه « تركان خاتون[3] » . وكانت ذات ذكاء وفطنه ، يصفها وصاف بقوله :

« زنى راى زن بافطنت وفن بود ، بنظم ملك پادشاه وصالح قيام نمود . و رعايت رعيت را دركنف راحت و رفاهيت بداشته ، وأطراف بروبحر رابدين صنعت أز ضيعت واتلاف مأسون الساحة گردانيد[4] » .

---

(١) شيراز نامه ص٦٢
(٢) شيراز نامه ص ٦١
(٣) سعدى نامه ص ١١٣
(٤) وصاف ص ١٨١

ولسنا نستطيع أن ندرك كم من الزمن عاش هذا الصبى ، وإن كنا قد عرفنا أنه لم يبلغ سن الرشد بعد ليستطيع تولى العرش بنفسه ، ولكن الأستاذ القزوينى، يذكر أنه حين وفاة «سعد» كان ابنه «محمدا» فى الثانية عشرة . وكان له أيضا ابنتان — كبرى وتسمى «سلغم» وصغرى وتسمى «أبش خاتون» — ولكنه لا يحيلنا على المصدر الذى استقى منه هذا القول وإن كنا نأخذ بهذا الرأى أيضاً فهو فى السن التى لم تمكنه من القيام بشئون الدولة دون الإشراف عليه .

وهناك بجانب هذا ، تاريخ آخر عرض له المؤرخون فى مجرى حياته ، وهو إرساله لأول مرة على رأس بعث إلى هولاكو ليهنئه ، نيابة عن أبيه بعد فتح آخر قلاع الإسماعيلية سنة ٦٥٤ هـ .

ونستطيع أن نفترض بعض الوقائع وأن نقيس عليها الزمن المناسب لها فلعلنا نصل إلى شىء فى معرفة سنة ولادته ، وبالتالى مدى حياته ، ولننظر للمسألة من الوجوه الآتية :

أولا — رأينا أن أول سنة ظهر فيها على مسرح الحوادث كانت سنة ٦٥٤ هـ فماذا يمكن أن يكون قد بلغ من السن فى ذلك الوقت . . . ؟ يمكن أن نقدر سنه إذ ذاك فى حدود الخمسة والعشرين عاما . وهى السن اللائقة للقيام بمثل هذه المهمة فى مثل بلاط « هولاكو » فيكون مولده — حسب هذا التقدير فى حدود سنة ٦٣٠ هـ . وسنه عند وفاته سنة ٦٥٨ هـ لا تتجاوز الثلاثين .

ثانياً — وهذا تقدير مناسب ، إذا لاحظنا أيضاً تقدير المؤرخين لسنه ، فينقل الأستاذ القزوينى عن صاحب « مزارات شيراز» فى ترجمة حياة هذا الأمير أنه كان فى عنفوان شبابه عند وفاته ، إذ يعلق على عبارة هذا المؤرخ « وكان ملكا شاباً جميلا » بقوله :

« واضح ميشود كه وى در عنفوان جوانى (١) »

---

(١) سعدى نامه ص ١١٣

وهذا ما يقربنا من صحة الافتراض السابق الذى انتهينا فيه إلى أن هذا الأمير قد توفى وهو فى حدود الثلاثين . وأن ميلاده كان فى حدود سنة ٦٣٠ هـ .

ثالثاً — يضاف إلى هذا ما يؤخذ أيضاً من أوصاف الشاعر له ، فى مدحه حال حياته ، ورثائه له عند وفاته ، فانه لم يتخط فى كلا الناحيتين مرحلة الشباب .

فأما وصفه فى « البوستان » فيرد فى قطعة تحت عنوان « مدح سعد بن أبى بكر بن سعد » . ترى « كليات فروغى » و بعض نسخ « البوستان » أنها فى مدح هذا الأمير . وترى غيرها أنها فى مدح ابنه « محمد شاه » . لكن كثيراً من الوقائع تؤيد أنها فى الأب وليست فى الابن . وسنعرض لذلك عند مدائح الشاعر فى ابنه « محمد شاه » .

ومطلع هذه القطعة بيت يوصف فيه بالشباب السعيد الحظ المشرق الضمير :

جوان جوانبخت روشن ضمير بدولت جوان وبتدبير پير » (١)

ونحن نعرف أن البوستان قدم لأبى بكر سنة ٦٥٥ هـ . وعند وفاته ، قد رثاه الشاعر أيضاً بقصيدة وصفه فيها بالشباب كذلك فى بيته الآتى :

« پس أز سرگ جوانان گل نماناد پس أزگل درچمن بلبل مخواناد » (٢)

فهو فى نظر الشاعر نفسه لم يتخط سن الشباب حين وفاته سنة ٦٥٨ هـ . وعلى ذلك يكون تقديرنا لسنه بالثلاثين عند وفاته تقدير مقارب للحقيقة .

مدائح الشاعر ومراثيه فى هذا الأمير :

كان نصيب هذا الأمير من ذكر الشاعر له نصيباً لا بأس به ، و إن لم يبلغ نصيب أبيه ، ولعل أهم ماخلد به الشاعر اسم هذا الأمير هو كتابه « الگلستان » الذى قدمه له فى حدود سنة ٦٥٦ هـ بعد أن قدم « البوستان » لأبيه فى العام الذى سبق .

---

(١) كليات فروغى ص ٢٢٥ (٢) كليات فروغى ص ٤٨١

ويشير الشاعر — فى مقدمته لهذا الكتاب — إلى ذلك بعد عبارة منثورة بقوله البيت الآتى :

«على الخصوص كه ديباجهٔ هما يونش   بنام سعد أبوبكر سعد بن زنگيست[1]»

هذا هو الموضع الذى ورد فيه ذكر لهذا الأمير من كتاب «الگلستان».

وقد أشرنا سابقاً إلى أن هناك قطعة فى الكتاب الثانى «البوستان» يختلف فيها الرواة . فيقول بعضهم إنها فى مدح الأمير «سعد بن أبى بكر» ولى العهد ، بينما يجعلها الآخرون فى مدح «محمد بن سعد» . وقلنا إن القطعة فى مدح الأب وليست فى مدح الابن .

وبجانب المواضع التى عرض فيها لمدحه فى كتابيه «البوستان والگلستان» هناك مواضع أخرى ينتقل فيها إلى الحديث عنه ، وذلك فى مرثيتين من مراثى أبيه[2] .

أما مراثيه الخاصة فمرثيتان : إحداهما تقع فى باب المراثى ، والأخرى فى باب الترجيعات من كليات فروغى[3] .

٧ — محمد بن سعد وأمه تركان خاتون : ٦٥٨—٦٦١هـ

تلقت أمه وحدها هول الصدمة فى أبيه ، ونفذت إلى الحكم وصية على ابنها الذى لم يتجاوز الثانية عشرة ، كما أسلفنا ، وكان أول عمل اتجه إليه ذهنها ، أن بعثت إلى «هولاكو» بالوزير «نظام الدين أبى بكر» لتقديم فروض الطاعة والولاء[4] . ليقرها على تصرفها فى توريث ابنها عرش الإمارة بعد أبيه تحت إشرافها .

---

(١) كليات فروغى ص ٧٨   (٢) كليات فروغى ص ٤٨٣، ٤٨٦، ٧٠٦

(٣) كليات فروغى ص ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٥ وسعدى نامه. قزوينى ص ١١٠، ١١٥

(٤) وصاف ص ١٨١

ويبدو أن أهالى شيراز لم يستقبلوا هذا الوضع من جانبهم بالرضا والقبول، فتشاءموا من ذلك [1]. وكانت سياسة «هولاكو» نفسها ترمى إلى إقرار السياسة التى يتفق عليها مادامت لم تؤد إلى قلاقل، أو اضطرابات ذات خطورة. فكان أن أقرها على مافعلت، وسمح لها أن تصرف شئون الدولة وصية على ابنها.

ويذهب صاحب « حبيب السير » مذهباً مناقضاً تمام المناقضة، لما ذهب إليه « الوصاف » فى الناحيتين. فيرى أن الاختيار تم بين أكابر « شيراز » على تولية ابنها العرش تحت وصايتها، وأقر « هولاكو » ذلك، كما يرى أن الوزير « نظام الدين أبا بكر » أراد إفساد الأمر عليها لدى « هولاكو »، فتوجه من نفسه بالهدايا وإعلان الطاعة — طمعاً فى الملك — لكنه لم يفلح فيماذهب إليه [2].

وسواء أكان الأمر هذا أو ذاك، فإنها تولت الحكم مباشرة، بعد وفاة زوجها فى نفس الشهر. ومن المصادفات أنه فى الشهر نفسه خطب لثلاثة من حكام الأنابكة. خطب فى أوله « لأبى بكر »، فلما توفى خطب لابنه « سعد » فلما توفى خطب لابنه « محمد ».

وكأنما خلقت «تركان خاتون» لتواجه النكبات فى زوجها وابنها، بل فى حياتها شخصياً، فلم تمتد حياة ابنها طويلا. فما كادت تمهد له الأمر، ويستقر الحكم فى أيديها، حتى توفى وهو لايزال صبياً إثر سقوطه من سطح القصر فى شهور سنة ٦٦١ هـ [3] بعد سنتين وسبعة أشهر من تاريخ ولايته، فدفنته أمه بجوار أبيه، وهى تتمثل بهذا البيت :

«إين چه باداست كزو غنچه نشكفته بريخت
وين چه سيل است كه بركند زين شمشادم» [4]

---

(١) وصاف ص ١٨٢
(٢) حبيب السير ص ١٣٠
(٣) وصاف ص ١٨٢
(٤) شيراز نامه ص ٦٧

نشير هنا إلى خلاف بين نسخ من « البوستان والـكليات » عامة فى قطعة يسندها بعض الرواة إلى الشاعر فى مدح « سعد بن أبى بكر » . ويسندها الآخرون إليه فى مدح « محمد بن سعد » .

وتتفق النسخ جميعها ، فى أن نهاية القطعة السابقة لها والتى قالها الشاعر فى مدح « أبى بكر بن سعد » هو هذا البيت :

«گر أز سعد زنـگى مثل‌ماند وياد فلك ياور سعـد بو بكر باد»

ثم يأتي الخلاف فى عنوان القطعة وفى مطلعها .

فأما الذين ذهبوا إلى أن القطعة فى مدح « سعد بن أبى بكر بن سعد » فقد جعلوا مطلعها :

«جوان جوانبخت روشن ضمير بدولت جوان وبتد بير پير (١)»

وأما الذين أثبتوها فى مدح « محمد بن سعد » فقد جعلوا مطلعها :

«أتابك محمد شهى نيك بخت خداوند تاج وخداوند بخت (٢)»

ثم كان البيت التالى ، لهذا البيت ، هو الذى تقدم ، والذى أثبتته بعض النسخ مطلعاً للقطعة . وتمضى بقية القطعة فى مجموع النسخ ، على رواية واحدة ، فالخلاف فقط فى العنوان ، وفى بيت المطلع .

ومن الحق هنا ، أن نقف للفصل فى هذه المسألة بما يعن لنا. ونحن نميل إلى أن نجعل هـذه القطعة فى مدح الأمير « سـعدبن أبى بكر » . وليست فى مدح ابنه « محمد بن سعد » وذلك للأسباب الآتية :

١ — أن جميع النسخ تجمع على أن نهاية القطعة التى امتدح فيهـا الشاعر « أبا بكر بن سعد » هو هذا البيت :

---

(١) كليات فروغى ص ٢٢٤ (٢) بوستان Graff ص ٢٥

« گراز سعد زنگی مثل ماند و یاد   فلك یاور سعد بو بکر باد »

وفي نظرنا ، أن الشاعر أراد أن يهيء الذهن للحديث عن هذا الأمير ، فمن المناسب أن يكون الانتقال إلى مدحه ، لا إلى مدح إبنه .

٢ — لو كانت هذه القطعة فى مدح الأمير « محمد » لـكان الانتقال إليه بعد مدح جده الثانى « سعد بن زنگی » وجده الأول « أبى بكر » فيه تجاهل لأبيه « سعد بن أبى بكر » . والمقام هنا أنسب لأن يكون الانتقال فى المدح إلى « سعد » الابن لا إلى « محمد » الحفيد .

٣ — أن الوصف الذى ورد فى مطلع هذه القطعة وخلالها ، مناسب لأن يكون فى « سعد » من أن يكون فى « محمد » . فان الأوصـــاف التى وردت فى المطلع ، تدل على أنه شاب سعيد الحظ ، مشرق الضـمير ، فتى فى الدولة ، وشيخ فى التدبير . هذا هو تفسير البيت الأول الذى عرض لوصف الأمير مطلقاً ، دون أن يشير إلى من هو هذا الأمير . ؟ ؟ سوى أن بعض النسـخ تجعل عنوان القطعة فى مدح « سعد » وفى الأخرى يمدح « محمداً بن سعد» مع إضافة البيت الذى يشير إلى اسمه .

ونلاحظ أن هذه الأوصاف التى وردت فى مختلف النسخ ، تناسب — إلى حد بعيد — أن تكون فى « سعد » لا فى ابنه « محمد » . فانه كان فتى، عهد له أبوه بالقيام بالـكثير من المهام ، ومنها سفارته إلى بلاط المغول . وأنه كان فى تلك السن ، قد بلغ مبلغ الرجال ، فأشرف على الثلاثين ، لا مبلغ الفتيـان فحسب . فى الوقت الذى لم يكن فيه « محمد » — حين إنشاد البوستان — على فرض أنه تم إنشاده دفعة واحدة وانتهى سنة ٦٥٥ ه — لم تكن سن « محمد » إذ ذاك تتجاوز السابعة ، فانه قد توفى سنه ٦٦١ ه وهو فى سن الثانية عشرة ، فلم يبلغ مبلغ الفتوة،

حتى ولا مبلغ من يتولى شئون الإمارة بنفسه بعد وفاة أبيه ، وبالتالى لم يأت عملا يستحق المدح .

رأى الأستاذ القزوينى والرد عليه

على أن الأستاذ القزوينى ، يذهب إلى تأييد الرأى القائل ، بأن هذه القطعة فى مدح « محمد بن سعد » وذلك — فى نظره — للأسباب الآتية :

١ — إن الشاعر بعد أن أتم « البوستان » سنة ٦٥٥ هـ أضاف إلى ذلك الموضع ، هذه الأبيات فى عهد سلطنة « الأتابك محمد ٦٥٨ هـ — ٦٦١ هـ[1] » .

٢ — كما يرى أن عنوان هذه القطعة ، فى نسخة شاهدها — يؤرخ نسخها سنة ٧٦٧ هـ — تحت هذا العنوان « ستايش أتابك محمد بن سعد بن أبى بكر » ويذكر استطراداً أنه فى جميع النسخ الأخرى ، يكتب عنوانها أيضاً بنفس هذه العبارة ، أو بمضمونها .

٣ — ثم يذهب فى تأييد هذا الرأى كذلك إلى أن البيتين الآتيين صريحان فى مدح الأتابك « محمد » نفسه وهما .

« صدف را كه بينى زدر دانه پر — نه آن قدر دارد كه يك دانه در
تو آن در مكنون يك دانه‌ٔ — كه پيرايه‌ٔ سلطنت خانه‌ٔ »

ومعناها « إن الصدف الذى تراه ممتلئاً بحب الدر ، ليست له تلك القيمة ، التى تحتويها حبة واحدة . وأنت تلك الحبة الوحيدة ، التى هى كالدر المكنون ، زينة لبيت السلطنة » .

فيرى الأستاذ أن هذين البيتين ، إشارة إلى الابن الوحيد لأبيه ، حيث أنه فى الواقع — كان محمد هو الغلام الوحيد لسعد بن أبى بكر

---

(١) سعدى نامه ص ١١٦

ونستطيع بعد إجمال آراء الأستاذ أن نرد عليها — بالإضافة إلى ما أوردناه سابقاً — بالأمور الآتية :

١ — يرى الأستاذ أن الشاعر أضاف بنفسه،عدة أبيات — بعد أن أتم «البوستان» سنة ٦٥٥هـ — في عهده سلطنة « محمد شاه » التي انتهت سنة ٦٦١هـ ومع تسليمنا بإمكان الإضافة على النسخة التي تمت في عهد « أبي بكر » أبياتاً أو قطعاً أخرى ، وبالتالي بأن « البوستان » تم على دفعتين . فان الخلاف الذي بين النسخة التي أخذ عنها الأستاذ وغيرها من النسخ الأخرى ، التي جعلت القطعة في مدح « سعد بن أبي بكر » ليس في الأبيات جميعها ، لكنه في بيت واحد هو الذي جعل في مطلع القطعة ، مشيرا إلى اسم الأمير « محمد » .

والقطعة كلها تبلغ ثمانية أبيات — كما أوردها الأستاذ القزويني — يتردد فيها وصف لأمير يصح أن ينصب على « سعد بن أبي بكر » أو على « ابنه محمد » . فالخلاف بين النسخ ليس في القطعة كلها ، ولكن في البيت الأول ، وليست الإضافة التي أضيفت ، في مطلع القطعة ، يقع غيرها في عموم الأبيات ، وليس بين النسخ خلاف في هذا .

٢ — إن النسخة التي اعتمد عليها الأستاذ القزويني في تأييد رأيه ، لا يقوّى الاعتماد عليها أنها تؤرخ سنة ٧٦٧هـ . فهي نسخة متأخرة — من حيث الزمن — عن النسخة التي عثر عليها مخطوطة بخط « علي بن أحمد بن أبي بكر البيستوني » والتي كان تاريخها سنة ٧٢٦هـ[1] .

فهذه النسخة أسبق من النسخة التي اعتمد عليها الأستاذ القزويني . كما يقال

---

(١) انظر بدايع شيخ سعدى . طبعة كاوياني نشر . ت . إيراني.سنة ١٣٠٤ هـ ص ٥ . وبقدمة كليات فروغي ص ٨ .

إنها عن نسخة بخط الشاعر نفسه . وهـذه النسخة هى التى نشرت بايران أخيراً، وقام بنشرها الأستاذ فروغى .

٣ — البيتان اللذان ذهب الأستاذ القزوينى فى تأييد رأيه عليهما ، واللذان أشرنا إليهما سابقاً ، لا ينصان صراحة على الأمير « محمـد » . فمن الممكن أن ينصب معناهما على أبيه كذلك، فهو أيضاً درة وحيدة فى بيت السلطنة .و إذا كان الأمير « محمد » يعتبر وحيداً فان أباه كذلك يعتبر وحيداً أيضاً ، ولم تشر كتب التاريخ ، أو التراجم إلى أن «سعداً » كان له إخوة آخرون من أبيه « أبى بكر » . ولو قد كان له ، لأمكن أن ينازع السلطان لهذا الحفيد الصغير الضعيف ، الذى أسرعت أمه فى احتضانه ، والوصاية عليه .

فالبيتان صالحان كذلك لأن يكونا فى « سعد » نفسه لا فى «محمد» الأمير .

٤ — وبجانب هذه المناقشة — إذا نظرنا إلى البيت الذى يشير إلى اسم محمد — لأحسسنا بأنه قلق فى موضعه ، مقحم بين موضعين ، مضطرب الصلة بما قبله و بعده ، يشعر معناه بالافتعال كذلك .

و يبدو هذا الاضطراب ، فى الانتقال المفاجىء من مدح الجـد إلى مدح الحفيد ، وفى عدم انسجام معنى البيت الذى بعده على الأمير محمد . فهو يقول .

« جوان جوانبخت روشن ضمير   بدولت جوان و بتدبير پير »

كيف ينسجم هذا الوصف فى فتى لم يبلغ الحلم بعد ؟ ؟ ؟ وكيف يكون هو نفسه شيخاً فى التدبير ، بينما لا تزال الوصاية جاثمة على صدره ، لا يفارق قصره إلا فى رعاية الرائدين ؟ ؟ ؟

فالمسألة من هذه الوجوه جميعاً ، تؤيد صحة القطعة فى « سعد بن أبى بكر » وليست فى « ابنه محمد » .

أما تفسير مجيء بعض النسخ بهذا البيت فى طليعة القطعة ، فأمر سهل رده .

ولسنا نسلم بأن الشاعر بنفسه هو الذى وضع هذه القطعة ، ولا هذا البيت وحده ، ولكننا نسند ذلك إلى عبث الرواة ، وتلاعب النساخ . وأنهم ليعانى الأدب والعلم من أمرهم الشيء الكثير !

ونشير إلى ما ورد عن هذا الأمر فى مقدمة « كليات فروغي » . فهو يقول ، « إنه فى مدى السبعمائة سنة التى مضت بعد وفاة الشاعر ، ظهرت نسخ كثيرة من الكليات ثبت فيها أغلاط كثيرة ، إما من طريق السهو ، أو من طريق التصرف ، الذى كثيراً ما كان يقع عمداً [1] » .

الشاعر وتركان خاتون

مع هذه الأدوار العظيمة ، التى لعبتها فى توجيه سياسة الإمارة ، وفى إدارة دفة الأمور ، فان حظها من مدائح الشاعر ، لم يكن كثيراً ، كما أنه تجاهل وفاتها أيضاً فلم يكن له مراث فيها .

ونشير — بجانب ذلك — إلى أن الشاعر كان يتحرج كثيراً فى ذكر اسمها ، أو حتى وضع عنوان صريح لقصائده فيها ، وإنما كان يؤخذ من مفهوم العبارة أنها فى مدحها . وليس يصعب علينا تفسير هذه الظاهرة .

وقد أشار الأستاذ القزوينى إلى أن صمت الشاعر عن ذكر اسمها لم يكن

---

(١) كليات فروغى ص٣ وانظر مدائحه الأخرى فى كليات فروغى ص٥٥٤، ٦٤٧ وانظر سعدى نامه قزوينى ص ١١٥—١١٩

اتفاقاً ، بل كان قصــداً ، اقتضاه موقف التحدث عنهــا، تمشــياً مع قواعد اللياقة والاحترام ، مع سيدة السلطنة فى ذلك العصر .

فــكما أن العادة جرت على أن تكنَّ مستورات بأشخاصهن عن العيون ، فــكذلك ينبغي أن تكون أسماؤهن ، مستورة عن الأسماع كذلك .

ولهذا نجد الشاعر يعمد إلى وصفها بأوصاف لائقة تشير إليها ، ولا تفصح عنها . ولعل ذلك هو الذى أوحى أيضاً إلى بعض النساخ والرواة ، أن يضعوا لها العناوين اللائقة .

فأما الشاعر فــكان يكنى عنها ، بوصف رقيق لائق ، وهو كلمة « حرم » وفى المواضع التى رغب فى التحدث عنها ، كان يشير إليهــا مستخدما هذه الــكلمة ، مسبوقة بالإضافة كما فى «أهل حرم[1]» أو متبوعة بصفة كما فى « حرم عفت وعصمت[2] » .

وقد أوحت الــكناية عنها الرواة والنساخ أن يضعوا عناوين مناسبة كمثل «وله فى الحرم المعصوم » أو «وله فى الستر العالى[3] » أو ما حول ذلك .

٨ — محمد شاه بن سلغرشاه : ٨ أشهر من سنة ٦٦١ هـ

لعل السياسة التى سلــكها هذا الشاب — مع ما كان له من التقدير العظيم فى نظر أبى بكر أيام حياته ، وحتى فى نظر هولاكو ، لما كان يبديه من البسالة والشجاعة فى مساعدتهم فى الحرب — ولعل سلوكه الشخصى ، وانحرافه عن الدين وتجنبه ، سياسة المسالمة ، التى كان ينبغى أن يأخذ بها « تركان خاتون » . لعل مسلــكه فى كل ذلك ، أدى إلى قصر حكمه ، وبالتالى إلى القبض عليه و إرساله ، إلى بلاط « هولاكو » على النحو الذى سنورده .

---

(١) كليات فروغى ص٤٨٥ (٢) نفس المصدر ص ٦٤٧

(٣) انظر سعدى نامه . قزوينى ص ١١٩، ١٢٤

أخذت « تركان خاتون » تتدخل فى توجيه شئون الأمارة، وتلعب دوراً هاماً فى تدبير الأمور ، وتشرف بنفسها على معالجة الحوادث ، التى تواجه الدولة . فدبرت الأمر بينها و بين رجال الدولة ، بعد وفاة ابنها على تولية « محمد شاه بن سلغرشاه»[1] . وكانت قبل ذلك قد زوجته كبرى بناتها «سلغم[2]» . وكان عمه « أبو بكر » يلمح فيه كذلك الرجولة والهمة . فعرفنا أنه قد دبر له جيشاً، ومضى به ليساعد « هولاكو » فى فتح بغداد ، فأبدى فى تلك الموقعة ، شجاعة وقوة مراس ، أعجبت « هولاكو » إلى حد بعيد[3] .

لكن يبدو أنه ركب رأسه ، وامتلأ غروراً ، حين قبض على زمام الأمور بنفسه ، وانصرف عن تدبير شئون الدولة ، وصرف وقته بين اللهو واللعب ، وأسرف فى ذلك إلى حد أغضب أمراء الدولة ، وعلى رأسهم « تركان خاتون » نفسها التى كان لها الفضل الأكبر ، فى وصوله إلى العرش .

ثم حدث أن طلقت منه ابنتها « سلغم » وزوجتها من ابن خالها الأتابك « يوسف شاه بن علاء الدولة » أتابك يزد[4] . وهكذا وقع هذا الشاب فى خطأين عظيمين.، خطأ شخصى فى مجونه ، وتجنبه روح الدين ، وتظاهره بذلك . وخطأ سياسى ، فى تجاهله شخصية تركان خاتون ، فلم يظفر بتأييد الشعب ، أو أبناء البيت المالك على السواء ، بالرغم من ماضيه المجيد .

ولهذا دبرت « تركان خاتون » الأمر مع بقية الأمراء ، وقادت ضده حركة محكمة ، أدت إلى القبض عليه ، وخلعه عن العرش ، و إرساله إلى « هولاكو » أسيراً ، وظل فى أسره حتى توفى فى نفس السنة التى تولى فيها وهى سنة ٦٦١هـ . وكانت مدة حكمه لا تزيد على ثمانية أشهر[5] .

---

(١) وصاف ص ١٨٣
(٢) سعدى نامه ص ١١٩
(٣) وصاف ص ١٨٣
(٤) سعدى نامة ص١١٩
(٥) حبيب السير ص ١٣١

وهكذا انتهى بعيداً عن موطنه محروماً من تقـدير الشعب له ، ومحروماً كذلك من تقدير الشاعر ، فلم يكن له فيه قصائد مدح أو رثاء .

٩ — سلجوق شاه بن سلغر شاه : ٧ أشهر من سنة ٦٦٢ هـ

كان سلجوق شاه — كما يصوره التاريخ أيضاً — شاباً طموحاً ، ولكنه ضل الطريق كذلك ، كما ضل أخ له من قبل . هو « محمد شاه » وإن كانت أساليب الضلال مختلفة بعض الاختلاف ، فالأول تجنب سياسة المصانعة مع تركان ، والثانى رأى أن يأمن غدرها فابتنى بها أولا ، ثم غدر بها أخيراً .

والأول ارتكب سياسة المجون والاستهتار ، فنفر منـه الشعب ، وثار ضده حتى قبض عليه ، وأرسل إلى هولاكو أسيراً ، فقضى نحبه هنـاك . والثانى صانع المغول ، كما صانع تركان ، ولكن على دخل وضلال ، فـكما قضى على « تركان » ركب رأسه كذلك ، وسار فى الطريق حتى النهـاية ، فتخلص من عمال المغول ، ورعاياهم فى « شيراز » قتلا وغـدراً مما نفرهم منه ، وجعلهم يعلنون الحرب عليه ، حتى وقع آخر الأمر أسيراً ، ولم يدم حكمه أكثر من بضعة أشهر كأخيه .

هذا مجمل لقصته ، أما تفاصيل حياته ، فيقال إن أمه ، من بيت ملـكى آخر هو بيت السلاجقة [١] ، ولعل فى اختيار هذا الاسم ما يشعر بذلك ، وكان أكبر من أخيه « محمد » بعام واحد [٢] . وفى أيام « محمد بن سـعد » كان قد زج فى السجن بقلعة اصطخر [٣] . فلما تولى أخوه أمور الدولة ، انتهز هو هذه الفرصة ، وبعث إليه برباعية يسترضيه بهـا ، ويذكره بحاليهما ، وما بينهما من فروق ، ويطلب إليه أن يفكه من سجنه ، فى رباعيته الآتية .

(١) حبيب السير ص ١٣١ (٢) سعدى نامه ص ١٢٤

(٣) حبيب السير ص ١٣١

«درد وغم وبند من درازی دارد عیش وطرب تو سر فرازی دارد[1]
برهردو مکن تکیه که دوران فلك دربرده هزار گونه بازی دارد[2]»

كانت شخصية « تركان خاتون » لا تزال هى المسيطرة على الموقف ، والقابضة على زمام الأمور ، خلال تلك الأحداث التى حلت بفارس . فقد شغلت حياتها جزءا من حياة « سعد بن أبى بكر » بعد زواجها به ، وظلت مشرفة بنفسها على إدارة شئون الدولة ، أيام ابنه « محمد » ، وتشارك فى توجيه السياسة العليا أيام « محمد شاه » .

فلما آل الحكم إلى « سلجوق شاه » بعد فكه من السجن ، قدم إلى شيراز ، فاستبشر أهاليها بقدومه ، وتوليته ، وكان أول عمل قام به رغبته أن يأمن جانب « تركان خاتون » ، فتزوجها[3] لكن عهده — على قصره — كان مليئاً بالأحداث الهامة فى حياة هذه الدولة . لم يطل الوفاق بينه و بين زوجته ، فعمل على التخلص منها ، فقتلت واحتزت رأسها[4] ، لكن هذه الحادثة جرت عليه نكبات أخرى من الداخل ومن الخارج .

غضب عليه بعض الأعيان فأجهز عليهم[5] ، وغضب عليه أهل تركان — أمراء يزد — وشكوه إلى هولاكو[6] ، فلما أحس بغضبه عليه ، ركب رأسه وأعلن العصيان ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل جمع رجال المغول بشيراز ، وقتلهم جميعاً مع زوجاتهم ، وأتباعهم ، وأحرق دورهم[7] .

عندئذ أعد « هولاكو » جيشاً كثيفاً لتأديبه ، وأمر عليه « التاجو

---

(١) فى شیراز نامه كلمة دلنوازى بدل سرفرازى ص ٦٢ .
(٢) وصاف ص ١٨٣ (٣) نفس المصدر ص ١٨٤
(٤) شیراز نامه ص ٦٣ (٥) حبيب السير ص ١٣١
(٦) شیراز نامه ص ٦٣ (٧) سعدى نامه. قزوینی . ص١٢٤—١٢٥

وتيمور[1] » ولحق بهما أمراء الأطراف كذلك[2] . وتكون جيش عام من المغول ، والمسلمين ، من نفس بلاد فارس وتوابعها ، فكان هذا الجيش يمثل جهات مختلفة من أصفهان وبلاد اللوز ويزد وكرمان[3] .

أعد « سلجوق شاه » من جانبه العدة للقاء هذا الجيش ، ولكى يأمن على ثروته وأمواله ، حمل كل ما فى خزائنه[4] ، لتكون تحت متناول يده إذا اقتضى الأمر .

وكأنما أحس أن لا طاقة له بالمقاومة فقر إلى ساحل عمان[5] ، ونزل ببلدة تسمى « خورشيف[6] » وأعد العدة للهرب بالسفن ، لكن « التاجو » تبعه حتى اضطره أن يعود إلى « كازرون » . فلما التقى الجمعان ، اعتصم « سلجوق شاه » بمسجد الشيخ « أبى اسحق الكازرونى[7] » ، ولجأ معه فى هذا المسجد ، جيش كثيف من بنى خؤولته ـ أتراك السلاحقة ـ كما انضم إليه أهالى كازرون[8] .

أحاط المغول بالمسجد ، وقذفوه بالحجارة ، والسهام ، وقطع الأخشاب . وكان بين رجال « سلجوق شاه » أحد القواد الأبطال المسمى « مينكلى بيك » . كان من خواصه ، شجاعاً قوياً . ضرب الأمر بينه وبين « سلجوق شاه » ليهجما بشدة على المغول ، فلعلهم يرتدون عن هذا الحصار ، لكن «سلجوق شاه» مانع فى الأمر ، بدعوى أنه لا يملك القدرة على سرعة الحركة لبدانته[9] .

عندئذ جمع « مينكلى بيك » ما استطاع حمله ، من الخزانة وانقض على المغول ، هو وأبناؤه ، و بعض أتباعه ، انقضاض الأسود ، حتى فتحوا فى جبهتهم

---

(١) وصـــاف ص ١٨٦
(٢) شيراز نامه ص ٦٣
(٣) وصاف ص ١٨٦
(٤) سعدى نامه . قزوينى ص ١٢٥
(٥) حبيب السير ص ١٣١
(٦) وصاف ص ١٨٦
(٧) نفس المصدر ص ١٣٢
(٨) وصاف ص ١٨٩
(٩) حبيب السير ص ١٣٢

ثغرة ، نفذوا منها إلى الخارج . لكن أتابك يزد « علاء الدولة أخا تركان خاتون» تعقبه . فلما أدركه ارتد إليه « مينكلي بيك » وطلب إليه أن يعود ، و إلا عرض نفسه ، ورجاله للهلاك . لـكن الأتابك اغتر بكثرة ما لديه من الرجال والأعوان فلم يستمع لهذا النصح ، فعطف عليه « مينكلى » وقذفه بسهم ألقاه على الأرض ، وفر هو غانماً إلى البصرة ومنها إلى مصر . وأمضى بها بقية عمره[1].

أما مصير « سلجوق شاه » فقد اقتحم المغول عليه المسجد ، وأعملوا فى رجاله السيف ، حتى قبضوا عليه ، وحملوه إلى قلعة « سفيد » فزج فيها ، حتى توفى سنة ٦٦٢ [2] ه بعد حكم لم يدم أكثر من سبعة أشهر ، انطوت خلالها هذه الأحداث الجسام .

وقد كان — لشجاعته و بسالته — محل تقدير عند الشاعر فمدحه بقصائد كثيرة [3] .

١٠ — أبش خاتون : ٦٦٢ — ٦٨٥ه

كانت الأحوال بعد سلجوق شاه ، تؤذن بغروب شمس هذه الأسرة ، فإلى جانب الأحداث الهامة ، التى أدت إلى القتل والسفك ، والتى انتهت بالحرب — كما صورنا — كانت هناك عوامل أخرى ، أدت إلى كثرة تغلغل نفوذ المغول عن ذى قبل .

انتهت بانتهاء « سلجون شاه » أفراد هـذه الأسرة من الرجال ، الذين يتولون العرش ، ولم يبق من سلالة الأتابكة ، إلا « سلغم وأبش » ابنتا سـعد ابن أبى بكر من زوجته « تركان خانون » وكانت سلغم الـكبرى قد تزوجت من

(١) حبيب السير ص١٣٢ (٢) شيراز نامه ص ٦٤

(٣) كليات فروغى ص١٤١، ٤٥٦، ٤٥٨، ٥١٦ وانظر سعدى نامه. قزوينى ١٢٤—١٢٧

« محمد شاه بن سلغر شاه » كما أسلفنا ثم انتقلت بعده إلى ابن خالها ، فاتجهت أنظار المغول إلى أختها « أبش خاتون » . وكان قلب « منكوتيمور بن هولاكو » يرنو إليها .

ويقع الخلاف بين المؤرخين فى الوقت الذى زفت إليه فيه ، ويعرض صاحب « حبيب السير » إلى هذا الخلاف ، فيذكر عن صاحب « روضة الصفا » أنها حين انتهاء عهد « سلجوق شاه » كانت تحته فعلا . كما يذكر عن صاحب « تاريخ گزيده » أنها زفت إليه سنة ٦٦٣ هـ بعد سنة من حكمها [١] .

ويؤيد الأستاذ القزوينى الرأى القائل بأنها كانت قد زفت إليه قبل توليتها العرش [٢] ، فلما أعلنت ولايتها ، خطب لها ، وضربت السكة باسمها كذلك [٣] .

ويشير « الوصاف » إلى أن الحكم كان — منذ ذلك الوقت — اسمياً فى أيدى الأتابكة وواقعياً فى أيدى المغول .

ولكن يرى أن المدة التى أمضتها بشيراز ، قبل زواجها ، كانت مدة طويلة مابين سنة ٦٦٢ هـ وسنة ٦٧٢ هـ أشرفت فيها على دفة الحكم ، وهى بقاعدة الدولة ولم تذهب إلى بلاط المغول إلا فى حدود سنة ٦٧٢هـ فى صحبة الأمير « سوغونجاق » لتتصل بزوجها « منكوتيمور بن هولاكو [٤] » .

وسواء أذهبت مبكرة إلى بلاط المغول ، أم بقيت تدير دفة الدولة بشيراز ، فإن الأمور — فى حقيقتها — كانت بأيدى عمال المغول وموظفيهم . وقد امتد حكمها مدى اثنين وعشرين عاماً من سنة ٦٦٢هـ إلى سنة ٦٨٥ هـ . ومن المحقق أنها أمضت المدة مابين سنة ٦٧٢ هـ إلى سنة ٦٨٢ هـ بآزر بيجان فى بلاط المغول .

---

(١) حبيب السير ص ١٣٢
(٢) سعدى نامه ص ١٢٧
(٣) شيرز نامه ٦٤
(٤) وصاف ص ١٩٧

اجتازت فى تلك الفترة بقية عهد حكومة « هولاكو » وابنيه « آباقا وتكودار » وقدرا من حكم « أورغـون خان » تقلبت عليها ، وعلى دولتها ، فيهـا أحداث جسام وخطوب .

ففى مطالع حكمها ، ثار عليها رجل يسمى « سيد شرف الدين ابراهيم » ادعى أنه من الأشراف ، واغترب بعض حياته ، فى نواحى خراسان ، ولـكن شـيراز استهوته لجمع طائفة من التركمانيين ، وائتمر معهم على نزاعها السلطان، والاستيلاء على الدولة ، واتجه بهم نحوها ، لـكن جيش المغول ترصد له ، حتى إذا أشرف على شـيراز أوقع الهزيمة به ، فى مكان يسـمى « پل كوار [1] » وانتهت تلك المؤامرة سنة ٦٦٦ هـ .

وفى سنة ٦٨٠ هـ فجعت فى زوجها « منكوتيمور »[2] . أصابته ضربة قاتلة ، تلقاها من المصريين الذين التحم بهم فى أرض الشام ، فلما توفى زوجهـا ، أذن لها « تكودار أحمد » الذى كان إذ ذاك على عرش المغول ، فى العودة إلى بلادها ، فعادت إليها فى حدود سنة ٦٨٢ هـ .

فلما أشرفت على المدينة ، فرح أهاليها بعودة أميرتهم إليهم ، فهرعوا جميعـاً لاستقبالها ، وعطلت الأسواق ، وأقفلت الحوانيت وانتشر المطربون فى شوارع شيراز ، يغنـون القوم ويطربونهم ، وأمضت شـيراز شهراً كاملا وهى غارقه فى مظاهر البهجة والسرور [3] .

لـكن أيام السعادة لم تطل بهـا و بقومها ، فلم تـكد تعود إلى موطنها ، حتى أخذت توجه بنفسها أمور الدولة ، متناسية وجود ممثلى المغول فى إمارتها . فأغضب

(١) شيراز نامه ص ٦٤

(٢) سعدى نامه ص ١٢٨

(٣) سعدى نامه ص ١٢٨

ذلك أولى الأمر وأحفظهم عليها . أضف إلى ذلك أن السياسة العليا فى دولة المغول ، قد تغيرت عندما آل الأمر إلى « أرغون خان » بعد عهد « تكودار » القصير . والذى ساد فيه الاستبداد ، والظلم ، واضطهاد الناس ، وتشريد رجال الدولة ، وقتل كبارها ، كما أسلفنا الإشارة إلى ذلك .

فتغيرت —تبعاً لهذا— سياسة الدولة العليا مع الولايات الخاضعة لها ، ونصب « أورغون » حاكما جديداً لفارس يدعى « السيد عماد الدين أبو يعلى » إذ كان من المقربين إليه ، فلما قدم فارس ، لم يكترث « بأبش خاتون » فوقعت الخصومة بينه و بينها ، فأسرت العداء له مع جماعة من خواصها حتى انتهى الأمر أخيراً بأن قتله بعض مماليكها ، فى سوق شيراز سنة ٦٨٣ ﻫ ونهبوا قصره[١]

فلما سمع « أورغون » بذلك أرسل الرسل والأعوان فى طلبها ، مع خواصها وحملوها عنوة إلى معسكره مهانة ذليلة ، وقتل من ثبت الجرم عليهم ، فلما أمضت « ابش » سنة و بضعة أشهر ، بين يدى المغول ، توفيت هناك سنة ٦٨٥ﻫ ودفنت فى «جرنداب» بتبريز [٢] . و بعد مدة أحضرت جثتها ابنتها من «منكو تيمور» التى تدعى « كردوجين » ودفنتها بالمدرسة العضدية التى كانت قد أنشأتها أمها من قبل، والتى كان فيها مدفن أبيها وأخيها محمد. و بموتها انتهت أسرة السلغريين بفارس ، وانتقلت فارس من مملكة يدير شئونها حكام من أبنائها إلى مجرد ولاية تابعة ، يعين لها حاكم وموظفون من قبل المغول .

الشاعر وأبش خاتون

كان حظ أبش من مدائح « سعدى » أقل بكثير من حظ أمها « تركان خاتون » . و إذا كان « سعدى » قد تحرج فى التصريح باسم أمها ، فانه أيضاً

---

(١) سعدى نامه ص١٢٩ (٢) وصاف ص ٢٢٢

تحرج فى ذكر اسم ابنتها ، ولعل الشاعر — مع ذلك — لم يجد لها ما تستحق أن تمتدح به فيكثر من مدحها كما أكثر من مدح أمها .

فبالرغم من أن السلطان امتد فى يدها ، أو بقيت هى تمثل السلطان مدى اثنين وعشرين عاماً . وأصيبت فارس بالكثير من الأحداث فى عهدها ، وكانت بطبيعتها تدفع الشاعر إلى الحديث عنها ، فانه — معهذا — صمت ولم يذكر شيئاً.

وكل ما يعرف من هذا الموضوع غزلية لم تعرف فيها شخصية الممدوح ، ولم تتضح صفاته أو أعماله ، حتى يمكن الحكم عليها فيمن قيلت .

وكل ما يدل على أنها قيلت فى « أبش خاتون » عنوان وضع لها فى بعض النسخ « وله فى مدح أبش بنت سعد » وفى بعضها الآخر بعنوان « ذكر باد شاه إسلام أيك أبش عليه الرحمة[١] ».

وهذا العنوان الأخير مأخوذ مع القطعة بالتصوير الشمسى وأثبت النص الأستاذ القزويني فى مقاله « ممدوحين شيخ سعدى شيرازى » فى مواجهة صفحة ١٣٠ من « سعدى نامه » . ويدل هذا العنوان إلى حد بعيد على عبث النساخ وعدم تدقيقهم حتى اضطر الأستاذ القزوينى أن يشير إلى ذلك ويصححه [٢] .

* * *

فارس تحت حكم المغول

الأمير أنكيانو أول مندوب لادارتها

عرفنا — سابقاً — أنه بعد وفاة «سلجوق شاه» آخر أمراء الأتابكة ، لم يوجد من تلك الأسرة سوى « أبش خاتون ابنة سعد بن أبى بكر » . فوليت العرش سنة ٦٦٢ ﻫ وبقيت حتى سنة ٦٨٥ ﻫ .

---

(١) سعدىنامه . قزوينى ص ١٣٠ (٢) نفس المصدر ص ١٣٢

وكانت فارس فى عهدها خاضعة — بالاسم — للأتابكة، و بالفعل تحت نفوذ المغول ، فتولى إدارة شئونها من قبلهم بعض نوابهم ، ودخلت فارس بعد موت « أبش » تحت حكم هؤلاء النواب ، إلى أن انقضى عهد المغول نهائياً فى إيران .

كان أول من تولى من أمراء المغول إدارة هذه الولاية ، الأمير « انكيانو » عهد إليه بالأمر « أبا قاخان بن هولاكو » ، ونصبه — على جميع فارس سنة ٦٦٧ هـ.

وكانت فارس — إذ ذاك — تضرب الفوضى فى أطنابها ، ففسدت الأمور، واختل نظام الأمن ، وعاث اللصوص وقطاع الطرق فى البلاد .

وكأن الظروف أوحت إلى من بيدهم الأمر إلى اختيار الأمير « أنكيانو » فكان يجمع بين الهيبة والقوة ، مع عدل وذكاء وكياسة . فرد الأمن إلى نصابه ، وقضى على أيدى الطامعين المعتدين (١) .

لكن شدة بطشه ، وسطوته ، أوغرت صدور جماعة من أكابر فارس . فلجأوا إلى « آباقا » ورفعوا إليه شكاياتهم ، مقرونة بالكثير من الوشايات المحكمة . إذ أسندوا إليه أنه يسلك فى حكمه سياسة غير رشيدة من التبذير والتخريب ، ولم يكتفوا بذلك ، بل بالغوا فى الأمر ، وكأن الفرصة قد واتتهم فاغتنموها ، ودبروا وشاية محكمة .

ذلك أنهم رفعوا إلى الحاكم العام أن حب السلطان قد استهوى « انكيانو » وتمكن من نفسه ، ووجدوا الدليل على ذلك بين أيديهم .

كان الأمير « انكيانو » قد ضرب السكة فى عهده على ولاية فارس ، ونقش عليها — تحت اسم المليك — علامة تشير إليه ، فرفعوا قطعة منها إلى الحاكم العام ، فعزله و بعث به — بعيداً — فى سفارة طويلة شاقة، إلى بلادهم أواسط آسيا (٢) .

---

(١) سعدى نامه . قزوينى ص ١٣٤ (٢) نفس المصدر ص ١٣٤

ولا يعلم على التحقيق مدة حكومته بفارس . لكن تاريخ مجيء خلفه إلى شيراز كان سنة ٦٧٠ هـ (١) . فكأن حكومته على فارس كانت حوالى أربع سنوات من سنة ٦٦٧ هـ إلى سنة ٦٧٠ هـ .

الشاعر والأمير أنكيانو

ولم تنقطع صلات الشاعر بحكام فارس ، وعمالها بعد أسرة الأتابكة ، فقد اتصل بالكثيرين منهم ، وبخاصة من كان فى نظره محل تقدير وإعجاب .

والشاعر فى قصائده ، التى يمتدح بها هذا الأمير ، يجعلها ميداناً يعرض فيه الكثير من النصائح ، والمواعظ ، وعدم الاعتماد على الدنيا . فهو فيها — كما فى غيرها — من القصائد الأخرى ، التى كان يمتدح فيها الملوك أو الحكام ، يقيم من نفسه مرشداً هادياً ، وناصحاً أميناً ، لم ينزلق إلى التزلف، أو المدح المزيف .

ولعل الظروف نفسها ، التى اتصل فيها بهذا الحاكم ، كانت توحى إليه بهذا المسلك أكثر من ذى قبل . فقد تبدلت الأمور ، وزالت دولة ، وحلت محلها دولة أخرى . زالت دولة إسلامية ، وخضعت البلاد لحكم أجنبى ، وولى شئون البلاد حكام غير مواطنين ، وغير إسلاميين كذلك .

فلا أقل من أن يعرض الشاعر مدائحه ، فى ثوب جديد ، يطوى خلاله النصيحة والموعظة ، وخاصة أنه فى ذلك الوقت ، كان قد عمَّر و بلغ مرتبة تخول له أن يكون الناصح الواعظ أكثر من ذى قبل .

أما المواضع التى ردد الشاعر ذكره فيها فهى أربعة . أحدها نثر فى مقدمة الكليات (٢) ، وثلاث أخرى وردت شعراً فى بعض قصائده (٣)

---

(١) شيراز نامه ص ٦٥ وانظر وصاف من ص ١٩٣—١٩٥

(٢) كليات فروغى ص ٦٥ (٣) نفس المصدر ص ٤٠٨ ، ٤٤٥ ، ٤٨٨

الأمير سوغونجاق

تولى بعد الأمير أنكيانو، وهو أيضاً من مشاهير أمراء المغول، قد انتدب للاشراف على شئونها سنة ٦٧٠هـ، لكن سرعان ما ترك الأمر لغيره بعد أن دبر أمور المملكة.

فوزع الإدارة بين ثلاثة: اثنان من أمراء المغول، هما « بولغان وتونياق »، وآخر من رجال شيراز نفسها، هو من عرف — بعد — بالأمير «محمد بك»[1].

ولقد استمر هذا يقوم بنصيبه فى تدبير ما أسند إليه من شئون الإمارة مدى سبع سنوات، حتى سنة ٦٧٧هـ إذ قتل فى الحرب التى وقعت بين الشيرازيين وجيش « تكودار أحمد » فكان بين القتلى.

ويلاحظ أن الشاعر بعد عهد الأمير « انكيانو » بفارس لم يمدح أحداً من حكام المغول سواء من الذين تولوا شئون الإمارة أو كانوا من الحكام الكبار، فلم يظفر بمدائحه من رجالهم سوى «هولاكو وانكيانو».

وكل من عرض الشاعر لمدحهم كانوا من الذين يتخيرون لإدارة بعض الأعمال بشيراز من قبل المغول. أو من الذين كانوا من أعيان الامارة[2] لانجد حاجة إلى ذكرهم، ونحيل القارىء على ما كتبه الأستاذ القزوينى بشأنهم[3]

حكومة فارس فى آخر القرن السابع الهجرى.

امتد حكم سوغونجاق ومن تخيرهم لإدارة شئون إمارة فارس حتى نهاية عهد أورغون خان سنة ٦٩٠ هـ.

وابتداء من هذا التاريخ، حتى نهاية عهد المغول بإيران، ولى الأمر بحكومة فارس — من قبل آخر ملوكهم — رجل يعرف « بالملك السعيد جمال الدين ابراهيم الطيبى[4] »

---

(١) شيراز نامه ص ٦٥ (٢) نفس المصدر ص ٦٥
(٣) انظر سعد نامه ص ١٣٨ وما بعدها (٤) شيراز نامه ص ٧٣

تولى شئون الحكومة ابتداء من سنة ٦٩١ هـ فى مستهل عهد كيخاتو ، وأمضى هو وأولاده من بعده ، مدة فى حكم ولاية فارس من قبل المغول ، تنتهى سنة ٧٢٥ هـ .

وكما كانت الأحوال آخر عهد ملوك المغول بإيران ، تؤذن بأفول نجم هذه الأسرة ، كذلك كانت الأحوال بإمارة فارس تؤذن بأفول نجمها كذلك ، فقد تبدلت الأحوال كثيراً بهذه الإمارة ، و إن كان «جمال الدين» قد أبدى كثيراً من القوة فى تصريف شئونها ، وامتدت سلطته ، فكان يتخير من قبله بعض النواب لإدارة شئونها .

ولما توفى سنة ٧٠٦ هـ كان قد ترك خلفه أولاداً . من أقواهم شخصية الملك الأعدل « عز الدين عبد العزيز » .

ولى الحكم بعد وفاة أبيه ، واستمر فيه حتى عهد «أبى سعيد» ، وقد ظهرت خلال حكمه بعض ثورات ، كانت ترمى إلى إبعاده عن الإمارة ، لكنه تغلب عليها وختمت حياته سنة ٧٢٥ هـ ، إذ قتل أثناء وجوده بتبريز ، فجيء به إلى شيراز ، ودفن بجوار أبيه .

توزع الملك بعده جماعة من إخوته ، كان أظهرهم « شمس الدين محمد[1] » لكن أيامه لم تطل كثيراً ، فاستولى كل واحد من بقية الأخوة على ناحية من نواحى فارس ، وتبادلوا أمور الولاية بينهم حتى ضعفت سلطتهم . وبهذا انتهت الأيام الأخيرة فى حكومة فارس سنة ٧٢٥ هـ كما تقدم .

ولم يظهر فى ذلك العهد القصير شىء يذكر من العمائر أو الآثار ، وهكذا قضى على تلك الإمارة التى لمع تاريخها فى عهد أسرة السلغريين .

---

(١) شيراز نامه ص ٧٥

الباب الثاني

الفصل الأول

أسرة الشاعر والغموض الذي يحيط بحياته

لم يُقدَّر لشخص من الأشخاص — حين يولد — أن اسمه سيلمع أو سينخفض ، وأن حظه في الحياة سيكون ذا شأن أو لا شأن له ، وأن توفيقه في الإنتاج سيكون ذا خطورة أو لا قيمة له .

ولم تكن وسائل تقييد الحوادث في تلك العصور — مما يتعلق بكثير من الأفراد — من الدقة والنظام بحيث يمكن الاطمئنان إليها . على أنه بجانب ذلك لم تخل حياة أبناء الكبراء من اهتمام وعناية ، فدونت كثير من حوادثهم الهامة ، وبهذا أمكن التعرف على بعض تواريخ تتصل بحياة الذين يرتبطون بهم أو يعاصرونهم .

لكن — مع ذلك — تبقى كثير من الحوادث مبهمة غامضة مرهونة بالظروف التي تحيط بها ، كما أن النتائج التي ينتهى إليها — من تلك الناحية — ليست حاسمة في تاريخ الأشخاص ، بل لعل الكثير من النتائج التي ينتهى إليها — مع ما يبذل فيها — ضلال عن الحقيقة ، ومجافاة عن الصواب .

وليس إلا السبيل الوحيد ، وهو أن تلتقط حياة الأشخاص من آثارهم التي يتركونها ، أو مما يكتب عنهم بعد عصرهم .

فاذا أضفنا إلى ذلك أن وسائل الـكتابة والنسخ فى العهود السابقة ليست هينة ، ظهرت لنا مشكلة أخرى . فالـكثير من التصحيف ، والـكثير من الرواية يبعثان على الـكثير من الضـلال كذلك فى الذهاب إلى رأى دون رأى ، أو تأييد وجهة نظر دون أخرى .

وشخصية « سعدى الشيرازى » بالرغم من خطورتها فى الحيـاة الأدبية والاجتماعية ، وبالرغم من المركز الجليل الذى شغلته — منذ اندمجت فى الحياة العامة ودخلت فى الجماعة الأدبية — بالرغم من هذا ، لم تنج من كثير من الصعوبات ، بل لعل حياتها أحيطت بصعوبات تفوق ما أحاط بغيرها ممن على شاكلتها .

تبدو هذه الصعوبات الـكثيرة فيما ورد عنها من مختلف الآراء ، لا فى مذهبها فى الحياة ، ولا فى آرائها التى تلقيت عنهـا ، بل كذلك فيما يدور حول ما كان يمكن الفصل فيه ، مثل مولده ونشأته و بعض ألوان حياته

يبدو هذا الخلاف حول مولده ، أ كان قبـل القرن السابع الهجرى أو فى مستهله ؟ كذلك يقع خلاف آخر حول اسمه شخصياً ، أهو « مشرف الدين » أو « مصلح الدين » أو غير هذا وذاك ؟ كذلك يقع الخلاف كثيراً حول تخلصه ، أينسب إلى « سعد بن زنكى » أم إلى « سعد بن أبى بكر » ؟ .

كذلك يقع الخلاف فى قصصه ، ورحلاته ، والأشخاص الذين اتصل بهم ، والأماكن التى رحل إليها .

أقصصه واقعية فى موضوعها وأشخاصها وأماكنها ؟ أم خيالية أريد بها استخراج عبرة أخرى خافية غير مكشوفة . . . ؟ أم هى خليط بين هذا وذاك ..؟

كل هذه الأمور التى كان يمكن الفصل فيها بسهولة ، لا تزال — حتى الآن — مثار خلاف وجدال كبير بين الـكثيرين من رجال الأدب والنقد قديماً وحديثاً مما سنعرض له فى موضعه .

والذين درسوا الشاعر دراسة تقوم على النقد والتحليل واجهوا هذه المشاكل وأحسوا بها وسجلوها .

فالأستاذ « عبد العظيم خان الگرگانى » الذى نشر « الگلستان » كتب فى مقدمته أن تاريخ الشاعر مجهول مشكوك فيه ، ولا يمكن بطريق التحقيق ، أن نعلم عن حياته وأيام تحصيله ، وأسفاره الطويلة ، والأشخاص الذين اتصل بهم شيئاً صحيحاً (١) . وليس ذلك إلا لأن ما كتب عن الشاعر ، فى كتب التذاكر والتاريخ — على ما يذهب إليه الأستاذ — مشكوك فيه ومحل شبهة (٢) .

على أن الغربيين ، ممن عرضوا لدراسة الشاعر ، يرون كذلك المشاركة فى هذ الرأى الذى ذهب إليه « الگرگانى » .

فقد ذكر الأستاذ «آربرى Arbery » أن الثقة ضعيفة بالأخبار التى ترتبط بالشاعر، رغم تعدد أخباره ، وكثرة ماترجم له، وخاصة فيمايتصل باسمه وحياته(٣) .

والقصص — نفسها — التى تدور عليها كتبه — كما يرى « الگرگانى » بعضها موضوع لا يتصل بالواقع ، وكذلك أحداث حياته ، كانت أيضاً مبهمة مجهولة ، والشاعر نفسه لم يتحدث عن حياته ، بطريق كامل أو بشكل واف(٤) .

وعلى ذلك نسير فى طريقنا نستخلص حياة الشاعر من بين تلك الآثار المتباينة المتضاربة . فان قدر لنا أن نرسم حياة صحيحة كاملة ، فذلك أمر نرجوه ونسعى إليه ، وإلا فنحن لا نزال فى طريق الاجتهاد .

ولنمض الآن فى عرض تاريخ أسرته مما بين أيدينا من المراجع التى أمكن الوصول إليها .

---

(١) الگرگانى — مقدمة الگلستان . ص كج.

(٢) الگرگانى — مقدمة الگلستان ص. كد

(٣) Arbery : Kings and Beggars p. 6.

(٤) الگرگانى — مقدمه الگلستان ص— يه

اسرة الشاعر :

وأول صعوبة تواجهنا فى تحقيق شخصية الشاعر ، هى معرفة أسرته ، التى انحدر منها معرفة دقيقة ، ومع أن رجال التذاكر والمؤرخين ، اجتهدوا كثيراً فى التحدث عما يدور حول حياته ، إلا أنهم لم يلتفتوا إلى الحديث عن أسرته ، بشىء هام . بل كان حديثهم عنها لماما .

ولقد أدى ذلك إلى خلاف كبير فى تحقيق شخصية الشاعر نفسه ، ومعرفة أخبار أسرته .

ونحن نعرض للحديث عن أخبار أسرته عامة من أجداده إلى أولاده ، قبل أن ندخل فى تفاصيل حياته الشخصية .

أجـــداده

والظاهر أن الشاعر كان ينحدر من أسرة دينية ، يثبت ذلك من أقواله شخصياً ، ومن بعض ما ذكره عنه أصحاب التذاكر .

فهو يقول عن قبيلته ، إنها كانت جميعاً من رجال الدين ، وأنه شب كذلك ولم ينحرف به الطريق عن أن يكون رجل دين كأسرته ، إلا هوايته الصوفية ، التى صرفته إلى قرض الشعر فى العشق الصوفى ، إذ يقول .

« همه قبيلة من رجال دين بودند مرا معلم عشق تو شاعرى آموخت »[1]

ويتسق مع هذا ما نقله الأستاذ « الكرگانى » عن صاحب كتاب « سلم السموات » من أن أمه كانت تنحدر من أسرة دينية كأسرة أبيه [2] .

أبـــوه

ويشير صاحب كتاب « تذكرة الشعراء » فى ترجمته للشاعر أن أباه كان فى خدمة الأتابك « سعد بن زنگى » ، كما يشير إلى أنه اتخذ تخلصه كذلك من هذا الأمير [3] .

---

(١) تاريخ أدبيات إيران ٢٦٤ –طبع طهران سنة ١٣٢٠ ش للدكتور رضا زاده

(٢) الكرگانى – مقدمة الگلستان – ص – ج

(٣) دولتشاه – تذكرة الشعراء – ص ٢٠٢ طبعة ليدن

ولعل ذلك تؤيده قطعة عن الشاعر ترد فى الكليات فى قسم «الصاحبيات» يشير إلى هذه العلاقة فى قوله ، منها .

پدرم بندهٔ قديم تو بود	عمر در بندگى بسر برده است
بنده زاده چو در وجود آمد	هم بروى توديده بر كرده است
خدمت ديگرى نخوا هد كرد	كه ورا نعمت تو پرورده است(١)

ومعنى هذه الأبيات .

« إن أبى خادمك منذ القدم ، أمضى العمر فى خدمتك . . .

حين رأى ابنه باب الوجود ، تفتحت عيناه على وجهك . . .

إنه لا يبغى أن يكون فى خدمته غيرك ، فانه ربيب نعمتك » .

وليس لهذه القطعة عنوان يفهم منه فيمن قيلت ؟ وليس من خلال كلماتها إشارة إلى اسم الذى قيلت فيه ، وهى كما نرى يرد فيها فقط ضمائر المتكلم والمخاطب والغائب .

وكما يبدو من معنى هذه القطعة ، أن المخاطب كان فيها بمنزلة الحاكم ، وأن ضمير المتكلم والغائب ، يشيران إلى والد وابنه ، وأن الأب كان فى خدمة هذا الحاكم ، وحين أشرف الابن على الحياة ، تفتحت عيناه على وجه هذا الحاكم .

ثم عاد الشاعر فى البيت الأخير ، ليدل على نوع هذه العلاقة بين الحاكم و بين الأب والابن ، وأنها كانت إما خدمة عامة فى الدولة ، أو وظيفة فى البلاط .

وعلى كل حال يتبين منها ذلك الاعتراف . فانه كان لا يبغى أن يدخل فى خدمة غيره ، وأنه كان ربيب نعمته .

وهذه الأبيات ثابتة من كليات الشاعر . لا نستطيع أن ننفى نسبتها إليه ، وضمير المتكلم فى هذه الأبيات هو مفتاح المسألة فان ثبت أنه « السعدى » فقد حل بهذا المفتاح كثير من المشاكل ، وأهمها مشكلة تخلصه .

---

(١) كليات فروغى ص ٨١٧

ولا نعرض لهذه المسألة الآن فإنا سنتحدث عنها فى موضعها ، ولكنا نحاول — فقط — أن نثبت مرجع الضمائر إلى من تعود . . . . ؟ ؟ ؟ ؟

وصحة نسبة الأبيات إلى الشاعر لم تكن محل خلاف ، ومطلع القطعة — كما رأينا — كلمة أب ، مضافة إلى ضمير المتكلم . والمتكلم هنا ، من يكون سوى سعدى نفسه؟ ؟ .فالكلام لا يتجه إلى العموم، بل هو كلام خاص ، فى موضوع خاص ، يبين حالة خاصة ، يعترف فيها بيد أسدت إليه نعمة .

وتؤيد هذه القطعة — إلى حد بعيد — ما ورد فى بعض كتب التذاكر ، من أن أباه كان فعلا فى خدمة الأتابك « سعد بن زنگى(١) » وأنه — بهذا — اتخذ تخلصه ، كما تشير بعض الروايات إلى أن الشاعر نفسه ، كان متصلا أيضاً بهذا الحاكم ، ومن أجل ذلك جعل تخلصه باسمه (٢) .

على أن صلة الشاعر بهذا الحاكم ، لم تكن قاصرة على عهد أبيه فحسب ، بل امتدت كذلك بعد وفاته ، فيرى « براون » أن الشاعر كان على صلة بهذا الحاكم، وأنه اتخذ تخلصه منه، وأرسله ليتم دراسته بالمدرسة «النظامية» ببغداد(٣).

والشاعر نفسه يشير إلى أنه كان يتلقى العلوم فى تلك المدرسة ، وأنه كان كذلك يتلقى إدراراً .

« مرا در نظاميه إدرار بود شب وروز تلقين وتكرار بود »(٤)

ومن الممكن افتراض أن يكون هذا الإدرار قد جاءه من ذلك الأمير ، وأنه ولى الإنفاق عليه وخاصة بعد وفاة أبيه .

ولعل الشاعر لم يطل به المقام كثيراً فى بغداد ، فعاد إلى شيراز ، وظل بها

---

(١) دولتشاه — تذكرة الشعراء ص ٢٠٢ (٢) رضاقلى خان . رياض العارفين ص ١٤٤

(٣) G Browne : A Literary His, of Persia v. 2. P. 527

(٤) الگرگانى — مقدمة الگلستان . ص . لب

حتى سنة ٦٢٣ هـ ، وهى السنة التى توفى فيها «سعد بن زنـگى» وكانت فارس قد أصيبت بما أصيبت به من الثورات ، والاضطرابات المتتالية ، فضاق صدر الشاعر عن الإقامة فيها ، وخاصة بعد موت ولى نعمته(١) ، كما يشير إلى ذلك الأستاذ « الگرگانى » فتركها راحلا .

متى مات أبوه ؟ وإلى أى سن بلغ الشاعر حين وفاته ؟

يشير الشاعر إلى أنه افتقـد أباه صغيراً فى سن الطفولة ، فيقول فى باب الإحسان ، من كتابه « البوستان » مشيراً إلى ذلك .

« مرابا شد أز درد طفلان خـــبر   كه در طفلى أزسر برفتم پدر (٢) »

ولـكننا لا نستطيع أن نحدد بالضبط متى مات أبوه ؟ ؟ ؟ وليس بين أيدينا ما يشير إلى ذلك ، إلا بعض إشارات قليلة فى كتابيه « البوستان والـگلستان » تحدد حوادث له فى حياة أبيه ، وتثبت — إلى حد ما — السن التى بلغها الطفل فى حياة أبيه ، وهى ثلاث قطع .

١ — قطعة فى « البوستان » يشير فيها إلى طفولته ، وإلى بعض الأحداث التى وقعت له فى عهد أبيه . يذكر فيها أنه خرج معه أحد أيام الأعياد — التى يخرج فيها الشيرازيون عادة إلى ظاهر مدينتهم للترويح والتسلية — فضلّ الطريق عن أبيه ، وتشاغل عنه باللعب ، وافتقده أبوه فى كثرة الزحام . فلما وجده قرصه بأذنه موجها إليه اللوم .

« همى يادم آمد زعهد صـــغر   كه عيدى برون آســدم باپدر
بيازيچه مشغول مردم شـــــدم   در آشوب خلق أزپدرگم شـــدم
برآو ردم أزهول ودهشت خروش   پدر ناگهانم بمـــاليد گوش »(٣)

---

(١) الـگرگانى . مقدمة الـگلستان — ص. ى . (٢) كليات فروغى — باب الاحسان ص ٢٧ (٣) نفس المصدر — باب النوبة ص ٣٩٩

ويبدو أن سنه فى تلك الحادثة ، لم تكن تتجاوز السادسة أو ما حولها .

٢ — قطعة أخرى يشير فيها إلى حياة أبيه أيضاً ، ومن الممكن أن يكون وقتها فى حدود التاسعة أو العاشرة ، وهى أيضاً فى « البوستان » الباب التاسع « باب التوبة[١] » يقول فيها إنه يذكر عن عهد أبيه ، أنه اشترى له لوحاً ودفتراً وخاتماً ، وقد باع خاتمه بثمن زهيد ، لقاء بضع بلحات .

«زعهد پدر يادم آمد همى   كه باران رحمت برأو هر همى
كه در خرديم لوح ودفتر خريد   زبهرم يكى خاتم زر خريد
بدر كرد ناگه يكى مشترى   بخرما ئى أز دستم أنگشترى»

٣ — والقطعة الأخيرة تشير إلى سن أبعد من ذلك ، وإلى أن أباه كان لايزال حياً ، وأنه فى تلك السن كان يأخذ نفسه بعبادة شاقة ، إذ يقيم الليل ويزهد ويتقشف ، وأنه — ذات ليلة — كان يسهر على خدمة أبيه .

ونضع نص هذه العبارة ، ثم نستخلص منها ما تذهب إليه ، وهذه القطعة ترد فى « الگلستان » فى الباب الثانى « أخلاق الدراويش » يقول فيها

« ياد دارم كه در أيام طفوليت متعبد بودمى ، وشب خيز مولع زهد وپرهيز ؛ شبى در خدمت پدر رحمة الله عليه نشته بودم ؛ وهمه شب ديده برهم نبسته ومصحف عزيز بر كنار گرفته ، وطايفهٔ گرد ما خفته ، پدر را گفتم . أز إينان يكى سر برنمى دارد . . . الخ [٢]» .

ويستخلص من هذه العبارة أمور منها :

أولا — أنه كان مبكراً فى حياة الزهد والتقشف ، بينما كان لا يزال فى أيام الطفولة .

ثانياً — أنه فى إحدى الليالى ، لم تغفل عيناه عن خدمة أبيه ، والمصحف

(١) كليات فروغى ص ٣٩٦ .   (٢) نفس المصدر — گلستان ص ١١٣ .

الـكريم محمول معه ، وأن بعض الذين كانوا معهما ، ناموا من حولها ، فأنكر ذلك عليهم ، لأنهم لم يمضوا بعض الوقت فى العبادة .

ثالثاً — كما يمكن أن يستنتج من هذا ، أن طفلا يقوم بالعبادة ، ويلتزم مسالك الزهاد والمتقشفين الذين يحفظون القرآن ، لاتقل سنه عن الثانية عشرة ، وهذا مايذهب إليه بعض المؤرخين ، فيرى الأستاذ « الـكركانى » أن سنه — فى هذه المناسبة — لاتقل عن الثانية عشرة[1] ، كما يؤيد هذا الرأى أيضاً ما ذهب إليه الأستاذ « سعيد نفيسى[2] » .

لم يشر الشاعر — بعد هذا — إلى حياة أبيه فى عهد أبعد من هذه السن.

ويبدو أن الشاعر أرسل إلى النظامية بعد وفاة أبيه ، وبعد أن استكمل الدروس الأولى ، التى كان يتلقاها فى شيراز على والده ومعلميه .

على أنه فى سن إرساله إلى بغداد ، لابد أن يكون قد اجتاز الثانية عشرة ، بل لعله أدرك الخامسة عشرة من عمره ، حتى يتهيأ نموه العلمى للتمكن من التحصيل فى جامعة « كالنظامية » تضم بين جدرانها أركان العلم ، وأعلام الأدب ، وهى دروس فى المرحلة الثانية بعد مراحل التحضير .

أمــــــه

والإشارة إلى والدته — فى كتب التذاكر — قليلة ، وحظها كذلك من ذكر إبنها لها قليل أيضاً . وكل ما ظفرنا به من الإشارة إليها فى كتب التذاكر ، ماورد عنها فى سياق الحديث عن أسرته عامة . وقد سبق أن أشرنا إلى ما أورده صاحب كتاب « سلم السموات » وأنها كانت من « كازرون » وأن أباها يدعى « مسعود الـكازرونى » وأن هذه الأسرة كانت من الأسر الدينية .

---

(١) الـكركانى — مقدمة الـكلستان ص.ل.

(٢) نفيسى — مجلة مهر — السنة الخامسة — العدد الخامس . ص ٤٤٦ .

ونص عبارة صاحب كتاب «سلم السموات» التى نقلها الأستاذ الكركانى هى

« شيخ سعدى پدر ومادرش هر دو أز نژاد علما وفضلا بودند(١) » .

وترجمتها إن « والد سعدى وأمه كانا من سلالة العلماء والفضلاء » .

وللشاعر عبارة تتصل بأمه فى كتاب « الگلستان » وهى تصور حادثة له معها . ولعلها — إذا ذاك — كانت قد بلغت سناً كبيرة . تشير القطعه إلى أنه أغلظ لها القول مرة ، وأنه أساءها فى خشونة وقسوة ، وأنها كانت مسنة ضعيفة بينما كان هو لايزال شاباً . والقطعة ترد كأغلب قطع « الگلستان » بين النثر والشعر .

« وقتى بجهل جوانى بانگ بر مادر زدم ، دل آزرده بكنجى نشست ، وگريان همى گفت ، مگر خردى فراموش كردى ، كه درشتى ميكى .

چه خوش گفت زالى بفرزند خويش چوديدش پلنگ أفكند و پيلتن

گر أز عهد خرديت ياد آمدى كه بيچاره بودى در آغوش من

نكردى در إين روز بر من جفا كه تو شير مردى ومن پير زن(٢)»

وترجمة القطعة « أغلظت القول يوماً فى والدتى ، وقد تملكنى جهل الشباب فتحسر قلبها، وانطوت إلى ناحية تبكى قائلة. لعلك نسيت صغرك فأغلظت لى القول!

ماأحسن قول سيدة عجوز إلى ابنها !حين رأت فى مقدوره صراع الوحوش الضوارى . لو أنك تذكرت عهد صغرك ، وأنت العاجز الضعيف بين أحضانى ، لما جفوتنى اليوم ، وأنا سيدة ضعيفة ، وأنت قوى كالأسد ».

يؤخذ من هذه القطعة ، أن أمه قد عاشت حتى وقت متأخر — على فرض أن حوادث القطعة من قبيل الواقع — وأنها بلغت مبلغ الشيخوخة ، فى قوله على لسانها « پيرزن » .

---

(١) الكركانى — مقدمة الگلستان . ص. ج. (٢) كليات فروغى. الگلستان الباب السادس « در ضعف وپيرى » القصة السادسة ص ١٧٧ :

و بعد هذا ، لا نجد مكانا آخر يشير فيه إلى أمه . لـكن تبقى ظاهرة لابد من تعليلها . وهى أنه لم يؤثر له شعر فى رثاء أبيه أو أمه .

و يبدو أن أباه كان قد قضى نحبه قبل أن تتمكن له موهبة الشعر ، ولعل أمه قد ماتت أثناء رحلاته ، فلم يعلم بوفاتها إلا حين عودته إلى شيراز . والمفهوم كذلك أن الشاعر ، كان مقلا فى مراثيه ، وأنه لم يبدأ هذا اللون إلا بعد عودته إلى شيراز فلم يؤثر له مراث فى مواطنيه قبل سنة ٦٥٨هـ وهى السنة التى توفى فيها « أبو بكر ابن سعد وابنه سعد بن أبى بكر » ومراثيه فى الخليفة و بغداد التى كانت سنة ٦٥٦هـ

اخـــــوته .

لم يعرف عن إخوته إلا أخ واحد . وترد قصته فى الرسالة السادسة من رسائل الشـاعر فى مقدمة الكليات فى قسمها الثالث تحت عنـوان « حكاية شمس الدين تازيكو » .

وملخص تلك الحكاية أن « شمس الدين تازيكو » كان يقوم على شئون التجارة العامة بالدولة ، ففرضت على التجار بضاعة بأسعار مرتفعة ، ولم يعرف « تازيكو » بهذا الأمر . وقد تسلم أخو الشيخ — بصفته أحد التجار — بعض أنواع تلك التجارة ، فلما رأى الأمر فى غير طاقته ، ذهب يرفع الشكوى إلى أخيه ، وكان معتكفاً فى خلوة الشيخ « أبى عبـد الله الخفيف » .

فتألم لهذا الأمر وفكر فى دفع هذا الأذى — لا عن أخيه فحسب — ولـكن عن كافة التجار تخفيفاً عليهم ، وعلى فقراء المدينة بشكل عام .

وتمضى القصة فتقول ، وفى الحـال تناول الشيخ رقعة وكتب عليها بضعة أبيات جعل فى طليعتها هذا البيت .

« زأحوال براد دم بتحقيق دانم كه ترا خبر نباشد »

يشير إلى أنه كان يقوم بتجارة البلح ، وقد ساء حظه فيها وذلك فى قوله .

« خرماى بطرح من دهندش بخت بد أزاين بترنباشد »

ويذكر فيها كذلك مدى ما كان عليه المحصل ، من شدة وقسوة ، وأنه لم يكن أسوأ منه .

« وآنكه تو محصلى فرستى تركى كه أز أو بتر نباشد »

تناول شمس الدين هذه الرقعة وضحك ، وفى الحال أمر بمناد ينادى أن كل من ابتيع له بلح ، فليحضر .

اجتمع التجار لديه وسألهم عن أمرهم ، ورد لهم ما أخذ منهم من مال ، إن كانوا قد دفعوا الثمن ، فان كان منهم من لم يدفع أخذ البضاعة دون مقابل .

ثم تمضى القصة فتقول إن « تازيكو » قدم إلى الشيخ بنفسه واعتذر له وطيب خاطره [١] .

ويبدو أن القصة غير موضوعة ، فقد أثبتها كليات الشاعر المختلفة ، وأشار إليها الكثيرون ممن كتبوا عن الشاعر ، وإن كان يعارضها بعض المحدثين دون أن يبدى سبباً للاعتراض عليها [٢] .

زوجاته وأولاده

نتم الكلام هنا — فى هذا الفصل — عن بقية أسرة الشاعر الذين كانوا ذا صلة به من زوجات أو أولاد ويبدو أن فى هذا الوضع من — سبق الكلام عن الزوجات والأولاد — قبل الكلام عن الشاعر ، شيئاً من الخروج عن المألوف المنطق ، لكنا بصدد الحديث عن أسرته العامة ، ثم الكلام فيما يتصل بزوجاته وأولاده ، سواء أكان من أحاديث الرواة ، أو من أحاديث الشاعر نفسه .

---

(١) كليات فروغى ص ٦٩ .

(٢) سعيد نفيسى — بمجلة مهر — العدد السادس — السنة الخامسة ص ٥٦١ .

لم تكن حياة الشـــاعر — على الوضع الذى سارت عليه — حياة إقامة واستقرار ، تدعو إلى تكوين أسرة بالمعنى المعروف . فهو رجل مطواف ، جعل العالم كله وطناً له ، لايحل فى مكان إلا وسرعان مايرحل عنه ، حسبما تشتهى نفسه وترغب ، والركون إلى الزواج ركون إلى الهدوء والاستقرار .

ومع ذلك فإن الشاعر قد صادفته فى حياته ظروف ، لعلها فرضت عليه أن يتزوج . ولسنا ندرى من أمر هذه الظروف إلا القليل النـادر الذى يحيط به الغموض كذلك .

والمواضع التى عرض فيها الشاعر لذكر زوجاته أو أولاده لبست كثيرة ، بل هى فى موضعين اثنين . أشار فى أحدهما إلى زوجة له ، وأشار فى الثانى إلى ابن له . فالموضع الذى أشار فيه إلى زوجه ، يرد فى قطعه من « الكلستان . باب أخلاق الدراويش » يتكلم فيها عن إحدى رحلاته إلى الشام ، وأنه وقع أسـيرا فى يد الفرنجة ، فى الحروب الصليبية . فحملوه ليعمل فى خنادقهم ، فرآه أحد أعيان حلب وكان له به سابق صحبة ومعرفة ، فافتداه منهم بعشرة دنانير ، ورافقه إلى بيته ، ثم زوجه من ابنته بمائة دينار ، لكنه أحس فى معاملتها أنه استبدل أسراً بأسر ، إذ أخشنت له الحياة فطلقها[1] .

والقطعة الأخرى التى يشير فيها إلى ابنه ترد فى « البوستان » فى الباب التاسع « باب التوبة » يشير إلى أن له ابنا توفى بمدينة « صنعاء » باليمن . وهو — بطبيعة الحال — كان من زوجة أخرى ، تزوجها فى إحدى رحلاته ، والشاعر يرثى هذا الابن رثاء حاراً ، فى قطعة من قطع ذلك الباب تبلغ أربعة عشر بيتاً ، ويدور مغزاها حول معنى القضاء والقدر[2] . ولا اعتراض لنا على وقائع القصتين .

---

(١) تدل القصة على سرعة بديهة الشاعر وروحه التهكمية اللاذعة . قالت له زوجه . ألست أنت من اشتراك أبى بعشرة دنانير . . . ؟ فقال نعم ؟ ولكنه باعنى لك بمائة دينار . (٢) كليات فروغى . بوستان . باب التوبة . ص ٢٠٣ .

الفصل الثانى

مولد الشاعر

بالرغم من الدراسة الطويلة المستفيضة ، لم يتحقق حتى الآن تاريخ مولد سعدى ، ولا تزال كل دراسة جديدة ، تحاول أن تذهب مذهباً جديداً ، و إلى الآن لم يجمع المحدثون على رأى قاطع فى مولد الشاعر .

وليست هناك شخصية — فيما أعتقد — ابتعدت فيها الفروض بعضها عن بعض — إلى حد كبير — بمثل ما ظهر حول ميلاد الشاعر . فلا يتصور مدى الفرق الزمنى بين أبعد تاريخ افترض لميلاده ، وأقرب تاريخ . وهل يتصور أن يمتد الفرق عند المؤرخين بين أبعد تاريخ وأقرب به إلى خمسة وأربعين عاماً . . . . ؟ و إنها لعمر آخر ! ! ! ! .

فأبعد زمن افترض فيه ميلاد الشاعر كان سنة ٥٧١ هـ[١] ، وأقرب زمن افترض ميلاده كان سنة ٦١٥ هـ[٢] .

والواقع أن تحديد وقت بعينه ، لشخصية من الشخصيات ، فى تاريخ مولدها — دون الرجوع إلى وثائق ثابتة ، أو نص معترف بصحته ، ومعاصرته لنفس الشخص — أمر من الأمور الصعبة . وكل مايصل إليه الباحث فى هذه الناحية ، هو مجرد افتراض أو تخمين .

---

(١) الطاف حسين . فى كتابه حيات سعدى ص ٧ . طبع طهران وقد أشار بهذا الرأى أيضاً الأستاذ الكركانى ص .د من مقدمة الكلستان .

(٢) عباس اقبال — سعدى نامه ص ٢٥ .

ونحن — من جانبنا — سنعرض لهذه المسألة، وطريق الوصول فيها إلى رأى قاطع أمر نرجوه، وهو أيضاً افتراض نفترضه، ونذهب فى تأييده بما يعن لنا من الآراء . .

وقبل أن نعرض — شخصياً — للتدليل على صحة ما نذهب إليه، نحب أن نستعرض الآراء التى أشارت لهذه الناحية، وهى فى الواقع لاتعدو ناحيتين.

أولا — ناحية يذهب إليها القدماء.

ثانياً — ناحية يذهب إليها المحدثون.

أما الناحية الأولى — ناحية القدماء — فلا تتعرض لأمر الميلاد بكثير أو ذكر فقط سنة الوفاة، وهى — مع ذلك أيضاً — تعرض للأمر وكأنما تقطع بما ذهبت إليه.

الأخرى — التى يسلكها المحدثون — هى الطريق المعتمد على النقد، وتأييد الرأى بالحجج والأدلة.

وسنأخذ فى بحث المسألة عند كلا الطرفين، ولعلنا نهتدى فى النهاية إلى نتائج نطمئن إليها.

عرض آراء القدماء ونتائجه :

ولنسلك مع القدماء أولا طريقهم، ونأخذ الموضوع من نهايته، وهى تحديد سنة وفاة الشاعر، لعلنا نصل إلى بداية حياته.

و بين أيدينا من القدماء جماعة من رجال التاريخ، وأخرى من رجال الطبقات، ومن أوائل من أرخ له من رجال التاريخ « حمد الله المستوفى » فى كتابه « تاريخ گزيده » الذى أتمه فى حدود سنة ٧٣٠ ﻫ. وهو ينص على أن وفاته كانت فى سابع عشر ذى الحجة سنة ٦٩٠ ﻫ[1].

---

(١) تاريخ گزيده ص ٨٢٠

ثم يأتى بعده مؤرخ آخر هو صاحب « حبيب السير » المتوفى سنة ٩٤١ هـ . وهو يتردد بين اختيار تاريخين ذهب إلى أحدهما صاحب « تاريخ گزيده » السابق الإشارة إليه . وأخذ الآخر عن « عبد الرحمن الجامى » المتوفى سنة ٨٩٨ هـ فى كتابه « نفحات الأنس » وهو شوال سنة ٦٩١ هـ [1] دون أن يؤيد أحد الرأيين .

أما كتب الطبقات ، فبين أيدينا منها الكثير ، وقد ترجم له كثيرون منهم ، ومن المتقدمين من هؤلاء صاحب كتاب « تذكرة الشعراء » المتوفى سنة ٨٩٢ هـ وقد ترجم للشاعر فى إفاضة — كعادته لتراجمه فى مشاهير الشعراء — وكتابه خاص بالتراجم لهم ، فهو من هذه الناحية ، كالمتخصص فى موضوعه ، وليس كصاحب « تاريخ گزيده » .

وهو يذكر تاريخ الوفاة فى شىء من التحديد باليوم والشهر والسنة . بل يثبته نظماً فى نصين مسبوقين بكلمة « وعزيزى » على عادته فى عدم التصريح بالناظم يقول فى أحدهما :

« وعزيزى تاريخ وفاة آن بزرگوار برين نوع گويد .

شب آدينه بود وماه شوال — زتاريخ عرب « خ ص أ » سال
هماى روح پاك شيخ سعدى — بيفشاند أز غبارتن پر وبال[2]

وترجمة هذين البيتين إجمالا « أن تاريخ وفاة سعدى ، كان فى ليلة الجمعة ، من شهر شوال من التاريخ العربى ، الذى يقابل فى مجموعه ، ما يقابل حروف كلمة « خاص » من حساب « الجمّل » . والخاء فى هذا الحساب ، تقابل الرقم — ٩٠ — والألف تقابل الرقم — ١ — والصاد تقابل الرقم — ٦٠٠ — فالمجموع = ٦٩١ .

ونظمه الآخر يؤدى — فى جملته — إلى هذا المعنى .

ونحن وإن لم نكن من أنصار هذا النوع ، من التحديد الزمنى ، فى مثل

---

(١) حبيب السير ص ١٣٠ — (٢) دولتشاه — تذكرة الشعراء ص ٢٠٩

هذه التواريخ باليوم والشهر والسنة ، على هذا الوضع من جمل العبارة موزونة ، إلا أن ذلك لم يمنع من اطمئناننا إلى الأخذ بهذا الرأى .

وليس من العسير إخضاع النظم ليأتلف منه هذا التاريخ إجمالا ، حتى يمكن أن يقال إن الشاعر ، إنما اصطنع التاريخ اصطناعا ليسهل عليه الوزن ، فان أداء المعنى أمكن صياغته فى قالبين مختلفين .

ولو كان التاريخ بغير هذا لأمكن صياغته أيضاً ، على وضع مناسب ، متضمن للعدد المراد ، لكن من ناحية أخرى نسى الشاعر أن يذكر لنا كم من الأيام مضت من شوال ؟ ؟

وليس يعنينا اليوم بذاته ، ولا عدد الأيام التى مضت من شوال ، لكن يعنينا أن الكثرة من المؤرخين ورجال الطبقات ، أخذت بهذا الرأى فى جملته وإن لم يذهبوا إليه تفصيلا ، فقد رأينا صاحب « حبيب السير » ينقل عن « جامى » فى « نفحات الأنس » أنه توفى فى شوال سنة ٦٩١ هـ .

وكذلك من الذين أرخوا للشاعر بالعربية ، من رجال الطبقات ، صاحب « مزارات شيراز » وقد جعل وفاته سنة ٦٩١ [١] .

ومن رجال الطبقات المتأخرين صاحب « رياض العارفين » — رضاقلى خان المتوفى سنة ١٢٨٨ هـ قال بوفاته أيضاً سنة ٦٩١ هـ [٢] . وهكذا يكاد يتفق معظم المؤرخين على وفاته فى ذلك التاريخ .

لم يكن الأمر فى حاجة إلى التدليل على هذه المسألة بعرض هذه الآراء المختلفة ، لكنا ذهبنا هذا المذهب لأمرين .

أولا — لنكوّن رأياً شبه متفق عليه ، بين كثرة من المؤرخين ، وقد رأينا

---

(١) الكركانى — مقدمة الكلستان ص . ط (٢) رياض العارفين ص ٤٤ ١

أن الكثرة تكاد تجمع على وفاته سنة ٦٩١ ﻫ ، وأن بعضها يذهب فى التحديد فيذكر الشهر واليوم ، وعمدة هذه الآراء وأولها رأى « دولتشاه » .

ثانياً — لنبين الخلاف بين أكثر الآراء ، و بين رأى صاحب « تاريخ گزيده » فالفرق الزمنى — و إن لم يكن بعيداً بين الرأيين — إلا أن رأيه فى هذه العزلة ، يجعله ضعيفاً لا يؤخذ به ، وسنعرض لضعف رأى آخر له عند الحديث على تخلص الشاعر .

و بالإضافة إلى ما ذهب إليه صاحب « تذكرة الشعراء » من تحديد وفاته فإنه ذكر أن الشاعر عمر مائة واثنتين من السنين . وجعل هذه السنوات الطويلة موزعة كالآتى : ثلاثين سنة فى التحصيل ، وثلاثين أخرى فى السياحة والتنقل بين أقطار ربع المسكونة ، وثلاثين أخيرة ، انقطع فيها للعبادة والطاعة ، والاثنتى عشرة سنة الباقية ، فى مساعدة الناس و إسداء المعونة لأصحاب الطريق [1] .

والرأى الذى ذهب إليه «دولتشاه» فى هذا التقسيم أخذه عنه بعض المؤرخين من الإيرانيين ومن الغربيين . فأخذ به صاحب « رياض العارفين — رضاقلى خان » و إن كان قد جعل السنوات الاثنتى عشرة فى مقدمة السنوات التى عاشها ، وجعلها تنقضى فى تربيته الأولى [2] . و يبدأ التقسيم بعدها ثلاثين سنة بالتساوى على النحو الذى ذهب إليه « دولتشاه » . وكذلك يأخذ عنه هذا التقسيم صاحب « آتشكده » [3] لطف على بيك المتخلص بآذر المتوفى سنة ١١٣٤ﻫ.

ولعل ذلك هو الذى أوحى إلى الغربيين ، أن يذهبوا هذا المذهب ، فى تقسيم حياة الشاعر الطويلة . فأخذ بفكرة التقسيم كثير منهم « براون [4] » كما أخذت

---

(١) دولتشاه — تذكرة الشعراء ص ٢٠٢ (٢) رياض العارفين ص ١٤٣

(٣) آتشكده — شعراء اقليم فارس — طبعة الهند :

(٤) G. Browne : A Literary History of Per v. 2 p. 527

به كذلك « دائرة المعـارف الإسلامية » فى ترجمتها للشاعر .

ونحن لا يعنينا أن تكون هذه الأقسام متساوية إلى هذا الحد ، أو أن تكون السنوات الباقية من هذه المقادير المتعادلة ، أمضاها الشاعر قبل أن تمتد حياته ، فتتسع لهذا القدر الطويل أو أنها كانت خاتمة حياته .

لـكن مما يلحظ أن الشاعر كان معمراً ، وأنه عاش مدة طويلة على ما يذهب إليه المؤرخون — ونحن إذا اعتمدنا السن التى أخذ بها القدماء من المؤرخين ، وهو الرأى الذى ذهب إليه صاحب « تذكرة الشعراء » فى تاريخ وفاته — وهو سنة ٦٩١ هـ — واستقطعنا منه هذه السنين الطويلة التى عاشها . أمكننا أن نعرف تاريخ مولد الشاعر (٦٩١ — ١٠٢ = ٥٨٩ هـ) . وهذا هو أحـد الفروض فى تاريخ ميلاده .

ومع هذه السن الطويلة ، نلحظ كذلك أن بعض المؤرخين ، يمعن فى المغالاة أكثر من هذا ، ويطيل حياة الشاعر إلى المائة والعشرين سنة . ويذهب فى تقسيمها أيضاً مذهباً هو أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة . فيجعل حياته أربعة أقسام ، كل قسم منها ثلاثون عاما على التساوى ، أمضاها كما يأتى : فى التحصيل، والارتحال ، والتصـنيف ، والاعتكاف [1] . وهو رأى يجعل ميـلاد الشـاعر سـنة ٥٧١ هـ .

وهذا التقدير لا يخلو من مبالغة لا دليل عليها ، كما أن هذا المذهب فى التقسيم المتساوى يشعر بالافتعال .

والغربيون — بجانبهم — يذهبون فى آرائهم إلى أن حياة الشاعر ، تبدأ على العموم قبل مطلع القرن السابع الهجرى ، فيجعله « براون » سنة ٥٨١ هـ [2]

(١) ألطاف حسين فى كتابه حيات سعدى ص ٧ . طبعة طهران

(٢) G. Browne : A Literary History of Pers v. 2 p. 526

١١٨٥ م. وتجعله دائرة المعارف الإسلامية سنة ٥٨٠ . ويشير الأستاذ الكركانى إلى الاختلاف بين هذه الآراء دون أن يغلب رأياً على رأى [1] .

هذه هى مجمل الآراء التى ذكرها القدماء ومن تبعهم .

عرض آراء المحدثين ونتائجه :

وأول ما يبدو على هذه الآراء ، أنها لم تسلم بآراء القدماء — على علاتها — بل بحثت الموضوع بحثاً معتمداً على النقد والمقارنة . تحاول أن تستمد الأدلة ، وتعللها ، وإن كانت أيضاً قد اعتمدت على مجرد فروض .

وأهم ما يواجهنا من هذه الآراء ، ثلاثة : هى رأى الأستاذ إقبال ، والأستاذ القزوينى ، والأستاذ نفيسى . والأول قصد عرضاً لدراسة هذا الموضوع بمناسبة العيد السبعمائوى لإنشاء الكلستان . وذلك فى مقاله الذى سماه :

« زمان تولد وأوايل زندگانى سعدى » أى زمن ولادة الشاعر وأوائل حياته .

والثانى : مقال فى هذه المناسبة أيضاً ، أشرنا إليه سابقاً ، يدور حول من مدحهم الشاعر ، ويعرض — استطراداً — للحديث عن ميلاده ، بما يجعله فى حدود سنة ٦٠٠ هـ [2] أو فوقها بقليل . إذ يجعل عمره وقت وفاة « سعد ابن زنگى سنة ٦٢٣هـ » فى حدود العشرين أو أكثر قليلا ، دون أن يعرض للتدليل أو المناقشة . وعبارته .

« بنابر إين پس سيخ در وقت وفات سعد بن زنگى در حد سنهٔ ود ٦٢٣ هـ ظاهرا جوانى بوده است ، در حدود بيست بابيست وأندساله » .

والثالث : بحث عام عن « سعدى » نشر تباعاً فى مجلة « مهر » فى السنة

(١) الكركانى — مقدمة الكلستان . ص . د

(٢) سعدى نامه — قزوينى . ص ١٠٤

الخامسة منها ، من العدد الأول حتى السابع ، ويذهب فى رأيه ، إلى أن مولد الشاعر ، كان أيضاً فى حدود سنة ٦٠٠ ه إلى سنة ٦٠٦ ه وذلك فى قوله .

« چون عقيده كه بصواب نزد يكتر أست آنست، كه سعدى در حدود سنة ٦٠ هتا سنة ٦٠٦ ه ولادت يافته أست »(١)

عرض لرأى الأستاذ اقبال :

وهو كما يتبين من عنوانه فى صميم الموضوع . وفى الواقع قد عرض الأستاذ فى إفاضة لهذه المسألة ، وناقش الآراء التى تقدمته ، ودلل على ما يذهب إليه .

فمقاله من هذه الناحية جدير بأن نقف عنده ، وأن ندرس ردوده وآراءه . والأستاذ يعترف مقدماً بصعوبة البحث فى هذه الناحية كذلك ، وأن مولد الشاعر ليس معلوماً ، وحتى الآن لم نصل إلى دليل قطعى ، ونص عبارته .

«سال تولد سعدى معلوم نيست ، وتاكنون درهيچ سندى معتبر بنظر نرسيده است » (٢) .

ونأخذ الآن فى إجمال رأى الأستاذ ومناقشته .

يشير الأستاذ إلى أن السنوات التى عرض لها الشاعر فى كتاباته — تحدد حوادث معينة — قليلة ، لا تعدو ثلاثا . هى تاريخ تأليفه « البوستان » . وتأليف « الگلستان » الأول سنة ٦٥٥ ه والثانى سنة ٦٥٦ ه . ثم قصيدة أخرى أنشدها فى أحد ممدوحيه سنة ٦٨٠ ه حين أسند إليه عمل من الأعمال الإدارية فى فارس .

وغير هذه السنوات لم يعرض الشاعر لشىء يعين تاريخاً فى مجرى حياته . ثم يرد الأستاذ على أصحاب التذاكر ، ومن جاراهم من المستشرقين ، ما ذهبوا إليه فى تحديد سنوات حياته . ويرى أن كل ما كتب فى هذا الموضوع ، إنما هى فروض لا أدلة عليها ولا سند لها (٣) .

---

(١) نفيسى — مجلة مهر — العدد الثانى — السنة الخامسة ص ١٤٣ .
(٢) سعدى نامه — اقبال . ص ١٦ (٣) المصدر السابق ص ١٦

ثم يناقش أهم هذه الفروض بعد أن يعرضها فى قوله :

« أما استنباطى كه بعضى أز محققين أز بيتى أز أشعار سعدى مذكور در گلستان راجع بشمار سنين أو كرده اند ، يعنى بيت ذيل .

اى كه پنجاه رفت ودرخوابى مگر اين پنج روزه دريابى

كه برحسب أن شيخ با يستى درحدود ٦٥٦ – ٥٠ = ٦٠٦ متولد سده باشد نيز بنظر نگارنده نميتواند »

ومعنى العبارة « أما الاستنتاج الذى استمده بعض المحققين من بيت يرد فى أشعار سعدى فى الگلستان يوضح سنه . وهو

يامن مضت بك خمسون عاماً ولا زلت لاهيا . لعلك تدرك هذه الأيام الخمسة

وينبغى على حسب هذا البيت أن يكون الشاعر قد ولد فى حدود سنة ٦٠٦ ﻫ فلا يمكن أن يوافق وجهة نظرى » .

ثم أخذ الأستاذ يورد اعتراضاته على هذا الرأى من ثلاثة وجوه .

أولاً — أنه لم يثبت — بأى وجه — أن الخطاب فى هذا البيت للشاعر ، ولكنه من نوع الخطاب العام .

ثانياً — أن هذا البيت ، ورد مطلعا لإحدى قصائد سعدى ، وثابت فى جميع كلياته . ثم أدرجه فى كتابه « الگلستان » على مجرى عاداته فى الاقتباس .

ثالثاً — أننا لو جعلنا هذا الخطاب المبهم هو طريق التحقيق ، لأرغمنا على التسليم كذلك ، بأن الشاعر فى وقت نظمه «للبوستان» — أى قبل «الگلستان» بعام واحد — كان يبلغ السبعين من عمره ، وذلك من بيت يرد فيه أيضاً يقول :

« ألا أى كه عمرت بهفتاد رفت مگرخفته بودى كه برباد رفت » (1)

« يامن بلغت السبعين من عمرك ، لعلك كنت نائماً فان العمر قد ولى بك »

وهذا البيت بوضعه الراهن يناقض — فى رأيه — الاستشهاد السابق . ثم يختم

---

(١) سعدى نامه — اقبال ص ٢٣

الأستاذ هذه المناقشة بتعجبه، من أن البعض يذهب مذهب البيت الأول ، والبعض يذهب مذهب البيت الآخر ، وكل جماعة تغضى بعينيها ، عن مدلول البيت الثاني إلى أن يقول :

« وحق إينست كه هيچيك از اين گونه خطابهاى عام شاعر را كه أبدا راجع بشخص أونيست ، براى بيان أحوال أو مناط اعتبار قرار ندهيم » .

ومعنى العبارة « والحق أن هذا النوع من المخاطبات العامة للشاعر ، لا يعود على شخصه ولا نعتد بها فى بيان أحواله » .

أما رأى الأستاذ — شخصياً — فى تحديد مولد الشاعر ، فهو يقوم كذلك على مجرد الافتراض ، فى مسألة يشعر الأستاذ « إقبال » نفسه — كما يشاركه فيها غيره — أنها مضطربة محتاجة إلى التصحيح ، تلك هى حادثه اتصال الشاعر « بابن الجوزى » والتلقى عليه ، ونثبت عبارته فيما يلى :

«مهمتر ين إشاره اى كه در كليات سعدى راجع بيدايت أحوال أو دردست أست ، وآن براى تعيين زمان تخمينى تولد وشروع كار سعدى أوثق مصادر شمرده مى‌شود ، إشارهٔ أوست در گلستان بشيخ أجل «أبو الفرج بن جوزى» دريكى از حكايات باب دوم ، كه درآنجا سعدى «أبو الفرج بن جوزى» را در عنفوان شباب خود مربى وشيخ خويش ميخواند وميگويد » .

ثم ينقل عبارة «الگلستان» التى تشير إلى هذه الحادثة من تلك القصة وهى:

چندانكه مرا شيخ أجل « أبو الفرج بن جوزى رحمة الله عليه » ترك سماع فرمودى وعزلت إشارت كردى ، عنفوان شبابم غالب آمدى وهواوهوس طالب ناجار بخلاف رأى مربى قدمى رفتمى ، وأز سماع ومجالست حظى برگرفتمى ، وچون نصيحت شيخم ياد آمدى گفتمى ·

قاضى أر با ما نشيند برفشاند دست را محتسب گرمى خورد معذور دارد مست[1] را

ثم يأخذ فى تصحيح شخصية « ابن الجوزى » المقصودة من هذه العبارة ، والتى تتفق مع سن الشاعر وحالته .

---

١) سعدى نامه — اقبال ص ٢٣

ويرى — ومعه الأستاذ القزويني [1] أيضاً — أن هناك شخصين يشتركان معاً في الإسم والكنية واللقب والوظيفة، و بينهما قدر من الزمن، أحدهما « ابن الجوزى » الجد المتوفى سنة ٥٩٧ هـ. والثانى — ابن الجوزى — الحفيد الذى يجتمع معه فى الاسم والكنية واللقب والوظيفة أيضاً ، والذى مات هو وأبوه وأخوته فى حوادث بغداد سنة ٦٥٦ هـ.

ويقوم افتراض الأستاذ على أن قصد الشاعر من أبى الفرج المذكور فى « الگلستان » هو الحفيد لا الجد . وهو الذى أسند إليه التدريس فى المدرسة « المستنصرية » ببغداد نيابة عن أبيه، ومنذ سنة ٦٣٣ هـ حتى مقتله، كان يشغل وظيفة الحسبة.

ويستطرد الأستاذ فى قوله بما معناه — ولما كان الشاعر يتلقى عليه وهو فى عنفوان شبابه، كان عمره سنة ٦٣٣ هـ فى حوالى العشرين أو أقل من ذلك، حتى يتمشى هذا مع تعبيره عن نفسه، « عنفوان الشباب » ، وحتى يكون فى سن يحتاج فيها إلى النصح والإرشاد كما يقول.

ثم يخرج الأستاذ من هـذا الافتراض بقوله :

« أگر إين استنباط وتقدير، كه ظاهرا عيبى درآن ديده نمى شود صحيح باشد، تولد آن سخنگوى استاددر حدود سنة ٦١٠ — ٦١٥ هـ اتفاق افتاده. وبنا بر إين سن أودر سوقع نظم بوستان و إنشاء گلستان ما بين چهل وچهل و نج بوده است

ومعنى العبارة :

« لو صح هذا الاستنتاج الذى لا يرى فيه عيب ظاهر. فإن مولد الشاعر فى حدود سنة ٦١٠ — ٦١٥ هـ. و بناء على ذلك، فسنُّه وقت تأليف « البوستان والگلستان » ، ما بين الأربعين والخامسة والأربعين .

---

(١) قزوينى . فى حاشيته على جهانگشاى ح ٣ ص ٤٦٣ — ٤٦٦

ثم يذهب الأستاذ أيضاً ، مذهباً آخر ، فى تأييد هذا الرأى من جانب آخر ولـكن بعبارة شبيهة بنفس العبارة التى استمد منها استنتاجه الأول . تقوم أيضاً على مجرد افتراض وتخمين .

فيعتمد على أن الشاعر يشير فى « البوستان » إلى أن من شيوخه « شهاب الدين أبا حفص عمر بن محمد السهروردى المتوفى سنة ٦٣٢ هـ » وذلك من قوله

«مرا شيخ داناى مرشـد شهاب دواندرز فرمود بر روى آب»

و يرى من مفهوم هذه العبارة ، أن الشاعر كان فى عهد شبابه ببغداد ، يتلقى العلم على شيوخ عصره ، وأنه — حتى سنة ٦٣٢ هـ — كان لا يزال شابا يتقبل نصائح مرشـديه [١] .

مناقشة آرائه :

هذه هى مجمل آراء الأسـتاذ اقبال التى عرض لها ، وهى كما رأينا تنقسم إلى قسمين أساسيين .

أولاً — مناقشته لآراء الذين افترضوا مولد الشاعر من بيته الذى يرد فيه أنه حين إنشاء « الـگلستان » كان فى سن الخمسين ، وأن مولده — تبعاً لذلك — كان فى حدود سنه ٦٠٦ هـ .

ثانياً — افتراضه الذى ذهب إليه ، من واقعتى تلقى الشاعر على « ابن الجوزى والسهروردى » خارجاً من افتراضه فى هاتين الحادثتين إلى أن مولد الشاعر كان ما بين سنة ٦١٠ و ٦١٥ هـ .

ونحن بدورنا نناقش كلا الرأيين لعلنا نصل إلى إحدى اثنتين : إما أن نقبل أحدهما دون الآخر ، أو نرفضهما ، ونذهب مذهباً جديداً .

ونعود فنعرض هنا إجمال ما ذهب إليه الأستاذ فى رد الرأى الأول وآراؤه لا تعدو ثلاثا .

(١) اقبال — سعدى نامه ص ٢٥

١ — إن الخطاب فى البيت ، القصد به العموم ، لا الشاعر نفسه .

٢ — إن هـذا البيت ، ورد مطلعاً لإحدى قصائد الشاعر ، ثم نقله إلى « الـگلستان » على طريقه فى الاقتباس والاستشهاد .

٣ — إن البيت يناقضه بيت « البوستان» الذى يجعل سن الشاعر وقت إنشاده فى السبعين ، مع أن إنشاده كان قبل « الـگلستان » بعام واحد .

ونحن نناقش هذه الآراء بمـا يأتي .

أولاً — إن البيت — موضع المناقشة — لم يكن للعموم بوجه من الوجوه ، وإنما هو لخطاب الشاعر نفسه ، وتحسره على أيامه المـاضية التى أتلفها دون فائدة . والبيت موضوع بين عبارتين ، تصوران حاله .

ونحن نضع العبارة أمامنا ، كى يتحقق مدى انطباقها على الشاعر . يقول فى ديباجة « الـگلستان» .

« يكشب تأمل أيام گذشته ميكردم ، وبر عمر تلف كرده تأسف ميخوردم ،
وسنگ سراچه دل بألمـاس آب ديده مى سفتم ، وإين بيتها مناسب حال خود ميگفتم »

ثم يذكر قطعة من الشعر تبلغ إثنى عشر بيتاً ، يرد البيت — موضوع الحديث — الثانى منها ، ومطلع هذه القطعة .

« هردم أزعمر مـيرود نفسى چون نگه ميكنى نمانـد بسى
إى كه پنجاه رفت ود خوابى مگر اين پنج روزه دريابى » (١)

فكما نرى، يشير الشاعر فى مقدمة هذه العبارة المنثورة إلى نفسه فى ضمير المتكلم « تأملت أيامى الماضية ذات ليلة ، وتأسفت على تلف عمرى » وفى آخر العبارة يقول « وأقول هذه الأبيات فى شرح حالى » ثم يوردها .

أما الغرض من انتقال الشاعر من ضمير المتكلم — فى عبارته المنثورة —

(١) كليات فروغى ص ٧٥ — ٧٦

إلى ضمير المخاطب — فى عبارته الشعرية — فإنما يجرى ذلك ، مع بعض مذاهب الشعراء فى استحضار الغير ، أو الإشارة إليه ، فى مقام التحسر نيابة عن المتحدث نفسه .

وهذه ظاهرة موجودة فى مختلف الآداب ، يذهب إليها كثير من الشعراء فى التماس مخاطب عام ، لمشاركته فيما يعرض من المعانى العامة ، التى يشترك فيها كل الناس ، وليس المقصود بها شخص آخر غيره ، فالمقصود هو المتكلم .

على أن الذى يزيد فى تأييد هذا الرأى أن الشاعر بعد أن فرغ من القطعة المنظومة عاد من جديد . يوجه الكلام إلى نفسه فى قوله :

« بعد أز تأمل إين معنى ، مصلحت آن ديدم كه در نشيمن عزلت نشينم »

أى بعد أن تأملت هذا المعنى ، رأيت من المصلحة إن اعتكف فى خلوة الاعتزال

ثانياً — إن وجود البيت مطلعاً لإحدى قصائده . لا ينهض دليلا على أنه أنشده قبل ذلك فى مناسبة ، ثم نقله حين إنشاء « الگلستان » على طريقته فى الاقتباس . فمن المعروف المؤكد أن الشاعر أتم كتابه « الگلستان » سنة ٦٥٦ هـ فى الوقت الذى لا نعلم فيه — بالضبط — تاريخ هذه القصيدة التى يرد فيها هذا البيت .

لكنا نعلم أن قصائد الشاعر — فى بابى المدح والرثاء — لم تكن أسبق من سنة ٦٥٥ وهى السنة التى مدح فيها « أبا بكر » حين قدم له « البوستان » .

هذا فيما يتصل بقصائد الشاعر التى تتصل بالمدح ، وأما قصائده فى الرثاء ، فلم تكن أسبق من سنة ٦٥٦ هـ وهى السنة التى قتل فيها الخليفة ، وتحول الحكم عن بغداد بعد فتح المغول .

وقد وردت القطعة التى جاء بها هذا البيت ، بين مجموع قصائد الشاعر فى بابى المدح والرثاء من كلياته ، وتضع لها نسخة « فروغى » عنوان « پند » أى نصيحة .

وحقيقة يرد الخطاب فيها للعموم ، ولـكنه للمشاركة ، واستحضار الذهن عند القارىء أو المخاطب، ولمن تكون النصيحة إذ لم يوجه الخطاب فيها إلى الغير ؟ ؟ ؟

على أنها تشعر فى الوقت نفسه بمكانة الشاعر فى المجتمع ، فأخذ يسديه نصائحه التى لم يمتنع عن توجيهها — حتى للملوك — وجدير بهـذه النصيحة أن تصدر عن الشاعرفى سن متأخرة ، لا يبعد أن تكون بعد تقديمه « الـگلستان » .

على أننا — بجانب ذلك كله — نجد فيها بيتاً لعله يجعل المسألة فى صفنا أكثر من ذلك ، وهذا البيت ينتقل فيه الشاعر إلى خطاب نفسه إذ يقول :

«سعديا راستى زخلق مجـــوى چون تودر نفس خـــودنمى يابى»(١)

ومعناه :

« يا سعدى لا تطلب الاستقامة من الناس حين لا تجدها أنت فى نفسك » .

فهو هنا — أيضاً — يتحسر على نفسه أنه أضاع عمره هباء ، وأنه رسم طريق الرشاد للناس ، ولـكنه يأس من ذلك . ثم يعزى نفسه بأنه مهما فعل من الخير فقليل ، ومادام لم يجد فى نفسه الاسـتقامة ، فلن يطلبها من الناس .

ثالثاً — وأما وجود التعارض بين معنى بيتى « الـگلستان والبوستان » إذ أنه فى الأول يبلغ الخمسين ، وفى الثانى يبلغ السبعين ، وأن الفـارق بينهما عشرون عاماً ، بينما كان إنشاء « الـگلستان » بعد « البوستان » بعام واحد . فأمر نستطيع رده كذلك بما يأتى :

١ — أنه لا يلزم فى بيت « البوستان » أن يكون الخطاب فيه للشاعر نفسه ، فالموقف هنا مخالف تمام المخالفة لما هو موجود فى « الـگلستان » فالبيت فى هذا الأخير يرد فى قطعة محاطة بالتحدث عن الشاعر نفسه وعن شئونه ، والـكلام متسق بعضه مع بعض لا يؤثر فيه التنقل بين الضمائر .

---

(١) كليات فروغى ص ٤٧٣

بينما هو فى « البوستان » مطلع لقطعة ، بل مطلع لباب بعينه ، هو الباب التاسع وموضوعه « فى التوبة وطريق الصواب » [1] .

والخطاب فيه للعموم ، وهذه هى طريق الشاعر فى طلائع معظم أبواب هذا الكتاب، وطلائع كثيرمن قطعه ،يعمد فيها إلى التحدث مع المخاطب ، ومشاركته إياه ، ثم يتخير مطلعاً مناسباً للباب أو القطعة التى يتحدث عنها ، و بوجه الكلام فيه للمخاطب : يقول فى الباب الأول — باب العدل .

« چه حاجت كه نه كرسى آسمان نهى زير پاى قــزل أرسلان»

وفى الباب الثانى « باب الإحسان » يقول فى المطلع .

« أگر هو شمندى بمعنى گــراى كه معنى بماند ز صورت بجاى»

وفى الباب الثالث يقول فى مطلعه .

«ترا عشق همچون خودى زآب وگل ربايد همى صــبر وآرام دل»

وهكذا فى بقية الأبواب ، وفى الكثير من حكاياته ، يفتتحها باستحضار المخاطب ، ترد فيها الإشارة إليه ، كما وردت فى مطلع الباب التاسع بالبيت الذى نتحدث عنه .

٢ — إن هــذا الباب — كما نرى — فى التوبة وطريق الرشاد ، ومن المناسب أن يتخير لها سنا كبيرة ، تناسب من يطلب إليه أن يئوب إلى رشده ، بعد طول حياة ، فيعمد إلى طلب التوبة ، والرغبة فى انتهاج طريق الصواب .

٣ — ومع ذلك فمن الآراء ما يجعل « البوستان » عمل على دفعتين [2] تمت إحداها فى عهد « أبى بكر » وقدمت إليه . والأخرى بعد هذا العهد . وهذا يفسر بعض الخلافات الموجودة بين نسخ الكتاب .

٤ — على أن هناك رواية أخرى ، تروى لبيت « البوستان » الذى يشير

---

(١) كليات فروغى — بوستان ص ٣٨٨ (٢) قزوينى — سعدى نامه ص ١١٦

إلى زمن تأليفه لو صحت ، فانها تتسق فى المعنى مع البيت الآخر الذى ورد فى « الـگلستان » وهذه الرواية .

« زششصد فزون بود هفتاد و پنج   كه پردرسد إين نامبر دار گنج[1] »

وذلك بدل روايته على الوضع الآتى :

زششصد فز ون بود بنجاه و پنج .   البيت

والمعنى فى الأول أنه تم سنة ٦٧٥ ﻫ وفى الثانى تم سنة ٦٥٥ ﻫ .

ونعتقد — من جانبنا — أن الروايتين صحيحتـان تشير الأولى إلى إتمام « البوستان » نهائياً ، كما تدل على أن « البوستان » عمل على دفعتـين ، أو أن بعضاً منه قدم سنة ٦٥٥ ﻫ « لأبى بكر » . فاذا تم إنشاده وتنظيمه ، كان ذلك فى وقت متأخر ، لعله يدرك هذا العهد . و بهـذا نقترب من القول الذى يذهب بأن الشاعر حين تم إنشاد « البوستان » كان فى سن السبعين مأخوذاً من بيته الموجود فيه .

ألا أيكه عمرت بهفتاد رفت   البيت

لو صح أن الإشارة فيه للشاعر نفسه .

و بهذا — أيضاً — نصل إلى نتيجة واحـدة من طريقين مختلفين غير متعارضين . وهى أن سن الشاعر — وقت اتمـام « البوستان » نهائياً سنة ٦٧٥ ﻫ — كان سبعين عاما من هذا البيت .

وكان وقت إتمـامه « الـگلستان » سنة ٦٥٦ ﻫ يتجاوز الخمسين قليلا

فالنتيجة فى التقدير الأول هى :   ٦٧٥ — ٧٠ = ٦٠٥

وهى فى التقدير الثانى :   ٦٥٦ — ٥٠ = ٦٠٦

وهما زمنان يتفقان مع بعضهما لا فرق بينهما فى أمر كهذه المسألة .

---

(١) نفيسى — مجلة مهر — العدد السادس — السنة الخامسة ص ٥٦٤ .

هذه هى مجمل الآراء التى ترد بها اعتراضات الأستاذ « إقبال » على من ذهب بالقول إن مولد الشاعر كان فى حدود سنة ٦٠٦ مأخوذاً من بيت « الـگلستان »

الرد على رأى الأستاذ اقبال

وأول ما يواجهنا فى رأيه أنه — أيضاً — جعله افتراضاً وتخميناً ، ونحن لا نغلب فرضاً على فرض دون دليل قوى ، وحتى الفرض الذى ذهب إليـه ، يدور حول أمر تقديرى بحت لم يأخذ الشاهد فيه من أقوال الشاعر نفسـه ، أو يستمد الدليل عليه من آرائه، وإنما استمد فرضه هذا من مقايسة بين سن الشاعر وسن شيوخه الذين اتصل بهم فى دراسته .

وهذه مسألة اعتبارية بحتة . فالثابت أن الشاعر امتدت صلته بأساتذته زمناً طويلا ، ومع ذلك فلم يعرف — حتى الآن — على وجه التحديد ، متى بدأت صلته بأساتذته ؟ ومتى انتهت ؟

والنقاد — كما رأينـا — مضطربون فى تحديد شخصية « ابن الجوزى » التى دار حولها رأى الأستاذ إقبـال . أهو الجد المتوفى سنة ٥٩٧ هـ أم الحفيد المتوفى سنة ٦٥٦ هـ .

ومع تسليمنا بأنه ابن الجوزى الثـانى — كما ذهب إليه الأستاذ إقبال — فإن وظيفة الحسبة التى بدأت لابن الجوزى سنة ٦٣٣ هـ كانت قياساً لسن العشرين للشاعر عند الأستاذ إقبال . فعلى أى أساس نفترض هذا السن . ؟ ؟ ؟

ومن المؤكد أن الشاعر اتصل « بابن الجوزى » قبـل أن يصل إلى تلك الوظيفة فعلا ، وباعتراف الأستاذ « إقبال » نفسه أن « ابن الجوزى » هذا انتقل إلى التدريس بالمستنصرية سنة ٦٣١ هـ . ولم يثبت أن الشاعر اتصل فى دراسته بهذه المدرسة . بل يقول — كما يقول الرواة أيضاً — إنه تعلم فى المدرسة النظامية

والشاعر يحدثنا أنه كان يتقاضى ادرارا أيام وجوده بالمدرسة النظامية . فإذا ثبت أن « ابن الجوزى » هذا كان من شيوخه فى التعليم فلا بد أن تكون صلته به أيام كان بالنظامية أى قبل سنة ٦٣١ هـ .

فالقول بأن سن الشاعر كان فى العشرين فى الوقت الذى انتقل فيه « ابن الجوزى » إلى وظيفة الحسبة سنة ٦٣٣ هـ هو مجرد فرض تقديرى لا سند له .

كذلك جعل الأستاذ نهاية حياة « السهروردى » المتوفى سنة ٦٣٢ هـ تحديداً لسن العشرين عند الشاعر فى حين أن السهروردى شغل منصب التدريس قبل وفاته بمدة طويلة ، من حياة طويلة ، بلغت ما يقرب من مائة عام تقريباً . « ٥٣٩ — ٦٣٢ » هـ [1] .

ولا ندرى — على وجه التحديد — متى بدأت صلته بهذا الأستاذ ؟ أكانت فى أخريات حياته أم قبلها . ؟ وهل كان يستطيع « السهروردى » حتى آخر عمره الطويل أن يظل أستاذاً بالنظامية . . . ؟ وعلى أى أساس نربط سن العشرين عند الشاعر بسنة وفاة أستاذه . . .؟ .

فالذهاب إلى أن الشاعر كان فى حدود العشرين عند ما توفى «السهروردى» هو أيضاً فرض لا نستطيع أن نجد الدليل عليه .

ونحن بعد ذلك نخلص من هـذه المناقشة إلى افتراض سن الشاعر فى مطلع القرن السابع الهجرى . وعمدتنا فى هذا الرأى هو بيت « الگلستان » الذى ألف سنة ٦٥٦ هـ ، والذى يبنى عليه المؤرخون افتراض مولده بالقياس إلى هذا البيت سنة ٦٠٦ هـ . وهو رأى اقترب منه الأستاذ « القزوينى » ، والأستاذ « نفيسى » ممن عرضنا إلى آرائهم فى هذه المسألة،ونضم إليهما الأستاذ «الگرگانى» فى مقدمته

(١) إقبال. سعدى نامه ص ٢٥

على « الـگلستان » . فيجعل مولده ما بين سنتى ٦٠٠ — ٦٠٦هـ [1] .

و إنى أميل إلى الذهاب بأن مولد الشاعر كان — على أصح الفروض — سنة ٦٠٠ هـ

وفى تأييد هذا الرأى — بالإضافة إلى ما مضى — أذكر ما يأتى :

إننا لو رجعنا إلى البيت الذى جعلناه مصدر هذا التحـــــديد وهو بيت « الـگلستان » الذى اعتمدنا عليه فى تاريخ مولده سنة ٦٠٦ هـ . لوجدنا مضمون عبارته تحتمل أن يكون سنه قد جاوز الخمسين بسنوات .

« اى كه پنجاه رفت ودرخوابى   مگراين پنج روزه دريـابى »

أ . الخمسين قد مضت ، وأنه تجاوزها فى قوله « پنجاه رفت » أى أو تجاوزته الخمسون .

وىحن نميل إلى أن نجعل هذا التجاوز ، لا يعدو منتصف العقد السادس بكثير وعلى ذلك فميلاده كان فى مشرق القرن السابع الهجرى أى سنة ٦٠٠ هـ تقريباً وعلى أصح الفروض .

---

(١) الـگرگـانى — مقدمة الـگلستان ص — كح .

الفصل الثالث

اسم الشاعر وتحقيق ما يدور حوله

وهذه مشكلة أخرى لا تقل صعوبة عما واجهنا أو يواجهنا من المشاكل ، ولعل من المؤرخين من رأى أنها أول المشاكل التى تواجه الباحث .

فيذكر الأستاذ « نفيسى » أن اسمه ونسبه هما أول إشكال يواجه الباحثين ، وقد وقع المؤرخون — قديماً وحديثا — فى خلاف كبير حول تحديد اسمه ونسبه ، وحتى الذين كانوا قريباً من عصره ، لم يعطونا رأياً صائباً نعتمد على صحته ، فمع أن « حمد الله المستوفى » كان قريباً من عصره ، فانه لم يعطنا رأياً قاطعا[1] .

تعددت الآراء القديمة فى هذه المسألة وكل رأى ذهب مذهباً مخالفاً، دون أن يجد سنداً من نص صحيح ، أو إشارة قاطعة تفيد اليقين والاطمئنان .

ويثبت الأستاذ الكركانى كثيراً من هذه الآراء[2] فى مقدمة كتابه ، مشيراً إلى تضاربها تضارباً قوياً ، ونحن نضع بين أيدينا آراء الذين تحدثوا عن الشاعر من المؤرخين أو رجال التذاكر ، وسنرى منها أنه لا يوجد بينهم اتفاق عام.

١ — فمن المؤرخين صاحب « تاريخ گزيده[3] » الذى ألف سنة ٧٣٠ هـ يقول عنه .

« مشرف الدين مصلح الشيرازى » .

وصاحب « حبيب السير[4] » الذى ألف سنة ٩١٤هـ يقول فى توسع .

---

(١) نفيسى — مجلة مهر — السنة الخامسة — العدد الأول ص ٤٦

(٢) الكركانى — مقدمة الگلستان — ص. ج . (٣) تاريخ گزيده ص. ٨٢٠

(٤) حبيب السير ص ١٣٢

« الشيخ شرف الدين بن مصلح الدين سعدى الشيرازى » .

٢ — ومن أصحاب التذاكر « دولتشاه » فى كتابه « تذكرة الشعراء » الذى ألف ٨٩٢ ﻫ .

يقول : « شيخ مصلح الدين سعدى [(١)] » .

« والجامى » صاحب « نفحات الأنس » الذى ألف سنة ٨٩٨ ﻫ يقول .

« مصلح الدين سعدى الشيرازى » .

« وآذر » صاحب« آتشكده » الذى ألف سنة ١١٧٤ [(٢)] ﻫ يقول .

« شيخ مصلح الدين المتخاص بسعدى » .

«ورضاقلى خان» صاحب «رياض العارفين» الذى ألف سنة١٢٨٨ﻫ يقول .

« شيخ شرف الدين مصلح بن عبد الله » . ويشير إلى أن البعض يقول إنه « مصلح الدين » أيضاً [(٣)] .

ونحن لانستطيع أن نتبين من خلال هذه الآراء رأياً نطمئن إليه. ونستطيع أن نجملها جميعاً تحت ناحيتين .

أولا — ناحية المؤرخين . وأصحاب هذا الرأى كما شاهدنا صاحب « تاريخ گزيده » ويجاريه صاحب « حبيب السير » . وعبارة الأول لا يتضح فيها مكان كلمة « مشرف الدين » من الاسم كله — أهى لقب أم اسم ؟ . بينما حدد وضعها صاحب « حبيب السير » فجعلها الاسم دون اللقب . وجعل « مصلح الدين » اسم أبيـــه وإن كان قد خالف الأول فيجعلها « شرف الدين » بدل « مشرف الدين » .

---

(١) تذكرة الشعراء ص ٢٠٢ (٢) آتشكده آذر فى شعراء اقليم فارس .

(٣) رضاقليخان — رياض العارفين — ص ١٤٣

ثانياً — والرأى الثانى هو ما ذهب إليه أصحاب التذاكر . ويكادون يلتقون عند رأى واحد . فهى كلها — وعلى رأسها صاحب « تذكرة الشعراء » — يذكر أنه « شيخ مصلح الدين » دون أن يذكر اسم أبيه .

ولعل من جاء أخيراً من رجال الطبقات نقلوا عنه . فهم متفقون معه — جميعاً — فى الاسم وأنه « مصلح الدين » .

ويأتى آخر هؤلاء وهو صاحب «رياض العارفين» فيجمع بين الرأيين. يتفق مع أصحاب التذاكر فى قوله « ويقول البعض إنه مصلح الدين » وإن كان يترجم له بعبارة لا يتفق فيها مع غيره من المؤرخين فى قوله .

« هو الشيخ شرف الدين مصلح بن عبد الله » فيتفق مع صاحب « حبيب السير » فى كلمة « شرف الدين » وإن كان يجعلها فى مقام اللقب . ويجعل اسمه « مصلح » وأبوه « عبد الله » بينما يجعل صاحب « حبيب السير » «شرف الدين» اسم الشاعر « ومصلح الدين » اسم أبيه .

نخرج من هذا العرض إلى أن المؤرخين ، ورجال الطبقات وقعوا فى اضطراب فى تحديد اسم الشاعر ، واسم أبيه ولقبه وكنيته .

ومن هنا كانت الإشارة التى ساقها الأستاذ « نفيسى » [1] وأيدها الأستاذ الـكركانى [2] فى أن التناقض واسع بين المؤرخين فى اسم الشاعر ونسبه .

ولا سبيل لنا — من بعدهم — إلى تأييد رأى دون رأى ، أو تغليب رأى على آخر . ولا اعتماد لنا على ما ذهب إليه صاحب « تاريخ گزيده » مع تقدمه وأسبقيته ، ولا الذى ذهب إليه رجال الطبقات جميعاً .

---

(١) نفيسى — مجلة مهر — السنة الخامسة — العدد الأول ص ٤٥

(٢) الـكركانى — مقدمة الـكلستان . ص ج (٣) المصدر نفسه ص . كد

وسينتج مما ظهر من العبارات القاطعة فى تصحيح نسبه واسمه إن كلا الرأيين جانب الصــواب .

ومن حسن الحظ أنه عثر — أخيراً — على إحدى النســخ المخطوطة « للـگلستان » التى نقلت عن نسخة بخط « سعدى » نفســه ، وهى التى أخذ عنها الأستاذ « الـگرگانى » فى نشره هذا الـكـتاب . وعبارته .

« در كتاب گلستانى كه مأخذ نـگارنده ، وبطبع آن اقدام نموده‌است ، وكاتب آن در آخر كتاب ادعا كرده است كه از روى نسخهٔ خط شيخ نسخه گرفته، ومقابله كرده است ، در پشت ورق أول كتاب عبارت ذيل نوشته شده است — كتاب گلستان فى النوادر والأمثال والشعر والحكايات . أنشأه العبد الفقير المحتاج إلى ربه — أبو عبد الله مشرف بن مصلح السعدى الفارسى غفر الله له ولوالديه»(١)

ولا يشير الأستاذ « الـگرگانى » إلى تاريخ النسخة التى خطها الشاعر ، والتى نقلت عنها النسخة المطبوعة من « الـگلستان » . لـكن الأستاذ « نفيسى » يشير إلى تلك النسخة ويجعل تاريخ كتابتها بخط « سعدى » سنة ٦٦٢ ﻫ فى شهر المحرم أى بعد ست سنوات من إتمــام « الـگلستان» ونص عبارة « نفيسى» هى :

« در پشت نسخهٔ معتبرى أز گلستان كه أز روى نسخهٔ أول خط سعدى نوشته شده ، وآقاى قريب آنرا انتشار داده أند ، نام مؤلف كتاب چنين آمده است . — أبو عبد الله مشرف بن مصلح السعدى الفارسى — وأصل آن نسخه را سعدى بخط خود در محرم سنة ٦٦٢ﻫ يعنى شش سال پس أز آنكه گلستان راتمام كرده ست نوشته بوده (٢) » .

وبجانب ذلك نجد مايدل على صحة هذا الرأى أيضاًدلالة لاتقبل الشك فى تحديد اسم الشاعر واسم أبيه .

فقد نقلت—مصورة بالفوستات — عبارة مكتوبة على وجه أول صفحة من صفحات « الـگلستان » التى أخذ عنها الأستاذ « فروغى » ، وهذه الورقة مواجهة لصفحة ٨ من « سعدى نامه » وبها هذه العبارة .

---

(١) الـگرگانى . مقدمة الـگلستان . ص . كد .

(٢) نفيسى . مجله مهر . السنه الخامسة . العدد الأول ص ٤٧

فرغ من تسطير كتاب الطيبات(١) قائله العبد الفقير الحقير المستمد بعفوه مشرف بن مصلح السعدى غفر الله له فى غرة ذى الحجة سنة احدى وستين وستمائه » .

وتاريخ هذه المخطوطة قريب من المخطوطة التى نقل عنها الأستاذ « الكركانى » والتى أشرنا إليها سابقاً ، أنها كانت سنة ٦٦٢ هـ . ولكنها تفترق عنها فى العبارة فهى لا تذكر الكنية ولا الموطن .

كذلك يذكر الأستاذ « آربرى » Arberry [٢] أن هناك نسخة يملكها الخطاط المشهور « مير عماد » المتوفى سنة ١٦١٢ م عليها توقيع « سعدى » بالعبارة الآتية « أبو عبد الله مشرف بن مصلح السعدى الفارسى » .

وبجانب هذا يقول الأستاذ « نفيسى » إن هناك لوحة حجرية موضوعة على مقبرة الشيخ منذ اليوم الأول لوفاته . ولا تزال باقية على جدار المكان ، مكسورة من المقدمة وغير واضح ما عليها . وفى العبارة التى بقيت عليها مكان كلمة أو كلمتين غير موجودتين . كما محى أيضاً تاريخ وفاة « سعدى » ، الذى كان حتما منقوشا عليها ، ولم يبق من اسمه ونسبه إلا كنيته وتخلصه .

وذلك هو ما بقى على تلك اللوحة يورده بالوضع الآتى .

« . . . . . . مجمع الفضائل الملكية ، ينبوع المحامد السنية ، ذو المعانى اللطيفة ، المشار إليه بالبنان ، أبو عبد . . . . سعدى . . . . »

ونص العبارة :

(اينك پاره أز سنگى كه أز روز نخست برسر خاك نهاده بودند، درهمان مقبره شيراز باقى مانده كه بر ديوار جاى داده اند وآغاز آن شكسته ونابود شده . وأزميان آن يكى دوكلمه نيز شكسته . وأزميان رفته أست . وتاريخ فوت سعدى كه حتما در

---

(١) هذه الكلمة تقرأ قريبة من «الطيبات» ولعل المقصود بها ا! كليات أوالطيبات .

(٢) Kings and Beggars p. 6

روی آن کنده بودند أزدست رفته . وأزنام ونسب أونيز بجزكنيه وتخلص چيزى نمانده وآنچه أزآن سنگ باقى مانده بدين قراراست . . . . . . مجمع الفضائل ينبوع المحامد . . . الخ[1] .

و يخرج الأستاذ من هذه الآراء إلى أمور قاطعة فى اسم الشاعر ونسبه وهى :

١ — إن كنية الشاعر هى « أبو عبد الله » وكلمة « الله » غير موجودة فى النص المحفور ، لكن تفهم من إضافة كلمة « عبد » اليها .

٢ — إن القدر الموجود بين كلمة « أبو عبد » . . . . و « سعدى » لا يتسع لأكثر من أربع كلمات هى كما يمكن تقديرها — « الله مشرف بن مصلح »

و بهذا يمكن أن يكون اسم الشاعر ونسبه كاملا

« أبو عبد الله مشرف بن مصلح سعدى » وهو مايتسق مع ماوجد على ظهر النسخة المحققة « للگلستان » الذى نشره الأستاذ الگرگانى

فليس — إذن — كلمة « عبد الله » اسما له أو لأبيه و إنما هى كنية له . كما أن كلمة « مشرف الدين » التى وردت عند بعض المؤرخين ليست لقباً له أو لأبيه لكنها اسم له غير مضافة لكلمة «الدين» . وهى بضم الأول وفتح الثانى وتشديد الثالث كما ضبطها الأستاذ الگرگانى نقلا عن النسخة التى أخذ عنها . لكنه لم يتبع الشدة على الراء بحركة . هل هى الفتحة أم الكسرة ؟ .

والمعنى أقرب لأن نجعلها الكسرة بدل الفتحة حتى تكون اسم فاعل يصدر عنه التشريف .

وكذلك الأمر فى كلمة « مصلح الدين » التى وردت عند البعض . ليست لقبه أو لقب أبيه لكنها اسم أبيه بدون إضافه إلى كلمة «الدين» .

بقى أن نذكر من أين جاء هذا الخلط والاشتباه عند النساخ أو الرواة ؟ . وهو أمر نعده سهلا و يسيراً فى إضافة كلمة « الدين » إلى « مشرف ومصلح »

---

(١) نقبس . مجله مهر . السنة الخامسه . العدد الأول ص٤٧

واستبدال كلمة « شرف الدين » بدل « مشرف » وذلك أن كلمة « مشرف » و«شرف» قريبتان من بعضهما ، ومن السهل فواتها على النساخ أما كلمة «الدين» فهى تقرب كذلك من كلمة « ابن » ومن الممكن أن يقع فيها من لا يدقق . وهذا ما يذهب إليه الأستاذ « الكرگانى » فى تعليل ذلك الخلط [1] .

أما نسب الشاعر إلى الموطن ففى نص الأستاذ « الكرگانى » الذى أخذ عنه نسخته ، أن الشاعر نسب نفسه إلى «فارس» وفى نصوص رجال الطبقات أنه ينسب إلى « شيراز » . ولا اعتراض لنا على الخلاف بينهما . فإنه ينسب نفسه إلى الوطن الكبير بينما ينسبه رجال الطبقات والمؤرخون إلى موطن ولادته شيراز .

ولا خلاف فى أنه ولد بشيراز كذلك فإنه يشير إلى هـذا فى عدة مواضع من كتبه .

ففى الـگلستان فى الباب الخامس فى المقـــــدمة التى تشير إلى دخوله « كاشغر » ومشاهدته طالباً يقرأ مقدمة « الزمخشرى » . فيسأله الفتى عن موطنه فيجيبه « شيراز » .

« سولدم برسيد ، گفتم . خاك شيراز » [2]

وفى إحدى غزلياته يشير إلى ذلك بقوله :

« هر متاعى زمعـدنى خـيزد شكر أز مصر وسعدى أز شيراز [3]»

أما كلمة شيخ فيمكن أنها أسندت إليه تقديراً لمكانته الروحية ، أو الصوفية ، أو رعاية لسنه ، أو منزلته .

وقد تردد إطلاق هذه الـكلمة على الشاعر فى حياته ، حتى من كبار الشخصيات

---

(١) الكرگانى — مقدمة الگلستان ص كه.
(٢) كليات فروغى — گلستان ص ١٦٧
(٣) الكرگانى — مقدمة الگلستان ص كه .

ففى الرسالة السادسة من رسائله ، وهى التى تتعلق بلقاء الشاعر « لآباقا خان» والصاحبين « شمس الدين وعطا ملك » يذكران فى قولهما « لآباقا » حين سألهما من يكون ذلك الشيخ ؟ يجيبانه « إنه أبونا ، وشيخنا » والعبارة .

« گفتند أى خداوند، أوپدرما وشيخ ماست[1] » .

أما متى يمكن أن يكون قد فاز بهذا اللقب ؟ فإنا نعتقد أنه ظفر به منذ أيام رحلاته واختلاطه الكثير بالناس ، وقيامه مرات كثيرة بالوعظ والإرشاد بينهم ، فنال تقديرهم واستحق لهذا أن يخلعوا عليه لقب شيخ .

ويرى الأستاذ « الگرگانى » أنه خلال إقامته الطويلة بسوريا نال فيها لقب الشيخ الكبير فى «دمشق» فانه كان موضع احترام النـاس . ولأول مرة فى تلك المدينة ومدينـة « بعلبك » كما يقول — جمع بين شهرته كأديب كبير ، وبين واعظ دينى شهير[2] .

---

(١) كليات فروغى ص ٦٥ (٢) الگرگانى مقدمة الگلستان ص . يا .

الفصل الرابع

تخلص الشاعر والخلاف حوله

وهذه أيضاً مسألة من المسائل التى لم يجمع فيها على رأى بين القـدماء ، كما اختلف المحدثون فيها كذلك.

وأساس هذه المشكلة أمران .

١ — أنه لم يرد نص صريح — من نصوص الشاعر — يدل على تحديد الشخص الذى استمد منه تخلصه .

٢ — أن الشاعر عاصر حاكمين من حكام أسرة الأتابكة ، الذين عاش وعاشت أسرته فى كنفهم بشيراز ، وكلاهما يسمى سعداً .

عاصر « سعداً بن زنگى » كما عاصر « سعداً بن أبى بكر » وكلا الجد والحفيد له اسم سعد ، ومن هنا كان مورد الاضطراب عند القدماء والمحدثين .

وتمضى المسألة عند القدماء — فيما يذهبون إليه — كأنها أمر مسلم به غير محتاج إلى تدليل أو مناقشة ، بخلاف ما نلحظ عند المحدثين .

ونحن نجمع آراء القـدماء كما وردت أولا ، ثم نناقش آراء المحدثين ثانياً ، فإذا ذهبنا إلى رأى دون رأى ، فسنقيم الدليل على وجهة نظرنا ، فيما نذهب إليه ، ولعلنا نوفق فى ذلك .

عرض عام لهذه الآراء : آراء القدماء

وقد أشار الأستاذ « القزوينى [1] » إلى من تكلم من القدماء عن تخلص « سعدى » وجعلهم قسمين .

١ — قسم يذهب فى تخلصه إلى « سعد بن زنگى » — الجد .

---

(١) قزوينى — سعدى نامه ص ١١٠

٢ — وقسم يذهب إلى أنه تخلص باسم « سعد بن أبى بكر » — الحفيد .

أما من ذهب إلى الرأى الأول فقد قال عنهم إنهم أربعة ، هم أصحاب « حبيب السير ، وجهان آرا، وآتشكده ، ورياض العارفين [(١)] » .

والذين ذهبوا إلى الرأى الثانى هم أصحاب « تاريخ گزيده ، ومزارات شيراز » .

ونص هذه العبارة من مقال « ممدوحين شيخ سعدى » هى كما يلى :

« چنانكه أز تاريخ گزيده (٢) ومزارات شيراز (٣) مستفاد ميشود،شيخ أز بستگان ومنتسبان إين شاهزاده بوده ، وهمانا تخلص وى نيز أزنام أو مأخوذ وبدون شبهه صواب همين قول است ؛ به آنچه صاحب حبيب السير ، وجهان آرا ، وآتشكده ، ومرحوم هدايت گفته اند كه تخلص شيخ مأخوذ أزنام سعد بن زنگى است » .

ثم يدلل على صحة ما يذهب إليه بآراء سنعرض لها ونناقشها فيما بعد . وترجمة هذه العبـارة .

وكما يستفاد من تاريخ « گزيده ومزارات شـــيراز » كان الشيخ من المتصلين بهذا الأمير « سعد بن أبى بكر » والمنتسبين إليه ، وكذلك اتخذ تخلصه أيضاً من اسمه ، ولا شك أن الصواب هو نفس هذا القول . وليس مايذهب إليه

---

(١) صاحب حبيب السير. هو غياث الدين خواند مير من رجال القرن العاشر الهجرى وصاحب جهان آرا. هو القاضى أحمد الغفارى من رجال القرن الحادى عشر الهجرى وصاحب آتشكده. هو لطف على بك المتخلص بآذر من رجال القرن الثانى عشر الهجرى وصاحب رياض العارفين . هو رضا قلى خان المتخلص بهدايت من رجال القرن الثالث عشر الهجرى .

(٢) تاريخ گزيده ص ٨٢ . وعبارته مقتضبة وهى « سعدى شيرازى وهو مشرف الدين مصلح الشيرازى و بأتابك سعد بن أبى بكر سعد بن زنگى منسو بست »

(٣) مزارات شيراز . هامش سعدى نامه ص ١١١ وعبارته « الأتابك سعد بن أبى بكر بن سعد بن زنگى . كان ملكا شاباً جميلا حسن السيرة صافى السريرة محباً لأهل الفضل مربياً لهم . قد انتسب اليه الشيخ مشرف الدين مصلح »

صاحب «حبيب السير[1] وجهان آرا[2]؛ وآتشكده[3] والمرحوم هدايت[4] » . أن تخلص الشيخ مأخوذ من اسم « سعد بن زنگى » .

والمفهوم من إجمال عبارة الأستاذ « القزوينى » أنه وجد بين المتقدمين — الذين يعتمد عليهم فى حياة الشاعر — أربعة تذهب إلى أن تخلصه مأخوذ من « من سعد بن زنگى » واثنين يذهبان إلى أنه اتخذه من « سعد بن أبى بكر » .

ونستطيع أن نضيف إلى الآراء التى يذهب إليها الأستاذ فى جعل التخلص مأخوذاً من اسم « سعد الأكبر » رأيا آخر لم يشر إليه هنـا ، وإنما أشار إليه فى مقدمته على كتاب «المعجم فى معايير أشعار العجم» [5] ذلك هو رأى دولتشاه [6] ولعله أول مرجع فى هذه المسألة لقدمه وإحاطته .

وبهذا تستكمل آراء أغلبية رجال الطبقات الذين يعتمد عليهم فى تاريخ الشاعر .

هذه هى آراء القدماء ، وهى كما نرى تعرض للأمر دون مناقشة أو تدليل ، ونحن لا نذهب إلى تغليب رأى على رأى ، دون أن ندخل فى المسألة آراء المحدثين ثم مناقشته .

آراء المحدثين . من قال بتخلصه بسعد الأكبر

وأهم من ذهب من المحدثين الدين اطلعنا على آرائهم ، وجعلوا تخلص الشاعر من « سعد بن زنگى » هو الأستاذ « الـگرگانى » . وإن كانت أدلته مقتضبة

---

(١) حبيب السير ص ١٢٨ . وعبارته — فى معرض الـكلام عن سعد بن زنـگى « وشيخ مصلح الدين سعدى شيرازى را در تخلص بوى منسوب ميداند » .

(٢) لم يتيسر الاطلاع على نص هذا الـكتاب لأنه غير موجود بمصر

(٣) آتشكده . « ظهور الشيخ درزمان سعد أتابك است وبدين جهت سعدى تخلص ميكرده»

(٤) رياض العارفين ص ١٢٤ «ظهورش درزمان سعد بن زنـگى بوده وبسبب خصوصيت بأتابك مذكور سعدى تخلص فرمود »

(٥) مقدمة المعجم فى معايير أشعار العجم ص . ط — ى

(٦) دولتشاه — تذكرة الشعراء ص ٢٠٢ . وعبارته « وظهور شيخ در روزگار أتابك سعد بن زنـگى بوده است ،گويند درشيخ ملازم أتابك بوده ، ووجه تخلص شيخ سعدى بدان جهت است » .

دفع رأى من قال بتخلصه من « سعدبن أبي بكر » ، و يذهب أيضاً بعض الإيرانيين والغربيين إلى مشاركته هذا الرأى وعبارته .

« در باب تخلص وى مينو يسند ، چون سلطان زمانش أتابك سعد بن زنگى بوده، لهذا سعدى تخلص نموده، ولى صاحب تاريخ گزيده حمد الله مستوفى قزوينى مينو يسد چون سعدى ملازم سعد دوم پسر أبو بكر بوده . لهذا أين تخلص را اختيار كرده أند ود ليلشان آنست كه سعدى در زمان سلطنت سعد بن زنگى در شيراز نبوده ودر أشعار ونوشتهاى خود و يرا مدحى نكرده .

اعتراضى كه بنظر نگارنده برقول دوم وارد ميشود اين است كه هرگاه سعدى بواسطهٔ ملازمت سعد بن أبو بكر اين تخلص را اختيار كرده باشد البته بايد بعد أز مراجعت بشيراز باشد . درا ينصورت بايد سعدى در أيام تحصيل خود در بغداد ومسافرتهاى كه كرده تخلصى اختيار نكرده باشد يا تخلصى ديگر داشته، و ياهيچوجه شعرى نگفته باشد . وأين مطلب بغايت بعيد ، بلكه قريب بمحال است(١) .

وترجمة هذه العبارة كما يلى :

« فى باب تخلص « سعدى » يذكرون أنه لما كان سلطان عصره هو « سعد بن زنگى » . فلهذا اتخذ منه « سعدى » تخلصه لكن صاحب « تاريخ گزيده » يذكر أنه لما كان السعدى ملازماً « لسعد بن أبى بكر » فلهذا اختار تخلصه منه ، و يختار البعض القول الثانى (٢) ، ودليلهم على ذلك أن « سعدى » فى عهد حكم « سعد بن زنگى » لم يكن فى شيراز ، ولم يمدحه فى شعره أو رسائله

لكن الباحث « يقصد نفسه » يعترض على القول الثانى ، بأنه لوكان « سعدى » قد اختار تخلصه من أجل ملازمته « لسعد بن أبى بكر » لكان بالتأكيد بعد رجوعه إلى شيراز . وعلى ذلك ينبغى أن يكون « سعدى » فى عهد تحصيله ببغداد وسفره ، لم يتخذ تخلصاً ، أو أنه كان له تخلص آخر ، أو لم يقل شعراً قط ، وذلك أمر بعيد للغاية ، بل قريب من المحال .

---

(١) الكركانى — مقدمة الكلستان . ص . ذ .

(٢) لعله يشير بذلك إلى آراء المحدثين ممن ذهبوا هذا المذهب .

هذا هو أهم الآراء المعارضة فى جعل تخلص الشاعر مأخوذاً من « سعد بن أبى بكر » يتزعمه الأستاذ الكرگانى ، و يدلل عليه .

وقد نهج منهجه هذا جماعة من الإيرانيين المحدثين ، و إن لم يذهبوا فى عرض آرائهم والتدليل عليها كما ذهب هو . كذلك يذهب إلى نفس هذا الرأى بعض الغربيين .

ومن بين الإيرانيين الأستاذ « قاسم تويسركانى » فى بحث له عنوانه « سخن سعدى » فبعد أن يرد على المعترضين ببعض ما ذهب إليه الأستاذ « الكرگانى » . يعود فيرى فى النهاية ، أن الأمر حقيقة لا يخلو من إشكال فى إسناد تخلص الشاعر إلى أحدى الشخصين .

لكنه يذهب فى ذلك مذهباً لا نوافقه عليه فى الخروج من هذا الإشكال ، إذ يرى أنه من المحتمل أن يكون تخلص الشاعر إما اتخذ من شخص آخر غير هذين الأميرين أو هو وصف له ، وعبارته :

« پس در وجه تخلص سعدى بدين نام أگر حتما بخواهيم ، إين كلمة را بيكى أزدو سلسلهٔ أتابكان منسوب بداريم ، در هر حال خالى أز إشكال نيست ، چه نسبت آن را بسعد أول بدهيم ، وچه بسعد دوم . بنا بر إين ميتوان احتمال داد كه تخلص وى أز نام هيچيك أزدو سعد گرفته نشده . وبنام ديگرى ، يا سعد وصفى منتسب بوده باشد(1) » .

لكن هذا الرأى — الذى ذهب إليه هذا الكاتب — لا نستطيع أن نقبله أو يبلغ مبلغ الاطمئنان لدينا ، فهو فضلا — عن أنه مجرد فرض لا تؤيده الوقائع فإنه بعيد الاحتمال ولا يحل الاشكال .

و إلى نفس الرأى الذى ذهب إليه الأستاذ « الكرگانى » تذهب دائرة المعارف الإسلامية في مناقشة قصيرة .

---

(1) قاسم تويسركانى — سخن سعدى ص ٤

فهى تشير إلى أن أبا الشاعر كان فى خدمة الأتابك « سعد بن زنگى » وتجعل تخلصه من اسمه ، ثم تذكر أن بعض الآراء [1] تخالف هذا الرأى فى جعل التخلص « لسعد الأصغر » وترد على هذا بقولها : إن « سعداً الثانى » لم يعتل العرش إلا حين كان « سعدى » فى السابعة والستين [2] ، وقد كتب الكثير من مؤلفاته ثم عاد إلى شيراز ، ولم يمتد حكم « سعد الثانى » إلا اثنى عشر يوماً ، فلم يكن لديه أية فرصة ليؤدى عملا جليلاً ليكون بذلك محل تقدير « سعدى » بينما كان جده راعياً لوالد الشاعر .

كذلك يرى « براون » — دون مناقشة — أن الشاعر لما كان فى رعاية الأتابك « سعد بن زنگى » أتابك فارس، لهذا جعل تخلصه من اسمه ، وسرعان ما أرسله للالتحاق بالمدرسة النظامية ببغداد [3] .

هذه هى آراء الذين ذهبوا إلى أن تخلص الشاعر مأخوذ من «سعد بن زنگى»

من قال بتخلصه بسعد الأصغر

هناك جماعة أخرى ترى أن تخلصه مأخوذ من « سعد بن أبى بكر » . وعلى رأس هؤلاء الأستاذ « القزوينى » والأستاذ « عباس اقبال » .

الأول فى مقدمته لكتاب «المعجم» [4] ومقاله « ممدوحين شيخ سعدى» [5] .

والثانى فى مقاله « زمان تولد وأوايل زندگان سعدى» [6] الذى نشر فى « سعدى نامه » .

---

(١) لعلها تقصد آراء القدماء مثل تاريخ گزيده .

(٢) ترى الدائرة فى النسخة الانجليزية . أن مولد الشاعر كان سنة ٥٨٠ هـ . وهذا خطأ لايتفق مع التقدير المذكور لسن الشاعر . والصواب ماثبت فى النسختين الفرنسية والألمانية من أن مولده كان سنة ٥٩٠ هـ.

(٣) G. Browne: A Literary History of Persia v. 2, p. 527.

(٤) مقدمة المعجم فى معايير أشعار العجم ص. ط — ى .

(٥) سعدى نامه ص ١١٠ (٦) نفس المصدر ص ٢٧ .

رأى الأستاذ القزوينى

ولما كان رأى الأستاذ « القزوينى » هو الأساس ، وقد عرض له فى موضعين فإنا نفرد له المناقشة أولاً .

ونحن نسجل نص عبارته — على طولها — ثم نناقشها ، وقد كتب الأستاذ مقدمته لكتاب « المعجم » سنة ١٩٠٩ م . ثم عاد فأشار إلى هذه المسألة فى مقاله الثانى بعد ذلك التاريخ . مع تصحيح بعض الآراء التى كان قد ذهب إليها ، والتى أخذها عن صاحب « تاريخ گزيده » .

وهذا هو نص العبارة كما وردت فى المقدمة المذكورة .

« ودر إينجا لازمست كه اشارهٔ بغلطى مشهور . در باب تخلص شيخ « سعدى شيرازى » بنمائيم ، وآن إينست كه بسيارى أز تذكرهٔ نويسان ، كه أولين إيشان « دولتشاه سمرقندى » است ، گفته أند ، كه شيخ أزمداحان أتابك «سعد بن زنگى» بوده ، ووجه تخلص أو «بسعدى» نيز أز نام همين پادشاه مأخوذ است وأين أمر خطاى محض است چه .

أولا — در تمام كليات شيخ مدحى يا ذكرى أز « سعد بن زنگى » أصلا ومطلقاً نيست .

ثانياً — مصنف إين كتاب — چنانكه گفتيم — درپنج سال آخرت سلطنت « سعد بن زنگى » وأوائل سلطنت « أبو بكر بن سعد بن زنگى » در شيراز ، ودر ملازمت دوپاد شاه مذكور بسرمى برده است .

ودر إين كتاب أز أشعار غالباً شعراى متقدمين ، ومتأخرين ، ومعاصرين خود ، مانند كمال الدين اسماعيل المتوفى سنة ٦٣٥ ه استشهاد آورده است .

وبع هذا هيچ إشارت ، وذكرى أز «سعدى» نميكند . وأگر شيخ معاصر «سعد بن زنگى» بوده . يعنى در عهد أو در شيراز إقامت داشته . إين سكوت مصنف أز أو با انكه هردو بنا بر إين تقدير — در يك عصر ، ويك شهر ودر خدمت يك شاه ، بسرمى برده اند — هيچ وجهى ومحلى نخواهد داشت » .

هذه هى القضية ورده عليها . ثم يعرض الأستاذ رأيه فى قوله :

« وصواب قول صاحب تاريخ گزيده است كه شيخ « سعدى » أز ملازمان «سعد بن أبى بكر بن سعد بن زنگى» — كه در سنهٔ ٦٥٨ ه دوازده روز بعد أز وفات پدرش وفات يافت — بوده است . وتخلص « سعدى » نيز أز نام همين شاهزاده مأخوذ است . وكتاب گلستان را نيز بنام همو تأليف كرده است . چنانكه گويد .

على الخصوص كه ديباچهٔ همايونش   بنام سعد أبو بكر سعد بن زنگى ست

وظاهر آنست که مراجعت شیخ أز سفرهای دور ودراز بوطن خود ، واستقرار وی در شیراز در أواخر سلطنت « أبو بکر بن سعدبن زنگی» بوده است ، ودرهمان أوقات کتاب « بوستان» را بنام آن پادشاه ، در سنهٔ ٦٥٥ هـ کرده است چنانکه گوید

ز ششصد فزون بـود پنجاه و پنج که پر در شد إین نامبردار گنج

« وگلستان » را در سال بعد ، یعنی در سنهٔ ٦٥٦ هـ چنانکه گوید . . .

در آنمدت که ما را وقت خوش بود ز هجرت ششصد و پنجاه وشش بود

وچون سلطنت « أبو بکر بن سعد بن زنگی» مدت سی سال یعنی أز سنهٔ ٦٢٨(١) إلى ٦٥٨ طول کشید منافاتی ندارد ، که «شمس قیس» وشیخ «سعدی »—با وجود آنکه هردو معاصر آن پادشاه بوده اند — زمان یکدیکررا درك نکرده باشند . چه « شمس قیس » أوایل عهد أودرك کرده بوده ، « وشیخ سعدی » أواخر آنرا . والله الهـادی إلى الصواب » .

وترجمة هذه العبارة هي :

«ويلزم هنا أن نشير إلى خطأ مشهور ، في باب تخلص «سعدى الشيرازى» ذلك أن كثيرا من رجال التذاكر ، وأولهم « دولتشـاه السمرقندى » قد قالوا أن الشيخ من الذين مدحوا الأتابك « سـعداً بن زنگي » ، وتخلصه أيضاً بكلمة « سعدى » مأخوذ من نفس هذا الأمير ، وهذا الأمر خطأ محض لأنه .

أولاً — لا يوجد في جميع كليـات الشيخ مدح أو ذكر « لسـعد ابن زنگي » مطلقاً .

ثانياً — أن مصنف هذا الكتاب — كما قلنا — أمضى السنوات الخمس من آخر حكم « سعد بن زنگى » وأوائل عهد « أبى بكر بن سعد » في شيراز ، وفي ملازمة كلا الحاكمين ، واستشهد في هذا الكتاب بأشعار أغلب الشعراء المتقدمين ، والمتأخرين ، والمعاصرين له ، أمثال كمال الدين إسماعيل المتوفى سنة ٦٣٥ هـ .

---

(١) صحح الأستاذ القزوينى نفسه هذا التاريخ الذى أخذ عن صاحب « تاريخ گزيده » . معتمداً في هذا على بعض حوادث وشواهد تتصل بعصر « أبى بكر بن سعد » وقد عرضنا لهذا الخلاف في الرسالة عند الحديث على وفاة « سعد بن زنگى »

ومع هذا لا يوجد ذكر أو إشارة عن « سعدى » . ولو أن الشيخ كان معاصراً « لسعد بن زنگى » — أى أقام فى عهده بشيراز — فلا معنى لسكوت المصنف عنه ، مع أن كليهما — حسب هـذا التقدير — كانا فى عصر واحد ، ومدينة واحدة ، وفى رعاية ملك واحد ».

هذه هى المشكلة فى نظر الأستاذ . وأما رأيه هو فيبدو فى قوله الذى مضى فى عرضه ونترجمه بما يأتى :

« والصواب هو قول صاحب « تاريخ گزيده » فان الشـيخ « سعدى » كان ملازما « لسعد بن أبى بكر » الذى توفى سنة ٦٥٨ هـ . بعد اثنى عشر يوما من وفاة أبيه . وتخلص « سعدى » أيضا مأخوذ من هذا الأمير ، وألف له كذلك كتاب« الـگلستان » ، كما يقول :

جعلت على الخصوص ديباجة هـذا الـكتاب العظيم باسم سعد بن أبى بكر ابن سـعد بن زنگى .

والظاهر أن عودة الشاعر إلى موطنه من أسفاره الطويلة البعيدة ، واستقراره فى شيراز كان أواخر عهد أبى بكر بن سعد بن زنگى . وفى نفس الوقت الذى ألف فيه « البوستان » باسم ذلك الأمير سنة ٦٥٥ هـ كما يقول :

فى عام ستمائة وخمسة وخمسين ، امتلأ هذا الـكنز بالدر الثمين .

والـگلستان بعده بعام أى سنة ٦٥٦ هـ كما يقول :

حين كان عهدنا سعيداً كان ذلك فى عام ستمائة وست وخمسين من الهجرة .

ولما كانت سلطنة «أبى بكر بن سعد» امتدت من سنة٦٢٨هـ إلى سنة٦٥٨هـ ، فليس هناك ماينفى ، أن «شمس قيس» ، «والشيخ سعدى» لم يدرك أحدهما الآخر ، مع معاصرتهما لهذا الأمير ، فان « قيسا » أدرك أوائل عهده ، وأدرك « الشيخ سعدى » أواخره . والله الهادى إلى الصواب » انتهت الترجمة .

وكلام الأستاذ القزوينى فى موضعيه — وكما يبدو — ينقسم إلى الأقسام الأساسية الآتية .

أولا — عرض لرأى أصحاب التذاكر ، وعلى رأسهم دولتشاه .

ثانياً — هدم هـذا الرأى بما ذهب إليه من الأدلة التى أوردها ، والتى لا تعدو دليلين .

١ — أنه لا يوجد فى كل الكليات مدح أو ذكر لسعد بن زنگى .

٢ — أن صاحب المعجم لم يشر إلى الشـاعر ، أو يقتبس منه كالحال مع معاصريه .

ثالثاً — إيجاد رأى جديد — دون الدفاع عنه — وهو الرأى الذى قال به صاحب « تاريخ گزيده » . وأن الشاعر ينسب إلى سعد بن أبى بكر .

الرد على الأستاذ القزوينى

أولاً — أما عن المسألة الأولى : وهى عرضه لرأى أصحاب التذاكر ، وعلى رأسهم دولتشاه السمرقندى ، فقد ورد فى نص عبارة الأستاذ ما يأتى :

«. . . . كه بسيارى أز تذكرهٔ نويسان ، كه أولين إيشان دولتشاه سمرقندى است گفته اند ، كه شيخ أز مداحان أتابك سعد بن زنگى بوده ، وجه تخلص أو « بسعدى » نيز أز نام همين پادشاه مأخوذ است ، وإين أمر خطاى محض است » .

ويبدو أن الأسـتاذ القزوينى أخذ مفهوم العبارة عموماً . فإن الشاعر الذى يتخلص بشخصية من الشخصيات ، لا بد أن تكون له فيها مدائح ، فقال إن الشيخ من الذين مدحوا الأتابك « سعداً بن زنگى » . نقلا عن مفهوم عبارة دولتشاه .

ونحن إذا رجعنا لنص صاحب تذكرة الشعراء — دولتشاه — فإنا نجده بهذا الوضع .

« وظهور شيخ در روزگار أتابك « سعد بن زنگى » بوده است . گويند پدر شيخ ملازم أتابك بوده ووجه تخلص شيخ سعدى بدان جهت است » .

« أى أن الشيخ كان فى عهد الأتابك « سعد بن زنگى » ، ويقال إن أباه كان من ملازمى الأتابك، ووجه تخلص « الشيخ سعدى » من هذه الناحية » .

فعبارة دولتشاه صريحة فى أن الشيخ كان فى عهد الأتابك « سعد بن زنگى » — فحسب — دون أن يشير إلى مدائح ، ولكن أباه كان على صلة بالحاكم ، فكان تخلص الشاعر به مأخوذاً من هذه الصلة .

وهذا أنسب فى مثل موقفنا من « الشيخ سعدى » و « سعد بن زنگى » . فحتى عهد وفاة هـذا الحاكم سنة ٦٢٣ هـ ، لم يثبت له مدائح إلا بعد عودته إلى شيراز ، فانه كان يأنف من هـذا النوع ، ولعل الشاعر رأى فى باكورة حياته الشعرية أن يتخذ تخلصه باسم هذا الحاكم تقديراً لرعايته له ولأبيه من قبل ، حتى يكون ذلك بمثابة الإعلان وعرفان الجميل .

كما يثبت ذلك من الأبيات التى أشرنا اليها سابقاً ، فى مثل هذه المناسبة .

ثانياً — وأما عن المسألة الثانية : وهى تدليلة على بطلان رأى « دولتشاه » بما أورده من الدليلين اللذين أشرنا إليهما .

١ — فعن الدليل الأول . « وهو أنه لم يوجد فى كليات الشاعر مدح أو ذكر لسعد بن زنگى » فيمكن أن يرد على عبارة الأستاذ « مدحى يا ذكرى » التى ذكرها ، بأن الشاعر حتى وفاة « سعد بن زنگى » أو قبلها بقليل ، كان مهتما بالتحصيل ، والتوجيه الدينى لا الشعرى . ولكنه إرضاء لحاسته الشعرية كان يقرض أبياتاً خفيفة لا تبلغ إطالة القصائد التى تقال فى المدح أو الرثاء . والتى تعرض لمثلها بعد عودته إلى شيراز من رحلاته الطويلة ، وفى المناسبات التى أشرنا إلى بعضها سابقاً .

على أن الأستاذ القزوينى نفسه ، يغنينا عن إطالة الدفاع فى هـذه المسألة ، وذلك فى الموضع الآخر من أبحاثه ، وهو ما أثبته فى مقاله « ممدوحين شيخ سعدى » . ولعلها نفصل فى الرأى بجانبنا . يقول :

« بنا بر إين پس شيخ در وقت وفات « سعد بن زنگى » در سنهٔ ٦٢٣ ﻫ — ظاهراً — جوانى بوده است ، در حدود بيست يا بيست واند ساله ، وبديهى است كه در إين سن هنوز برتبهٔ شاعرى ، وشهرت ومعاشرت باملوك ، وأكابر ، نرسيده بوده است . وبهمين جهت است بدون شك كه در تمام كليات أو أز نظم ونثر چنانكه سابق (١) نيز گفتيم . مطلقاً وأصلا ، مدحى يامرثيهٔ درحق سعد بن زنگى (٢) » .

وترجمة هذه العبارة :

« وبناء على ذلك ، كان الشيخ وقت وفاة « سعد بن زنگى » سنة ٦٢٣ ﻫ — على ما يبـــدو — شاباً فى حدود العشرين أو أكثر ، وبديهى أنه فى هذا السن لم يكن قد بلغ — بعـــد — مرتبة فى الشعر وشهرة تمكنـــه من معاشرة الملوك والأكابر . ولهذا لم نشاهد فى جميع الـكليات نظماً أو نثراً — كما ســبق أن قلنا — مدحاً أو رثاء ، فى شأن « ســعد بن زنگى » على وجه الإطلاق » .

هذا من ناحية ملاحظة الأســتاذ أن الشاعر لم يمدح « سعداً بن زنگي » قصداً . أما ملاحظته أنه لم يرد عنه ذكر فى الـكليات فغير طبيعى أيضاً . فإن هناك إشارات كثيرة عرض فيها الشاعر لمدح « سعد بن زنگى » فى « البوستان » . وقد أشرنا إلى بعضها . والأستاذ القزوينى نفسه قد ذكر فى موضوعه « ممدوحين شيخ سعدى » هذه المواضع ، وقد أخذناها عنه .

٢ — وعن الدليل الثانى الذى ذهب إليه ، وهو أنه مع معاصرته لصاحب المعجم ، ووجودهما فى عهد حاكم واحد ، وفى مدينة واحدة ، لم يقتبس صاحب المعجم شيئاً من شعر « سعدى » فى كتابه ، كما فعل مع غيره ممن عاصروه ، فهذا أيضاً يمكن رده بالأمور الآتية :

---

(١) يشير بهذا إلى ما كتبه فى مقدمة كتاب المعجم سنة ١٩٠٩ م .

(٢) قزوينى — سعدى نامه ص ١٠٤

(ا) نقول — بالإضافة إلى ما تقدم — إن الشاعر حتى ولو تمكنت منه ملكة الشعر فى ذلك الوقت ، ليصح النقل عنه ، والاستشهاد بأقواله . فمن الممكن أن يكون فى هذا العهد ، قد غادر شيراز فى رحلاته الطويلة ، وصاحب كتاب المعجم أتم كتابه سنة ٦٣٠ هـ [١] . والشاعر فى هذا الوقت ، كان قد بلغ الثلاثين من عمره ، ولعل له بعض الشعر ، لكنه كان غائباً عن شيراز فى رحلاته التى كان قد بدأها قبل ذلك[٢] .

نضيف إلى ذلك أن الشاعر — بحكم عدم رغبته فى صناعة قصائد المدح — فإن شعره لم يكن جارياً على الألسنة ، فى مثل ذلك السن حتى يمكن أن يستشهد به.

(ب) على أننا يمكننا أيضاً أن نستمد من الأستاذ القزوينى نفسه ، دليلا على دفع هذا الاشتباه ، من عبارة له فى نفس النص وهى العبارة التى وردت آخره .

ففى آخر العبارة الطويلة التى عرضنا لها ، يشير إلى أنه لما كانت مدة حكم « أبى بكر بن سعد » امتدت ثلاثين عاما من سنة ٦٢٨ إلى سنة ٦٥٨ هـ . فليس هناك ما ينفى أن « شمس قيس » « والشيخ سعدى » لم يدرك أحدهما الآخر ، مع معاصرتهما لعهد ملك واحد ، فإن « قيساً » أدرك أوائل عهده وأدرك الشاعر أواخره .

---

(١) انظر مقدمة كتاب المعجم .

(٢) يرى الأستاذ نفيسى أن الشاعر كان فى الشام بين سنتى ٦٢٧—٦٢٨ هـ أسيراً فى حرب الصليبيين . انظر مجلة مهر السنة الخامسة — العدد الثانى ص ١٣٩

كذلك يرى ابن الأثير أن الفرنجة استولت على بيت المقدس سنة ٦٢٥ هـ ، وأنهم فى أوائل سنة ٦٢٦ هـ ، قصدوا حصن بارين بالشام ، ونهبوا بلاده وأعماله ، وأسروا وسبوا . وممن ظفروا به طائفة من التركمان ، كانوا نازلين فى ولاية بارين ، فأخذوا الجميع ولم يسلم منهم إلا النادر . انظر حوادث سنة ٦٢٦ هـ .

ولعل سعدى كان هناك فى ذلك الوقت ، وأنه وقع أسيراً مع من وقعوا ، وهو ما يلتقى مع رأى الأستاذ نفيسى كذلك .

(حـ) فإذا أضفنا إلى ذلك أن الأستاذ القزوينى يذكر فى نفس هذه المقدمة أيضاً أن « محمداً بن قيس » أتم كتابه قبل قدومه شيراز ، وأنه افتقد مسوداته سنة ٦١٧ هـ فى قلعته « فرزين » مع أمتعته الأخرى فراراً من المغول ، وأنه عاد فكتبه فى شيراز وأتمه سنة ٦٣٠ هـ .

إذا عرفنا ذلك أمكننا أن نضيف — إلى ما سبق — رأياً جديداً من نفس الأستاذ للتدليل على خلو الكتاب من الإشارة إلى « سعدى » .

وعبارة الأستاذ :

ودر سنهٔ ٦١٧ — چنانكه گذشت — مسودات كتاب المعجم ، باسائر كتب ، وأمتعهٔ أودر پاى قلعهٔ فرزين درحمله مغول تلف شد » .

(ى) فإذا أضفنا إلى ذلك ، أن الأستاذ القزوينى قد عاد فأثبت أن « سعداً بن زنگى » توفى سنة ٦٢٣ هـ لا سنة ٦٢٨ هـ وأن « محمداً بن قيس » قد أقام السنوات الخمس الأخيرة من وفاته التى انتهت — حسب التحقيق الصحيح — سنة ٦٢٣ هـ فيكون بدء قدومه إلى شيراز ، فى حدود سنة ٦١٨ هـ . وبهذا نكون قد اقتربنا كثيراً من حياة الشاعر الأولى ، فإنه فى ذلك الوقت كان سنه قد بلغ الثامنة عشرة ، فلم يكن مشهوراً بشكل عام . ولعله خلال ذلك رحل إلى بغداد ، أو هاجر موطنه إلى رحلاته الأخرى .

ثالثاً — وأما عن المسألة الثالثة والأخيرة ، وهى جعله هذا التخاص مأخوذاً مما ذهب إليه صاحب « تاريخ گزيده » وذلك فى مقدمته « لكتاب المعجم » . ومنه ومن صاحب كتاب « مزارات شيراز » وذلك فى مقاله « ممدوحين شيخ سعدى » . فإنه من الممكن كذلك رده . معتبرين أن الرأى الأساسى — فى تلك المسألة — هو رأى صاحب « تاريخ گزيده » لا صاحب « مزارات شيراز » فإنه متأخر زمناً ، وغير متخصص كذلك .

ونرد على هذا بما يأتى :

١ — أن الأستاذ — فى ذهابه إلى هذا الرأى — لم يمدنا بالدليل على ما ذهب إليه ، سوى العبارة العامة التى قدم بها بقوله « والصواب قول صاحب تاريخ گزيده » ونحن ننقل عبارة الأستاذ ، ونقابلها بعبارة صاحب « تاريخ گزيده ».

« وصواب قول صاحب « تاريخ گزيده » است كه شيخ «سعدى» أز ملازمان «سعد بن أبى بكر بن سعد بن زنگى» (كه در ٦٢٨ هـ دوازده روز بعد أز وفات پدرش وفات يافت) بوده است وتخلص «سعدى» نيز أز نام همين شاهزاده مأخوذ است» .

والعبارة — كما نرى — تشير إلى أن « سعدى » كان من ملازمى « سعد ابن أبى بكر » ثم يستخلص من هذا أن تخلصه كان أيضاً من هذا الأمير .

على أن نص صاحب « تاريخ گزيده » فى ترجمته للشاعر يفيد أنه كان منسوباً إليه ، وليس من ملازميه . بل لعل الملازمة لم توجد إلا بعد عودته فى العهد الذى كان فيه أيضاً ملازماً لأبيه أبى بكر ، فإنه منذ عودته إلى شيراز كان يستظل برعاية حاكمها « أبى بكر » وكان — بطبيعة الحال — يتصل أيضاً بابنه «سعد» وقد انتهت هذه الصلة بينه وبين الأميرين سنة ٦٥٨ هـ عندما توفيا

ومع ذلك ، نضع عبارة صاحب « تاريخ گزيده » لنرى مبلغ دلالتها ، واقتضابها ، وبعدها عن الصواب فى كثير من مدلولاتها .

«سعدى شيرازى وهو مشرف الدين مصلح الشيرازى . وبأتابك سعد بن أبى بكر منسوبست . بشيراز در سابع عشر ذى حجه سنهٔ تسعين وستمائه درگذشت ، مردى صاحب وقت بودو نظم ونثر خوب دارد وشهرتى ناتمام . شيوهٔ غزل برأو تمام شد » .

ثم يقتبس من شعره خمسة أبيات ، وتنتهى ترجمته للشاعر على هذا النحو من الاختصار والاقتضاب .

على أننا — بعد ذلك كله — يمكننا أن نرد رأى صاحب « تاريخ گزيده » أيضاً . بعد ما انتهينا من مناقشة آراء الأستاذ القزوينى .

ولننظر للنص نفسه ، وأهم ما يشير إليه من المسائل المحدودة ، ثلاث نوا
أساسية فى حياة الشاعر يشارك فيها غيره :

١ — اسمه : مشرف الدين مصلح الشيرازى .
٢ — نسبته : وبأتابك سعد بن أبى بكر سعد بن زنگى منسو بست .
٣ — وفاته : بشيراز درسابع عشر ذى حجه سنة ستمائة وتسع درگذشت .

ولقد انتهينا سابقاً إلى الرأى الأخير — ولعله الفاصل — فى مسألتي من هذه المسائل ، وهما المسألة الأولى والأخيرة ، ورأينا أن اسمه — على الر من الخلاف الكبير حوله — قد وجدت فيه نصوص مادية ثابتة ، نقط بصحتها ، وهى التى انتهت إلى جعل اسمه على هذا الوضع « أبو عبد الله مشرّف ابن مُصلِح » .

و بصرف النظر عن أن صاحب « تاريخ گزيده » لم يذكر الكنية ، فإنه يورد الإسم مورداً صحيحاً ، فجعله « مشرف الدين » بدل « مشرف » فقط وهو كما نرى تقصير أو سهو .

وأما المسألة الثالثة ، وهى أمر وفاته ، فقد رأينا رجال التاريخ والطبقات ينعقد رأيهم على أنه فى شوال سنة ٦٩١ هـ وليس فى ذى الحجة سنة ٦٩٠ هـ كما انفرد صاحب « تاريخ گزيده » .

وقد كان من الممكن أن نتجاوز عن مناقشته فى المسألة الثانية — مسأ نسبة الشاعر — بعد ما رأينا بُعده عن إصابة الرأى فى المسألتين الأولى والثالثة لكن الأستاذ القزوينى جعلها عين الصواب ، فيما ذهب إليه فى كلامه .

ونحن نورد مناقشتنا لهذه المسألة من وجوه .

نحن لانثق كذلك فيما ذهب إليه صاحب « تاريخ گزيده » فى هذه المسأ عدم ثقتنا به ليس مبعثها مالاحظناه من انفراده برأي دون غيره .

ليس من هذا وحده ، ولكن من جانب آخر ، هو أن آراء صاحب « تاريخ گزيده » يجب أن تؤخذ بالكثير من الحيطة والحذر ، وهى ليست تهمة توجه فى توثيقه . لكن ظروف العمل الذى أقدم عليه من تلخيصه تاريخ البشر عامة فى كتابه مضافاً إليه الكثير من الأبواب الأخرى ، فضلا عن أنه نهض بأعمال علمية — بالإضافة إلى هذا — أهمها نظمه التاريخ فى كتابه « ظفر نامه » وهو منظومة بلغت خمسة وسبعين ألف بيت . كل ذلك لعله — حمله — على التسرع وعدم التريث والتدقيق .

وقد لاحظ عليه ذلك كثيرون من الباحثين عند الكلام عليه ، والحكم على أعمـــــاله .

فالأستاذ « براون » فى مقدمته لهذا الكتاب نفسه ، يرى أنه أقل مرتبة وشأنا من الكتب الثلاثة التى تؤرخ لعصر المغول ، وهى كتاب « جهانگشاى » « وجامع التواريخ » « و الوصاف » .

وعبــارته فى هذا :

« ولى أز حيث رتبه وشأن أز سه كتاب سابق الذكر پائين تر است (١)»

كما يلاحظ الأستاذ « نفيسى » أن الأمر اشتبه على صاحب « تاريخ گزيده » فى مسألة تخلص الشاعر مع قربه الزمنى منه . فبعـد أن يورد — قوله أن مسألة اسمه ونسبه وقع فيهما خلاف كثير بين الكتب التى عرضت لها — يقول عن صاحب « تاريخ گزيده » .

« حتى كسانى كه بزمانى أو نزد يك بوده أند ، مانند حمد الله مستوفى ، در تاريخ گزيده ، درين باب اشتباه كرده أند » (٢) .

---

(١) المقدمة على تاريخ گزيدة ص د . سلسلة جب .

(٢) نفيسى — مجلة مهر — السنة الخامسة — العدد الأول — ص ٤٦

وترجمتها « بل الناس الذين كانوا قريباً من عصره ، مثل حمد الله المستوفى فى « تاريخ گزيده » اشتبه الأمر عليهم فى هذا الباب » .

على أننا نختتم هـذه المناقشة بالرأى الذى قال به الأستاذ القزوينى نفسه عن صاحب « تاريخ گزيده » . فإنه قد رأى فيه أن بعض آرائه ترمى « بالبطلان والفساد » وأنها وقع فيها الكثيرون ممن جاءوا بعد صاحبها وآخر الذين وقعوا فيها الأستاذ القزوينى نفسه .

وملخص المسألة أن الأستاذ ، نقل عنه — فى مقدمة « كتاب المعجم » التى عملها سنة ١٩٠٩ هـ — تاريخ وفاة «سعد بن زنگى » . وإنها كانت سنة ٦٢٨ هـ بينما التحقيق العلمى الذى قام به الأستاذ نفسه فيما بعد [1] بالإضـافة إلى آراء المؤرخين الآخرين أثبت أنها كانت سنة ٦٢٣ هـ .

فعاد الأستاذالقزوينى فى مقاله « ممدوحين شيخ سعدى » — و بين البحثين ما يزيد عن ثلاثين عاما — يناقش قول صاحب « تاريخ گزيده » ويناقضه بما ظهر له من آراء وأدلة جديدة استمدها من حوادث التاريخ ، ومن المقارنات بينها ويرميها بالبطلان والفساد .

ونحن نقتبس من عبارة الأستاذ ما يشير إلى ذلك :

« بنا بر إين ، پس قول صاحب « تاريخ گزيده » . وبتبع أو «لب التواريخ » « وجهان آرا »كه وفات « سعد بن زنگى » رادر ششصد وبيست وهشت نگاشته اند (وبانيز سابقاً در مقدمهٔ المعجم فى معايير أشعار العجم بمتابعت إيشان همين قول را نقل كرده بوديم) بدون شك سهو واضح است . ودليل قطعى ديگر ، بر بطلان قول « تاريخ گزيده » آنست . . . . » .

ثم يعود بعد قليل فيقول :

« و باز دليل قطعى ديگر برفساد قول صاحب تاريخ گزيده»

---

(١) فى مقاله — ممدوحين شيخ سعدى .

ويختم المناقشة له بقوله وقد أعاد وصفه بالبطلان وذلك في عبـارته :

« بارى دربطلان قول صاحب گزيده وبن تبع أو ، أصلا وأبداً ، جاى أدنى شك وشبهة نيست (١) » .

وهكذا ننتهي من هذه المناقشات بحكم « الأستاذ القزويني » نفسه على رأى صاحب « تاريخ گزيده » الذى جعل رأيه — فى مسألة تخلص « سعدى » — هو عين الصواب . ويبدو من هذا مدى ما نحتاجه من التحفظ فى الأخذ برأى هذا المؤرخ .

رأى الأستاذ اقبال فى هذه المسألة ومناقشته

بقيت هناك آراء أضافها الأستاذ إقبال إلى مجموع ما قال به الأستاذ القزويني للتدليل على صحة نسبة الشاعر إلى هذا الأمير .

ونحن نلخص هذه الآراء ، ونشير إليها ، ثم نناقشها .

أولاً — يقول إن شهرة سعدى ، بدأت فى أيام « أبى بكر بن سعد » وليست فى أيام أبيه ، ويؤخذ ذلك من عبارة للشاعر فى قوله شعرا .

كه سعدى كه گوى بلاغت ربود در أيام ابو بكر بن سعد بود (٢)

ونص عبارته بعد هذا البيت :

«سيفهماند كه شهرت سعدى در عهد « أتابك بو بكر سعد » شروع شده‌بود نه در عهد پدرش سعد » .

ومعناها يفهم أن شهرة سعدى بدأت فى عهد« أبى بكر » لا فى عهد أبيه .

والواقع أن البيت الذى أشار إليه الأستاذ كحجة له . يفيد أن الشهرة بلغت أوجها ، وليست بادئة فى الشروع ، فانه يصرح فيه أنه قد حاز قصب السبق فى البلاغة فى عهد « أبى بكر »، وذلك سنة إنشائه« البوستان » عام٦٥٥ ﻫ . ولا بد أن يكون الشاعر طوى سنين كثيرة حتى انقادت له أساليب البلاغة وملك زمامها .

---

(١) سعدى نامه — قزويني — ص ١٠٣

(٢) سعدى نامه — اقبال — ص ٢٦

ويؤيد ذلك أن الشاعر يصف نفسه فى مكان آخر وصفاً يفهم أنه بلغ أوج الشهرة فى البلاغة فى عهد « أبى بكر» نفسه، وذلك سنة إنشاء « الگلستان » بعد إتمام « البوستان » بعام واحد .

إذ يقول فى مقدمة «الگلستان» الذى أتمه سنة ٦٥٦ هـ . عبارته الآتية :

« ذكر جميل سعدى كه در أفواه عوام أفتاده است ، وصيط سخنش كه در بسيط زمين رفته . وقصب الجيب حديثش كه همچون سعد شكر ميخورند » .

إلى أن يقول :

« بلكه خداوند جهان ، وقطب دائرهٔ زمان ، وقائم مقام سليمان . . . . أبو بكر بن سعد .

يتضح من هذا أن شهرة الشاعر كانت قدبلغت أوجها فى عهد « أبى بكر » وليست مبتدئة فى طريقها .

فكيف تكون شهرة « سعدى » كانت شارعة فى الظهور سنة ٦٥٥ هـ . كما ذهب إلى ذلك الأستاذ إقبال . ؟؟

على أننا نلحظ بالإضافة إلى ذلك من كلمة « سعدى » الواردة فى بيته السابق فى « البوستان ». ومن عبارته « ذكر جميل سعدى »الواردة فى « الگلستان ». أن الشاعر كان مشهوراً بهذه التسمية ، وأن هذه الشهرة تداولتها الألسنة ، وأن صيط كلامه منتشر فى الآفاق .

فلمن تعود هذه النسبة « وسعد بن زنگى »أسبق فى الوجودمن « أبى بكر » نفسه وبالتالى من ابنه « سعد » ؟ ؟ .

ثانياً — الرأى الثانى الذى يذهب إليه الأستاذ إقبال . أن سعدى فى مقدمته للگلستان . بعد أن يمتدح أبا بكر . يبجل الأمير « سعداً بن أبى بكر » ويقدم له « الگلستان » فى عبارته :

« بعد أز ذكر أتابك نام إين شاهزادهرا تبجيل تمام ميبرد ، وگلستان را در حقيقت بأو إهداء مينمايد وميگويد » .

ثم يورد أبياتاً فيها هذا البيت :

على الخصوص كه ديباجهٔ هما يونش بنام سعد أبو بكر سعد بن زنكى است

وردُّنا على ذلك أن تبجيله «سعداً الأصغر» ، وتقديمه « الگلستان » إليه ، والإشارة إليه أيضاً فى بعض غزلياته ، بما يفيد التبجيل كذلك ، كل هذا لا يفيد — مطلقاً — أنه اتخذ تخلصه من هذا الأمير .

فان الشاعر كما قدم « البوستان » لأبيه قبل هذا بعام واحد ، رأى أن يقدم « الگلستان » — وفيه ما فيه من القصص السهلة اللطيفة الممتعة إلى ابنه الأمير .

و إيراد الإشارة إلى هذا الأمير ، فى بعض الغزليات ، لا يقطع بالتخلص إليه. فجانب من غزلياته قالها بعد عودته إلى شيراز و بدء التقائه بالأمير وأبيه .

ثالثاً — على أن الأستاذ « إقبال » لا يستبعد أن يتخلص بأمير فى عهد أبيه ، فهذا — كما يقول — موجود فى الأدب الفارسى ، ومثل ذلك تخلص الشاعر « قاآنى » من « قاآن مرزا [1] » .

وهذا — أيضاً — صحيح لو أن « أبا بكر » كان يملك أن يطلب من الشاعر اتخاذ تخلصه من ابنه « سعد » فان هذا لم يولد إلا فى حدود سنة ٦٣٠ هـ ، فى الوقت الذى بلغ فيه الشاعر الثلاثين ، وفى الوقت الذى كان فيه خارج شيراز ، وظل بعيداً عنها حتى عام ٦٥٤ هـ ، أو ما حول ذلك تقريباً قبل تقديم « البوستان » .

وهذا — أيضاً — صحيح لو لم يكن هناك تلك المشابهة ، والجمع بين الجد والحفيد باسم واحد .

فالمشكلة من أساسها لا تزال موجودة ، هل لم يكن الشاعر قد اتخذ له تخلصاً قبل أن يوحى إليه أبو بكر باتخاذ اسم ابنه تخلصاً له ؟ ؟ ؟

---

(١) إقبال — سعدى نامه ص ٢٧

أو أنه لم يقل شعراً بالمرة ؟ ؟ ؟ ؟ وهذا يعيد المشكلة جذعة من جديد .

خلاصة المسألة :

أما وقد انتهينا من عرض هذا الموضوع ، على الوضع الذى افترضه القدماء والمحدثون ، فإنا — كما تبين من مناقشاتنا السابقة — نميل إلى الأخذ بالرأى القائل بأن الشاعر استمد تخلصه من « سعد بن زنگى » . وليس من حفيده « سعد بن أبى بكر » .

ولن يأتى ذلك مما لاحظناه من كثرة الآراء التى تذهب إلى هذا قديماً ، ولا مما ذهب إليه من قالوا بذلك أيضاً من المحدثين ، ودللوا على صحة مذهبهم ، لكن من نواح أخرى تدعم هذا الرأى القائل بأن « سعدى » اتخذ تخلصه من « سعد بن زنگى » .

ويجب أن تعالج المسألة من ناحية جديدة ، غير تلك التى ذهب إليها الذين تولوا التدليل على آرائهم .

فالمعروف أن الذين أدلوا برأيهم — مؤيدين مذهبهم — كانوا قسمين . وكل قسم منهم تبع رأياً قديماً أخذ يبرهن عليه .

لكن يمكن أن تعالج المسألة من جانب آخر ، هو الجانب الطبيعى لها فيما أعتقد .

ونحن أولاً — وقبل كل شىء — نضع أنفسنا أمام هذا السؤال ما هو التخلص فى الأدب الفارسى . . . ؟ ؟ ؟

المعروف أن التخلص نسبة الشاعر إلى شخص ، أو موضع ، أو حرفة ، أو غيرها والشاعر كما رأينا يستمد تخلصه من شخص .

ويجب أن يكون بحث هذه المسألة على ضوء الاعتبارات الآتية : —

أولا — متى ظهرت الحاسة الشعرية عند الشاعر ، حتى يمكن أن يفكر في اختيار تخلص له ، أو يمكن أن يسبغ عليه هذا التخلص . . ؟ ؟

وما هي الألوان الشعرية ، التي يمكن أن يتغنى بها الشاعر ، في عهد الشباب المبكر ؟ ؟ ؟ وهل ثبت فيها وجود تخلص له ؟ ؟

ثانياً — في أي وقت ترك الشاعر شيراز ؟ ؟ وفي أي وقت عاد إليها ؟ ؟ وهل في الوقت الذي تركها فيه كان « سعد بن أبي بكر » قُدِّر له الوجود ؟ ؟ ؟

ثالثا — ماذا كان الشاعر ينسب نفسه في كلامه قبل ظهور « سعد بن أبي بكر » أو في عهد نشأته ، وعهد طوافه الذي امتد حتى سنة ٦٥٤ هـ تقريبا حين عاد إلى شيراز ؟ ؟ ؟

ولنأخذ في علاج الرد على هذه المسائل بما يأتي :

أولاً — أما عن المسألة الأولى . وهي في أي وقت ظهرت حاسته الشعرية . ؟ يرى البعض أنه بكر في قرض الشعر ، حتى ليقال إنه بدأ ينظمه في عهد الأتابك « سعد بن زنگی » (١) . ويرى الأستاذ « هنری ماسیه (٢) » كما رأى من قبله « روس (٣) » أن الشاعر يشير في الأبيات الآتية إلى « سعد بن زنگی » . وهذه الأبيات قد ذكرناها سابقاً ، والتي مطلعها :

بدرم بندهٔ قديم تو . . . الخ

وقد دللنا على صحة إسناد هذه الأبيات للشاعر ، وأن مرجع الضمائر فيها ، كانت تدل عليه ، وعلى أبيه ، وعلى حاكم الولاية « سعد بن زنگی » .

كذلك تشير دائرة المعارف الإسلامية إلى أن غزلياته القديمة — وهي أول

---

(١) ألطاف حسين — حيات سعدى . ص ١

(٢) نقل رأيه الأستاذ الگرگانى فى مقدمته على الگلستان ص . لا .

(٣) Rcss : Sadi's Gulistan, p. 3.

الألوان الشعرية التى تغنى بهـا — تبدو أنهـا من عمل الشباب فى قولها

On the other hand the Ghazaliyat — i — Kadim appear to be a work of his yoth.

وهذا الرأى صحيح تؤيده كذلك طبيعة الغزليـات نفسها ، وطبيعة حياته الشخصية .

فهو يشير إلى أنه نشىء نشأة دينية أول الأمر ، لـكنه انحرف إلى قرض الشعر فى العشق الصوفى . فى قوله .

«همه قبيلهٔ من معلمان دين بودند   مرا معلم عشق ترا شاعرى آموخت»

إذن ، تبينا من هـذا ، أن الشاعر كان له شعر فى الشباب ، و إثبات هذا كاف فى التدليل على صحة نسبة التخلص لـ « سعد بن زنگى » لو ثبت أن هذا الشعر كان يرد فيه تخلص باسم « سعد » — كما هو موجود فى الغزليـات القديمة ، التى نظمها الشاعر فى طور الشباب — ولـكنا نمضى فى بحث ما افترضناه سابقا ، حتى يتأيد الأمر من جوانب متعددة .

ثانيا — وأما عن المسألة الثانية . وهى فى أى وقت ترك شيراز ؟ وفى أى وقت عاد إليها ؟ .

فترى دائرة المعارف البريطانية [1] — ويأخذ برأيهـا أيضاً الأستاذ الـكرگانى ، بعد أن يترجم عبـارتها فى هذا الموضوع — أن الشـاعر وقت

---

(١) ونص عبارة الدائرة :

And he returned to Isfahan just at the time of the inroads of the Mongols. When the Atabig Sa'd (In whose honour sa'di took his pen-name) had been desposed by the victorious Khwarizm ruler of Chiyass-uddin (1226) distressed by misfortune of his patron and disgusted with the miserable condition of Persia. Sa'di quitted Shiras and entered upon the second period of his life — that of his wanderings (1226-1256).

وترجمة هذه العبارة فى مقدمته على الـگلستان ص . ى .

فتنة المغول العامة ، وفى الوقت الذى هزم فيه « سعد بن زنگى » أمام « غياث الدين الخــوارزم شاهى » سنة ٦٢٣ هـ . تألم الشاعر من سوء حظ ولى نعمته ، وترك شيراز التى تعرضت للتدمير والخراب ، والتى اغتم لهـا كثيراً ، وابتدأ — إذ ذاك — وقت رحيله سنة ٦٢٣ هـ وانتهى سنة ٦٥٣هـ . «١٢٢٦—١٢٥٦م»

والشاعر نفسه يكاد يشير إلى ذلك فى مقــدمة « الـگلستان » ، فى قوله وقد طلب الاغتراب ، حيث شــاهد فتنة المغول تحيط بالعالم الإسلامى ، يقول مشيراً إلى وقت الهجرة ، حين صار العالم مثل شعر الزنجى .

برون رفتم أز تنگ تركان كه ديدم	جهان درهم أفتاده چون سوى زنگى

ويشير إلى رجوعه بقوله .

چو باز آمدم كشور آسوده ديــــدم	پلنگان رها كرده خـــوى پلنگى
چنان شد در أيام سلطان عـــادل	أتابك أبو بكر بن ســـعد زنـــگى

وبهذا يشير الشاعر إلى انفعاله مما أصاب العالم الإسلامى ، من حوادث المغول ، وتأثره لمـا أصاب موطنه فارس ، فطلب الرحيل عنه .

ويبدو أن ذلك كان حوالى سنة ٦٢٣ هـ ، وفى هذه السنة ، وتلك السن التى بلغها الشاعر — وهى ثلاثة وعشرون عاماً ، كان الأمير « ســعد بن أبى بكر » لم يكن قد ظهر فى الحياة ، فإنا قد رأينـا ســنه حين وفاته لم تكن تتجاوز الثلاثين ، وأنه توفى سنة ٦٥٨ هـ فمولده حوالى سنة ٦٢٨ هـ . أى أنه ولد والشاعر بعيد عن شيراز .

هذا من جانب . ومن جانب آخر ، يرى الأستاذ « نفيسى » أن الشاعر أسر فى الحرب الصـــليبية التى وقعت ما بين سنة ٦٢٧ — ٦٢٨ هـ وعبارته .

« پس بگانه جنگى كه ممكن است سعدى در آن حاضر بوده شد . جنگ ششم است كه أز ٦٢٧ — ٦٢٨ هـ طول كشيده[١] » .

---

(١) نفيسى . مجلة مهر . العدد الثانى — السنة الخامسة ص ١٣٩

فهو فى هـذه الحرب كان خارج شيراز ، بل خارج فارس كلها ، وأنه كان أسيراً فيها ، وقبل ذلك كان قد أمضى مدة بالشام ، وعلى هذا لا بد أن يكون خروجه من فارس قبل هذا التاريخ بزمن لا يقل عن سنة ٦٢٣هـ . وهى السنة التى قدرنا خروجه فيها من شيراز ، وذهب إلى هـذا الرأى بعض من أشرنا إليهم . على أنه لم يعد إلى شيراز إلا فى حـدود سنة ٦٥٣ هـ أو سنة ٦٥٤ هـ على أبعد تقدير ، فوجد فارس تحت حكومة « أبى بكر بن سعد » .

ولم يثبت أنه اتصل « بأبى بكر » أثناء هذا الطواف الطويل ، فلما عاد إلى شيراز لم يخرج منها إلا فى فترات قصيرة للحج ثم يعود ، وهذه كانت بعد أن استقر بشيراز مدة لا تقل عن خمس سنوات ، ولعلها كانت بعد وفاة « أبى بكر وابنه » فى سنة ٦٥٨ هـ.

ثالثاً — وهنا ننتقل إلى المسألة الأخيرة وهى ، ماذا كان يسمى نفسه فى كلامه قبل مولد « سعد بن أبى بكر » أو فى عهد نشأته ، وفى أثناء رحلاته ؟ .

وفى هذه المسألة نشير إلى ناحيتين :

١ — وقائع حدثت للشاعر وتحدث فيها عن نفسه وذكر نسبته وتخلصه « بسعدى » .

٢ — أشعار ثبت أنه قالها فى تلك المـدة ، وفى مدة مبكرة قبل ظهور « سـعد بن أبى بكر » أو قبل عـلو شأنه . ومعظمها قطع من كتابيه ، وكثير من غزلياته .

أما عن الناحية الأولى . فالشاعر يحدثنا كثيراً فى مجرى الحديث بينه وبين غيره أثناء رحلاته ، أنه معروف للناس باسم « سـعدى » أى بتخلصه ، وليس باسمه الشخصى ، وأن شهرته بهذا الاسم بدأت مبكرة .

وفى قطع من كتابيه « الـگلستان والبوستان » — سواء أ كانت من القطع الموضوعة أو الواقعية — يتحدث عن نفسه أنه كان معروفا بين النـاس باسم « سعدى » وفى الجهات المختلفة التى رحل إليها يشتهر بهذا الاسم أيضاً ، و يذكر أنه كان يعرف أثناء رحلاته باسم « سعدى » .

ففى التركستان . فى مدينة « كاشغر » حين دخل مسجدها وقد وجد صبياً يقرأ مقدمة الزمخشرى فى النحو ، ويكرر المثال المشهور ضرب زيد عمراً . يسأل الشاعر الفتى — فى سخرية — يابنى اصطلح الخوارزم مشاهيون والخطا، ولا تزال الخصومة بين زيد وعمرو[1] وتمضى المحادثة بين الشاعر والفتى . فيسأل هـذا . من أين الشيخ ؟ فيجيبه الشاعر : من « خاك شيراز » . و يعود الفتى يساءل : ألا تذكر شيئاً عن« سعدى »؟؟

وفى جزيرة « كيش » بالخليج الفارسى ، يتحدث الشاعر أنه نظر هناك تاجراً ميسور الحال ، أضافه ذات ليلة ، وأخذ يحـدثه عن شئونه ورغباته فى الجهات التى يرحل إليها طلباً للتجارة ، حتى إذا عـــد منها كثيراً . قال له أخيراً : « ياسعدى »[2] إنى أريد الذهاب إلى الصين .

هذا من بعض قصصه فى « الـگلستان » .

وهناك ضمن قصص كتابه الآخر « البوسـتان » قصة تدور حوادثها حوله شخصياً ، ويرد فيها أنه كان معروفاً باسم « سعدى » بينما كان لا يزال شاباً ، وهذه القصة ترد فى الباب الرابع « التواضع » من أبواب ذلك الـكتاب مطلعها :

« فقيهى كهن جامـــه تنگدست   در إيوان قاضى بصف برنشست »

ولعل حوادث هـذه القصة تقع فى إحدى مدن الشام ، وملخصها أنه قدم

(١) كليات فروغى — گلستان ص ١٦٦
(٢) كليات فروغى — گلستان ص ١٤٢

ذات مرة على مجلس جماعة من الفقهاء ، وقد عرضت لهم مشكلة لم يستطيعوا حلها . فدخل عليهم ، وكان منظره على حال رقيقة فامتعضوا منه ، وطلبوا إبعاده عن المجلس ، ولما رأى القوم يتصاولون ولا يستطيعون إصابة الحقيقة ، تقدم لهم بالفتوى فيها ، على غيرما كانوا يذهبون .

وانتهى الأمر بتعجبهم من أمرهم وأمره ، وتمضى القصة فتقول إنه بعد ذلك قد ترك المجلس ومضى .

وفى هذه القطعة بيت يساعدنا مدلوله على التأكد من أن الشاعر كان معروفاً باسم «سعدى» — منذ كان شاباً — وذلك فى هذا البيت :

«و زآنجا جوان روى همت بتافت برون رفت وبازش نشان كس نيافت»

ومعناه « ولى الشباب من هناك بوجهه ، وذهب ولم يعثر إنسان على أثر له ».

وتختتم القصة فتقول إنهم بدءوا يبحثون عنه ، ويذكرون أوصافه ، إلى أن يلتقى بالباحثين أحد الذين يعرفون « سعدى » فيقول لهم هذا البيت .

« يكى گفت أزين نوع شيرين نفس در إين شهرسعدى شناسيم وبس »(١)

ومعناه « فقال واحد ، إنى أعرف فى هذه المدينة أن « سعدى » وحده هو المعروف بتلك الأوصاف » .

والرواة يذكرون بجانب ذلك بعض اللطائف التى وقعت له خلال رحلاته ومنها تلك الفكاهة اللطيفة التى يروونها فيما حدث بينه و بين شاعر آخر من مشاهير الشعراء هو « همام التبريزى »(٢) .

ذلك أن سعدى ذهب ذات مرة فى سياحاته إلى تبريز ، ورغب أن يدخل حماماً ، فشاهده بالحمام الشاعر « همام التبريزى » . وكان « سعدى » على حال لا تدعو « هماما التبريزى » إلى تقديره واحترامه .

---

(١) كليات فروغى — بوستان — الباب الرابع — التواضع ص ٣١٦ .

(٢) انظر حياة الشاعر فى كتاب آتشكده — والقصة فى دائرة المعارف الاسلامية .

وتدور محادثة بين الشاعر « همام » والحمامى على مسمع من الشاعر «سعدى» يسأل صاحب الحمام . من يكون ذلك الرجل مشيرا إلى سعدى . . . ؟ ؟ ؟ يجيب صاحب الحمام . على مسمع من « سعـدى » . إنه شيرازى . فيقول « همام » يالله ! أرى الشيرازيين فى تبريز أكثر من الـكلاب .!! !!

فسرعان ما يرد عليه « سعدى » بهذه العبارة اللاذعة .

نعم !وهذا بخلاف ما عندنا ،فان التبريزيين فى شيراز أقل من الـكلاب !!!

وتمضى الرواية فتقول بأن الشاعر « هماما » أخذ يسأل ذلك الشخص الذى أدرك أنه من شيراز .

ماذا تعرف من أمر «سعدى» ؟ . فيجيبه بأبيـات من شعره الغزلى الذى كان مشهوراً به . وتنتهي القصة بأن يتعارفا . و يعتذر له « همام» .

أما عن غزلياته — و بخاصة القديمة منها — فإنا نراه يتخلص فيها باسم سعدى ، ومن المؤرخين من يقول إن هذه الغزليات اشتهر بها « سعدى » قبل غيرها من ألوان الشعر الأخرى [(١)] . وأنها تمثل طور الشباب [(٢)] فى نظر البعض .

كذلك يظهر من أسلوب بعض غزلياته وروحها ، أنهـا تشير إلى حوادث معينة . فيذكر الأستاذ « على أصغر حكمت » أن هناك غزلية لعله أنشدها فى أسره وفيها يرد تخلصه كذلك باسم « سعدى » يقول فيها :

«إى موئس روزگارى سعدى رفتى ونرفتى أز ضميرم
إى باد بهـار عنبر ين بوى در پاى لطافت توسـيرم
چون بگذرى بخاك شـيراز گو من بفلان أسـيرم» [(٣)]

فهو يذكر فى هذه الغزلية تخلصه « بسعدى » فى البيت الأول ، و بأسره وحنينه إلى موطنه شيراز فى البيت الثالث .

---

(١) حبيب السير ص ١٣١ . (٢) دائرة المعارف الاسلامية .
(٣) الأستاذ على أصغر حكمت — سعدى نامه ص ٤٦ وكليات فروغى ص٦١٧ .

وهناك كثير من غزلياته العربية ، تشف أيضاً عن مدى حنينه إلى موطنه ، ولعلها قيلت فى بيئة عربية ، وخلال بعده عن موطنه أيضاً ، وقبل عودته إلى شيراز . يقول فى إحداها ، ويذكر تخلصه ، وشوقه إلى أهله :

ألا إنما السعدى مشتاق أهله تشوق طير لم يطعه جناح [1]

وفى أخرى ، وقد شكى بعده وحنينه كذلك :

وها نفس السعدى أولى تحية تبلغكم ريح الصبا حيث حلت [2]

فإذا انتهينا إلى وقت عودته إلى شيراز من رحلاته الطويلة . فانه يذكر حنينه وولهه بها فى قطعة فارسية يرد تخلصه فى نفس المطلع :

«سعدى إينك بقدم رفت وبسر باز آمد مفتى ملت أصحاب نظر باز آمد» [3]

ويظهر أنه كان بالشام كذلك فى هذا الوقت فعاد إلى شيراز ؛ إذ يشير إلى ذلك فى قوله من هذه القطعة أيضاً :

«ميلش أز شام بشيراز بخسرو مانست كه بأنديشه شيرين بشكر باز آمد»

وهكذا عاد سعدى إلى موطنه شيراز عودته التى اطمأن إليها واستقر فيها ، وقد طاف أركان العالم حتى صارت كلها تتحدث به ، كما يشير إلى ذلك فى قوله متخلصاً أيضاً باسم سعدى فى بيته الآتي :

«هفت كشور نمى كنند إمروز بى مقالات سعدى أنجمنى» [4]

ألا يدل كل هـذا على أن الشاعر قرض الشعر فى وقت مبكر ، وأنه عرف باسم « سعدى » فى هذه الألوان الشعرية ، التى قرضها فى صدر حياته ، وفى أثناء رحلاته قبل ظهور «سعد بن أبى بكر»؟ ؟ ؟ ؟

---

(١) كليات فروغى ص ٤١٦ (٢) نفس المصدر ص ٤١٩

(٣) كليات فروغى ص ٤٣٨ (٤) اقبال — سعدى نامه ص ١٤

الفصل الخامس

رحلات الشاعر

لو أن الأمر يمضى فى هذه الرحلات حسب خطة موضوعة ، لغرض جغرافى أو تاريخي ، أو كان الشاعر يرسم خطاً لتنقلاته ، لوضح الأمر فى ذلك ، ولاستطعنا أن نتتبع خطواته ، فنعرف الجهات التى رحل إليها ، وأقام فيها ، وانتقل منها .

ولم يعن الشاعر — من ناحيته — أن يوضح الغرض من رحلاته فيما كتب ، وليس بين أيدينا فى كلامه ما يفصل فى هذا الخلاف ، كذلك لم يكن الشاعر ذا ثراء ينفق على نفسه ، وعلى رحلاته وهجراته الطويلة ، فيأمن المكاره التى يتعرض لها .

ومهما يكن من أمر الخلاف بين النقاد والمؤرخين ، من أن هذه الرحلات كلها أو بعضها لا صحة لها فى الواقع ، لما يحيط ببعضها من مشاق ومتاعب ، ولما كانت تتعرض فيه حياته الشخصية لكثير من الأخطار التى أخذ يصورها فى بعض رحلاته . فالواقع أن بعض هذه الرحلات وقع فعلا ، وتنقل فيها فى أماكن حقيقية ، وجرت له بعض الحوادث ؛ ولكن — مما يؤسف له — أنه لم يذكر بجانب ذلك واحداً من أولئك الأشخاص التاريخيين الذين عاصروه ، وكانت لهم شهرة فى المواطن التى رحل إليها ، من ملوك أو أمراء أو شعراء أو غيرهم .

على أننا نلحظ شيئاً هاما فى داخل كل قصة يجعل مسرحها بلداً من البلاد ، فالشاعر فى هذه القصص عامة ينتهى منها إلى غرض من الأغراض يتصل بموضوع الباب الذى أقيمت فيه القصة ، وهذا ما يجعلنا نحتاط بين اعتبار الرحلة واقعية

حدثت فى الواقع ونفس الأمر ، أو أن هناك أمراً ألهم الشاعر لوضع قصة عنها فكان الانتقال إليها .

ودراستنا للأسباب التى يمكن أن تحمل هـذا الشاعر ليقوم بتلك الرحلات يستلزم أن نلقى نظرة على أحـوال عصره وظروفه الشخصية ، فلعل فيها بعض ما يحمل الشاعر على أن يقوم بتلك الرحلات . فلقد تفتحت عيناه على لون آخر من ألوان الحيـاة حين بعث به إلى بغـداد ، ليستكمل دراسته . فلعل الإقامة فى تلك المدينة مدة تحصيله هونت عليه ترك موطنه الأول ، كما حببت إليه الاغتراب فيما بعد ، ففى كل بيئة يعيش فيها يمكن أن يكسب منها كسباً جـديداً ، من التعرف على أحوال الناس ، ودراسة شئونهم وما يتصل بهم .

وتصوير حياة الشاعر فيما بعد — وكما نعرف من انتاجه — تشهد أنه كان رقيق الطبع ، مرهف الحس ، وعلى جانب كبير من نفاذ البصيرة . فما تكاد تحيط به الأحداث حتى تؤثر فى نفسه تأثيراً عميقاً ، فيهرب ليجد المنـأى من هول تلك الأحداث .

فهل هناك من الأحـداث العامة التى حدثت إبان نشأته ، والتى يمكن أن تكون ذات أثر فعال فى توجيهه إلى هذه الناحية ؟ ؟ ؟ نعم .

نحن نعلم أنه قد ألمت بفارس وشيراز نفسها أحداث وخطوب شاهدها من قرب أو سمع عنهـا . تلك هى الأحـداث التى وقعت بين ولى نعمته « سـعد ابن زنگى » وبين أعقاب الخوارزم مشاهيين ، وهى الحرب التى ظلت تتردد فى فارس حتى سنة ٦٢٣ هـ ، وهى السنة التى توفى فيها « سعد بن زنگي » .

ولعل الشاعر نفسه يفصح عن هذه الحال ببعض أبيات له يرمى فيها إلى أن الإنسان لا ينبغي له أن يتعلق خاطره بمن أحب ولا فيما يقيم ، فإن الدنيا واسعة والناس كثيرون ، وذلك فى قوله :

«بهيج يار بده خاطر وبهيج ديار كه بر وبحر فراخست وآدمى بسيار»[1]

كذلك نلاحظ فى هذا الوقت أن العالم الإسلامى — فى الجانب الشرقى منه — قد تعرض إلى هجمات مريرة شنها عليه المغول ، وأخذت جموعهم تكتسح ما أمامها فى سيل جارف ، وتضغط بأساليبها المختلفة — إن كانت عسكرية أو سياسية — على الدول التى واجهتها ، والشاعر نفسة يشير إلى هـذه الأحداث التى تحدد أول هجرته من موطنه فى مقدمة « الـگلستان »[2].

« ندانى كه من در أقاليم غـربت چرا روز گارى بكردم در نگى
برون رفتم أزتنگ تركان كه ديدم جهان درهم أفتاده چون موى زنگى »

وقد رأينا سابقاً دائرة المعارف البريطانيـة ترى أن الشـاعر بدأ رحلاته سنة ٦٢٣ هـ ، وليس لدينا مايرد هذا الرأى،فإن الشاعر كان إذ ذاك فى سن تمكنه من أن يحتمل مشاق هذه الرحـلات . كذلك رأينا الظروف التى أحاطت به مما لعله يحمله على هذه الهجرات .

فإذا افترضنا — من ناحية أخرى — أنه أمضى ثلاثين عاماً فى رحلاته الأولى التى غادر فيها شيراز ، وانقطع عنهـا تلك المدة — على فرض صحة هذا الرأى — فإن عودته إلى شيراز تكون فى حدود سنة ٦٥٣ هـ .

وهذا فرض محتمل فإنه عاد فعلا إلى شـيراز بين سنتى ٦٥٣ هـ و ٦٥٤ هـ وأخذ يرتب قطعه التى نظمها خلال تجواله ليضمنها كتابه « البوسـتان » الذى قدم إلى « أبى بكر » فى عام ٦٥٥ هـ .

والشاعر يقول مشيرا إلى عودته التى كانت فى عهد الأتابك أبى بكر وذلك فى الأبيات الآتية :

«چو باز آمدم كشور آسوده ديدم پلنگان رها كرده خوى پلنگى
چنين شد در أيام سلطان عادل أتابك أبو بكر بن سـعد زنگى»

---

(١) كليات فروغى ص ٤٤٤ . (٢) انظر مقدمة الـگلستان — طبعة platts

وهـذان البيتان يردان فى القطعة التى أشرنا إليها سابقاً . فهو فيها يشير إلى وقت رحيله ، وذلك حين اضطرب العـالم الإسلامى ، حتى صار كشعر الزنجى . ثم يحدد وقت عودته حين تحررت النمور من طباعها التى نشأت عليها ، وصارت الحياة سعيدة هانئة فى عهد السلطان العادل الأتابك « أبى بكر بن سعد » ولعـل ذلك كان فى حدود سنة ٦٥٣ ﻫ كما سبق أن أوضحنا .

ثم فى سنة ٦٥٥ ﻫ يقدم « البوستان » إليه بقوله :

«زششصد فزون بود پنجاه وپنج   كه پر در شد إين نام بر دار گنج»

والظاهر أن الشـاعر أمضى فى شيراز — حين عاد إليهـا وهى تحت حكم أبى بكر — مدة ليست بالقصيرة لا تقل عن عشر سنوات ، فإذا بفارس تتقلب فيها الأحداث من جديد ، وتضطرب فيها الأمور فى غير استقرار .

وقد شارك الشـاعر — فى هذا الوقت — فى الحيـاة العامة ، والتقى بكثير من الحـكام ومدحهم أو رثاهم . لـكن تقلب الأمور ، وعدم اسـتقرارها ، وسفك الدماء بين أبناء البيت الواحد ، وأخيراً انتقال الملك إلى جماعة ليسوا من الأتابكة ، بل ليسوا من المسلمين فى شىء ، وإقامة حاكم جديد على فارس لم يكن من دين أبنائها ، وهو الأمير « أنكيانو » . كل هذا لم يرض حساسية الشاعر فهاجر هجرات عديدة إلى الحجاز ، يؤدى شعائر الحج ، ويخفف من هذه الأثقـال التى جثمت على صـدره فى تطور تلك الأحداث المضطربة ، والتى لم تكن مألوفة أو متوقعة . فرحل من شيراز حوالى سنة ٦٦٣ ﻫ فى رحلة أخرى من بين رحلاته ولعله ركب الطريق إلى بغـداد فالحجاز ، فتغنى بهذه الغزليـة التى يشـكو فيها أن قلبه سئم مصاحبة شيراز ، حين كان يسأل عن أمرها ، وذلك فى قوله :

«دلم أز صحبت شيراز بكلى بگرفت   وقت آنست كه پرسى خبر أز بغدادم»

هذه هى السنوات التى يمكن أن نعرف منها بالتقريب متى خرج من شيراز ؟ ومتى عاد إليها ؟ ومتى خرج منها ثانية ؟ .

لكنا مع ذلك لم نعرض لخط سيره فى مدى الثلاثين عاماً التى افترضنا أنه خرج فيها راحلا . إلى أين ذهب أولا ؟ ولماذا تخير وجهة دون أخرى ؟ وما البلاد التى يمكن أن تربطها رحلة واحدة ؟ وهل كانت رحلاته على دفعات مختلفة ؟ .

كل هذه أسئلة تتردد على ألسنتنا ، ولكن حلها يصعب علينا . وكل ما يمكن أن نذهب إليه إنما هو مجرد فروض لا تسعفنا أقوال الشاعر على تأييدها .

هذا بالإضافة إلى أنه — كما أشرنا سابقاً — هناك أغراض يرمى إليها الشاعر وراء كل رحلة وكل قصة ، فهو يحوك الرحلة أو الحادثة فى قصة، وسرعان ما ينتهي فيها إلى الغرض المقصود من اختيار المكان لها .

ومن المعروف أن كتابيه « البوستان والگلستان » هما المجال الذى عرض فيه هذه الرحلات ، ويلاحظ أن الشاعر قد تحدث — غير مرة — عن بلد رحل إليها ، ولا نستطيع التأكد أ كانت هذه الوقائع التى ذكرها فى قصصه ، حدثت فى رحلة واحدة ، أو أنه أعاد إليها مرات أخرى فتحدث عن هذه الوقائع المختلفة ؟

أما من حيث الجهات التى ذكرت فى كتابيه ، فإنا نتكلم عنها فى شيء عام .

فقد تكلم عن حوادث وقعت له فى إيران شمالا وجنوبا مثل أصفهان والرى وكيش ، وبلاد تجاور إيران شرقا وتقع فى التركستان والهند وذلك مثل كشغر وبلخ وسومنات .

وبلاد تجاور إيران غربا ، وتقع إما فى العراق أو فى الشام أو فى الحجاز أو فى اليمن .

ثم هناك بعض القصص التى تدور حول حوادث وقعت له فى مصر وبلاد المغرب والحبش .

وهنا يعرض لنا هذا السؤال .

إلى أى الجهات رحل أولاً ؟ ؟ ؟ ؟

والاقتراض فى هذه المسألة لعله يؤدى إلى نتائج سليمة إذا ما لا حظنا ظروف ذلك العصر .

تبين لنـا أنه تحـدَّث عن بلاد شرقى إيران وغربيها ، وعن بلاد فى الشمال منها والجنوب ، كما رحل إلى بلاد نائية غير هذه وتلك .

فهل يمكن أن يكون الشاعر رحل إلى البلاد الشرقية من موطنه فى الوقت الذى افترض رحيله فيـه ؟ نحن نعرف من ظروف البلاد التى تقع شرقى إيران وقت بدئه الرحيل سـنة ٦٢٣ هـ أنه لا يمكن الذهاب إليهـا والتجول خلالها ، وكيف يمكنه ذلك والناس يفرون من وجه الغزو المغولى فى ذلك الوقت إلى البلاد الغربيـة ؟ ؟ ؟

ولقد تحدث الشاعر فى كتابه « الگلستان » أنه أسر فى الشام ، ورأينا أن تلك الحادثة قد وقعت له فيما بين سنة ٦٢٧ هـ و٦٢٨ هـ . ولهذا يمكن أن نطمئن إلى القول إنه ذهب فى بدء رحلاته إلى البلاد التى تقع غربى إيران ، وأنه قصد الشـام فعلا ، ومكث بها حتى أسر وانتهى أمره إلى حلب ، حتى تعرف عليـه أحد أعيانهـا فخلصه من الأسر وزوجه من ابنته ، فلما أساءت حياته طلقها وهاجر من الشام كما أسلفنا .

ولهذا نسلم بأن البلاد التى رحل إليها أولاً كانت إلى الغرب من إيران . كذلك نسلم بأن كل البـلاد التى وردت فى كتابه وتقع فى إيران نفسها أو فى الشام والعراق والجزيرة العربية — شمالا وجنوباً — من الممكن أن تكون حوادثه فيها من قبيل الواقع وأنها ألهمت الشاعر لعمل قصة مناسبة .

أما الأماكن النائية — شرقاً وغرباً — فالظاهر أنه لم يرحل إليها ، وذلك لما نلاحظه من عدم الاتسـاق فى وقائع هذه القصص .

ونحن يمكننا أن نأخذ بعض هذه القصص فنلاحظ عدم اتساقها مع الواقع التاريخى أو العملى .

١ — فمن ناحية الوضع التاريخى يمكننا أن نلحظ فى قصته دخول جامع «كشغر» فى السنة التى اصطلح فيها السلطان « محمد خوارزم شاه » مع «الخطا»[1] أن هذه القصة لم نقع . فهذه الحادثة قد حدثت سنة ٦٠٤ هـ[2] ورأينا أن الشاعر قد ولد فى حدود سنة ٦٠٠ هـ فكيف يمكن وقوع تلك الرحلة فى ذلك التاريخ ؟

٢ — أما من ناحيــة الواقع العملى فى بعض القصص فإنا نأخذ قصة معبد « سومنات »[3] بالهند ، وقصــته فى بلاد المغرب[4] ، حيث يحكى فى الأولى تعرضه للقتل بعد دخوله أحد المعابد على صورة لايتيسر التسليم بها ، كما حكى فى القصة الثانية استعانة الرجل الصوفى بسجادة ألقاها على الماء فحملته وطاف عليها .

وهنا تعرض لنا مشكلة وهى، كيف يقص لنا قصة عن رحلة وقعت حوادثها له والرحلة لم تقع ؟ وتفسير ذلك سهل إذا ما لاحظنا أن كل فكرة عن رحلة لجهة من الجهات ، وراءها معنى من المعانى التى ألهمت الشاعر فاختار لها المكان المناسب .

وهنا ينبغي أن نلتفت قليلا إلى مايمكن أن يشتهر به المكان الذى قصد إليه . فكل مكان تخيره الشاعر تخير له قصة تلائمه ، كما أن كل شخص — يتخيره الشاعر لقصة من القصص — لابد أن يكون ملائماً لنوع القصة التى اختارها له . وهنا تبدو براعته فى حبك القصة .

---

(١) كليات فروغى — گلستان ص ١٦٦ .
الخطا جماعة من الأتراك نشبت بينهم وبين ملوك خوارزم حروب طاحنة وكانت عاصمتهم « كشغر » .

(٢) انظر حوادث سنه ٦٠٤ هـ فى ابن الأثير .

(٣) كليات فروغى — بوستان ص ٣١٣ .

(٤) كليات فروغى — بوستان ص ٢٣٣ .

وماذا يمكن أن يعرض لذهن الشاعر فى اختياره مادة القصص التى أشرنا إليها سابقاً ؟ ولماذا تخير هـذه الأماكن بالذات ؟

فأما قصة دخوله جامع « كشغر » ورؤيته فتى يقرأ « مقدمة الزمخشرى » فى النحو ، ويكرر المثل المشهور « ضرب زيد عمراً » . وذلك فى السنة التى اصطلح فيها « السلطان محمد» مع « الخطا » . فقد رأينا بُعد وقوعها من ناحية الواقع التاريخى . ولهذا لابد لنا أن نرد وقائع هذه القصة إلى أسباب أخرى .

يريد الشاعر أن يذكر قصة عن النحو ، فلا بد أن يتخير لها مكاناً مناسباً يجرى فيه حوادث القصة . وأى مكان مناسب لذلك ؟ لو تخير الشاعر مكاناً عاما أو عادياً لما كان فى ذلك براعة فى الاختيار، فلابد أن ينتقل إلى مكان يلائم وقائع القصة . ولهذا نراه قد تخير لها مكاناً ملائماً لمادة القصة ، حيث بلاد ماوراء النهر — موطن الزمخشرى صاحب المقدمة — فيرحل إلى مدينة من أشهر مدنها ، ويدخل مسجداً من مساجدها ، فيرى الفتى الجميل يكرر ذلك المثل المشهور . وهنا موضع الرمز فى القصة ، وفكرة الانتقال إلى ذلك المكان . ثم يعقب الشاعر فى مناقشته للفتى بعبارته التهكمية اللاذعة « يابنى تصالحت خوارزم والخطا وبقيت الخصومة حتى اليوم بين زيد وعمرو » وهذه هى إحدى النكت التى وضعت القصة من أجلها . ثم يمعن الشاعر فى التهكم والسخرية ، فحين يسأله الفتى عن موطنه يجيبه الشاعر « أرض شيراز » . فيسأله الفتى عن أبيات « لسعدى» ؛ فيجيبه بأبيات عربية فيها كثير من المصطلحات النحوية فى قوله :

بليت بنحوى يصول مغاضباً · علىَّ كزَيد فى مقابلة العمرو
على جَرِّ ذيل ، ليس يرفع رأسه وهل يستقيم الرفع من عامل الجر؟

ولكن الفتى وجم ، وغرق فى التفكير ، عله يجد حلا لمعرفة هـذين البيتين فلا يفهم ، فيسأل الشاعر قائلا : إن غالب شعر « سعدى »فى هـذه البلاد

بالفارسية ، فلو قلت بها فأنا لها أكثر فهماً . وهنا موضع نكتة أخرى ، وهو أن الفتى لا يفهم العربية التى يدرسها مثل ما يفهم الفارسية . ويقول للشاعر « كلم الناس على قدر عقولهم » .

أليس هنا أيضاً مقصود آخر يرمز إليه الشاعر من وضع قصته ، فى أن النحو ، على هذا الوضع بل العربية ، فى غير متناول فهم فتى فى مثل ذلك السن ومثل تلك البيئة . ؟ ؟

والشاعر يجيب الفتى ببيتين من الفارسية هما مفتاح المغزى المراد من القصة . فالقصة موضوعة فى باب « العشق والشباب » ، والبيتان يشيران إلى هذا .

طبع ترا تاهوس نحو كرد صورت صبر أزدل ما محو كرد
أى دل عشاق بدام توصيد ؟ ما بتو مشغول وتوبا عمرو وزيد (١)

ومعناها « منذ شغل طبعك بالنحو ، محوت الصبر من قلبنا . يامن وقع قلب العشاق بشباكه ! نحن بك مشغولون ، وأنت مشغول بزيد وعمرو » .

رأينا من هذه القصة أنها ترمى إلى مقاصد أخرى تلائم اختيار المكان ، وأن المكان قد تخيره الشاعر لذاته ، لملاءمته حوادث القصة من جميع جوانبها .

ونستطيع بهذا أن نفسر أيضاً اختياره لبقية الأماكن ووضعه قصصاً تلائمها . يمكننا أن نفسر أيضاً اختيار الشاعر لمدينة نائية بالهند وهى مدينة « سومنات » . حيث هى مقر عبادة وثنية ، تقوم على عبادة الأصنام ، و يتبعها ملايين الناس بالرغم من وجود ديانات أخرى سماوية .

فماذا يعنى الشاعر من وضع هذه القصة ؟ ولماذا تخير لها هذا المكان ؟ .

وهل يمكن أن يكون — حقيقة — ذهب إلى تلك الجهات النائية ، وتعرض لهذه الأهوال التى يصفها فى تلك القصة ؟ .

---

(١) كليات فروغى — گلستان ص ١٦٦

ونحن إذا استطعنا الإجابة على هــذا السؤال وحــده أمكننا أن نحل أمر هذه القصة ..

رأينا سابقاً أن الشاعر بدأ رحــلاته في سنة ٦٢٣ ﻫ ، وأنه اتجه نحو البلاد الغربية ، ولم يتمكن أن يرحل إلى البلاد الشرقية ، وعلى الأخص البلاد النائية .

كما أن وقائع هــذه القصة — من سياقها — يباعد بين حدوثها ، فلابد أن تكون هناك فكرة خطرت للشاعر فألهمته هذه القصة ، واختيار هذا المكان لها.

والواقع أن الشاعر أحس بأن فى إحدى نواحى العالم المجاورة لمملكته عالم آخر لا يزال يعبد العبادة المجسمة ، وهذه العبادة يتبعها ملايين الناس ، و إن كانوا فى غفلة من أمرها . هنا تملكته دهشة ، كيف — وهم ذوو عقل وروح — يعتقدون فيما لا روح فيه ولا عقل له ؟

أفليس فى الامكان — أيضاً — العمل بأى الوسائل على تحطيم هــذه الأصنام ، ونشر الإســلام ، كما حطمت أصنام الجاهلية وعلى رأسها منات التى يتمثل بها . ؟ أفلم توح إليه بقايا هــذه العبادة أن يقوم أحد ملوك الإسلام بفتح تلك الجهات ، ونشر الدين هناك ، وتحطيم تلك الأصــنام كما حطم بعضها « محمود ابن سبكتكين » من قبل ؟ .

كل هذه أمور تلهم فى الشاعر فكرة لوضع قصة .

وهــذه القصة ترد فى « البوستان » فى الباب الثامن ، وهو « الشكر على العافية » يختم بها هذا الباب ومطلعها .

بتى ديــدم أزعاج در سو منات ‏ مرصع چو در جاهليت منــــات
فرو ما ندم أز كشف آن ما جرا ‏ كه حيى جمادى پرستد چــــرا ؟

ففى البيت الأول قابل بين صنم مصنوع من عاج و بين «منات»، فى أصنام الجاهلية . وفى البيت الثانى أظهر مبلغ حيرته من كشف ذلك الأمر ، كيف يعبد حيٌّ جماداً لاحياة فيه ؟؟؟ .

لعل ذلك هو الذى حدا بالشاعر أن يؤلف تلك القصة ، فقد اضطربت فى نفسه الرغبة فى القضاء على هـذه الديانة الوثنية ، كما بدت عليه الحيرة فى أن يعبد الأحياء ذوو العقول المفكرة ، هذا الجماد الذى لا روح فيه ولا حياة به ، وفى سياق القصة يذكر الشاعر أنه — بعد أن أخذه الشك فى أمر تلك العبادة ، وذلك الصنم الذى كان يحرك يديه ، استجابة لدعوات الجماهير — أراد أن يكشف الأمر فى هذه المسألة . فيقول إنه دخل المعبد تحت ستار من عيون الرقباء ، بعد أن رحل جميع الأتباع عن مكان العبادة ، فغافل الشاعر النـاس والحراس ، ودخل المعبد وظل يجوس خلاله يميناً ويساراً ، حتى لاح له أن هناك ستارة من ذهب ، فلمح من خلفها حبلا يتصل بالصنم ..

هنا أدرك السر فى كل شىء ، وأدرك كيف يموّه القائمون بأمر تلك العبادة على اتباعها ؟ فيحركون أيدى الصنم ، وهو لا يملك أن يتحرك إلا فى معجزة . ثم يمضى الشاعر فى القصة ، فيقول إن حارس المعبد قد كشف أمره ، فهم بالقضاء عليه حتى لا يفشى سر تلك العبادة ، ولـكن « السعدى » كان أسرع منه فقذفه فى بئر ، داخل المعبد فأودى بحياته ، ثم يهرب من هناك إلى جنوب الهند ، ومنها إلى اليمن والحجاز .

وهناك أمور لا بد من الوقوف عندها ، ولعلها تساعد على مدى اصطناع هذه الحادثة وأنها ليست من قبل الواقع ، إذ كيف يمكن أن يدخل الشاعر ذلك الدير ويترك فيه وحده ؟ ؟ ؟ وأين الحراس الذين يقومون هناك ويلتفون حول هذا المعبد العظيم ليلا ونهاراً إما للتبرك وإما للحراسة ؟ وكيف غافل الحراس ؟ وهل لم يكن فى الدير غير ذلك الحارس الذى قضى عليه « السعدى » كما يقول ؟ وكيف أسعفته الفرصة فيسرع هو فى القضاء على الرجل فيلقيه فى بئر فيهلكه ؟ .

كل هذه أمور تجعل التسـليم بوقائع القصة أمراً بعيد الاحتمال . ولـكنها

فى الوقت نفسه تلتئم مع الغرض الذى من أجله وضعها فى الباب « وهو الشكر على العافيــة »[1] .

وأما قصة ذهابه إلى بلاد المغرب ، هو وصاحب له من متصوفة المشرق من مدينة « فارياب » .

بماذا يمكن أن تشير ؟ وما هى الأمور التى تعرف عن بلاد الغرب ؟ وكيف تنسجم مع مجرى القصة التى تخيرها لتقع فى تلك البلاد ؟

و إطلاق كلمة مغرب فى هذه القصة يشعر بأن المقصود منها إحدى البلاد فى شمال أفريقيا ، فهذه البلاد عرفت فى البيئة الإسلامية ببلاد المغرب . كما أنه يشتهر عنها أنها الموطن الذى تجرى فيــه الأمور الخارقة للعــادة ، فهى موطن السحر وموطن الأمور التى لا يستطاع تفسيرها فى الظاهر عند الإنسان ، وإن كان هناك مالا يمكن أن يدرك الإنسان سره ، لأن الإنسان العادى قاصر بطبعه عن إدراك المسائل التى فوق مستواه وبعد إدراكه .

ونسج القصة يشير إلى عدم إمكانها واقعياً . وهى ترد فى « البوستان » فى الباب الثالث « باب العشق »[2] ومطلعها :

قضارا من وپيرى أز فارياب   رسيذيم در خاك مغرب به آب

وملخص هــذه القصة أن الشاعر رافقه رجل من شيوخ « فارياب » الصوفيين الذين يعرفون « بالأبدال » . ينتقل الشاعر معه إلى بلاد المغرب ، و يجرى القصة هناك .

---

(١) يرى الأستاذ شبلى نعمانى فى كتابه « شعراء العجم » رأياً مفصلا فى هذه القصة أيضاً بالاضافة إلى ما رأيناه . وهو أن الهنود لايتخذون العاج فى صناعة أصنامهم لما يرونه فيه من النجاسة . فلو صح هذا ، فهو الفاصل فى مدى صحة وقوع هذه الرحلة ، وان لم يؤثر ذلك فى مدى الغرض منها . انظر ص . ٤ فى ترجمة حياة سعدى.

(٢) كليات فروغى ص ٣٠٣ .

ويقول إنهما رغبا في ركوب البحر فكان لدي « السعدى » بعض المال الذي دفعه كله مقابل الركوب في سفينة ، ولم يكن مع الشيخ ما يدفعه لقاء ركوبه . ولم يرض الملاحون أن يأخذوه معهم . فبكى «السعدي» من أمر صاحبه ، ورق لحاله . ولكن الرجل قهقه ضاحكاً ، وقال له لا تغتم من أجلي .

وهنا تقول القصة إن الشيخ ألقى بسجادته على سطح الماء ، وطاف عليها حتى ظن « السعدي » من فرط دهشته ، أن ذلك خيال لا حقيقة ، وسرعان ما يصرف الشيخ عن الشاعر هذه الدهشة ، فيقول له إنك لأعرج ، تطلب الوسيلة للانتقال ، ولكنى سبحت بقدرة الله على الماء .

بگسترد سجاده بر روى آب   خيا لست پنداشتم يا بخواب
تو لنگى بچوب آمدى من بپاى   ترا كشتى آورد ومارا خداى

ثم ينتقل الشاعر إلى أن ذلك الأمر — وإن كان غير ميسور للرجل العادى — فإنه ميسور «للأبدال» الذين هم رجال الله ، يسيرون بقدرته ، ويعتقدون في جبروته وقوته ، فهو الذي يمكنه أن يسير بهم على وجه الماء ، ويحفظهم من النار .

چرا أهل معنى بدين نگروند   كه أبدال در آب وآتش روند

ونستطيع أن نخرج من كل ما لاحظناه في وقائع هذه القصص ، أنه لا يلزم من كل بلد ذكرها الشاعر في رحلاته ، أنه رحل إليها فعلا، وأن القصة التى أقامها حولها قصة من قبيل الواقع . فقد رأينا بعض الصعوبات التاريخية والعملية ، التى تمنع من وقوع هذه الحوادث ، وإنما كان اختيار المكان في القصة أمراً مقصوداً لذاته . ففي كل رحلة ينتهي إلى المغزي المقصود من وضعها ، وهذا المغزي هو الذي يضمنه — عادة — نهاية القصة .

العلماء والأدباء الذين لقيهم الشاعر

أشرنا سابقاً إلى الرأي الذي يعرض لشيوخه في بغداد ، وكان أهم هؤلاء

وأظهرهم شخصيتين هما « ابن الجوزي » المتوفى سنة ٦٥٦ هـ الذى اشتغل فى النظامية ببغداد وانتقل إلى وظيفة الحسبة ردحاً من الزمن .

وقد أشار الشاعر إلى « ابن الجوزي » هذا فى كتابه « الگلستان » ، وأنه تلقى عليه حال عنفوان شبابه ، ويرد ذلك فى الباب الثانى « أخلاق الدراويش »

وليس هناك ما يمنع من تاريخ الشاعر ، وانتقاله للتعليم ببغداد من وجود صلة بينه وبين « ابن الجوزى » هذا أيام أن كان يشغل التدريس بالنظامية .

والشخصية الثانية التى يقال إنه تلقّى عليها هى «أبو حفص عمر بن محمد الملقب بشهاب الدين السهروردي » ينتهى نسبه إلى « محمد بن أبى بكر الصديق » ويقول عنه ابن خلكان « كان فقيهاً شافعى المذهب ورعاً كثير الاجتهاد . تخرج عليه كثير من الصوفية . صحب عمه أبا النجيب وعنه أخذ التصوف والوعظ وكان شيخ الشيوخ ببغداد وله مجلس وعظ . وله تواريخ حسنة أشهرها عوارف المعارف [1] وقد توفى سنة ٦٣٢ هـ ببغداد » .

والشاعر يعرض لقصته فى كتابه « البوستان » مشيراً فيها إلى اسمه بقوله :

مقالات مردان بمردى شنو — نه سعدى كه أز سهر وردى شنو
مرا پير داناى مرشد شهاب — دو أند رز فرمود بر روى آب

أما صلاته بمن التقى بهم فى رحلاته من الشعراء الذين عاصروه ، فانا نأخذ ذلك مما أورده الرواة وكتاب التذاكر ، فإن الشاعر لم يعرض فى كتاباته لواحد منهم.

وبالرغم من أن هناك جماعة من الشعراء الإيرانيين ، أصابوا شهرة واسعة فى حياتهم ، وكانوا يعاصرونه فلم يهتم الرواة إلا بثلاثة منهم فى روايات مختلفة ، كل منهم يمثل قطراً من الأقطار هم « همام التبريزى » من شمالى إيران ، والأمير « خسرو الدهلوي » من الهند « وجلال الدين الرومى » من قونية فى آسيا الصغري .

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٨٠

وتحيط بكل واحد من هؤلاء قصة فى سبب اتصاله بالشاعر ، ويذكر الرواة قصة لقائه « بهام » وهى إحدي الملح الطيبة التى يوردونها لتصوير لقائهما وقد أشرنا إلى القصة سابقاً .

ولكن الرواية تمضى فتجعلهما يتعارفان ، ويرحب « همام »« بالسعدى » ويتبادلان الغزليات الرقيقة التى كان « سعدي » مشهوراً بها إذ ذاك ، وتنال إعجاب « همام التبريزي » .

أما لقاؤه « للأمير خسرو الدهلوي » فيذكر دولتشاه ، كذلك فى ترجمته للأمير رواية عن كتاب « جواهر الأسرار للشيخ آذري » تدل على مدي ما يكنه الشيخ — وهو فى أخريات حياته — من التقدير للشاعر الهندي الناشيء « خسرو الدهلوي » حتى يقال إنه — وهو فى سنه الكبيرة — رحل من فارس إلى الهند لرؤيته ومشاهدته ، وتثبت من ناحية أخري أن « خسرو » كان يقدر الشيخ تقديراً كبيراً ، وأنه ود لو استطاع أن يقلده ، وذلك من عبارته .

خسرو سرمست أندر ساغر معنى بريخت
شيره أز خمخانهٔ مستى كه در سيراز بود

وفى قوله : جلد سخم دارد شيرازهٔ شيرازى (١)

ويورد « الكركانى » رواية أخري فى إثبات ما كانا عليه الشاعران من صلات ، فإنه فى الوقت الذي اختار فيه السلطان «محمد بن غياث الدين بلبن» مدينة « مولتان » عاصمة له رغب إليه « الأمير خسرو » فى الإرسال إلى الشيخ «سعدى» و بعث إليه بمال وديوان « الأمير خسرو » ولكن الشيخ وزع المال على الفقراء و بعث للأمير بقطعة شعر بة يجيبه على دعوته معتذراً (٢) .

---

(١) دولتشاه ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .
(٢) الكركانى — مقدمة الكلستان ص — سا .

أما تصوير لقائه « بجلال الدين الرومى » فينقل « الگرگانى » عن «روضات الجنات» ملخص القصة . ونحن نوردها عنه ؛ ذلك أن الشيخ وصل فى أحد أسفاره إلى « قونية » مقر « مولانا » ونزل مكانا فأقام به ، ثم حدث أن نظم مصراعا من غزلياته هو :

سرمست أگر در آى عالم بهم بر آيد

ولم يتمه ، وتصور الرواية أنه قدم إلى « مولانا » فوجده فى حال من الوجد فقرأ « مولانا » هذا المصراع وأتمه بالمصراع الثانى ، فلما سمع الشيخ ذلك ، عرف أن مولانا صاحب كشف واطلاع باطنى ، فزاد فيه اعتقاده [1] .

و يبدو أن فى رواية « همام التبريزى » اصطناع للحادثة ليفهم منها أن شهرة « سعدى » فى الغزل تسبق شهرته الشخصية عند الشعراء . كما اصطنعت الرواية الثانية لتبين مبلغ طموح «الأمير خسرو» فى تقليد الشاعر ، أو أنه كان من الشهرة بحيث يطمع الشاعر فى الانتقال إلى الهند ليلتقى به تقديراً له ، واصطنعت قصته مع« جلال الدين » لتصور هذا صاحب كشف غيبى و إلهام .

وعلى كل ، هذه مجرد روايات يصح أن يكون لها نصيب من الواقع أو لا يكون . ومن حيث تاريخ الشاعر نفسه ، فليس ما يمنع من صلاته بهم ، كما أننا نعرف أنه كان يرحل وفى قدرته أن يذهب إلى تلك الأماكن لو أراد ، وما دمنا لا نجد من إشارات الشاعر نفسه ، ما يؤيد لقاءه بهم فيبقى الاقتناع بهذه الروايات معلقاً .

أما علاقات الشاعر برجال السياسة والحكم فإننا عرضنا لها سابقاً ، وهذه لا تأتى من كتابيه « البوستان والگلستان » ولكنها ثابتة من قصائده التى قالها فيهم ، وقد عرضنا لأهم هذه الشخصيات سابقاً .

---

(١) نفس المصدر ص— . يب .

الفصل السادس

حياته الأخيرة

طالت حياة الشاعر فامتدت ما بين سنتى ٦٠٠ — ٦٩١ هـ كما ذكرنا سابقاً وهى حياة — كما رأينا — طويلة . ومع ذلك فقد وجدنا من الرواة والمؤرخين من يغالى فى تقديرها إلى أكثر من ذلك .

وكان مجرى حياة الشاعر من جانب ، وطول زمنها من جانب آخر ، وعدم السير بها على منهج واحد ، كل ذلك كان ،

أن يقسموا حياته إلى فترات ثلاث ، امتدت هى و

أو أربعين عاماً على خلاف .

ويجرى تقسيم تلك المدة على هذا الوضع . مدة التحصيل ، ومدة الرحلات ، ومدة التأليف والاعتكاف .

وقد صورنا بقدر الإمكان سيرته فى مدة التحصيل والرحلات .

أما المدة الأخيرة فيبدؤها الرواة عند عودته من رحلاته الطويلة ، ويجعلونها فى حدود سنة ٦٥٣ هـ .

وليس بلزم فى نظرنا تقسيم حياته على الوضع الذى ذهب إليه الرواة سابقاً ، فإن أوضاع الحياة نفسها لا تخضع لمثل هذه الموازين ، وإنما هى أمور تقريبية .

ونحن وإن كنا لا نجاريهم فى التحديد الزمنى الذى التزموه ، نجاريهم من ناحية أخرى فى التقسيم نفسه . ومن الممكن أن يكون هذا التقسيم صالحاً لكل شخصية من قريب أو من بعيد ، لكنه فى تلك الشخصية ممكن إلى حد بعيد .

ولعل ذلك هو الذى حدا بالرواة ورجال الطبقات إلى أن يظهروه على هذا النحو الذى مضى .

ونحن إذا سلمنا بهذا الرأى الذى ذهب إليه هؤلاء ، وجعلنا سنة ٦٥٣ هـ هى أول الفترة الأخيرة من حياته . فماذا يمكن أن يكون من عمل الشاعر فى تلك الفترة الطويلة التى امتدت كذلك حتى سنة ٦٩١ هـ قرابة أربعين عاما ؟ . . .

من الممكن أن نميز أعماله فى تلك الفترة ، وإن كان الرواة لا يشيرون فيها إلا إلى الاعتكاف ، والعمل على مساعدة المعوزين ، وزيارة رجال الدولة وكبارها له فى معتكفه من وقت لآخر ، كما يسندون له أموراً خارقة للعادة [(١)] .

والواقع أن الشاعر لا يمكن أن يكون قد آوى إلى معتكفه النهائى ليقيم فيه دون أن يخرج من شيراز طوال ذلك الوقت ، فلعله خرج منها فى بعض رحلاته إلى الحجاز تلك الرحلات التى لم تنقطع ، والتى يقول عنها الرواة إنه حج فيها أربع عشرة مرة .

ومن المؤكد كذلك أنه صرف وقتاً طويلا فى نظم بعض أشعاره فى تلك المدة الأخيرة ، ونخص بالذكر منها مدائحه ومراثيه ، فهى كلها قد نظمت بعد عودته من رحلاته كما لاحظنا سابقاً .

كما أنه نظّم قطع كتابيه « البوستان » و « الگلستان » فى أعقاب عودته وبوبهما ، قبل أن يقدمهما إلى صاحبيهما . والمعتقد أنه نظم كثيراً من قطع « البوستان » قبل أن يقدم إلى شيراز فى عودته إليها ، ولكن تنظيمها وتبويبها لم يتم إلا حين عودته ، وحين رغب أن يقدم هذا الكتاب إلى الأمير .

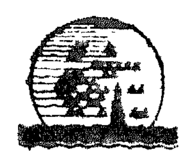
وقد لاحظنا كذلك أنه ظل ينظم الشعر حتى سنة ٦٨١ هـ ، كما رأينا سابقاً عند الكلام على مدائحه .

---

(١) دولتشاه ص ٢٠٢ — ٢٠٣ طبعة ليدن .

وليس ما يمنع عندنا من أن الشاعر ظل ينظم الشعر بعد هذا التاريخ ، فقد امتدت الحياة به عشر سنوات أخرى ، واتسع وقته لإنشاد بعض الشعر ، ولم تسكت طبيعته الشعرية .

أما الألوان التى يمكن أن نقول إنه ظل ينظمها فى ذلك العهد ، فهى إما فى غزلياته الصوفية وبخاصـــة المعروفة « بالخواتيم » ، أو فى القطع الأخرى من « المثنويات » ، فلم يثبت له نظم فى القصائد مدحا أو رثاء بعد ذلك التاريخ .



General Organization of the Alexandria Library (BLAL)
Bibliotheca Alexandrina

الفصل السابع

مقبرته ومرقده

يقول دولتشاه عن مقبرته ، إنها تقع فى شيراز بمكان مفرح ، فيه حوض صاف وعمارة لا نظير لها ، وللناس ميل لزيارتها ، وذلك فى عبارته :

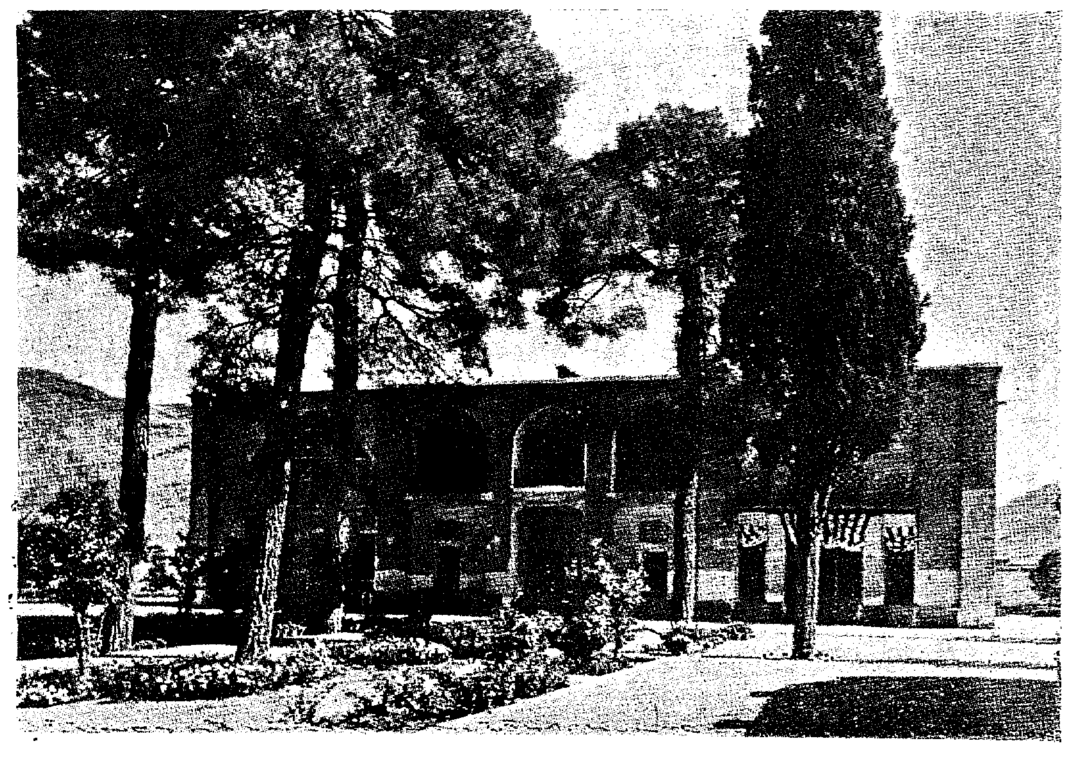
« وتربت شيخ سعدى أكنون در شيراز جائى فرح بخشى وحوضى باصفاست . وعمارت بى نظير آنجا واقع أست وسردم را بدان سرقد إرادتست [1] » .

وقدشاهد ابن بطوطة مرقده فى رحلته إلى شيراز سنة٧٢٧هـ . إذ يقول «ومن المشاهد بخارج شيراز قبر الشيخ الصالح المعروف بالسعدى ، وكان أشعر أهل زمانه باللسان الفارسى ، وربما ألمع فى كلامه بالعربى ، وله زاوية كان قد عمرها بذلك الموضع ، حسنة بداخلها بستان مليح ، وهى بقرب رأس النهر الكبير المعروف « بركن آباد » وقد صنع الشيخ هناك أحواضاً صغاراً من المرمر لغسل الثياب ، فيخرج الناس من المدينة لزيارته ويغسلون ثيابهم بذلك النهر ، وينصرفون ، وكذلك فعلت عنده [2] » .

وينقل الأستاذ « الكركانى » عن صاحب كتاب « طرائف الحقائق » أن مقبرته مزار من كثير الرواد . يقع شمالى شرقى المدينة على بعد نصف فرسخ ، وتهدم ذلك البناء من توالى الحوادث ، وعمره « كريم خان الزندى » سنة ١١٨٠ هـ [3] .

---

(١) تذكرة الشعراء ص — ٢٠٩ . طبعة ليدن .
(٢) رحلة ابن بطوطه ص — ١٣٦ . المطبعة الأزهرية .
(٣) الكركانى — مقدمة الكلستان ص م .



ضريح الشاعر « سعدى الشيرازى » بشيراز عن كتاب « سعدى نامه »

ويذكر الأستاذ « سروش » فى ترجمته لكتاب « حيات سعدى » الذى ألفه بالأردوية الأستاذ « حسين ألطاف » عن السائح الانجليزى « فرانكلين » أنه ذهب إلى شيراز سنة ١٧٨٦ م . وقد ذكر أن مدفن الشيخ يقع فى الجهة الشرقية ، على بعد ميل فى طرف جبل خارج شيراز .

وعمارته مربعة ، وقبره من الحجر ، فى طول ستة أقدام فى عرض قدمين ونصف ، وعلى جدر المقبرة عبارات بخط النسخ فى تاريخ الشيخ ومصنفانه ، وفى أعلى الضريح طلاء نقش عليه أحد أبيات الشيخ بخط « نسخ التعليق » .

ثم يمضى فيقول — « إن المسلمين يزورون مقبرته من أطراف الدنيا وينثرون عليه الورد ، وقد وضعت فى مقبرته إحدى نسخ كلياته . وعلى الجدار أبيات من شعر الشيخ كتبها الزوار ، وقد خربت المقبرة بمرور الزمن » ثم ينتهى فى عبارته إلى القول بأن كثيراً من مقابر العظماء يحيط بها فانهم أوصوا بذلك[1] .

كذلك يذكر المؤلف فى موضع آخر أن « كريم خان الزندى » أقام سوراً على قبور جماعة مجهولين بشيراز ، وعلى الباب رسم « للسعدى وحافظ » فى نصف صورة لهما ، وقد نقل « الكابتن كلارك » فى ترجمته لكتاب « البوستان » هذه الصورة ، ويبدو فيها أن الشيخ يمسك بإحدى يديه كشكولا وبالأخرى « تبرى »[2] وهو علامة خاصة بالمسافرين[3] .

وفى سنة ١٨١١ م ميلادية حينما عين السير « كور أوسلى » سفيراً لدى بلاط إيران من قبل جورج الثالث فى عهد « فتح على شاه القاجارى » أقام بضعة أشهر بشيراز ، وزار قبر الشيخ ، فلما شاهد المقبرة لم يصدق ما قاله « فرانكلين » . فإنها

(١) سروش — حيات سعدى ص ٢٧

(٢) تبر — مثل فمر آلة معروفة تكسر بها الأشجار ويقطع بها ما يحتطب — نوبهار

(٣) سروش — حيات سعدى ص ١٢

كانت قد خربت ولم ير أثراً للحديقة والأشجار التى كانت بها . ويقول : «إنه فكر فى أن يعيد تشييد المقبرة بمبلغ قليل ، لما كان فى نفسه من تقدير للشيخ ، ولكن الإبن الخامس لشاه إيران وهو « حسين على ميرزا » الذى كان والياً على فارس ، منعه من القيام بهذه المهمة ووعده أن يعمرها ، وقال إنه سيقوم بتعميرها على نسق مقبرة « حافظ » التى قام بتشييدها « كريم خان » . ولكن لم يفعل[1] » .

هذا ما أثبته المؤرخون والرحالة عن مقبرته ومكانها حتى مطلع القرن الماضى .

أما مقبرته الآن فلم نعثر بعد ذلك على نص هام — يضيف جديداً — ممن كتبوا عنها من الإيرانيين أو غيرهم .

---

(١) سروش . حيات سعدى ص ٥٧

الفصل الثامن

عقيدة سعدى

كان سعدى إنساناً بكل معنى الكلمة ، يشعر بأنه أحد أعضاء المجتمع ، لا فرق بين أن يكون على دين ودين ، أو على عقيدة وعقيدة ، أو على مذهب ومذهب ، ومن هنا كان رجلا للجميع ، وكان أدبه أدباً للجميع . يحب الناس كلهم ، ويرى أنه وإياهم من طبيعة واحدة ، ولهذا كان سامى الفكرة ، لطيف الحس ، مشرق الضمير .

وفى قطعة من شعره ، يقول إن بنى آدم جميعاً كلهم لبعض ، فهم فى خلقتهم من جوهر واحد ، إذا بدا لعضو أن يتألم فإن أعضاءه الأخرى تشاركه المحنة والألم ، والإنسان الذى لا يغتم لمحنة الآخرين مجرد من الآدميه . يقول :

بنى آدم أعضاى يكديگرند … كه در آفرينش زيك گوهرند
چو عضوى بدرد آورد روزگار … دگر عضوها را نماند قرار
تو كز محنتى ديگران بيغمى … نشايد كه نامت نهند آدمى (1)

وتبدو للشاعر آراء ، يفاضل فيها بين الصوفية والعلماء ، فالعالِمُ فى نظره أفضل من الصوفى . وفى قطعة له يصور هذه المسألة ، يرى فيها أن صوفياً هجر مكان عبادته ، وقدم إلى المدرسة ، وقد خرج على عهد صحبته ، وترك الطريق .

---

(1) الكركانى — مقدمة الكلستان ص — سز . وقد ترجم هذه الأبيات الدكتور عزام بك شعراً :

بنو آدم جسد واحد … إلى عنصر واحد عائد
إذا مس عضواً أليم السقام … فسائر أعضائه لا تنام
إذا أنت للناس لم تألم … فكيف تسميت بالآدمى ؟

فسأله قائلا : أى فرق بين العالم والعابد ، حتى اخترت طريق ذلك على هذا ؟ ؟ .

فقال إن هذا ينقذ نفسه من الموج الذى يقع فيه ، بينما يأخذ ذلك بيد الغريق يقول:

صاحب دلى بمدرسه آمد زخانقاه — بشكست عهد صحبت أهل طريق را
گفتم ميان عالم وعابد چه فرق بود — تا اختيار كردى أز آن إين فريق را
گفت آن كليم خويش بدرميبرد زموج — وين سعى ميكند كه بگيرد غريق را(١)

على أنه كذلك يرى أن العبادة ليست فى الانقطاع عن أسباب الدنيا ، فهو — على خلاف كثيرين من أهل الطريق — لم يعرض عنها ، ويختار الاعتزال والاعتكاف عن الناس ، بل كان يعرف أن العبادة الحقة هى فى خدمة الخلق ومعونتهم ، وليست بالتسبيح والجلوس على السجادة، وارتداء الداق، ثم هو يطلب ذلك إلى كل الناس ، حتى الملوك منهم أن يتخلقوا بأخلاق الدراويش . يقول :

عبادت بجز خدمت خلق نيست — بتسبيح وسجادهٔ ودلق نيست
تو بر تخت سلطانى خويش باش — بأخلاق پاكيزه درويش باش (٢)

هذه عقيدته من الوجهة العامة ، و إذا أدركنا منها أن لا مفاضلة عنده بين الناس فى عقائدهم ، فإنا نعرف منها كذلك مدى تسامحه فى مذهبه الدينى ، وهذا يفسر لنا — إلى حد بعيد — كيف اعتنق المذهب السني فى إيران ، موطن المذهب الشيعى من قديم .

وأشعاره تدل على هذا إلى حد بعيد . فقد رأيناه يمدح خليفة المسلمين المستعصم فى مرثيتيه اللتين أشرنا إليها سابقاً .

كذلك يمدح الخلفاء الراشدين عامة فى « البوستان » من قطعة يمدح بها الرسول عليه السلام ، ويتخلص فيها بمدحهم جميعاً . ثم ينتقل إلى مدح بنى فاطمة وآل الرسول (٣) مما يدل على أنه عام فى عقيدته وفى مذهبه .

---

(١) الدكتور رضا زاده فى تاريخ أدبيات إيران ص ٢٧٤ — طهران ١٣٢١ ه.ش
(٢) الگرگانى — مقدمه الگلستان ص — سو .
(٣) كليات فروغى — بوستان ص ٣٢٠

الفصل التاسع

مؤلفات الشاعر أو كلياته

من شعراء الفارسية من كتب نثراً وشعراً ، ومجموع ما يكتبه المؤلف من شعر ونثر يطلق عليه فى الفارسية كلمة « كليات » . فكليات سعدى هى مجموع إنتاجه شعراً ونثراً .

ومن هذا الإنتاج ما ينشر وحده فيستقل عن الكليات لاستقلال موضوعه وللتمكن من دراسته بسهولة . كما هو الحال فى كتابيه « البوستان والكلستان » .

وقد رتب إنتاج الشاعر فى « كلياته » من حيث لون الأداء . لا من حيث الموضوع أو الزمن ، ونحن نأخذ هذا الترتيب من « كليات فروغى » ، والكليات كما عرفنا تجمع المنثورات وتبدأ بها ، ثم المنظومات .

أولا — المنثورات

فأما المنثورات فتشمل الرسائل الست التى كتبها الشاعر . ثم كتابه المستقل « الكلستان » . وقد كتب الشاعر الإيرانى المعاصر « بهار » فى كتابه « سبك شناسى أو تطور النثر الفارسى» فصلا عن مؤلفات الشاعر المنثورة وحدها . درسها من حيث أسلوبها لا من حيث موضوعها ، وتكلم — بهذه المناسبة — عن منهج « سعدى » فى النثر ، وعن أسلوبه فى الأداء ، فى رسائله وكتابه « الكلستان » دون التعرض لغيرها . فلم يعرض للشعر ، ولا منهج الشاعر فيه ، وبالتالى لم يتعرض لمقارنات بين موضوعى «البوستان والكلستان» . ونقدم ملخصاً لما قاله فى موضوع النثر ، ثم نتبع الكلام عن أشعاره . يقول :

هناك ثلاثة ألوان من النثر خلفها « سعدى » فى إنتاجه ، ونحن نشير إليها

١ — اللون الأول — وهو المتداول فى عصره ، والذى كان يكتب به جماعة منهم « الجوينى » صاحب « جهانگشاى » .

٢ — اللون الثانى — وهو طراز كتابة « عبد الله الأنصارى » .

٣ — اللون الثالث — وهو نسيج « سعدى » نفسه .

وهذه الألوان الثلاثة تشاهد فى رسائله التى كتبها فى مقدمة « كلياته » وفى كتابه « الگلستان » فأما الرسائل فهى .

١ — الرسالة الأولى : وتسمى « الديباجة » [1] كتبها الشاعر وهو على ظهر سفينة وكما يبدو من الرسالة ، كانت تلك السفينة ملكاً لأمير من الأمراء ، وهذه الرسالة قريبة فى أسلوبها من أسلوب النثر القديم . خالية — إلى حد ما — من التكلف والصناعة الشاقة ، والأسجاع النادرة . لكن يتردد فيها ألفاظ وجمل عربية مسجوعة كالعبارة . « تلاطم أمواج هموم وترا كم أفواج غموم» كذلك كان يكثر من إيراد الآيات القرآنية ، مثل «إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » ومثل . « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال » .

٢ — الرسالة الثانية : وهذه الرسالة تعرف بالمجالس الخمس . وهى مجالس كان يكتبها الشيخ لنفسه أو يعقدها لتلاميذه .

وفى طليعة المجلس الأول منها نظم ملمع فى مدح الرسول عليه السلام من شعر الشاعر [2] . والمجلس الأول والثانى — من حيث أسلوبهما — أسهل من أسلوبه فى القطعة الأولى «الديباجة» وهما متشابهان كذلك من حيث المنهج الذى سلكه فيهما.

فالمجلس الأول بدأه ببعض أشعار فى مدح الرسول ، ثم عقب عليها بذكر

---

(١) كليات فروغى ص ١٠—١٥ (٢) نفس المصدر ص . ١٦

حديث للرســول[١] . وبدأ الثانى بقوله قال تعالى «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله » ثم عقب عليها بحديث كذلك[٢] وخلال المجلس الثانى قطعة فى بيان الفرق بين « تقوى المؤمنين وتقوى الصالحين[٣] »

كذلك يتخلل هذا المجلس غزليات وأبيات من سعــدى ، وردت فى مجموع غزلياته أو كتابه « الگلستان » .

ويبدو من هذه القطعة أن سعدى سلك فيهـا مسلك الزاهد المتصوف الذى يعظ الناس .

وفى المجلس الثالث [٤]من هذه المجالس يبدو الشاعر صــوفياً بحتاً . يتناول الكلام فى معرفة الله تعــالى ، وفى محبته والانصراف إليه ، ويسلك فى هذا المجلس — من حيث أسلوبه — منهج عبد الله الأنصارى .

وفى مجلسه الرابع [٥] ، يبدو كذلك صوفياً زاهداً . لكنه — من حيث أسلوبه — أيسر وأبسط من أسلوبه فى المجالس السابقة . ويضمن هذا المجلس قصصاً مختلفة يوردها على لسان رجال عرفوا بالزهد والتصوف مثل إيراده قصة على لسان « يحيى بن معاذ الرازى » . وقصة عن « ابراهيم بن أدهم » وأخرى عن «عمر بن عبد العزيز» وحكاية عن « عبد الله بن عمر » . وهذه القصص كلها ذات مقاصد صوفية فى الزهد والتجرد والانقطاع عن الدنيا .

فأما مجلسه الخامس[٦] فيبدو فيه أسلوب سعدى دون تقليد أومحاكاة . وهو فيه شبيه بأسلوبه فى « الگلستان » من حيث رقة العبارة ولطف المعانى . و يتناول

---

(١) كليات فروغى ص ١٦ . (٢) نفس المصدر ص ١٩ .
(٣) فى العبارة شىء من التصرف فالنص فى كليات فروغى هو « بدانكه: تقوى بردو نوعست. تقوى صالحان وتقوى عارفان ص. ٢ (٤) كليات فروغى ص ٢٤-٢٧
(٥) نفس المصدر ص ٢٧ — ٣١ . (٦) نفس المصدر ص ٣١ — ٣٩ .

فى هذا المجلس قصصاً عن بعض الصوفيين الإسلاميين وغير الإسلاميين . وهذا المجلس خير مجالسه الخمسة .

٣ — الرسالة الثالثة : وهـذه الرسـالة تتعلق بموضـوع خطاب كتبه «شمس الدين صاحب الديوان» إلى الشيخ ورد الشيخ عليه . و يبدو فى هذه الرسالة الأسـلوب المرح الظريف . كذلك يتضح فى أشعارها لطف العبارة وحسن الاختيار . على أنه يظهر أن جامع هذه الرسالة أضاف إليها كثيراً مما لا يحتمل وقوعه كالعبارة :

« بارها غلام ديده أست كه خواجه شمس الدين خروار زر بشيخ ميفرستاده است ، أز بهر علفهٔ مرغان ، وشيخ آن زرها قبول نمى فرموده است » .

فلم يبلغ الأمر هذا الحد . فإن شمس الدين كان لا يجـد فى خزينة هولاكو وآباقا — فى أى وقت — حمل دابة ذهباً ، ليرسـلها — كلها أو بعضها — إلى الشيخ ، فيردها الشيخ بدوره[1] .

٤ — الرسالة الرابعة : وهـذه الرسالة فى جواب « سعد الدين »[2] على سؤال له . هل العقل وسيلة المعرفة والوصول أم العشق ؟ ؟ و يرد الشـيخ على سؤال « سعد الدين » هذا جواباً لطيفاً سـديداً .

---

(١) كانت مكانة شمس الدين وأخيه علاء الدين فى الدولة مكانة سامية . ولاحظنا مبلغ صلة الشاعر بهما ومدائحه فيهما . فلعل الرواة والنساخ لاحظوا هذه الصلة فزيفوا بعض القصص لتمثيل هذه الصلات . وإن كان ذلك لا يمنع من مكانة الشاعر فى نفوسهم وتقديرهم له . وانظر هذه الرسالة فى كليات فروغى ص ٤٠ — ٤٢

(٢) يذكر المؤلف فى الهامش بعض الخلافات بين النسخ المخطوطة والمطبوعة بشأن هذه الرسالة . ثم يستطرد بقوله لاعلم لنا بسعد الدين هذا ؟ ج ٣ ص ١١٩ . وانظر كليات فروغى ص ٤٣ — ٤٤

وتعتبر هـذه الرسالة فى عداد رسائل الشاعر الصوفية ، وأسلوبها على العموم سهل مجرد من التكلف ، شبيه بأسلوب « الگلستان » . وقد ضمنها الشـاعر كثيراً من أشعاره الجيدة .

و يمكن أن تعد هذه الرسالة ، ومجالسه فى التصوف ، مع كتاب « جلال الدين الرومى — فيه ما فيه » من أقدم ما كتب فى النثر الفنى الصوفى .

٥ — الرسالة الخامسة : وتسمى رسالة « نصـائح الملوك[١] » . وهى أسهل رسائله وأبسطها . تفوق أسلوب « الـگلستان » فى بساطتها . وأغلب هـذه الرسالة كلمات قصـيرة ذات دلالة صـوفية . و يورد من مكان لآخر حكاية — على سبيل التمثيل — يضمنها أصول الحـكم ، والدعوة إلى رعاية الرعية ، فى عبارات موجزة فصيحة .

٦ — الرسـالة السادسة : وهذه الرسالة ثلاثة أقسام[٢] :

(ا) والقسم الأول منهـا يدور حول لقاء الشيخ — حين عودته من مكة فى طريقه إلى تبريز — « الصاحبين » وهما فى صحبـة « آباقا خان » . فلمـا رآه الصاحبان ، ترجلا عن جواديهما ، وقبلا يديه ورجليه . وتمضى القصة فتقول إن آباقا سأل الصاحبين عمن يكون الشيخ ؟ ؟ ثم طلب آباقا أن ينصحه .

على أن الـكثيرين من النقاد يرون — و يرى المؤلف رأيهم — أن هـذه القصة بعيـدة الوقوع . فقد ورد فيها شعر بالفارسـية لا يستطيع آباقا أن يفهمه . كما أنه يصعب عليه فهم بعض المعانى الواردة فى عباراتها عن التكاليف الإسلامية .

(ب) والقسم الثانى فى نصيحة الأمير « پا نكيانو » وهذه الرسالة لاخلاف فى نسبتها إلى سعدى، وهى من حيث أسلوبها سلسة شبيهة بأسلوب النثر الذى ورد فى القطعة المعروفة بالديباجة ، و بعض مجالسه الخمس ، و إن كان يبدو فيها بعض سجعات

---

(١) كليات فروغى ص ٤٧ — ٦٤ (٢) نفس المصدر ص ٦٥ — ٧٠

لكنها سجعات مألوفة طبيعية . وهذه الرسالة فى مجموعها ترمى إلى سن قواعد فى رسوم السياسة ، والحكم ، وحسن معاملة الرعية .

(ج) القسم الثالث : وهذه قصة تدل على مبلغ احترام الشيخ عند حكام فارس وعمالها وترتبط بشخصية « شمس الدين تازيكو » مع أخى الشاعر ، حيث كان يعمل فى بيع سلعة التمر . وقد أشرنا إلى هذه القصة سابقاً . ولا رأى للمؤلف « صاحب سبك شناسى » فى أسلوبها ، فإنه يراها من وضع جامع الكليات .

٧ — الكلستان : يمكن أن نجد فن « سعدى » وشخصيته واضحين فى هذا الكتاب . وهو يكشف لنا عن شخصيته فى الكتابة . والكتاب — على صغر حجمه — كبير الفائدة ، عظيم القيمة ، فلم يسبقه مثيل له ، ولا يحتمل أن يأتى نظير له كذلك .

وقصد المؤلف من هذا الكتاب أن يضع كتاباً أخلاقياً اجتماعياً . وقد كتب فى أسلوب سلس ، لا يسأم القارىء تكرار تلاوته . وهو يفترق فى أسلوبه عن الأسلوب المتعارف فى عصره ، ففيه جدة وفيه طلاوة ، وليس فيه أثر من الأسلوب المكرر ، كما هو الشأن عند القدماء . وكما نجد عند الشاعر نفسه فى أسلوب بعض مجالسه .

والشاعر — فى هذا الكتاب — شبيه بالجاحظ فى العربية ، مزج فى أسلوبه بين الجد والهزل ، ويهدف فى كل عباراته إلى إيراد اللطائف التى تبعد السآمة عن القارىء .

كذلك ربط فى أبوابه بين التحدث عن سيرة الملوك وآدابهم ، بأخلاق الدراويش . وجمع بين فضيلة القناعة — وهى نوع من التسلية الاجتماعية — مع

فوائد الصمت . ثم فى باب العشق والشباب لمس جانب الولهى . وجعل هـذا الباب متصلا بباب الضعف والشيخوخة . وختم الـكتاب بباب التعليم التربية . وضمَّن هـذا الباب قصة « جـدال السعدى والمدعى » وهى من أهم ما كتبه سعدى [1] .

ثانيا ـ المنظومات :

٨ — ديوان البوستان : وتسميتنا له بالديوان صحيحة ، فأنه يضم ألواناً من الشعر فى أغراض مختلفة . كما أطلق الأسـتاذ « على دشتى » كلمة ديوان على مجموع شعر «الطيبات» . و يرد موضعه فى الـكليات بعد الـكتاب المنثور « الـگلستان » وقد أفردنا له البـــاب الثالث من هذا الـكتاب .

وترد بقية الألوان المنظومة فى الـكليات على الترتيب الآتي :

٩ — القصائد العربية : وتبلغ فى كليات فروغى اثنتين وعشرين قصيدة ، وهى فى الغزل ، والمدح ، والرثاء ، والشيب ، والموعظة . والغزليـات أغلبها . إذ تبلغ وحدها سبع عشرة قطعة ، وهذا القسم يبدأ بالقصيدة التى يرثى فيها الخليفة المستعصم وذكر واقعة بغداد — والتى مطلعها —

حبست بجفنى المدامع لاتجرى .

و يتخلل هذا القسم قطع قصيرة لا تبلغ مبلغ القصائد الطويلة ، ولا تتجاوز بعضها بيتين

١٠ — القصائد الفارسية : وهى تسع وثلاثون قصيدة فى المدح ، والنصائح ووصف الربيع ، والتوحيد ، والحنين إلى شيراز . فأما قصائد المدح فأغلبها فى صاحبى

---

(١) انتهى هنا تلخيص بعض ما كتبه الأستاذ « بهار » عن مؤلفات الشاعر المنثورة .

لديوان ، شمس الدين وأخيه علاء الدين ، ثم فى بعض ملوك الأتابكة وبعض ولاة فارس من قبل المغول ، وتبلغ قصائد المدح وحدها من تلك المجموعة ، إثنتى عشرة قصيدة ، وقد أشرنا إلى مدائح الشاعر عند التعرض للأشخاص الذين اتصل بهم ، وفى هذا القسم قصيدتان فى أوله ، إحداها ، فى مدح الذات الإلهية ، والأخرى فى مدح الرسول عليه السلام .

١١ — المراثى : وتبلغ سبع قطع . اثنتان فى رثاء « أبى بكر بن سعد » ، واثنتان فى رثاء ابنه « سعد » وقصيدة فى رثاء وزيرهما « فخر الدولة أبى بكر » ، وأخرى فى رثاء «عز الدين أحمد بن يوسف » ، والأخيرة فى زوال الدولة العباسية ، وقد أشرنا إليها عند التعرض لتاريخ هؤلاء الأشخاص .

١٢ — الملمعات : وتبلغ إحدى عشرة قطعة . وهى كلها غزليات صوفية . والملمع كما هو معروف لون من النظم الفارسى ، تمضى القطعة فيه على بحر واحد ، وقافية واحدة ، وتتخللها أبيات عربية ، من نفس البحر والقافية على نظام مختلف.

فقد يرد بيت فارسى يعقبه بيت عربى ، وقد يكون التلميع بعد بيتين أو ثلاثة ، وقد تكون شطرتا البيت ملمعتين ، وقد يتخلف التلميع على نظامه .

١٣ — المثلثات : وهى لون من التلميع يمضى على نسق مطرد ، ولكنها ليست على قافية واحدة ، على نهج النوع المعروف بالمثنوى ، وهى قطعة وحيدة ، فى النصيحة والارشاد ، تقع فى أربعة وخمسين بيتاً ، ومطلعها بيت عربى :

خليلى الهوى أنجى وأصلح ولكن من هداه الله أفلح

١٤ — الترجيعات : وهى قطع متفقة البحر ، مختلفة القافية ، فى نهاية كل قطعة منها يلتزم الشاعر إيراد بيت مكرر من نفس البحر ، مختلف القافية ، ويسمى هذا البيت بيت الترجيع ، وتسمى القطع التى يربطها هذا اللون بالترجيعات .

أما أغراضها فهى من المنظومات الصوفية ، التى اشتهر بها الشاعر ، وتبلغ هذه القطع اثنتان وعشرون قطعة ، لا تقل عـدد أبيات القطعة عن تسعة أبيات ولا تزيد عن أربعة عشر بيتاً .

١٥ — ديوان الطيبات: و يبدوفيها أنها قسم قائم بذاته، فهى تجمع لوناً واحداً من الشعر ، فى مجموعة من القطع ، أما لونها الشعرى فهى غزليات صوفية ، يلتزم فى كل واحدة منها ، ذكر تخلصه الشعرى ، وقد بلغت هذه القطع فى نسـخة «فروغى» ثلثمائة وخمسة وتسعين قطعة ، مختلفة القافية والبحر ، وقد رتبت القطع فى الـكليات حسـب حرف الروى الأبجدى .

والقطعة الأولى مطلعها البيت :

« أول دفتر بنـام إيزد دانا صـانع پرورد گـار حى توانا »

و يلاحظ فيها أن ابتداءها كابتداء أية كتاب يستهله صاحبه باسم الله .

ولعل ذلك هو الذى أوحى بالرواة ، وجامعى أشعار الشاعر أيضاً ، أن يضعوها تحت البسملة ، ولعل ذلك — بالإضافة إلى ضخامتها — هو ما يحدو ببعض النقاد أن يجعلوها قسما قائماً بذاته كذلك،وأن يطلق بعضهم عليها إسم « ديوان الطيبات» كما ذكر ذلك الأستاذ « على دشتى » فى كتابه « سـايه[1] » .

وقد تتبعت هـذا القسم ، مع بقيـة غزليات الشاعر جميعها ، فلم أظفر بأسماء أشخاص تاريخيين إلا فى ثلاث قطع منها ، تخلص فى إحداها بمدح « سعد بن أبى بكر » والأخرى بمدح ابنه « محمد » والثالثة بمدح ابنته « تركان خاتون » . وقد أشرنا إلى هذه القطع عند الحديث على صلة الشاعر بهؤلاء .

١٦ — البدائع : وتبلغ مائة وسبعاً وتسعين قطعة ، وموضوعها الغزل الصوفى كذلك . وقد رتبت فى الـكليات حسب حروف الهجاء ، يلتزم الشاعر فى آخر

---

(١) الأستاذ على دشتى فى كتابه سايه ص ٩٦

كل قطعة ذكر تخلصه الشعرى على نمط الغزليات فى الفارسية ، وقد افتتحت هذه المجموعة فى كليات فروغى بهذه الغزلية العربية .

الحمد لله رب العالمين على ما در من نعمة ، عز اسمه وعلا

وهذه الغزليات أغلبها فى حيز العشرة أبيات ، وقد تنقص حتى تبلغ أربعة أبيات كالغزلية الدالية التى مطلعها :

زنده شود هركه بيش دوست بميرد

كما لاحظنا أن إحدى الغزليات جاوزت العشرين كالغزلية الدالية التى مطلعها :

إينان مگر زرحمت محض آفريده اند

فبلغت ثلاثة وعشرين بيتاً .

ولكن هذا التخلف — إن كان نقصاً أو زيادة — نادر . أما الأعم الأغلب من ذلك النوع فيقع حول عشرة أبيات .

وقد طبع هذا القسم المعروف بالبدائع مستقلا ، ونشر نشراً علمياً « بأوروبا ببرلين سنة ١٣٠٤ هـ . ش . تحت عنوان « بدائع سعدى الشيرازى » .

١٧ — الخواتيم : وعدد قطعها سبع وستون قطعة ، وموضوعها الغزل الصوفى كذلك ، ويبدو من اسمها أنها نظمت آخر ما نظم الشاعر من هذا اللون ، وقد رتبت فى الكليات كذلك حسب حروف الهجاء . وأولها قطعة فى مدح الذات الإلهية ومطلعها :

ثنا وحمد بى بايان خدارا .

كذلك يلتزم الشاعر فى نهاية كل قطعة منها إيراد تخلصه الشعرى ، والقطعة الأخيرة من الخواتيم ، هى التى تردد وجودها فى بعض نسخ « الكلستان » فى المطلع . يحكى فيها الشاعر ما آل إليه العالم من اضطراب وفتن مما حمله على الهجرة ، والرحيل ، وترك موطنه ، فى قوله :

وجودم بتنگ آمد أز جور تنگی

١٨ — الغزليات القديمة : وتبلغ ستة وثلاثين غزلية . وهى التى نص على أنها غزليات صراحة ، ووصفها بالقدم يوحى بأنهـا من أول ما أنشده الشاعر ، والقطعة الأولى منها مطلعها .

دل هركه صيد كردى نكشد سر أز كمندت

١٩ — الصاحبيات : وهى قطع صغيرة ، يلتزم فيها الشاعر القافية فى كل . القطع ، فهى من نوع القصائد لكنها قصيرة ، تأتى أغلبها فى بيتين ، وأول هذه المجموعة ، قطعة فى بيتين يمدح فيهما الرسول عليه السلام تحت عنوان . « درستايش پيغمبر » ثم تعقبها قطعة أخرى فى مدحه كذلك ، فى خمسة أبيات . و بعدها قطعة عر بية يمدح فيها الصاحب الصدر الكبير ، والمقصود به « شمس الدين الجوينى » ومطلع هذه القطعة .

ما هذه الدنيـا بدار مخلد

وهـذه القطعة ترد مباشرة بعد القطعتين الأوليين ، اللتين فى مدح الرسـول عليه السـلام ، ومن هنا أمكن أن نربط بين تسمية هـذه المجموعة « بالصاحبيات » ، و بين التعقيب بمدح الصاحب « شمس الدين الجوينى » بعد مدح الرسول عليه السـلام .

على أن هذه المجموعة يتردد فيها مدائح أخرى ، قصيرة فى أشخاص مجهولين وإن دلت على أن الممدوح أحياناً ملك أو أمير .

٢٠ — المثنويات : وترد على النظم المعروف بالمثنوى ، وكثير منها يرد فى بيتين ومن بين هذه المجموعة ، قطعتـان بعنوان « حكايت » الأولى مطلعها .

پيرى أنـدر قبيلهٔ ما بـود كه جهانديده‌تـر ز عنقا بـود

وتمضى القصة فى تسعة عشر بيتاً ، على هذا اللون المعروف بالمثنوى .

ومطلع الثانيــة :

ألا گر بختمند وهوشيارى بقول هوشمند ان گوش دارى

وتمضى القصة فى سبعة وثلاثين بيتاً ، وهذه المثنويات جميعها ذات مطالب صوفية ، من لون مطالبه فى « البوستان » .

٢١ — القطعات : ويلتزم الشاعر فى هذا القسم القافية ، وإن لم تكن هذه القطع طويلة كثيرة . فلا يتجاوز أطولها عشر أبيات ، وأغلبها فى بيتين أو ثلاثة . وهى نصائح ، وحكم ، ومواعظ ، من أمثال ماجاء فى « البوستان » .

٢٢ — الرباعيات . وتبلغ مائة وأربعاً وثمانين رباعية . وهى فى النصيحة والحكم .

وقد رتبت فى الكليات حسب حروف الهجاء ، ومطلعها الرباعية الآتية :

هر ساعتم اندرون بجوشد خون را وآگاهى نيست مـــــردم بيرون را

٢٣ — مفردات : وهى أبيات مختلفة الوزن والقافية ، وأغراضها مختلفة كذلك . لا تربط بينها وحدة فى الوزن أو الموضوع .

* * *

وفى ختام هذا الفصل يعرض لنا هذا السؤال . أى هذه الألوان بدأها الشاعر نثراً ونظماً ؟ ؟ وهل يمكن وضعها مرتبة من حيث الزمن ؟؟ .

أما الإجابة على السؤال الأول . فالألوان المنثورة عرف زمن بعضها من موضوعها، كالقطع التى تعرض لشخصيات تاريخية ، وبعضها الآخر مجهول الزمن ، لكنها على أية حال كتبت بعد عودة الشاعر من رحلته الطويلة .

كذلك لا نستطيع أن نحدد بالضبط أى الألوان الشعرية بدأها الشــاعر ؟ ؟

لكن دائرة المعارف الإسلامية ، ترى أن قصائده وغزلياته على اختلافها — ما عدا الغزليات القديمة — نظمت كلها فى أخريات حياته ، كما ترى أن « الصاحبيات » قيلت فى صاحب الديوان « شمس الدين الجوينى » ولهذا سميت بالصاحبيات كما أن الطيبات عملت « لسلجوقشاه » آخر الأتابكة [1] .

اللغات التى كان يعرفها

أما اللغات التى كان يعرفها الشاعر ، فلا نقطع بغير معرفته العربية ، التى تبت أن له فيها قصائد ، وغزليات بحالها ، تضمنتها كلياته . كذلك تظهر فى قدرته على نظم النوع المسمى بالملمعات .

ولكن « براون » يرى أنه عرف الأردوية كذلك ، ويقول إنه عرفها إبان إقامته بالهند ، ويذكر أنه عثر على عينات من الشعر فى مخطوط تملكه الجمعية الأسيوية ، ولكنه لم يستطع أن يقطع بنسبته إليه [2] .

والواقع أننا لا نستطيع أن نتأكد من أن له شعراً بغير اللغتين الفارسية والعربية ، وهما لغتا العالم الإسلامى الذى أمكن أن يطوف فيه ، وأن يقيم طويلا ببعض نواحيه ، إقامة تمكنه من إتقان اللغة العربية ، اللغة المشتركة بين المسلمين ، فأمكنه التأليف بها .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية فى موضوع سعدى الشيرازى .

(٢) G. Browne : A Literary His. of Persia v. 2, p. 539

الفصل العاشر

منزلة الشاعر ومكانته

ردد الكثيرون من الشعراء القدماء ورجال التاريخ والأدب أحكاماً عامة على الشاعر، لا بأس أن نشير إليها هنا. فمن المعاصرين له، الشاعر «همام التبريزى» وقد كان من مشاهير الغزليين فى عصره، وصورنا سابقاً قصة لقائه هذا الشاعر فى تبريز. وسواء أصحت هذه القصة أم لم تصح؟ فان الشاعر «هماما» قد أثر له بيت من الشعر يصف فيه نفسه بالأجادة فى النظم، لكنه لم يبلغ فى إجادته مابلغه «سعدى الشيرازى».

همام راسخن دلفريب وشيرين هست ولى چه سود كه بيچاره نيست شيرازى (١)

ومن معاصريه أيضاً شاعر آخر مجيد يسمى «مجد همگر» يقول عن شعر «سعدى» إنه كالكعبة يؤمه كل الناس، كما يشبه فيض قلبه بزمزم.

أز سعدى مشهور سخن شعر روان جوى كو كعبه فضلست ودلش چشمه زمزم (٢)

وقد ظل الذين جاؤا بعده يفيضون كثيراً من ألوان التقدير له. وحتى «حافظ الشيرازى» — مواطنه والمشهود له — يجعل «سعدى» أستاذاً فى جميع فنون الشعر، ليس فى نظره — فحسب — بل فى نظر جميع الناس وذلك من بيته.

أستاذ سخن سعديست نزد همه كس أما دارد سخن حافظ طرز سخن خواجو (٣)

وممن جاؤا بعده، وأدركوا أيامه الأخيرة، الأمير «خسرو الدهلوى». وقد صورنا

---

(١) الدكتور رضا زاده فى تاريخ الأدب الفارسى ص ١٦٦ من النسخة المطولة

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٥

(٣) المصدر نفسه ص: ٢٢٦

ســابقاً مبلغ طموح هذا الأمير بأن يكون كـ « ســعدى الشيرازى » .

ومن فنون الشعر ما يجعله بعضهم أسبق فيها من غيره ، بل أكثرهم لها إجادة، ذلك هو فن الغزل .

فيذكر « دولتشاه » أن أنبياء الشعر ثلاثة ، كل واحد أستاذ فى ناحية ، لايجاريه فيها غيره . هم «الفردوسى» فى القصص ، « والأنورى » فى القصائد ، «والسعدى» فى الغزل .

در شعر سه تن پيمبرانند هر چند كه لا نبى بعدى
أوصاف وقصيده وغـزل را فردوسى وأنـورى وسعدى(١)

يؤيد هذا ما يذكره صاحب « حبيب السير » فيقول إن أحدا لم يبلغ مابلغه « سعدى » فى فن الغزل (٢)

ويورد الأستاذ « الگرگانى » فى مقـدمته على « الگلستان » عن صاحب تذكرة « شمع أنجمنى » أن سـعدى بلغ مكانه فى الغزل لم يدركها أحد قبـله . فقد ألبسه ثوباً جديدا ، وكأنما كانت غزلياته دواء للولهي ، ولهذا يعدون ديوانه فى الغزل « ملاحة الشعراء » (٣) .

وكذلك ينقل « روس » فى مقـدمته على « الگلستان » قولا « لابراهيم خان » « ينبغى أن يفهم أن سـعدى أول من غرس الشجرة الأولى فى بسـتان الغزل (٤) » .

ويذكر «براون» فى مقارنة طويلة بين «حافظ وسعدى» كيف أن «حافظاً» استمد كثيراً من الأفكار التى تضمنتها أشعار « سعدى » فى الگلستان ، والطيبات، والغزليات ، والبدائع . وينتهى من ذلك بأن « حافظاً » يعد مدينا إلى حد كبير للشاعر «سعدى (٥) » .

---

(١) دولتشاه — تذكرة الشعراء ص ١٠ (٢) حبيب السير ص ١٣٠
(٣) الگرگانى — مقدمة الگلستان ص — يب .
(٤) Ross: Sadi's Gulistan p. 23
(٥) G. Browne : A Literary History of Pers. v, 2. p. 539

ويرى الأستاذ « آربرى » أن الشاعر الحق ، والكاتب المبدع هو الذى يجمع بين سمو الفكرة وطرافتها ، مع رقة العبارة وسلاستها ، ومن هنا كان السبب فى إعجاب الكثيرين من الفرنسيين « بسعدى » فقد أعجب به « ديدرو » وأطراه « فولتير » وأشادت به « مدام رولان » وقال عنه « رينان » إن « سعدى » فى الواقع واحد منا . كما قال عنه «باربييه دى منار » إننا نجد فيه مايذكرنا ببلاغة « هوراس » ورقة « أوفيد » وفصاحة « دى ريباليبه » وإنسانية « لافونتين » . ولهذا السبب أصبح الرجل — ذو الأسلوب البديع — أنموذجاً يحتذيه كل من يتعلم الفارسية (١) .

ونختتم هذه الآراء بما سجله الأستاذ « على دشتى » سفير إيران حالياً بمصر فى مقال له عن مقارنة بين « سعدى وحافظ » نشره فى كتابه « سايه » وانتهى فيه إلى هذا القول .

« بر خلاف سعدى كه ملك سخن بر أو مسلم أست . سعدى رب النوع فصاحت وبلاغت أست . خداوند زبان پارسى أست ، أگر دعوى پيغمبرى ميكرد . ومعجز خود را كتاب بوستان وديوان طيبات قرار ميداد بى شبهه كس نميتوانست إين دعوى را رد بشكند ، كليات شيخ بمنزلهٔ قرآن زبان پارسى أست » (٢) .

وترجمة هذه العبارة « وهذا على خلاف سعدى فان مُلْك الكلام قد سلم إليه ، فسعدى رب الفصاحة والبلاغة ، وهو رب الأدب الفارسى إذا ادعينا النبوة ، وإعجازه هو البوستان وديوان الطيبات ، ولا يستطيع إنسان أن ينقض هذه الدعوى ، فكلياته بمنزلة القرآن فى الفارسية ،

(١) Arberry : Kings & Beggars p. 15

(٢) انظر — سايه للأستاذ على دشتى . ص ٩٦

الباب الثالث

ديوان «البوستان»

القسم الأول

دراسات تاريخية على «البوستان»

الفصل الأول

البوستان أملته حوادث العصر وظروف الشاعر

لم يكن الدافع لهذا اللون من شعر البوستان أمراً عرضياً ، رغب إليه الشاعر لمجرد الترويح عن النفس ، ولكنه كان استجابة لمجموعة من العوامل ، أحاطت بالشاعر ، فأثرت فيه ، فاستجاب لها ، فأنتج هذا اللون من الشعر الأخلاقى التعليمى .

و إذا رجعنا إلى الوراء قليلا ، تبين لنا مما عرضنا له سابقاً أن هناك عوامل عامة أحاطت بالبيئة نفسها ، وظروفاً خاصة عاش فيها الشاعر نفسه ، فأثرت فيه هذه وتلك كما رأينا ، وأدت فى النهاية إلى أن يسير فى الاتجاه الذى رسمته له .

و يمكن رد هذه العوامل والظروف إلى أربعة أشياء .

١ — الأحداث السياسية العامة التى أحاطت بالبيئة الإسلامية إبان نشوئه ، وأصابت المجتمع الإسلامى بما أصيب به فى أحداث المغول وفى أعقابها ، وما آل إليه هذا المجتمع من الانحلال والاضمحلال .

فرأينا أنه نفر من رؤية العالم مضطرباً ، كما يضطرب شعر الزنجى ، وأن الناس أخذ بعضهم برقاب بعض كالوحوش الكاسرة .

وتخلف عن هذه الأحداث التى أصابت البيئة الإسلامية ، مجتمع مريض تناوبته أمراض مختلفة ، فكان الشاعر أمام هذا المجتمع بمثابة الطبيب يعالج هذه الأمراض ، أو بمثابة المصلح الاجتماعى ، يرشد هذا المجتمع الجامع ، الذى أخذ يهيم فى الحياة الجديدة ، يلتمس الدعاة و يترقب المرشدين .

بل كان الشاعر بمثابة رسول أرسلته البيئة الإسلامية لإنقاذها ممـا أصابها وأصاب المجتمع عامة .

وما رسالة الرسول ؟ ؟ أليست لإصلاح مجتمع فاسد ، مثل ذلك المجتمع الذى تناول تصويره أيضاً أديب ومؤرخ معاصر له — ممن شاهدوا كوارثه وآثامه — ذلك هو « علاء الدين الجوينى صاحب جهانگشاى » . فقد صور هذا العصر كذلك تصويراً يدل على مبلغ ما وصل إليه من الانحلال ، فى عبارة نأخذمنها قوله ، مستشهدا .

كم أردنا ذاك الزمان بمدح فشغلنـا بذم هذا الزمان

وفى قوله ، مشيراً إلى مدى انقلاب الأوضاع الاجتماعية .

رأيتُ الدهر يرفع كل وَغدٍ ويخفض كل ذى شِيَم شريفه
كَمَثل البحر يُغرق كل دُرٍّ ولا تنفك تطفو فيـه جيفه

وفى قوله يمثل هذا الانقلاب .

« صار كل واحد من السوقة ،فى زى أهل الفسوق أميراً ، وكل حقير وزيرا ، وكل جاهل كاتبا ، وكل شيطان نائب ديوان ، وكل خسيس رئيسا ، وكل غادر قادرا » (١) .

٢ — هذا من ناحية تأثير الحوادث العامة فى الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر . وقد ذكرنا آنفاً أن فارس وحدها اجتازت هذه المحنة فى سلام ، وعاشت شبه ناعمة فى حياة دينية ، هيأها « سعد بن زنگى » ورعاها ابنه « أبو بكر » من بعده .

وقد أتينا فى تصوير الحياة العلمية فى عهد «أبى بكر» أنه كان محباً للعلوم الدينية، مشجعاً لها إلى حد بلغ كراهيته للعلوم الأخرى ، وبخاصة العلوم الفلسفية ، وكره رجالها حتى أرغمهم على الخروج من فارس .

---

(١) جهانگشاى ج ١ ص ٥

كما أثبتنا من أقوال الشاعر نفسه ، مدى ما كانتْ تعيش فيه فارس من طمأنينة ودعة ، مما جعله يشبهها فى عهده بالحرم الآمن . كذلك رأينا من أقوال الشاعر أن هذا الأمير ، كان محباً للعدل ، والجود ، مهتما برجال الدين ، ورعايتهم .

والحياة الخاصة نفسها التى سلكها الشاعر منذ طفولته على أيدى أبيه وأسرته ، وفى نشأته على أيدى أساتذته ومرشديه ، ساهمت كذلك فى توجيهه إلى تلك الحياة الروحية الصوفية .

فقد تربى الشاعر تربية دينية كما رأينا ، وانحدر من أسرة لها مكانتها فى العلوم الدينية ، وكان من شيوخه أحد مشاهير الصوفية الذين كان لهم تأثير كبير فى توجيهه ، وهو الشيخ « شهاب الدين السهروردى » . وكثيراً ما كان الشاعر يتغنى — فيما بعد — ببعض رجال الصوفية من أبناء شيراز ، الذين كانت لهم مكانة ممتازة بين رجال الدين والتصوف . ونخص بالذكر منهم الشيخ « روزبهان » المتوفى سنة ٦٠٦ هـ والذى كان يجله « سعد بن زنگى » وابنه « أبو بكر » . والشاعر يذكره فى إحدى قطعه مقسما به ، فى قوله :

بذكر وفكر وعبادت بروح شيخ كبير بحق روزبهان وبحق پنج نماز

والمراد بالشيخ الكبير هنا « أبو عبد الله الخفيف » أحد مشاهير الصوفية المتوفى سنة ٣٣١ هـ .

كان لهذا كله أيضاً آثاره فى تلوين حياة الشاعر وتكييفها ، بل فى توجيهها الوجهة التى سارت فيها ، وخصوصاً بعد أن عاد من رحلاته ، فوجد شيراز تحت رعاية هذا الأمير ، وعاش فى كنفه .

فلما استظل الشاعر بظل هذا العهد ، وشاهد تلك الروح الدينية التى كان يدعو إليها الأمير « أبو بكر » رغب أن يساهم بنصيب فى التوجيه إلى تلك الناحية كذلك .

٤ — وكانت رحلاته الطويلة الشاقة . وانقطاعه عن موطنه مدة طويلة ، وتعرضه لبيئات ، وشعوب وأخلاق وعادات متباينة ، كل ذلك هيأ له دراسة مستفيضة ، تلقى فيها مختلف الدروس ، فى مختلف البيئات ، وعلى مختلف الشخصيات ، فكسب بذلك خبرة نافعة قلما يظفر بها غيره .

ولم يرغب من ناحيته أن تكون هذه التجارب ، وتلك الخبرة وقفاً عليه وحده ، بل أراد أن يلقى عصارتها إلى الناس ليستفيدوا منها ، فجعل من نفسه المرشد ، وجعل من نفسه الأستاذ ، وجعل من نفسه المصلح ، يهيىء للناس سواء السبيل، ويهديهم طريق الرشاد . فكان له هذا النوع من الشعر الأخلاقى التعليمى ، الذى ربط بين سمو الفكرة ، وحكمة العبارة .

والشاعر فى مقدمة كتابه « البوستان » يشير إلى ذلك تحت عنوان « سبب نظم الكتاب » ويفتتح القطعة بهذه الأبيات :

— لقد تجولت كثيراً فى أنحاء العالم
وأمضيت — بين الناس — كثيراً من الأيام
— وتمتعت فى كل ناحية من نواحيه
وحصلت من كل بيدر على سنبلة » [1]

إلى أن يقول :

— لقد قلت لنفسى إنهم يأتون من مصر بالسكر
فماذا أحمل إلى الأحباب فى عودتى [2] ؟

---

(١) در أقصاى عالم بگشتم بسى — بسر بردم أيام باهر كسى
تمتع زهر كوشهٔ يا فتم — زهر خرمنى خوشهٔ يافتم
مقدمة ب ٩٩—١٠٠ نسخة Graff

(٢) بدل گفتم أز مصر قند آو رند — بردوستان أر مغانى برند =

— عدت آسفاً ! ! فإني من كل ذلك البوستان
أعود خالى اليـد ، لا شيء فيها للأحبـاب
— لـكني قلت ، ولو أن يدك خلت مما تحمله
فإنك تملك الكلام ، والكلام عندك خير من السكر
— ليس هو ذلك السكر الذى يتناوله عامة الناس
بل هو السكر الذى يدونه أرباب المعـانى »

نعم ! ! لم يكن هذا السكر ، سوى تلك النصائح القيمة ، التى كان يطويها فى قصصه ، فيلقيها إلى الناس ، يعرض فيها للداء ، و يخفى فيها الدواء ، فهو مرشد كما هو طبيب .

ولقـد كرر الشاعر فى كثير من المواطن ، مدى شعوره بالمرارة ، فيما يلقى إلى الناس من هذه النصائح ، تلك النصائح التى يحدثك عنها بقوله :

« إذا كانت النصـيحة بريئة من الغرض
فهى كدواء مر المذاق دافعـة للمرض [(١)] »

وكثيراً ما كان السعدى يخفف عن أتباعه مرارة هذه الأدوية فى مثل قوله :

— إن المـادحين لك ليسـوا من أحبـائك
وأصدقاؤك وحدهم هم الذين يطوون لك صادق الحب [(٢)]

= دريغ آمدم زان همه بوسـتان — تهى دست رفتم سوى دوسـتان
مرا گر تهى بود زان قند دست — سخنهاى شيرين ترأز قنـد هست
نه قندى كه مردم بصورت خورند — كه أربـاب معنى بكاغد برنـد
مقدمة ب ١٠٣ — ١٠٦ نسخة Graff

(١) نصيحت كه خالى بود أز غرض — چو داروى تلخست ذفع مرض
باب العدل ٥٨٨ نسخة Graff

(٢) ستايش سرايان نه يارتوأنـد — نكوهش كنان دوستدار تو أند =

— ومن الخيرأن يستمع الإنسان لسيرته من أعدائه

فعين الحبيب كليـــلة عن كل عيب

— أن إعطاء المريض ســكرا وبال عليه

وإنمـا الذى يفيـده ، أن تنـاوله دواء مرا »

هذا هو السكر الذى يشير إليه الشاعر ، وذلك هو الدواء الذى يعرضه لعلاج تلك الأمراض .

ولعل الحياة الاجتماعية كانت فى عهده أحوج ما تكون إلى مثل هذا السكر ، الذى يشير إليه الشاعر ، ولعل هذا الانحلال الخلقى الذى ساد المجتمع ، ولعل هذا التعطش إلى حياة صوفية تلجأ إلى الله ، وتفر إليـه من أهوال تلك الحياة الدنيا وأرزائها ، لعل — كل ذلك — جعل هذه الظروف أكثر مناسبة لإخراج هذا اللون من الشعر التعليمى الأخلاقى .

عرض فيه الشاعر لإهداء النفوس الضالة ، وإرشاد الأرواح الحائرة ، وإقرار الضمائر القلقة . والشاعر نفسه يدرك أن علاج هـذه الأمور ، لا بد لها من جرأة فى بعضها .

فأما جرأته فتبدو فى كثير من مواقفه مع الأمير الذى كان يحكم فارس فى عهده :

— « يا ســعدى ! لا تسلك طريق التكلف

فإن كنت صــادقاً ، فهلم ، وتعـال ! [1]

= زدشمن شنو سيرت خود كه دوست ... هر آنچ أز توآيد بچشمش نكوست

وبالست دادن برنجور قنــد ... كه داروى تلخش بود سود مند

باب العدل ب ٧٤٩ — ٧٥١ نسخة Graff

(١) براه تكلف مرو ســعديا ... أگر صدق دارى بيـار وبيـا =

— إنك لتعرف الطريق والمليك خلفك سالك لها
و إنك لتنشد الحقائق ، والمليك سميع لها »

وكان لابد له أن يتجرد كذلك من الهوى ، ومن الحاجة ، وأن يترفع فى مطالبه ومقاصده ، حتى يكون شجاعاً ، مقداماً ، فى نصائحه الملوك والعظماء .

وكيف يتسنى له أن يجعل من نفسه مرشداً ، أو ناصحاً ، ما لم يكن شجاعاً . يقول عن نفسه :

— « يا سعدى ! لقد تشجعت فى القول ،
وما دام السيف بيدك ، فتول به الفتح
— وقل كل ما تعرفه ، فمن الخير أن تقول الحق ،
فلست مرتشياً ولا مرائياً .
— إن الطمع قيد ، فاقطع بحكمتك هذا القيد
واقض على الطمع ، وقل كل ما تريد [(1)] » .

وهكذا مضى الشاعر يحمل بيده القلم ، و بلسانه النصائح ، وتحلل من كل أعراض الدنيا ، ووهب نفسه لإصلاح هذا المجتمع ، وجعل طريق هذا الإصلاح كتابه « البوستان » .

= تو منزل شناسی وشه راه رو — تو حقگوی وخسرو حقایق شنو
باب العدل ب ٥ — ٦ نسخة Graff

(١) دلیر آمدی سعدیا در سخن — چو تیغت بد ستست فتحی بکن
بگوآنچه دانی که حق گفته به — نه رشوت ستانی ونه عشوه ده
طمع بند ودفتر زحکمت بشوی — طمع بگسل وهرچه خواهی بگوی
باب العدل ب ٣٢٥ — ٣٢٧ نسخة Graff

الفصل الثاني

هل كان الكتاب يسمى البوستان أولا ؟

أثبت الأستاذ «القزويني» في الفصل الذي كتبه «ممدوحين شيخ سعدى» صفحة مأخوذة على ورقة بالفوستات عن مخطوطة في متحف لندن كتابتها سنة ٧٢٠ هـ كتب تحتها بالخط المطبوع هذه العبارة :

« نسخهٔ گلستان و بوستان موزهٔ لندن تاريخ كتابت ٧٢٠ هـ » وهي بعد ورقتين — بالفوستات أيضاً — في مواجهة صفحة ١٢٢ من كتاب «سعدى نامه» .

وهذه الصفحة هي آخر الباب العاشر من «البوستان» وقد كتب تحت آخر بيت من الباب الأخير « باب المناجاة » ، هذه العبارة « وقد فرغ من الانتساخ هذه[1] الكتاب » وهي مكتوبة بخط الثلث بقلم عريض . وفي شبه زاوية لمثلث كتب تحت هذه العبارة عبارة أخرى بالخط النسخ الرفيع . تبدأ بهذه الكلمات «يعرف بالسعدى نامه في شهر صفر » وذلك في السطر الأول من تلك العبارة.

كما يذكر الأستاذ «الكركاني» في مقدمته على الكلستان أن إحدى النسخ الخطية للبوستان المؤرخة سنة ٨٤٨ هـ كتب في نهايتها هذه العبارة « فرغ من تحرير هذه الكتاب سعدى نامه[2] » .

ولكن الأستاذ « تويسركاني » يذكر أن هناك بيتاً يرد في مقدمة إحدى النسخ القديمة يصرح باسم الكتاب بأنه « بوستان » وذلك في قوله :

---

(١) وردت العبارة هنا بتأنيث كلمة كتاب كالعبارة الآتية في الكلستان أيضاً .
(٢) الكركاني — مقدمة الكلستان ص — ق

زبهرتماشا گه دوستان   كتابى است نام خوشش بوستان (١)

ومعناه : « من أجل نزهة للأحباب ، نظمت هذا الكتاب ، وسميته البوستان » .

فإذا صح هذا ، فهو يفصل فى الموضوع إلى حد كبير .

وفى النسخ المتداولة نفسها كثير من الأبيات ، يرد فيها ذكر لكلمة « بوستان » ، وإن كان استخدامها ليس فى الدلالة على اسم الكتاب ، ولكن على ما يحتويه . ومنها :

دريغ آمدم زانهمه بوستان   تهيدست رفتم سوى دوستان

وفى قوله :

گل آورد سعدى سوى بوستان   بشوخى وفلفل بهند وستان

ففى البيت الأول يأسف لأنه عاد من كل ذلك البوستان — البلاد التى رحل إليها — خالى اليد إلى أصدقائه .

وفى البيت الثانى جاء يحمل الورد إلى البوستان . فما جاء به لا قيمة له . وهذا تواضع منه فى أن ما نظمه ، ليس موضع فخر ولا إعجاب ، فهو من قبيل التواضع .

ولكن مدلول البيتين يوحى بأن كتابه هذا شبيه بالبوستان ، فيه كثير من الورد وكثير من الشذى ، وفيه ما يرضى الأصدقاء .

ومن المعروف أن الشاعر نظم هذا الكتاب قبل أن يؤلف كتابه الآخر « الكلستان » فلعله أطلق عليه أولا « سعدى نامه » . فلما أنشأ كتابه الثانى وسماه « الكلستان » ، من المحتمل أن يكون قد اتجه إلى تعديل اسم الكتاب الأول ، فيما كتبه من النسخ الأخيرة . أو أن النساخ — فيما بعد — قصدوا

---

(١) سخن سعدى ص ٣٥ .

إلى المجانسة بين الاثنين فكان الأول « بوستان » والثانى « گلستان » ، ثم غلبت تسمية « بوستان » على « سعدي نامه » بمضى الزمن حتى صارت علماً على هذا الكتاب ، وأغفل الناس أمر التسمية الأولى .

أما فى أى الأوقات نظم هذا الكتاب ؟ وهل تم نظمه على دفعة واحدة أم على دفعات ؟ فكل هذا لا يستطاع القطع به ، ولكنا نرى الشاعر يقول فى بيتيه الآتيين ، إنه أتم الكتاب سنة ٦٥٥ هـ بين عيدين من الأعياد .

بروز همايون وسال سعيد   بتاريخ فرخ ميان دو عيد
زششصد فزون بود پنجاه و پنج   كه پر درشد إين نام بردارگنج

وهذا كل ما يصرح به الشاعر . ورأينا من المحدثين وعلى رأسهم الأستاذ القزوينى ، يرى أن الكتاب وردت فيه نصوص تحدث إشكالا من حيث أوقات نظمه . ثم يرى أنه عمل على أكثر من دفعة . قدمت النسخة الأولى إلى « أبى بكر » خلال حياته . ثم أضيفت إليه أجزاء أخرى ، كان من بينها — كما يقول — القطعة التى يمتدح فيها الأمير « محمداً شاه بن سعد بن أبى بكر » . وقد ترددنا فى صحة إسناد هذه القطعة إلى هذا الأمير ، ورأينا أنها أصلح لأن تكون فى أبيه « سعد بن أبى بكر » . ولكن ذلك لا يمنع من أن تكتب نسخ أخرى بعد حياة أبى بكر ، وتضاف فيها بعض قطع ، أو بعض أبيات ، أو تحذف منها بعض قطع ، أو بعض أبيات ، ما دامت حياة الشاعر نفسه قد امتدت بعد كتابة النسخة الأولى سنة ٦٥٥ هـ حتى سنة ٦٩١ هـ .

كذلك لا يبعد أن يكون الكثير من النسخ التى عملت بعد حياته ، قد لعبت فيها أيدى النساخ أو الرواة ، قصداً أو سهواً ، فكل هذا ممكن وجائز . ومن الصعب إدراكه بسهوله ، إلا ما يتعلق بأشخاص تاريخيين ، كما رأينا ذلك فى القطعة التى ناقشناها سابقاً وأثبتنا صحة إسنادها إلى الأمير سعد بن أبى بكر .

لمن قدم هذا البوستان ؟

لا يمكن القطع من كلام الشـاعر بأنه قدم الـكتاب — فعلا — للأمير « أبي بكر » حاكم الإماوة ، فالشاعر نفسه لم ترد عنه عبارة صريحة في هذا . كما أنه قد مدح هذا الأمير وابنـه في أول كتابه هذا . و بينما يرد نص في كتابه « الـگلستان » يفهم منه تقديمه إلى الأمير « سعد بن أبي بكر » في قوله :

على الخصوص كه ديباچهٔ هما يونش   بنام سعد أبو بكر سعد بن زنگيست

لا يوجد في الـكتاب الأول « البوستان » إشارة إلى تقديمه إلى « أبي بكر »

لـكن الأوضاع التي قدم فيها هـذا الـكتاب ، ووجود حاكم على الإمارة تمدحه الشـاعر في مقدمتـه ، وجعل البـاب الأول من كتابه هـذا ينطوي في — أغلب قصصه — على نصائح يتجه فيها إلى هذا الأمير في إدارة دفة ملـكه — مما سـنعرض له — ، كل هذا بالإضـافة إلى ترديد اسم هـذا الحاكم في كثير من القطع من هذا الـكتاب ، يؤيد — إلى حد كبير — تقديمه باسم هذا الحاكم

الفصل الثالث

البوستانه بين المثنويات

شاع فى الأدب الفارسى منـذ ظهوره ، النوع المعروف « بالمثنوى » تمضى المنظومة فيه على بحر واحد ، مختلف القافية لكنها تتفق فى شطرتى البيت الواحد .

وقد استخدم الشعراء الفرس ، هذا النوع فى آدابهم — فى مختلف اتجاهاتها — منذ القدم . ذلك لأنه يسعف الشاعر كثيراً بأن ينظم ما شاء له النظم ، مادام لا يلتزم قافية محدودة ، ولهذا ظهرت فيه مطولات كثيرة فى مختلف النواحي .

ويمكن أن نقسم المثنويات ، التى ظهرت فى الأدب الفارسى ، من حيث تناولها للموضوع ، أو علاجها لموضوع بذاته ، إلى ثلاثة أقسام هى :

١ — المثنويات فى الموضوعات التاريخية .

٢ — المثنويات فى الموضوعات الصوفية .

٣ — المثنويات فى الموضوعات التعليمية .

أولاً — المثنويات التاريخية :

فأما المثنويات فى الموضوعات التاريخية، فقصد بها نظم بعض حوادث التاريخ ، أو عصوره ، وقد بكر هذا اللون مع ظهور الشعر الفارسى . ففى العصر السامانى ، فى القرن الثالث الهجرى ، ظهر شاعر يسمي « أبو المؤيد البلخي » . كان من طلائع الذين نظموا القصص التاريخية باسم « الشاهنامه » . فكان ممن سبقوا الفردوسى فيها .

وفى العصر الغزنوى مضى هذا اللون من النظم ، فظهر على يد « الدقيقى » ، إذ نظم بعض حوادث التاريخ وهى قصة « گشتاسب » فى ألف بيت .

فاذا كان «الفردوسى» فقد بلغ بهذا اللون من النظم أعلى درجاته ، فنظم هذه الملحمة الكبرى ، التى عرفت باسم « الشاهنامة » وتبلغ حسب بعض الآراء ستين ألف بيت . وتعد أقصى ما بلغه الفن القصصى التاريخى فى الأدب الفارسى ، من حيث الإجادة ، والإتقان والشهرة ، وكانت — فيما بعد — مثاراً للتقليد ممن جاءوا بعد صاحبها . فقد رأينا كثيراً من الشعراء ينظمون القصص التاريخى عن أفراد . حتى كان « حمد الله المستوفى » فنظم حوادث التاريخ فى كتابه « ظفر نامه » فى خمسة وسبعين ألف بيت . لكن لم تكن للكتب التى سبقت الفردوسى ، أو التى جاءت بعده ، شهرة شاهنامته ، أو مكانتها فى الأدب الفارسى . فظل هو أكبر شاعر للملاحم فى ذلك الأدب ، لم ينزع مكانته أحد بعده حتى الآن .

ثانياً — المثنويات الصوفية :

وقد بكرت هذه أيضاً ، منذ ظهر الشعر الفارسى وكان من طلائع شعراء المثنويات الصوفية « أبو شكور البلخى » . عاش فى صدر العهد السامانى ، وتنسب إليه منظومة صوفية تسمى « آفرين نامه » ألفها سنة ٣٣٦ هـ .

ثم « أبو المؤيد البلخى » وقلت عنه سابقاً إنه تقدم « الفردوسى » فى نظم بعض قصص الشاهنامه . كذلك قد سبقه أيضاً ، فى نظم قصة صوفية دينية أخرى هى قصة « يوسف وزليخا » ، وبهذا يشير الفردوسى :

مر اين قصه را پارسى كرده اند   بدو در معانى بگسترده انـــد
يكى بو المؤيد كه أز بلخ بـــود   بدانش همه خويشتن را ســـتود

ثم جاء « العنصرى » ، فى العصر الغزنوى ، فنظم قصصاً مثنوية أخرى ، بعضها صوفى ، و بعضها غير صوفى ، ومن بينها قصة « وامق والعذراء » و « سرخ بت » و «خنك بت » و « عين الحياة » .

وجاء الفردوسى فنظم قصة « يوسف وزليخا » بعد انتهائه من نظم الشاهنامه تكفيراً له على نظمه قصص التاريخ الإيرانى المجوسى .

فلما جاء العصر السلجوقى ، وكانت تتجلى فيه الروح الصوفية ، ظهر من رجال التصوف «بابا طاهر» و «أبو سعيد بن أبى الخير» . ولكن الشخصية الصوفية ، التى غذت الروح الصوفية ، بكثير من قصصها فى هذا العصر وبالكثير من اتجاهاتها ، هى شخصية « السنائى » ، وكانت منظوماته كلها صوفية ، ومن بينها « حديقة الحقائق » و « طريق التحقيق » و «سير العباد إلى الميعاد » . وتروى له مثنويات أخرى هى « عشق نامه » و « عقل نامه » و « عفو نامه » .

وفى أخريات هذا العصر ظهرت شخصية صوفية أخرى ، من أعظم الشخصيات . ذلك هو « العطار » . نظم عدة منظومات تشرح عقائدهم ، وتبسط أحوالهم ومقاماتهم ، وأكثر من هذا اللون الصوفى . ومن كتبه الصوفية « منطق الطير» و « إلهى نامه » و « أسرار نامه » و « مظهر العجائب » و « لسان الغيب » .

فلما كان عصر المغول ظهر أكبر شاعر صوفى ، فى المنظومات المثنوية ، ذلك هو « جلال الدين الرومى » فى « المثنوى المعنوى » .

وقد اعترف جلال الدين بمنزلة أهم الشعراء الصوفيين قبله ، وهما « السنائى » « والعطار » فى قوله .

عطار روح بود وسنائى دو چشم أو ما أز پى سنائى وعطار آمديم

وفى قوله مشيراً إلى العطار :

هفت شهر عشق را عطار گشت ماهنوز أندر خم يك كوچه إيم

لكن مكانة جلال الدين فى الأدب الصوفى ، لاتدانيها مكانة أخرى ، بين شعراء الفرس بفضل « المثنوى المعنوى » .

ثالثاً — المثنويات التعليمية :

وهـذا اللون من المثنويات ظهر أيضاً منذ القدم . ظهر عند « الرودكى » الشاعر السامانى ، فى نظمه لقصة « كليلة ودمنة » . ثم مضى فى العصر السلجوقى فظهرت شخصية عرضنا لها سابقاً ، جمعت بين اللونين الصوفى العام ، والصوفى التعليمي . ذلك هو « السـنائى » فكان — كما أسلفنا — من أصحاب المثنويات الصوفية . وهو بجوار ذلك من رجال المثنويات التعليمية .

وكتابه التعليمى هو الكتاب المشهور بين مؤلفاته والمعروف « بحديقة الحقائق » . وقد قدم هـذا الكتاب إلى السلطان « بهرام شاه » السلجوقى . وقسم هذا الكتاب إلى عشرة أبواب .

فلما كان عصر المغول ، العصر الذى نشأ فيه « سعدى » كانت حاجة المجتمع إلى هذا اللون أسد ، وكانت الفكرة أطوع وأنظم ، وكانت حساسية الشاعر بالحاجة إلى هذا اللون شديدة ، فأخذ ينظم كتابه «البوستان» . وكان كتابه خير كتاب تعليمى أخلاقى ظهر فى الأدب الفـارسى .

و يبدو أن « السعدى » بدأ يقلد « السنائى » فجعل كتابه على عشرة أبواب كذلك ، ولعله تأثر به فى الفكرة ، والاتجاه ، فقلده فيهما . لـكنه عالج الموضوع بطريقته الخاصة ، التى كانت فيها روحاً ، وحياة ، مما جعلت كتابه « البوستان » أكثر مورداً من «حديقة السنائى» وجعلت شهرته بين شعراء الفرس الأخلاقيين، تأخذ المكانة الأولى .

وبهذا وصفته دائرة المعرف البريطانية فقالت : « إنه أكبر شـاعر أخلاقى ظهر فى فارس [1] » .

---

(١) انظر ترجمة الشاعر فى دائرة المعارف البريطانية . وقد اعتمدنا فى كتابة هذا الفصل على كتاب تاريخ أدبيات إيران للدكتور رضا زاده شفق . وما كتب فى مجلة مهر للأستاذ تربيت العدد ٨ — ١١ السنة الخامسة بعنوان «مثنوى ومثنوى گويان» .

الفصل الرابع

وصف أهم النسخ الموجودة من البوستان

رجعتُ فى هذا إلى ما سجل بمكتبة الجامعة من المخطوطات ، والمطبوعات . وهى من هذه الناحية أغنى المكتبات الموجودة بمصر .

وقد تخيرت من المخطوطات أتمها ، وأجودها ، وأبعدها قدماً ، ثم تخيرت نسخة من طبعات كل من إيران ، والهند ، وتركيا ، وأوروبا ، ونسخة المرحوم محمد على فروغى ، التى نشرت حديثاً بإيران .

وآخذ الآن فى وصف هذه النسخ .

١ — النسخة المخطوطة : هى أقدم النسخ كما قلت ، وأحسنها عناية ، وتبويباً ، ووضوحاً ، وأجودها خطاً . فضلا عن أنها كاملة النص ، سليمة . وقد كتبت على ورق جيد مصقول والنسخة بمكتبة الجامعة تحت رقم ٤٦٤ فارسى .

وأما كاتبها فهو « محمد بن جعفر الروشنى الشيروى » . انتهى من كتابتها أواخر شهر رمضان المبارك سنة ٩٧٨ هـ .

وتقع هذه النسخة فى مائة وخمسين ورقة ، مكتوبة بالخط الفارسى الواضح ، وتحدد القطع فيها بفواصل ذات خطين بالمداد الأحمر ، بينهما عنوان القطعة أو الباب بنفس المداد .

وبهامشها وداخلها شروح بالفارسية ، بخط فارسى رفيع ، وحجم غلاف الكتاب ١٧ سم طولا ، فى ١١ سم عرضاً ، أما أبعاد الإطار الداخلى ، الموجود فيه النص ، فيقع فى ١١½ سم طولاً ، فى ٦ سم عرضاً .



صورة للسلطان « ابو الفازى حسين بيقرا» من أمراء آل تيمور يجلس ومعه بعض رجال الحاشيه ، تصوير بهراد : عن النسخه الخطية من البوستان ص ٢ بدار الكتب

٢ — نسخة إيران : ولم نعثرعلى نسخة مستقلة من «البوستان» طبعت في إيران قديماً أو حديثاً ، وكل ما طبع منه كان ضمن الكليات .

وتخيرت منها — بعد مقابلتها — نسخة بالحجر أخذت في تبريز « دار السلطنة » في عهد السلطان « محمد شاه غازى » وتم طبعها سنة ١٢٥٨ هـ .

وهذه النسخة أقدم النسخ الموجودة طباعة ، فضلا عن أنها أحسن خطاً . لكن لاتوجد بها هوامش أو شروح ، وليس بداخلها فواصل .فهى تضع العنوان وسط الصفحة بالخط الفارسى الكبير بين الأبيات ، وقد يصعب أحياناً تمييز بدء القطعة ، نظراً لأن العنوان يقابل عدة سطور في النسخة .

وكان طبع هذه الكليات بإشراف « محمد تقى الحسنى الحسينى » والنسخة بمكتبة الجامعة تحت رقم ٥٨٠ فارسى .

٣ — نسخة الهند : وفى الهند طبع « البوستان » كثيراً — منفصلا وداخل كليات — وطبعه منفصلا أجود ، وأوفى . و بعضها به كثير من الشرح ، وفهارس ، ومعاجم للألفاظ .

وطبعات الهند تتفق كلها في عدد القطع ، وعنوانها ، ومطلعها . وقد تخيرت منها أوفاها ، وهى طبعة ظهرت فى ذى القعدة سنة ١٣١٨ هـ — سنة ١٠٩١ م فى مدينة « كامبور » وهذه النسخة بها شروح على الهامش بالفارسية ، تدور حول الصفحة فى صفين متوازيين ، وفى آخرها معجم مبوب حسب الحروف الأبجدية ، وموضوعة بالمكتبة تحت رقم ١٢٥٩٢ بالقسم العربى .

٤ — نسخة تركيا : طبع الكتاب فى تركيا طبعة مشروحة باللغة التركية . شرحت الألفاظ فى البيت ثم ينتهى الشرح بالمعنى العام له .

وهذا الشرح هو شرح « سُودِى البوسنوى » المتوفى سنة ١٠٠٠ هـ . ويقع فى جزئين فى مجلد واحد ، يتضمن الجزء الأول شروح القطع الأولى من مقدمات

الكتاب مضافاً إليها شروح أبواب العدل ، والإحسان ، والعشق . والجزء الثانى فى شرح بقية الأبواب .

وهذا الشرح أحسن الشروح وأوفاها . فلم يشرح «البوستان» فى لغة أخرى شرحاً وافياً مفصلا دقيقاً كشرح « سودى » .

ويشير صاحب « كشف الظنون » إلى أن الأتراك اهتموا بشرح « البوستان » ولكن شرح « سودى » أحسن الشروح ، وأبسطها ، وأقربها إلى التحقيق .

والنسخة التى اعتمدنا عليها فى مكتبة الجامعة تحت رقم ٣٣٩٢ تركى .

٥ — نسخة أوروبا : فى سنة ١٨٥٨ م نشر « جراف Graff » طبعة للبوستان عن نسخة «سُرُورى»[1] طبعها فى « فينا » وقدمها إلى أمير «ساكس» وكتب لها مقدمة مختصرة بالفرنسية وهى نسخة محققة ، جيدة صحيحة ، ليس بها تحريف أو سقط . كما أنها تشير إلى الخلافات بينها وبين النسخ الأخرى التى قوبلت بها .

ومن محاسنها أنها أثبتت النص فى أعلى الصفحة ، وجعلت الجزء الباقى منها فى بيان معانى المفردات ، دون شرح للبيت نفسه . ومن محاسنها كذلك أنها ترقم الباب كله مبتدئة بالعدد واحد حتى نهاية الباب . فمن السهل معرفة البيت بسهولة . كذلك جعل فى آخرها ثبتا للكلمات الصعبة ، التى أشار إليها خلال الشرح مبيناً صفحاتها التى وردت فيها .

لكنها بجانب ذلك لا تضع عناوين القصص فى مطلعها ، بل جعلتها آخر الكتاب بجانب الفهرس . كما أنها اختصرت عدد القصص ، وأدمجت الكثير منها فى بعضها . والنسخة موجودة بمكتبة الجامعة رقم ١٢٥٩٠ بالقسم العربى .

---

(١) شارح تركى آخر معاصر للشارح سودى .

٦ — نسـخة فروغى : هى نسخة للكليات جميعها ، صدرت بطهران أخيراً سنة ١٣٢١ هـ . ش . تحت إشراف المرحوم « محمد على فروغى » . نشرتها شركة التضامن العلمية ، وقد أشرنا إلى أن هـذه النسخة أخذت عن مخطوطة « على بن أحمد البيستونى » التى جمعها سنة ٧٢٦ هـ . وأعاد تنظيمها وتبويبها سنة ٧٣٤ هـ .

لكن هذه النسخة لم تنشر نشراً علمياً ، كما ينبغى ، ففيها الـكثير من الأخطاء المطبعية ، وليس لهذه الأخطاء مرجع فى الآخر ، كما أنها مجرد نص لا يقوم على مقارنة ، أو مقابلة بغيرها من النسخ التى سبق طبعها ونشرها ، ولهذا تضعف الثقة بها كما أشار إلى ذلك الأستاذ « آر برى » (١) .

أما طريق النسخة فى البوستان فإنها أجملت القصص التى تعتبر استطرادية داخل القصة ، وجعلت عنوان القصص كلمة « حكايت » . وخلال بعض القصص تضع فواصل من نجوم ثلاث ، وهذه ظاهرة لم توجد فى أية نسخة من النسخ التى ذكرناها سابقاً .

ولسنا ندرى هل هذه الفواصل موجودة فى نسخة الأصل أم أنها من عمل الناشر . ؟ ؟ وبعض هـذه الفواصل تحدد أحيانا بيتاً واحداً إذا ما انتقل الشاعر إلى معنى جديد فى داخل القصة ، وهذا ما يجعلنا نعتقد أن ذلك من عمل الناشر . فالانتقال عند الشاعر داخل الحكاية من فكرة إلى فكرة لا يقتضى الفصل ما دامت فى مجموعها تتصل بموضوع واحد .

وقد اعتمدنا على هذه النسخة عند الإشارة إلى الاستشهادات المختلفة من القصائد أو المراثى أو غيرها من مؤلفات الشاعر غير « البوستان » .

---

(١) Arderry : Kings & Beggars p. 23

أما استشهادات « البوستان » فلكى نطمئن على صحة رواية البيت راجعناه فى هذه النسخة ، ونسخة جراف ، ثم حددنا موضعه فى النسخة الأخيرة واتخذناها مرجعاً لصحتها ودقتها .

ومن المعروف أن الكتاب ينقسم إلى مقـدمة ، تحتوى بعض القطع فى مدح الذات الالهية ، والرسول عليه السلام ،ومدح أمير فارس أبى بكر ،وابنه ولى العهد، و بينها قطعة فى سبب نظم الكتاب . وبعد هذا يتضمن عشرة أبواب على الترتيب الذى يظهر فى الجدول الآتى :

ونحن نضع أمامنا مقابلة بين هذه النسخ من حيث عدد القطع فى كل منها .

الأبواب	مخطوطة [illegible]	نسخة إيران	نسخة الهند	نسخة سودى	نسخة Graff	نسخة فروغى
المقـــــدمة	٥	٥	٥	٦	٥	٥
١ — باب العـدل	٥٣	٥٢	٥٤	٥٦	٢٤	٢٠
٢ — باب الإحسان	٣٦	٣٦	٣٥	٣٦	١٦	٢٤
٣ — باب العشـق	٣١	٣٠	٢٨	٣١	٢٢	٢١
٤ — باب التواضع	٣٠	٣١	٣٠	٣١	٢٧	٢٧
٥ — باب الرضـا	١٧	١٥	١٦	١٧	٨	١٣
٦ — باب القناعة	١٥	١٤	١٦	١٦	٦	١٤
٧ — باب التر بية	٣٤	٣٣	٣٤	٣٤	١٢	٢١
٨ — باب الشـكر	١٦	١٦	١٦	١٧	٨	٩
٩ — باب التـو بة	٢٥	٢٣	٢٣	٢٥	١٣	١٩
١٠— باب المناجاة	٦	٦	٦	٦	—	٤

الفروق بين النسخ :

لا خلاف بين النسخ المختلفة فى عدد أبواب الكتاب . فهذا التقسيم راجع إلى عمل الشاعر نفسه . لكن الخلاف يبدو — كما رأينا — فى عدد القطع ، مما يشعر أن هذا التفاوت جاء من طريق النساخ والرواة .

والظاهر أن الشاعر نفسه كان لا يعنيه كثيراً وضع الحدود بين القصة والقصة، فأحياناً تكون الفكرة مبهمة ، أو الحادثة نادرة الوقوع ، فيحتاج الأمر إلى إيراد قصة أخرى للإيضاح ، أو للتدليل على إمكان الوقوع . كما أنه كثيراً ما يعقب على القصة ، أو يطوى فيها مثلا من الأمثال ، أو حكمة من الحكم ، ليؤكد المعنى فى ذهن السامع . ومن هنا اضطرب النساخ والرواة فى تحديد بعض القصص ، وأحياناً فى عدد الأبيات .

والنسخ التى عرضنا لها يتضح منها مدى الخلاف بينها فى العدد من ناحية القطع . وهذا الخلاف ليس ظاهراً كثيراً بين النسخ و بعضها ، إلا فيما بينها و بين نسختى جراف وفروغى .

ومرد هذا الخلاف ، أن القطع التى تعتبر عرضية ، أو من قبيل المثل أو النصيحة ، جعلت متصلة بالقصة الأصلية ، مرتبطة معها فى الفكرة . أما الذين توسعوا فى عدد القصص، فقد رأوا فى كل انتقال جديد مقومات القصة ، فاعتبروها قائمة بذاتها ، وكان ذلك هو الأعم الأغلب . ومن هنا يمكن لنا أن نطلق كلمة قطعة على جميع قطع الكتاب بدل أن نطلق كلمة قصة ، وذلك لعموم الأولى فى الدلالة ، وليمكن إدخال قطع المقدمة ، فهى ليست قصصاً .

و يمكن أن نوضح أسباب الخلاف بين النسخ ببعض أمثلة :

١ — من حيث التشقيق ، فى القصة بقصة أخرى ، يمكن أن نتخذ مثالاً على ذلك ، قصة تدور حوادثها حول «عمر بن عبد العزيز » وشفقته على الرعية .

تبلغ فى «جراف» خمسة وعشرين بيتاً ، تبدأمن رقم٣٣٤إلى رقم٣٥٨دون فاصلة .
لـكن نسخة سودى تجعلها قطعتين ، والمطلع واحد فى النسختين وهو :

يكى أز بز رگـان أهل تمـــــيز حكايت كند ز ابن عبد العزيـــز

تجعلها نسخة سودى فى سبعة عشر بيتاً ، تنتهي عند هذا البيت :

كس أز فتنه در پارس ديگرنشان نبيند مگر قامت مهو شـــــان

ثم تشقق من هذه القصة قصة أخرى تحت عنوان « حكايت » يتحدث فيهـا عن ذى وجه قمرى ، ممشـوق القوام كأنه السرور . فالبيت الســابق وهو الأخير فى القسم الأول ، كان فى الحديث عن الفتنة ، فاتخذ هذا وسيلة عند « ســودى » ومن جرى مجراه فى التقسيم ، لفصل القصـة عن بعضهـا وإن كانت القطعة الثانية فى إظهار المعنى الذى تضمنه البيت الأخير وتوكيده ، انتقل إليه الشاعر استطراداً . ومن هنا اتخذ النساخ هذا الانتقال وسيلة لفصل القصة عن بعضها .

٢ — ومن حيث اتساع القصة ، بأمثال أو نصائح ، نأخذ لهذا قصة فى « باب العدل » مطلعها :

زدرياى عمان بر آمـــد كسى سـفر كرده دريا وهامـــون بسى

تتفق نسخة « سودى » مع « جراف » فى المطلع ، وتختلفان فى العدد ، فعدد الأبيات عند « جراف » مائة وأربعة وأربعون بيتاً ، تبدأ بالبيت رقم١٢٢ وتنتهى عند ٢٦١

أما نسخة « سودى » فتفصل القصة عند البيت ٢٠٨ ، وتجعله مطلعاً لقطعة جديدة تحت كلمة « تمثيل » ، وهو :

ندا نم كجا ديدأم در كتـــاب كه ابليس را ديد شخصى بخواب

وتتفق معها النسخة المخطوطة ، ونسخة الهند ، مع اختلاف فى المطلع .

أما نسخة « تبريز » فتجعل القسم الأول من نسخة « سودى » يتضمن ثلاث قطع ، تضع الثانية منها تحت كلمة « مثل » وهى فى ثلاثة أبيات تبدأ بالبيت :

بخرده توان آتش أفرو ختــــــه   پس آنگه درخت كهن ســـوخته

ثم قطعة أخرى بعد الأبيات الثلاثة ، تحت عنوان « پند » أى نصيحة ، وتختتم هذه القطعة عند البيت الذى أشرنا إليه فى نسخة « سودى » .

ندانم كجا ديده أم دركتاب   البيت .

فالقطعة الواحدة — كما شاهدنا عند « جراف » — احتملت قطعتين عند « سودى » بعنوان « تمثيل » للثانية ، واحتمل النصف الأول عند « سودى » ثلاث قطع فى نسخة « تبريز » كانت الثانية تحت عنوان « مثل » والثالثة بعنوان « پند » .

ومن هنا كان مصدر الكثرة فى عدد القصص عند البعض ، وقلتها عند الآخرين .

فأما من حيث عدد القصص فى الباب ، فإنا سنختار التقسيم الذى ذهبت إليه نسخة « سودى » دون غيرها ، فإنها من هذه الناحية أكثر انتظاما وأصح من غيرها فى تحديد القصة .

وأما من حيث الدلالة على الأبيات أو أرقامها ، فسنختار لها نسخة «جراف» لأنها من هذه الناحية ، أصح النسخ التى بين أيدينا ، كما أن فيها كثيراً من الإشارات إلى الخلاف ، وهى بجانب ذلك أحسن النسخ طباعة ، و إخراجا ، وتحقيقا ، و إتقانا .

ونتهى من هذا إلى أننا استخدمنا كلا النسختين « سودى » و « جراف » الأولى للدلالة على عدد القطع ، وترتيبها ، والثانية للدلالة على مطلع القطعة ، ورقمه فى الباب ، وعدد الأبيات .

الفصل الخامس

أبواب الكتاب وموضوعها

قلنا سابقاً إن تقسيم الكتاب إلى أبواب ، من عمل الشاعر نفسه ، وقد أشار إلى ذلك فى قوله من القطعة الثالثة فى المقدمة «سبب نظم الكتاب» .

— حين أتممت هذا الصرح العامر ،
جعلت له من أبواب التربية عشراً .
— أحدها باب العدل والتدبير والرأى ،
وحفظ الرعية ، والخشية من الله .
— ثم وضعت أساس باب الإحسان ،
حتى يشكر المحسن فضل الله .
— وجعلت الثالث باباً فى العشق ، والسُّكْر ، والوجد
وليس فى العشق الذى يطلبه الناس بالقوة[1]
— والرابع باب في التواضع ، والخامس فى الرضا ،
والسادس فى وصف الرجل القانع .

---

(١) چو إين كاخ دولت بپرد اختم — برو در ده أز تربيت ساختم
يكى باب عدل است وتدبير و راى — نگهبانى خلق ، وترس خداى
دوم باب احسان نهادم أساس — كه منعم كند فضل حق را سپاس
سوم باب عشق است ومستى وشور — نه عشقى كه بندند بر خود بزور
چهارم تواضع ، رضا پنجمين — ششم وصف مرد قناعت گزين =

— والســـــابع باب فى عالم التربية ،
والثامن باب فى الشــــكر على العـافية .
— والتاسع باب فى التوبة وطريق الصواب ،
والعاشر باب فى المناجاة واختتام الـكتاب .

والشاعر فى هذه الأبواب جميعاً ، يحاول أن يرسم صورة الإنســان المثالى ؛ فكل باب منها علاج لمشكلة اجتماعية ، وهداية إلى حياة روحية ، وانصراف عن شهوات مادية ، ودعوة إلى تربية أخلاقية ، كل هذا كان يؤديه الشـاعر ، فى ذلك اللون من الشعر الأخلاقى التعليمى .

كان الشـاعر يخشى سطوة الملوك والحـكام فتعسف بالرعية ، فيضع لهـا « باب العدل » وهذا الباب ملائم لوضعه فى الـكتاب . فالملوك هم الطبقة الأولى فى الأمم ، وهم المشرفون على توجيه شعوبهم ، فيضع بابهم فى الأول .

وكان الشاعر يخشى إمساك الأغنياء ، ومسغبة الفقراء ، فيضع البـاب الثانى « باب الإحســان » وهو أيضاً ملائم لوضعه ، بجانب الباب الأول . فهو يعـالج أمراً يتصل بالطبقة الثانية بعد الملوك .

ثم ينزل الشاعر بعد ذلك إلى الشعب فيشركه بقية الأبواب .

يخشى الانصراف إلى الماديات ، وإلى الدنيا وحبها ، فيضع للناس باباً روحياً هو « العشق الصـوفى » ويخشى التكبر فيضع « باب التواضع » . ويخشى اضطراب النفوس ، بمـا قسم لهـا فيضع « باب الرضـــا » . ويخشى النهم ، والجشع ، فيضـع « باب القنـاعة » . ثم يخشى الغرور ، وسيطرة النفس على الإنسان ، كما يخشى إهمال الولد ، والزوجة ، والخادم ، فيضع « باب التربية » يعرض فيه ألواناً من العناية بهؤلاء جميعاً .

= بهفتم در أز عالم تـــــربيت بهشتم در أز شكر بر عـــافيت
نهم باب توبه است ، و راه صواب دهم در سناجات ، وختم كتاب

ثم يضع الأبواب الثلاثة الأخيرة عامة بين الإنسان وربه ، فى « الشكر على العافية » . وفى « التوبة » من المعصية . وفى « المناجاة » يلجأ إليه يناجيه فى كل ملمة وكارثة .

وهكذا تتمشى الأبواب مع طبيعة وضعها فى الكتاب ،وطبيعة أوضاع الحياة تقريباً .

على أن بعض القصص فى « البوستان » يمكن أن ينظر إليها من جانبين . ولهذا يمكن وضعها فى بابين مختلفين . ففى باب « الإحسان » مثلا . وهو الثانى تأتى القطعة الأخيرة منه تحت عنوان « مقال فى هيبة الملوك ونهاية الملك والسياسة » هذه القطعة تصلح — من حيث الموضوع — وكما هو واضح من عنوانها ، أن تكون فى باب العدل . كما أن هناك بعض القصص فى باب التربية ، تصلح لأن تكون فى باب العشق ، كالقصة التى عنوانها « مقال فى الاحتراز من محبة المرد » ورقمها ٢٨ فى سودى .

وفى باب المناجاة ، يمكن رد القطعة السادسة إلى باب التوبة . فأمثال هذه القطع يمكن النظر إليها من ناحيتين ، كل ناحية تمثل باباً من الأبواب التى أشرنا إليها .

لكن الأبواب فى مجموعها مستقلة ، وطريق العلاج مستقل ، وحتى القصص المشتركة التى نوهنا عنها ، يعالجها الشاعر على أنها من الباب ذاته ، ناظراً إليها من حيث المغزى .

والكتاب كله فى مجموع أبوابه ، هداية للنفس الإنسانية ، حتى تتجرد عن مباهج هذه الدنيا ، فتسمو إلى أعلى المراتب الروحية .

وقد رسم الشاعر فى كل باب من تلك الأبواب ، الخطة التى يرتضيها ، ليبلغ الطالب فيها مناله ، وأرشده إلى ما تطويه هذه الأبواب من ألوان الرياضة الروحية محاولاً فى كل ذلك أن يرسم فيها صورة للانسان كما ينبغى .

هل من فروق بين كتابى الشاعر البوستان والكلستان ؟

وضع الشاعر بعد عام من تقديمه البوستان سنة ٦٥٥ هـ كتابه الثانى المنثور يعالج أيضاً موضوعات تتفق مع موضوعات البوستان فى بعضها وتفترق عنها فى بعضها الآخر .

ونحن يمكننا أن نشير إلى مواضع الفروق بين هذين الكتابين فيما يأتى ، من نواحيهما المختلفة .

أولاً — فأبواب « البوستان » عشرة وأبواب « الگلستان » ثمانية ، ويتفق الكتابان فى أربعة من هذه الأبواب على اختلاف فى أوضاعها ، يتفقان فى باب الملوك ، ومكانه الأول فى الكتابين . كما يتفقان فى باب التربية ، ومكانه السابع فى الگلستان ، وباب العشق يرد الخامس ، كما يرد باب القناعة الثالث فى الترتيب .

وقد اختلف الگلستان عن البوستان فيما عدا ذلك من الأبواب مع الزيادة التى نلاحظها فى البوستان . فأقام باباً للدراويش ، وباباً فى فوائد الصمت ، وباباً فى الضعف والشيخوخة ، وباباً فى آداب الصحبة .

فمحاولة الشاعر رسم صورته تختلف فى مناهجها فى كلا الكتابين .

ثانياً — يفترق الكتابان كذلك من حيث الشكل فالبوستان شعر كله ، والگلستان نثر فيه بعض الشعر ، وقلما نجد قصة تخلو من شعر ، كما أن من النادر أن نجد قصة بذاتها من النظم .

ثالثاً — ويفترقان كذلك ، من ناحية الأداء ، فالبوستان يخف فيه اقتباس العبارات العربية . بينما كان من اليسر والسهولة أن يكثر الاقتباس فى الگلستان. وهذا يعطى لوناً آخر من ألوان الأداء فى ذلك الكتاب .

رابعاً — تبدو فى البوستان الروح التعليمية الأخلاقية أكثر من الـگلستان فهو فى كل الأبواب يحاول أن يرسم الصورة كما ينبغى أن تكون ، يحاول أن يرسم إنساناً مثالياً على أحسن صورة وأتمها .

على أنه يبدو فى الـگلستان طبيعة الترويح عن المجتمع . فحشد له فى هذا الـكتاب كثيراً من القصص التى لايلزم فيها بشيء ولا ينادى فيهـا بأمر . فهى مجرد قصص للترفيه والتخفيف ، ومن هنا تبدو كثرة أوامره فى البوستان ، وجرأته وعدم تهيبه ، ودعوته للمخاطب فى مستهل كل باب . و بقوله إن نصائحه — و إن كانت مرة — فهى مفيده ولا يتأتى العلاج المفيد إلا من الدواء المر .

وكان من مظاهر الترويح عن المجتمع فى الـگلستان ، والتبسط معـه ، هذا التلوين الذى أظهر فيه الـكتاب من نثر وشعر ، ومن اقتباسات مختلفة ، من الأشعار ، والآيات ، والأمثال ، والحـكم .

كذلك كان من النادر أن يعمد فيه إلى الألفاظ الغريبة ، فهو فى الگلستان كاتب شعبى بمعنى الكلمة ، كما لقبه الأستاذ آر برى [١]

خامساً — ومن هنا كانت تبـدو فى دعوته فى البوستان الروح الجدية ، الروح الجافة الإيجابية — إن صح هذا التعبير — ، وكان منهجه فيه أن يرسم الخطة ويطالب بالتزامها . كما كان عنيفاً فى مطالبـه ، حريصاً على الدعوة بالتزامها ، بينما تخف هذه الروح فى الـگلستان ، فيبدو أكثر بساطة وأخف إيجابيــة .

وقد جاء كثير من الشعراء بعـده ، وحاولوا تقليـده ، وخاصة فى كتابه الـگلستان ، لـكنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى مستواه .

---

(١) Arberry : Kings A. Beggars. p. 22.

كان من أهم هؤلاء الشاعر « عبد الرحمن الجامى » المتوفى فى القرن التاسع الهجرى ، أخذ يقلده فى كتابه « بهارستان » . كذلك جاء بعده الشاعر «قا آنى» وأخذ يقلده فى كتابه « پريشان » خواطر . لكن الشاعرين لم يدركا مكانة سعدى ، لا فى تناولهما للموضوع ، ولا فى أسلوبها . وكانت كتاباتهما ترمى غالباً إلى فكاهات لا تعالج أموراً أخلاقية ، أو تعليمية بالمعنى الذى وصل إليه سعدى . وبهذا لم يتيسر لهما مزاحمته .

ويعد جامى أول محاول لتقليد سعدى فى الگلستان . لكن نثره مسجوع متكلف . كما يقول الأستاذ « على أصغر حكمت » [(١)]

على أننا ننتهي من كل ذلك ، بما قاله الأستاذ «آر برى» من الإشادة بمكانة سعدى فى قوله :

« والقصة التى يعرفها كل كاتب شرقى ، قد تطورت على يد سعدى ، فأضحت فناً جميلا يشبه فن التصوير . فسعدى — كفنان — كان يشتغل فى اتجاهين . اتجاه الأفكار ، واتجاه الكلمات ، وكان يرسم صورته بمنتهى الدقة والمهارة ، فيضع هيكلها أولا ، ثم يشتغل فى التفاصيل بمهارة فائقة ، وعبقرية لم يعهدها الأدب الفارسى . فهو لا يتجاهل أصول الفن ، من تشبيهات ، واستعارات ، وحقيقة ومجاز أو سجع ، ولكنه فى الوقت نفسه متيقظ جداً يجنب نفسه العثرات التى يقع فيها غيره من الكتاب الفرس ، أو العرب الذين يحملون المادة فوق ما تطيق [(٢)] » .

ومن هنا يمكن أن نقول إن سعدى قد تسنم الذروة بين شعراء الفرس الأخلاقيين . فلم يستطع من جاء بعده أن ينزله من مكانته التى بلغها ، سواء من ناحية نظمه فى « البوستان » ، أو نثره فى « الگلستان » .

---

(١) أنظر جامى للأستاذ على أصغر حكمت ص٢٠٣ — ٢٠٤ .

(٢) Arberry : Kings and Beggars : p. 22

الفصل السادس

طريق الشاعر في قصص البوستان

تنقسم القصة حسب طبيعتها إلى قسمين :

١ — موضوع .   ٢ — وشكل .

وحسب وضعها في الكتاب أيضاً ، يمكن أن تقسم إلى هذين القسمين .

١ — القصة من حيث الموضوع : وكان الوضع يقتضى أن نتكلم عنها — أولاً — من حيث الشكل ، لكن الموضوع في القصة لا يتخلف . كما أنه جزء أساسي قائم بذاته . تستخدم له الوسائل الأخرى للوصول إليه ، ولن يتعدد الموضوع في القصة ، ولهذا تخيرنا الكلام عليه أولا .

والموضوع هو الغرض من القصة ، والمغزى الذى تجرى القصة من أجله . فكل قصة وراءها غرض من الأغراض ، وكل أغراض القصص التى تناولها الكتاب ، تتفق مع الباب الذى اختيرت له .

٢ — القصة من حيث الشكل ، ونعني بالشكل ما يأتى :

أولاً — الزمن الذى اقتضته القصة .

ثانياً — المكان الذى دارت فيه .

ثالثاً — الأشخاص الذين يديرونها . أو تدار على ألسنتهم .

القصة من حيث الزمن : ونعنى به ما تقتضيه القصة من حيث الإطالة والقِصَر ، وهذا منهج مألوف فى طبيعة القصة نفسها ، والتزمه الشاعر عند إدارته للقصة . كان يطيل حين تدعو الحاجة إلى الإطالة ، وحين لا تدعو يُقِل . يطيل أحياناً

حتى ليبلغ فى القصة مائة بيت أو يجاوزها ، كما فى القصة الثامنة من باب «العدل» ومطلعها :

زدر ياى عمان بر آمدكسى   الخ .

فهى تبلغ فى تقسيم « سودى » مائة وعشرة أبيات . إذ تدور حول سياسة الملك ، ووشاية الوزراء ، ومصير الواشى . فلا بد لها من إطالة ، ولا بد لها أن تعالج هذه المشكلة علاجاً يوضح السبيل فيها . وأحياناً تتضاءل القصة حتى لا تعدو بيتين ، كما فى القصة العاشرة من الباب التاسع « باب التوبة » ومطلعها :

زدم تيشه يكروز برتل خاك . الخ

فهى تعالج أمراً لا يدعو إلى إطالة ، هو قصر فترة الحياة الدنيا .

القصة من حيث المكان : عرضنا سابقاً لهذا عند الكلام على رحلات الشاعر ، وانتهينا من ذلك إلى أنه لا يلزم من ذكر البلد ، أو المكان ، أو الجهة أنه رحل إليها فعلا ، أو شاهد الحادثة فيها بنفسه ، وإنما كانت البلاد لغرض آخر قصد إليه الشاعر . فنقل القارىء معه حيث يكون الموطن مقصوداً لذاته ، وحيث يجرى حوادث القصة ، ويظهر الغرض منها فى بيئة ملائمة لحوادثها .

ورأينا من ذلك رحلته إلى « كشغر » فى السنة التى اصطلح فيها « السلطان محمد » مع « الخطا » وعدم إمكانها تاريخياً . كذلك رأينا قصة ذهابه إلى بلاد المغرب ، مصطحباً أحد الأبدال ، حيث يريد أن يكشف للناس قدرة الله ، ومعونته لرجاله الطاهرين ، فيجرى على ألسنتهم من الأمور الخارقة للعادة ، فى الموطن الذى يشتهر بين الناس أنه موطن خوارق العادات والسحر ، ومثل ذلك ما لاحظناه من رغبته فى الحديث عن عبادة الأصنام فينتقل إلى الهند . ورأينا عدم إمكان كل ذلك من حيث الواقع العملى .

القصة من حيث الأشخاص : أما اختيــار الشاعر للشخصية ، فهو ميدان واسع يشهد له بالبراعة فى حسن الاختيــار ، و إسناد الأدوار ، كما يدل على الإلمام بتاريخ الشخصية ، وما عرف عنها ، أو اشتهرت به .

واختيار الشاعر للشخصية ، كاختياره للمكان سواء بسواء . فكما يعرف صلاحية المكان لإدارة قصة فيه . كذلك يعرف كيف يوزع الأدوار المناسبة على الشخصيات. فهو يفهم الشخصية تمام الفهم، ومايمكن أن يحيط بها ،و يعلم كل دقائقها التاريخية والشخصية ، فينقلها إليك ، أو ينقلك لها ، ليجرى على لسانها حديثاً أو قصة مناسبة لها تمــام المناسبة . ومنهج الشاعر فى هذه الناحية ، يحوطه الكثير من الأحكام ، ولا يتخلف فيه عما رسمه لنفسه . فلا يتخير الشخصية اعتباطاً ليجرى على لسانها مجرد قصة ، بل يتخيرها لأمر ملحوظ فى شخصها ، وأحياناً فى تاريخها ، أو مكانها. وسنوضح ذلك عند الحديث عن الشخصيات التى تناولها .

و بجانب الشخصية الإنسانية التى أعدها الشاعر لقصصه . هنــاك قصص أخرى على لسان حيوان معروف أو جماد ، يدير قصة على لسانه ليستخلص منها حكمة أو موعظة .

أما القصص التى لم تتضح فيها الشخصية بالاسم ، فإنا نعتبرها من القصص العــامة التى أوردها فى الباب لعلاج موضــوعه العام .

و يمكننا أن نخرج من هذا ، إلى أن القصة من حيث الشخصية ، فى الكتاب تنقسم إلى أر بعة أقسام .

١ — قصة تدور حوادثها حول الشاعر نفسه .

٢ — قصة تدور حول شخصية تاريخية معروفة .

٣ — قصة تدور على لسان حيوان أو جماد معروف .

٤ — قصة عامة لم تتضح فيها الشخصية .

ومن المعروف أن كل باب من الأبواب ، خلاصة من الأفكار ، فى مجموعة من القطع . ولهذا سنسير فى معالجتنا لأفكار الكتاب على هذا النحو .

١ — تحليل القصص التى تدور حول أشخاص معروفين ، أو على لسان حيوان ، أو جماد . وذلك لندل على بيان الفكرة فى اختيارها ، وكيف استخدمها الشاعر ، وكيف كان صحيح الفكرة فى اختيارها .

٢ — عرض الأفكار العامة التى تناولها الباب كله فى مجموع قصصه ، لندرك من ذلك — بجانب ما أدركناه من الجزئيات فى القصص الشخصية — ما هى الأفكار العامة التى عرض لها الشاعر فى مجموع قصص الباب كله ؟ وبهذا يمكن أن نلم بالأفكار الأخرى التى لم نعرض لها فى القصص الشخصية.

وهذا يقتضينا أن نعين حدود قصص الباب ، كما يقتضينا الاستشهاد على الفكرة أن نعين مكان البيت أو القصة . وهنا موضع الإشارة إلى ضرورة استخدام نسختى « سودى» و « جراف » الأولى فى تعيين موضع القصة من الباب ، والثانية فى تحديد موضع الاستشهاد من القصة ، وسنرقم القصص بحسب تحديدها فى نسخة « سودى » .

أما نسخة « جراف » فقد سبق أن أشرنا إلى أنها مرقمة الأبيات ، وسندل — بجانب هذا — على بيت مطلع القصة ، وعدد أبياتها . كما سيظهر من الجداول التى سنستخدمها .

أما ترجمة الاستشهادات فقد كانت هناك طريقتان .

١ — إما أن أبين الفكرة ، دون ترجمة ، وأدل على الاستشهاد بالإشارة إلى القطعة أو البيت الذى تنطوى فيه الدلالة على الفكرة المشار إليها ، وقد تنسجم العبارة فى مجموعها من تلك الطريقة .

٢ — وأما أن أترجم العبارة عند الدلالة على معنى من المعانى ، وأثبت البيت أو الأبيات ، التى تشير إليها فى الهامش أو أشير إلى القطعة .

وقد التزمت الطريقة الثانية — مع ما فيها من الجهد — لأنها تضع أمام القارىء الترجمة والنص مباشرة ، فيشارك فى الرجوع إليها عند الحاجة .

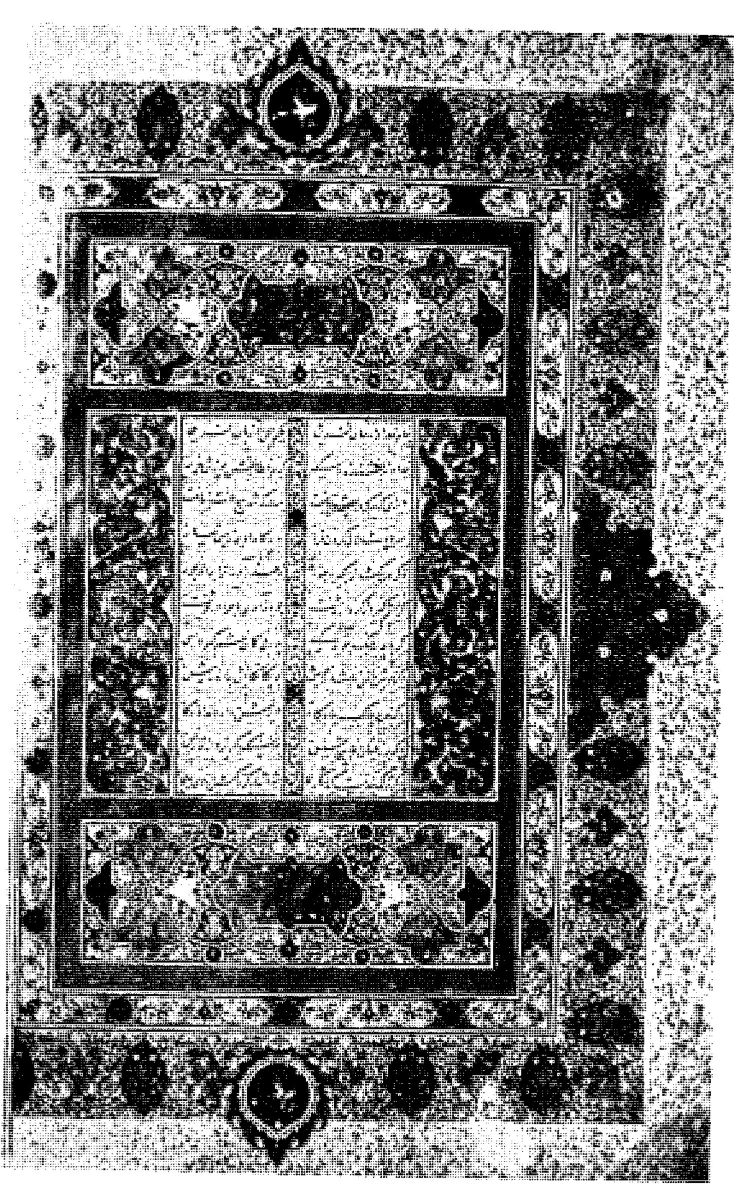
ولكنى أود أن أشير إلى أن ضيق المعنى فى البيت أو الأبيات ، والحاجة إلى وضع ترجمة شبه حرفية — حتى لا تبعد الدلالة كثيراً — ربما أبعدا الانسجام عن العبارة فى ترجمة بعض الأبيات .

وقد دللت على القطعة بحرف « ق » وعلى البيت أو الأبيات بحرف « ب » .

القسم الثانى

تحليل أبواب « البوستان »

أولا — تحليل قطع المقدمة



الصفحة الأولى من « البوستان » عن النسخة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢ ف والتى أخذت عنها بعض الصور الأخرى وهى بريشة المصور الخالد بهزاد

تنتظم المقدمة — كما رأينا — ست قطع فى نسخة « سودى » وخمسا فى بقية النسخ . وهذه القطع على الترتيب الآتى :

١ — قطعة فى مدح الذات الإلٰهية لا عنوان لها .

٢ — قطعة فى مدح الرسول عليه السلام بعنوان « درنعت محمد مصطفى عليه السلام » .

٣ — قطعة فى مدح الخلفاء الراشدين ، تجعلها نسخة « سودى » منفصلة عن القطعة السابقة ، وتجعلها بقية النسخ تابعة لها .

والقطعة فى ذاتها قريبة أن تكون تابعة ، من أن تكون مستقلة . فمدحه للخلفاء فى تلك القطعة ، جاء على طريقة الاستطراد ، ولا يعدو ذكرهم أكثر من ثلاثة أبيات ، يعود بعدها إلى الكلام فى مدح الرسول عليه السلام .

٤ — قطعة فى سبب نظم الكتاب .

٥ — قطعة فى مدح الأتابك « أبى بكر بن سعد » حاكم فارس .

٦ — قطعة فى مدح الأتابك « محمد شاه » على الخلاف فيها كما رأينا سابقاً .

وقد تكلمنا سابقاً عن القطع الثلاثة الأخيرة . و بقى أن نحلل القطعة الأولى والثانية .

القطعة الأولى : مدح الذات الإلٰهية .

وتجعل جميع النسخ هذه القطعة دون عنوان ، فهى افتتاحية ، يفتتحها باسم الله ، ثم يعرض ألوانا من وصف الذات الإلهية . وعدد الأبيات كما فى نسخة « جراف » ثمانية وستون بيتاً ، وتتفق النسخ جميعاً ما عدا نسخة الهند فى المطالع :

بنام خداوند جان آفرين حكيم سخن در زبان آفرين

وتضع نسخة الهند كلمة « جهاندار » بدل كلمة « خداوند » .

كما تشير نسخة « جراف » فى الشرح ، إلى أن بعض النسخ يرد فيها البيت كله مخالفا لهذا .

بنام خداى كه جان آفرين   سخن گفتن أندر زبان آفرين

وأغلب أبيات هذه القطعة وصف فى الذات الإلهية ، كما لاحظنا أنه يتردد فيها إشارات إلى المعانى التى عرض لها فى أبواب الكتاب على اختلاف موضوعاتها . ولهذا يمكن أن نقسم الكلام على هذه القطعة إلى ناحيتين :

أولا — أبيات وردت فى وصفه تعالى ، وعجز الإنسان عن إدراك كنهه .

ثانيا — أوصاف تلتقى مع معانى الأبواب التى ضمنها الشاعر هذا الكتاب .

فأما الأبيات التى تتعرض لوصفه تعالى ، فيجتمع فيها وصفه بالقدرة ، والقدم ، والخلق ، ثم فى بيان عجز الإنسان عن إدراك كنهه تعالى . ويفيض الشاعر فى الاستطراد هنا فى أكثر من خمسة عشر بيتا . نورد ترجمة جزء منها فيما يأتى :

— إن العالم متفق على إلاهيته
لكنه عاجز عن كنه ماهيته .
— لم يعرف البشر شيئا وراء جلاله
ولم يدرك البصر منتهى جماله .
— ولن يبلغ طائر الوهم أوج ذاته
ولن تدرك يد الفهم أطراف صفاته . (1)

---

(1) جهان متفق بر إلهيتش   فروبانده دركنه ماهيتش
بشر ما وراى جلالش نيافت   بصر منتهاى جمالش نيافت
نه برأوج ذاتش پرد مرغ وهم   نه در ذيل وصفش رسد دست فهم =

— كم من السفن ! غرقت فى تلك اللجة
ولم يطفُ لوح واحد منها على الشاطىء .
— وكم من ليال ! ضللت فى هذا الطريق
إلى أن أمسكت الدهشة بكمي ، أن قم ! .
— إن علم الله محيط على البسيطة
وقياسك ، لن يحيط بعلمه .
— فلا الإدراك ، واصل كنه ذاته
ولا الفكر ، بالغ غور صفاته[1] .
— لقد انطلق المقربون بجيادهم فى هذا السبيل
لكنهم تخلفوا — عجزاً — « بلا أحصى » .
— فليس فى كل مكان ، يمكن أن تركض الجياد
فلعل العجز يدركها فى أماكن كثيرة .
— إنك إن تطلب طى هذه المسافة
فاعقل — أولاً — جوادك .
— وتأمل فى مرآة قلبك
تحصل — تدريجياً — على صفاء نفسك[2] .

= درين ورطة كشتى فروشد هزار — كه پيدانشد تخته اى بركنار
چه شبها نشستم بسرين سير گم — كه دهشت گرفت آستينم كه قم
محيطست علم ملك بر بسبط — قياس تو بروى نگردد محيط
نه إدراك در كنه ذاتش رسد — نه دركنه بيچون سبحان رسد
ب ٣٩—٤٥

(١) كه خاصان درين ره فرس رانده اند — «بلا أحصى» أزتك فروسانده أند
نه هرجاى مركب توان تاختن — كه جاها سپر بايد أنداختن
ب ٥٢—٥٣
إشارة إلى الحديث «لا أحصى ثناء عليك وأنت كما أثنيت على نفسك»

(٢) أگر طالبى كين زمين طى كنى — نخست آسب بازآمدن پى كنى
تأمل در آيينهٔ دل كنى — صفائى بندريج حاصل كنى
ب ٥٩—٦٠

هذه هى الأوصاف التى تناولها الشاعر فى الذات ، والعجز عن إدراكها .

وأما الأوصاف الأخرى التى ترددت غير متتابعة فى هذه القطعة ، وتشير إلى أبواب الكتاب ، فإننا سنأخذ فى عرضها حسب الأبواب .

ويبدو منها أن الشاعر كانت تتجاوب فى نفسه ، هذه الأفكار التى ضمنها الكتاب . فلما وضع مقدمته — سواء أكانت قبل نظم الأبواب أم بعدها — فانه قد غلب عليه ازدحام هذه الأفكار ، فنثر فى هذه المقدمة ما يشير إلى تلك الأبواب.

وسنتناول إشاراته إلى تلك المعانى بالترتيب الذى ورد فى الكتاب .

فما يشير إلى باب العدل عند الملوك :

— حافظ بقدرته ، عالم السماء والأرض [1]
وهو صاحب الديوان ، يوم العرض .
— على أعتابه ، تنحنى للدعاء [2]
رؤوس الملوك العظماء .
— وعلى أبواب لطفه ، وكبريائه
يتجرد العظماء من عظمتهم [3] .
— إنه عزيز ، كل من أعرض عن بابه
لم يلق عزاً ، بأية باب يلجأ إليه [4] .

---

(١) بقدرت نگهدار بالا وشيب   خداوند ديوان روز حسيب ب ٣١
(٢) سر پادشاهان گرد نفراز   بدرگاه أو بر زمين نياز ب ٤
(٣) بدرگاه لطف وبزرگيش بسر   بزرگان نهاده بزرگى بسر ب ٢٨
(٤) عزيزى كه هرگز درش سر بتافت   بهر درگه شد هيچ عزت نيافت ب ٣

وما يشير إلى باب الإحسان

— بسط الأرض ، مائدة لخلقه
يستوى عليها ، عدوه ، وصديقه [1] .

— وإذا وزع مائدته الكريمه
يناديه الشيطان ! هبنى نصيبى ! [2] .

— ومائدة كرمه مبسوطة
حتى تبلغ العنقاء نصيبها، ولو كانت على «قاف» [3] .

— ومنشور إحسانه ، ليس له حد
وليس لنفاذ أمره رد [4] .

— وواهب العطاء ، معين الضعفاء
الكريم ، العفو ، الغفور [5] .

وما يناسب باب العشق الصوفى :

— تأمل فى مرآة قلبك ،
تحصل —تدريجياً— على صفاء نفسك [6] .

— لعل رائحة من العشق تسكرك
فتصير طالباً « لعهد ألست [7] » .

---

(١) أديم زمين سفرهٔ عام أوست بربن خوان يغما چه دشمن چه دوست ب ٤١

(٢) وگرزله بخشد زخوان كرم عزازيل گويد نصيبى برم ب ٢٧

(٣) چنان پهن خوان كرم گسترد كه سيمرغ درقاف قسمت خورد ب ١٨

(٤) گرانست منشور إحسان أوست ورانيست توقيع فرمان نيست ب ٢٤

(٥) خداوند بخشندهٔ دستگير كريم خطا بخش پوزش پذير ب ٢

(٦) تأمل در آيينهٔ دل كنى صفائى بتدريج حاصل كنى ب ٥

(٧) مگربويى عشق مستت كنند طلبكار عهد ألستت كنند ب ٦١
إشارة إلى قوله تعالى فى سورة الاعراف : « وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم ؟ قالوا بلى! »

— فتقطـــــع الطريق بِقَدم الطلب
ومن ثم ، تطير بجناح المحبة [١] .
— وهنالك ، يمزق اليقين حجب الخيال
وعندئذ ، لا يبقى إلا ستار ذى الجلال [٢] .

وما ينـاسب باب التواضع :

— إنه — وحده — من يليق له الكبرياء ، والإنية
فملكه قـــديم ، وذاته غنيـــة [٣] .

وما يناسب باب الرضا :

— يقلد واحداً ، تاج السـعادة على رأسه
و يهوي بالآخر ، من العرش ، إلى أرضه [٤] .
— و يجعل النـار فردوســاً على الخليل
و يحمل جماعة ، إلى النار ، من النيل [٥] .

وما يشير إلى القناعة — تهيئته الأقوات للمخلوقات مهما كانت :

— يهيىء الرزق للثعبـــان ، والنمل
ولو أنها بغير يد ، ورجل ، وقوة [٦] .

---

(١) بپای طلب ره بدانجا بـــرى — وزآنجا ببال محبت بـــــرى ب٦٢
(٢) بدرد يقين پـردهای خيـــال — نماند سرا پرده إلا جـــلال ب٦٣
(٣) مرورا رسد كبرياء ومـــى — كه ملكش قد يمست وذاتش غنى ب٢٠
(٤) يكى را بسر بر نهد تاج بخت — يكى را بخـــاك أندر آرد زتخت ب٢١
(٥) گلستان كند آتشى بر خليـل — گروهى بر آتش برد زاب نيل ب٢٣
إشارة إلى قوم فرعون
(٦) مهيا كند روزى مار ومـــور — أگر چند بيدست وپا بند وزور ب٤١

وما يلائم باب التربية — ما ينظم العلاقة بين الأب والابن والأقرباء ، أو الخادم وسيده ، أو الرفيق ورفيقه :

— لو أن شخصاً ، أعلن العصيان على أبيه
فلا ريب، أن ذلك يغضب الأب كثيراً [1] .
— والقريب ، إذا لم يرض عن قريبه
فإنه يطرده ، كالغرباء عن بابه .
— والخادم ، إذا لم يسرع إلى عمله
فلن يجد العز من سيده .
— والرفاق ، إذا لم تكن مشفقاً عليهم
هربوا منك ، وخلفوك وحيداً [2] .

ومما يلائم باب الشكر — ما يشير إلى أن الجفاء والقيطعة لا تليق به ، كما أن المخلوفات كلها تشكره مطيعة له :

— إذا أسرعت على منهج الجفاء له
فمن ذا الذي لقي الأمان من يد قهره [3] ؟ .
— وذاته تعالى ، مبرأة من تهمة الضد ، والجنس
وملكه غني ، عن طاعة الجن والأنس .
— لأمره ، أطاع كل شيء ، وكل إنسان
أطاعه الناس ، والطير ، والبعوض [4] .

---

(١) أگر باپدر جنگ جويد كسى — پدربى گمان خشم گيرد بسى ب٧

(٢) وگرخويش راضي نباشد زخويش — چو بيگانگانش بر اند زپيش ب٨—١١
وگر بنده چابك نباشد بكار — عزيز ش ندارد خداوند كار
وگر بر رفيقان نباشى شفيق — بفرسنگ بگريزد أزتو رفيق

(٣) أگر بر جفاپيشه بشتافتى — كه أزدست قهرش أمان يافتى؟ ب١٥

(٤) برى ذاتش أزتهمت ضد وجنس — غنى ملكش أزطاعت جن وإنس ب١٦—١٧
پر ستار أمرش همه چيز وكس — بنى آدم ومرغ ومور ومگس

وما يشير إلى باب التوبة

— إنه واهب العطاء ، معين الضعفاء
الكريم ، العفو ، الغفور (١) .
— لا يأخذ العصاة ، بذنبهم فوراً
ولا يطرد المعتذرين ، منهم جوراً .
— فإذا غضب على عاص ، طوى له ما مضى
إذا ثاب ، وارتد عن الهوى (٢) .
— ورب السماء والأرض
لا يوصد ، عن عاص ، باب الرزق (٣) .

وما يشير إلى المناجاة :

— إنه قريب من الضعفاء ، برحمته
يجيب دعوة المتضرعين ، بعطفه (٤) .

القطعة الثانية — مدح الرسول عليه السلام :

وعدد أبيات هذه القطعة ثلاثون بيتاً . تبدأ من البيت رقم ٦٩ وتنتهى بالبيت رقم ٧٩ ، وذلك فى نسخة « جراف » . أما « سودي » فتجعلها قطعتين تفصل عنها مدح الخلفاء ، لكن القطعة كلها ، ذات وحدة لا تحتمل هذا الانقسام . فإنه بعد أن يعرض لذكر الخلفاء الأربعة — فيما لا يتجاوز ثلاثة أبيات — يعود فيمدح الرسول عليه السلام ، حتى يختم القطعة كلها .

---

(١) خداوند بخشندهٔ دستگیر كريم خطا بخش پوزش پذير ب ٢
(٢) نه گردنكشان را بگيرد بفور نه عذر آوران را بجور
وگر خشم گيرد زگر دار زشت چو باز آمدى ما جرا درنوشت ب ٥—٦
(٣) وليكن خداوند بالاو پست بعصيان در رزق بر كس نبست ب ١٣
(٤) فرو ماندگانرا برحمت قريب تضرع كنان را بدعوت مجيب ب ٢٩

ولهذا سنعرض لهـا فى التحليل كأنها وحدة مستقلة . والمعانى التى عرض لها فى تلك القطعة ترتبط مع بعضها تقريباً ، فاذا ما تـكلم عن معنى من المعانى ، يظل فيه حتى ينتهى منه ، ولا يعود إليه .

والبيت الذى تخيره لمطلعها يدل على أن الشاعر راعى فيه براعة الاستهلال ، فاختار بيتاً عربياً .

ويبدو أن الشاعر قد لاحظ أنه بدأ الحديث عن نبى عربى ، فليلتمس فى مطلع الـكلام عنه استهلالا عربياً :

« كريم السجايا ، جميل الشِّيَم   نبى البرايا ، شفيع الأمم »

كذلك يمكن أن يقال إنه راعى فى هذا الاستهلال ، أن يجمع كل ما يمكن أن يكون من صفات النبوة ، أو وظيفتها ، فى الدنيا ، والآخرة .

— وهو إمام الرسل ، هادي السبيل ،
وأمين الله ، مهبـط جبريل [1] .

ويمكن أن نلتمس المعانى التى تتردد فى هذه القطعة فيما يأتى :

١ — الإعجاز به :

— إنه اليتيم ، الذى لم يعرف القراءة
لـكنه نسـخ كتباً كـثيرة .
— وحين سـل عزمه سيف الرهبـة
انشق القمر — نصفين — إعجازاً له .
— وحـين تردد اسمه فى أفواه الدنيـا
تصدع ديوان كسرى [2] .

---

(١) إمام رسل پیشوای سـبیل   أمين خـدا مهبـط جبريـل ب ٧٠

(٢) یتیمی که نا کرده قرآن درست   کتبخانهٔ چنـد ملت بشست
چو عزمش بر آهیخت شمشیر بیم   بمعجـز میـان قمر زد دو نیم
چو صیتش در أفواه دنیا فتاد   تزلزل در ایوان کسرى فتاد ب٧٣—٧٥

٢ — عرض لألوان الديانات الموجودة :

ـــ إنه حطم قامة اللات ، بكلمة « لا »
ومحا الدينُ العزيزُ مكانة العزي .
ـــ لم يحطم اللات ، والعزي ، فحسب
بل نسخ التوراة ، والإنجيل كذلك (١) .

٣ — الإسراء به :

ـــ ركب ليـــلة ، فجـاوز الفـلك
ومضى بالتمـكن ، والجاه ، من المَلَك .
ـــ وَجَدَّ في تيـــه القـــربي ، من الله
حتى تخلف عنه جبريل ، في سدرة المنتهي (٢) .

٤ — ثم منزلته عنـد الله ، والانتقال إلى فـكرة الوجود وأصلها :

ـــ أثنى عليك الله ، ومنحك التبجيـل
وقبل الأرض ـــ تقديراً لك ـــ جبريل .
ـــ خجلت أمام قـدرتك ، السماء العـلى
أنت مخلوق ، وآدم لا يزال طيناً ، وماء .
ـــ أنت أصـل الوجود ، جئت من الأزل
فتأمل! كل موجود ، صار من فرعك (٣) .

---

(١) بلا قامت لات بشكست خـرد — باعـزاز دين آب عـزى ببرد
وكلمة «لا» إشارة إلى عبادة الوحدانية في قوله (لا إله إلا الله) .
نه أزلات وعزى بـر آورد گرد — كه توريت وانجيل منسوخ كرد ب٧٦—٧٧

(٢) شبى برنشست أز فلك برگذشت — بتمكين وجاه أزملك درگذشت
چنان گرم درتيه قربت برانـد — كه برسدره جبريل أزو باز ماند ب٧٨—٧٩

(٣) خد ايت ثنا گفت وتبجيل كرد — زمين بوس قدر تو جبريل كرد
بلند آسمان پيش قدرت خجـل — تو مخلوق وآدم هنوز آب وگل
تو أصل وجود آدمى أز نخست — دگر هرچه موجود شد فرع تست ب٩٣—٩٥

٥ — ومنزلته يوم القيامة فى الشفاعة :

ــ أنت شفيع الورى ، سيد البعث ، والنشر
إمام الهدى ، وصدر ديوان الحشر (١) .
ــ لم يبق إنسان رهينة لمعصيه
من اتخذ الرسول شفيعاً له (٢) .

٦ — مدح الخلفاء الراشدين . وهو ليس مدحاً بالمعنى المعروف ، لكنه عرض موجز لهم ثم قسَم بأبناء فاطمة، وختام :

ــ ليكن ، سلام الله ، على روحك
وعلى أصحابك ، وتابعيك .
ــ على أبى بكر ، الشيخ المُريد
وعلى عمر ، قاهر الشيطان المَريد .
ــ وعلى العاقل ، عثمان ، محيي الليل
والرابع علىٌّ ، راكب الدلدل (٣) .
ــ أسألك إلهي ، بحق بنى فاطمة
أن تؤمن ، على قولى بالقبول .
ــ فإنك ، إن رددت دعوتى ، أو قبلتها
فإنى متعلق بأهداب آل الرسول (٤) .

---

(١) شفيع الورى خواجهٔ بعث ونشر — أسام الهدى صدر ديوان حشر ب٧١

(٢) نماند بعصيان كس در گرو — كه دارد چنين سيدى بيشرو ب٨٤

(٣) درود ملك بر روان تو باد — بر أصحاب و بر پير وان تو باد
نخستين أبو بكر پير مريد — عمر پنجه بر پيچ ديو مريد
خردمند عثمان شب زنده دار — چهارم على شاه دلدل سوار ب٨٦—٩٨
الدلدل اسم بغلة كان يركبها سيدنا على .

(٤) خدايا بحق بنى فاطمة — كه برقول إيمان كنند خاتمه
أگر دعوتم رد كنى و ر قبول — من ود امان آل رسول ب٨٩—٩٠

ثانياً ـــ تحليل أبواب الكتاب

١ ـ باب العدل

٢ ـ باب الإحسان

٣ ـ باب العشق

٤ ـ باب التواضع

٥ ـ باب الرضا

٦ ـ باب القناعة

٧ ـ باب التربية

٨ ـ باب الشكر

٩ ـ باب التوبة

١٠ ـ باب المناجاة

١ — باب العـــدل

رقم ق	رقم المطلع	عدد الأبيات	قصة عن سعدى	عن شخصيه تاريخيــة	قصة عامة	المطلع
١	١	٦			عامة	نگنجد کرمهای حق در قیاس
٢	٧	١٤		قزل أرسلان		چه حاجت که نه کرسیٔ آسمان
٣	٢١	١٠				حکایت کنند أز بزرگان دین
٤	٣١	٢١		کسرى وهرمز		شنیدم که در وقت نزع روان
٥	٥٢	١٧		خسرو وشیرویه		شنیدم که خسرو بشیرویه گفت
٦	٦٩	١٣			»	چه خوش گفت بازرگانی أسیر
٧	٨٢	٤١		شاپور وخسرو		شنیدم که شاپوردم در کشید
٨	١٢٣	١٠٩			»	ز دریای عمان بر آمد کسی
٩	٢١٢	٥٣			»	ندانم کجا دیده أم در کتاب
١٠	٢٦٥	١٥			»	نه بی حکم شرع آب خوردن خطاست
١١	٢٨٠	١٧			»	شنیدم که فرماند هی دادگر
١٢	٢٩٧	٦		جمشـــید		شنیدم که جمشید فرخ سرشت
١٣	٣٠٣	١٨		دارا		شنیدم که دارای فرخ تبار
١٤	٣٢١	٧			»	توکی بشنوی نالهٔ داد خواه
١٥	٣٢٨	٦			»	خبر یافت گردن کشی در عراق
١٦	٣٣٤	١٨		عمر بن عبد العزيز		یکی أز بزرگان أهل تمیز
١٧	٣٥٢	٧	ســعدى			همین پنج بیتم خوش آمد بگوش
١٨	٣٥٩	١١		تکله بن زنگی		در أخبار شاهان پیشنه هست
١٩	٣٧٠	٢١			»	شنیدم که بگریست سلطان روم
٢٠	٣٩١	٢٤			»	خرد مند مردی در أقصای شام
٢١	٤١٥	١٥			»	مها زور مندی مکن بر کهان
٢٢	٤٣٠	٢٢	ســعدى			چنان قحط شد سالی أندر دمشق
٢٣	٤٥٢	١١	ســعدى			شبی دود خلق آتشی بر فروخت
٢٤	٤٦٣	١٦			»	خبر داری أز خسروان عجم
٢٥	٤٧٩	٣٤			»	شنیدم که در مرزی أز باختر
٢٦	٥١٣	١٠			»	یکی بر سرشاخ وبن می برید
٢٧	٥٢٣	٩			»	نکوجاهی أزسلطنت بیش نیست
٢٨	٥٣٢	٥			»	شنیدم که یکبار در حلهٔ
٢٩	٥٣٧	١١			»	نکوکار مردم نباشد بدش

رقم ق	رقم المطلع	عدد الأبيات	قصة عن سعدى	عن شخصية تاريخية	عامة	المطلع
٣٠	٥٤٨	١٣			»	گزیری بجاهی در أفتاده بود
٣١	٥٦١	٢٠		الحجاج		حکایت کنند أز یکی نیکمرد
٣٢	٥٨١	٣			»	یکی پند میداد فر زند را
٣٣	٥٨٤	٢			»	بخردی درم زور سر پنجه بود
٣٤	٥٨٦	٣			»	ألا تا نخسبی بغفلت که نوم
٣٥	٥٨٩	٢٩			»	یکی را حکایت کنند أز ملوك
٣٦	٦١٨	٥			»	جهان إی بسر ملك جاوید نیست
٣٧	٦٢٣	١٤			»	شنیدم که در ملك مصر میری أجل
٣٨	٦٣٧	١٤		قزل أرسلان		قزل أرسلان قلعهٔ سخت داشت
٣٩	٦٥١	٣			»	چنین گفت شوریدهٔ در عجم
٤٠	٦٥٤	٩			»	چو ألب أرسلان جان بجانبخش داد
٤١	٦٦٣	١٥			»	حکیمی دعا کرد بر کیقباد
٤٢	٦٧٨	٧٦			»	شنیدم که أز پادشاهان غور
٤٣	٧٥٤	٢٢		المأمون		چو دور خلافت بمأمون رسید
٤٤	٧٧٦	٢٢			»	شنیدم که أز نیکمردی فقیر
٤٥	٧٩٨	٢٤			»	یکی سست زن بخت وروزی نداشت
٤٦	٨٢٢	١٩			»	حکایت کنند أز جفا گستری
٤٧	٨٤١	٤٠			»	همی تا بر آید بتدبیر کار
٤٨	٨٨١	١٠			»	دلاور که باری تهور نمود
٤٩	٨٩١	١٨			»	بپیکار دشمن دلیران فرست
٥٠	٩٠٩	٧		گرگین		چه خوش گفت گرگین بفرزند خویش
٥١	٩١٦	٦			»	دوتن پرورای شاه کشور کشای
٥٢	٩٢٢	٦			»	نگویم زجنگ بد اندیش ترس
٥٣	٩٢٨	٨			»	میان دو بد خواه کوتاه دست
٥٤	٩٣٦	١٠			»	چو شمشیر پیکار بر داشتی
٥٥	٩٤٦	١٥			»	گرت خویش دشمن شود دوستار
٥٦	٩٦١	١٠			»	بدبیر جنگ بد أندیش کوش
—	٩٧١	—				
			٣ +	١٣ +	٤٠	٥٦ =

قصص باب العدل التى تدور حول شخصيات تاريخية

ينتظم هذا الباب ــ كما رأينا ــ ستاً وخمسين قطعة، فى تسعمائة وواحد وسبعين بيتاً. وهو من حيث عدد القطع ، والأبيات ، أطول أبواب الكتاب على الإطلاق . إذ يبلغ وحده خمس الكتاب تقريباً ، وتتوزع قطعه كالآتى :

١ ـــ ثلاث قصص عن سعدى .

٢ ـــ ثلاث عشرة قصة عن شخصيات تاريخية .

٣ ـــ أربعون قصة من القصص العامة .

أما من ناحية تناول الشاعر لأشخاص هذا الباب ، فهو متناسب معه تمام المناسبة . فهذا باب الملوك ، يعدُّ له كثيراً من الملوك والحكام ، من مختلف العصور والبيئات ، وهو يعطي الشخصية الدور الذى يناسبها ، أو يعدها لقصة تناسبها .

وقد تناول فى هذا الباب ـــ كما رأينا من الجدول السابق ـــ شخصية إيرانية من التاريخ الايرانى الأسطورى هى « جمشيد » . وشخصية من الدولة الفارسية التاريخية ، القديمة هى « دارا ». ثم تناول شخصيات مختلفة من أسرة الأكاسرة . « كسرى وهرمز » و « خسرو وشيرويه » و « شاپور وخسرو » .

ثم انتقل إلى العصر الإسلامى ، فتناول من ملوك الإسلام «عمر بن عبدالعزيز» ومن الحكام « الحجاج » . وتناول « المأمون » فى الدولة العباسية .

ومن الدول الإسلامية الأخرى « قزل أرسلان » « وتكلة بن زنگى » .

ومن الأبطال فى التاريخ الإيرانى الأسطورى « گورگين » .

وللشاعر غرض من كل ذلك ، يريد أن يعطى للأمير الحاكم ، قدراً من النصائح والمعلومات فى أمور الدنيا ، وتدبير شئون الملك ، ورسوم السياسة العادلة

وأي طريق أحب إليه ، أو أسهل عليه من أن يلقى هذه النصائح ، أو تلك المعلومات — سواء أكانت مخترعة من جانبه أو مروية — عن قوم مضوا وخلفوا الدنيا بعدهم ، ويدفع إليه ما يريده من المعلومات على لسانهم ، لا على لسانه هو .

أليس هذا من وسائل إحكام القصة ، بجانب ما فيها من التأدب ، بما يناسب مكانة الأمير مع الشاعر ؟ أليس من وسائل التلطف مع الأمير ، أن يسوق إليه النصيحة ، ملقاة على لسان ملك ينصح ابنه أو عامله ؟ فيرسم له الخطة فى معاملة الرعية أو العمال ، أو فى سياسة الجيش ، أو فى معاملة الأجانب ، أو غير ذلك مما سيبدو .

والشاعر من ناحية أخري ، يحكم القصة من طريق آخر ، فكل القصص التى تناولت شخصيات إيرانية قديمة قبل الإسلام ، نقل عنها الكلام على طريق الرواية سماعا، فيقول فى كل منها مفتتحاً لها بكلمة «شنيدم» أى «سمعت» ، فيزداد تلطفاً مع الأمير ، وينقل إليه الأمر سماعا .

وسنتناول هؤلاء بحسب الترتيب الذي سقناه سابقاً ، من حيث الزمن الذى عاش فيه كل شخص ، مراعين التناسب فى الموضوع .

وسنري أن الشاعر ملم إلماماً كبيراً، بما يحيط بالشخصية أو بتاريخها ، ثم كيف أحكم القصة حولها ، من حيث الارتباط بزمنها ، وما اشتهرت به . ومن حيث المعلومات التى أبداها على لسانه .

قصة جمشيد

وماذا يعرف عن جمشيد تاريخياً ؟ وما هى الأدوار التى يمكن أن تسند إليه ؟ وجمشيد من الأسرة الأولى الأسطورية فى التاريخ الإيرانى المتوغلة فى القدم ، والتى تسمى بالدولة « البيشدادية » تذكر عنه الشاهنامة أنه أول من أذعن لطاعته جميع الثقلين ، وعمر العالم ونشر العدل والإحسان ، وأعد آلات الحرب ، وشيد المدن ،

وصنع السفن ، وتنقل بها خلال البر والبحر ، ورصع تاجه بالجواهر ، وجعل له حملة من الجن ، ثم أصابه الغرور فمرق عن الدين وأطلق يده فى الظلم ، وأمر بصنع تماثيل من صورته لعبادته ، فلما شاع ظلمه وغروره ، استجار الناس « بالضحاك » والتفوا حوله حتى قبضوا عليه ، وانتهى أمره بعد حكم دام سبعمائة سنة [1] .

هذا ملخص حياة جمشيد ، أطاعه العالم كله ، وظل حكمه سبعمائة عام ، فماذا يصلح له من الأدوار ؟

تأتى قصته فى الباب « الثانية عشرة » فى ستة أبيات . وعنوانها فى سودي « در أحوال دنيا » ورقم مطلعها ٢٩٧ وهو :

— سمعت ، أن جمشيد النبيـل الأصل

كتب على لوحة ، عند فوهة عين [2] .

فلماذا تخير الشاعر «جمشيد » لقصة تدور حول أحوال الدنيا ؟ . ولماذا تخير الشاعر لقصته أيضاً عين ماء ، نقش عبارته بجوارها ؟ أليس جمشيد من ملوك أول دولة متوغلة فى القدم فى التاريخ الإيرانى ؟ أليس ملـكه أوسع ملك فى العالم ، فأطاعه الجن والأنس؟ أليس عمره أطول عمر فى الحياة ؟ أليس هو أصلح شخصية يحملها الشاعر — عبر القرون — ليلقى على لسانها حكمة أو موعظة فى أحوال الدنيا .

ولمـاذا تخير الشاعر عين المـاء ؟ أليس يتردد عليها كثير ممن ينهلون منها ، ثم يذهبون ؟ أليس فى معناها شبها بالدنيا ، والواردون عليها كمن يرد على هذه الحياة من الناس ؟

والقطعة على قصرها فيها جانبان .

١ — جانب للموعظة ، ودعوة للنظر ، فى أمر هذه الدنيا

---

(١) انظر الشاهنامه العربية للدكتور عزام بك فى قصة جمشيد ص ٢١—٣٠

(٢) شنيدم كه جمشيد فرخ سرشت   بسر چشمهٔ بسنگى نوشت

— لقد ورد كثير مثلنا على تلك العـــين
لـــكنهم فاتوا ، ومضوا ، كطرفة عين[1] .

ولن يبقى من الدنيا ســــــوى العمل الصالح . فى قوله

— مضــوا ، وجنى كل منهم ، ثمـار ما زرع .
مضوا ، ولم يخلفوا إلا السمعة الطيبة أو السيئة[2]

٢ — جانب تعليمي فى الارشاد والنصح ، فى قوله :

— إذا هزمت عدواً ، فلا تضاعف أذاه
فـكم من الآلام ، تحتويها نفسه .
— ومن الخير أن تبقيه ، حياً بجانبك
من أن تحمل دمه في عنقـك[3] .

و بمثل هذه البراعة يطوى الشاعر — فى لفائف القصة — هذه المعانى التى قصد إليها ، و بمثل هذا التأدب فى مقام الأمير ، يرفع إليه هذه النصائح ، على لسان مليك مضى .

قصة دارا :

وتقع الثالثة عشرة ، وأبياتها ثمانية عشر بيتاً ، وعنوانها « نصيحت جو بان بهردارا » إى « نصيحة الراعى لدارا » . ورقم المطلع ٣٠٣ وهو .

— سمعت أن دارا ، كـريم المحتد
ضل عن حراسه ، فى يوم صيد[4]

وماذا عن « دارا» ؟ وما أهم ما يناسب شخصيته من الأدوار ؟ أليس « دارا »

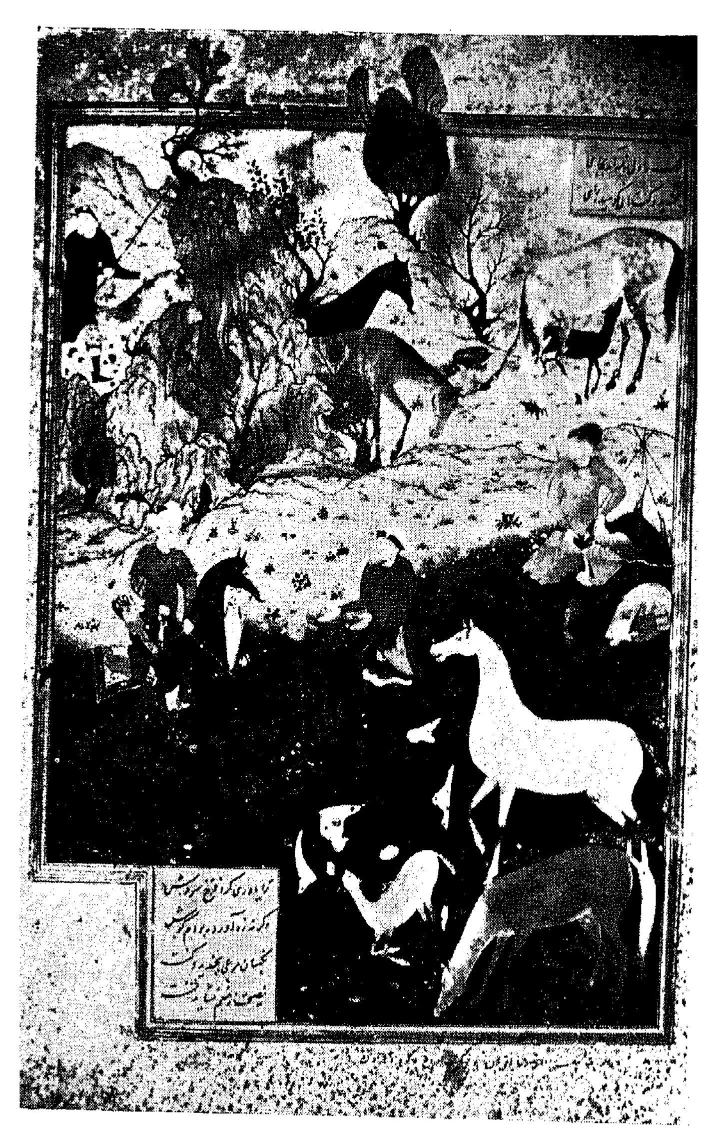
---

(١) برين چشمه چون مابسى دم زدند برفتند چون چشم برهم زدند

(٢) برفتند وهر يك درود آنچه كشت نماند بجزنام نيكو و زشت

(٣) چو بر دشمنى باشدت دسترس مرنجانش كوراهمين غصه بس
عدو زنده سر گشته بيرامنت به أز خون أو گشته در گردنت

(٤) شنيدم كه داراى فرخ تبـــار ز لشكر جدا ماند روز شكار



صورة للملك « دارا والراعى » وبأعلى الصورة وأسفلها بعض
أبيات من القصة عن النسخة الخطية ص ١٠ بدار الكتب

حاكماً على بلاد إيران التى توحدت ؟ أليس فى هـذا الاتساع ما يستدعى طول السهر على صالح الرعية ؟

فيتخير الشاعر له موضوعاً يناسبه ، ليخرج منه إلى المغزى الذى يقصده من القصة . يجعل « دارا » وقد خرج يوماً للصيد ، فنأى عن حرسه بعيداً ، فجاءه راع ، وتقـدم منه مسرعاً . فخشيه — قائلا فى نفسه — لعل هـذا عدو جاء ليقضى على ، فلأسرع لأقتلنه . فما كاد يهم بذلك ، حتى ناداه الرجل :

— يا مليك إيـــران وتوران
لتبعد — عن عهدك — عين الردي .
— أنا ، من يقوم بحراسة خيل المليك
وارعاها ، فى هـــذا المرعى [1] .

فرد المليك سهامه ، وضحك قائلا له ، يا سفيه الرأى ! لقـد حالفك الحظ السعيد ، و إلا فقد كدت أقضى عليك . ثم ينتقل الشاعر إلى مغزى القصة ، فيجرى على لسان ذلك الراعى ، رداً على المليك ، فى وجوب معرفته لرعيته .

— ليس من التدبير المحمود ، ولا من الرأى السديد
ألا يعرف المليك ، عدوه من صـــديقه .
— فشرط الرئاســـة فى الحيـــاة
إن تعرف كل فرد ، من يـكون [2] ؟ .

---

(١) بگفت إى خداوند إيران وتـــور — كه چشم بد أز روزگارتو دور
من آنم كه أسبان شه پرورم — بخدمت بدين مرغزار أندرم

(٢) نه تدبير محمود وراى نكوست — كه دشمن نداند شهنشه زدوست
چنانست در مهترى شرط زيست — كه هركهتريرا بدانى كه كيست؟

قصص ملوك الأكاسرة :

وقد اشتهر هؤلاء فى تدبير الملك ، وحسن السياسة ، وابتكار أساليب الحكم فى الرعية ، وإقرار النظام ، ووضع الدستور ، فى اختيار الموظفين ، ومعاملة الرعية بالحسنى ، والسهر على راحتها . وعلى العموم حسن درايتهم بالنظم الداخلية والخارجية .

وهكذا تناولهم الشاعر من تلك النواحى ، يعرض على ألسنتهم — باختلاف شخصيتهم — ألواناً من هذه المعانى .

قصة كسرى وهرمز :

وتقع هذه القصة الرابعة ، فى واحد وعشرين بيتاً ، وبيت مطلعها الواحد والثلاثون ، وعنوانها « پند دادان كسرى هرمزا » أى نصيحة كسرى لهرمز ، وهو أيضاً يرويها — كعادته فيما أشرنا — بالسماع :

— هكذا ، سمعت ان أنو شروان
قال لهرمز ، وقت نزع الروح (1) .

والقصة — فى مجموعها — تعالج أمور الرفق بالرعية ، والسهر عليها ، وبذل ما يمكن لراحتها :

— إنه لا يستريح أحد فى ديارك
ما دمت تطلب راحة نفسك .
— وليس — كريماً — فى نظر الحكيم
أن ينام الراعى ، والذئب فى الغنم (2) .

---

(1) شنيدم كه در وقت نزع روان   بهرمز چنين گفت نوشيروان

(2) نيا سايد أندر ديار نوكس   چو آسايش خويش جوئى وبس
نيايد بنزديك دانا پسند   شبان خفته وگرگ در گوسفند

— إن الرعيــة كالجذر ، والسلطنة كالشــجر
والشــجرة يا بنى ! قوية بقوة الجذر .
— ولا تجرح — ما استطعت — قلوب شعبك
فإنك إن جرحتها ، اقتلعت جذرك [1] .
— ولا ينبــــغى قتـــــل الرعيـــــة
فإنهـــــا ملاذ السلطنــة ، وظهيرها .
— وارع الفـــلاّح من أجـــل نفســك
فإن العامل السعيد يأتى بعمل وافر لك [2] .

قصة خسرو وشيرويه :

وهى من نفس معنى القصة السابقة ، نصائح يلقيها الشاعر على لسان «خسرو» إلى «شيرويه» ، وترتيب القطعة الخامسة بين قطع الباب ، وأبياتها سبعة عشر ، وعنوانها « پندادن برويز بشيرويه » ومطلعها الثانى والخمسون ، على طريق الرواية سماعاً أيضاً :

— سمعت أن خسرو قال لشــــيرويه
فى اللحظة التى أطبقت فيها عن العالم عينه [3] .

ويمضى الشاعر فى إظهار معانى العطف على الرعية ، والدعوة إليه ، فى كثير من الأبيات :

— افعل — دائمـــــاً — كل ما تريد
لكن انظر فى صلاح أمور الرعيــة [4] .

---

(١) رعيت جوبيخند وسلطان درخت — درخت إى پسر باشد أز بيخ سخت
مكن تاتـــوانى دل خلق ريش — وگرميكنى ميكنى بيخ خويش

(٢) رعيت نشـــايد ببيدا د گشت — كه مر سلطنت را پناهند و پشت
مراعات دهقان كن أزبهر خويش — كه مزد ور خوشدل كند كار بيش

(٣) شنيدم كه خسرو بشيرويه گفت — در آندم كه چشمش زديدن بخفت

(٤) بـــر آن باش هرچه نيت كنى — لظـــر درعد صلاح رعيت كنى =

ـــ ولا تلو رأسك عن العـــدل والرأى
حتى لا يعصى النـــاس أمرك .

ـــ من ذا الذى عاش منعماً فى الآفاق ؟
أكثر ممن عاش منصـفاً فى ملكه للخلق .

ـــ فحين يغـترب عن هذا العـــالم
يمطرون ـ على تربته ـ غيث الرحمة (١) .

ثم يتناول الشاعر — فى هذه القطعـة — معنى من المعانى الأخري فى سبـ
اختيار العمال :

ـــ ول على الرعيـــة من يخشى الله
فإن التقى ، الطاهر ، عمارُ الملك (٢) .

ثم يبين مدى الفساد بين العمال ، والسكوت على مظالمهم فى قوله :

ـــ إن الذى يمتص دماء الخلق من أجلك
إنمـا يفـكر السـوء بك (٣) .

ثم يعرض لأمر محاسبة العمال فى قوله :

ـــ لا تعاقب المؤذى بأخذ أمـــواله
بل يجب اقتلاع جذره من أساسه (٤) .

= ألا تانپیچی سر از عدل و رای — که مردم ز دستت نپیچند پای

(١) أز آن بهره ورتر در آفاق کیست ؟ — که در ملك رانی بانصاف زیست
چو نوبت رسد زین جهان غربتش — ترحم فرستنـــند بر تربتش

(٢) خداترس بر رعیت گمـــار — که معمار ملکت پرهیز کار

(٣) بداندیش تست آن وخونخوار خلق — که نفع تو جوید در آزار خلق

(٤) مکافات موذی بمـــالش مکن — که بیخش برآورد بایـد زبن

— ولا ينبغى السكوت على عامل ظلوم

بل ينبغى سلخ جـلده عند السِّمَن

— واقطع — سريعاً — رأس الذئب

ولا تَنْظره حتى يمزق خراف القوم.

قصة شابوز وخسرو :

وتقع السابعة فى الترتيب ، وأبيـاتها واحد وأربعون ، و بيت المطلع رقم ٨٢ والقطعة على لسان وزير أمضى مدة فى خدمة المليك ، حتى استخلف غيره . فأخذ ينصح المليك بعدة نصائح ، هى عصارة تجار به وخبرته . ومطلعها :

— سمعت أن شاپور أصابتـه حسره

حين استُخلف خسرو على أعماله[1]

وتمضى القصة فى عرض طائفة من النصائح فى مختلف المعانى .

١ — العناية بالموظفين بعد ترك خدمتهم .

— بما أنى بذلت شـــبابى ، من أجلك ،

فلا تحرمني وقت الهرَم من رعايتك[2] .

٢ — وفى عقاب الموظفين .

— إذا لم يكف المشرف على الأمانة يده

فينبغى أن يعين رقيب ، عليـــــه

— فان اتحــــد الرقيب ، والمشرف

فارفعهما من العمـــــل معاً[3]

= مكن صبر بر عامل ظلم دوست — كه أزفر بهى بايد ش كند بوست

سرگــرگ بايد هم أول بريـــد — نه چون گوسفند ان مردم دريد

(١) شنيدم كه شاپور دم در كشيد — چو خسرو برسمش قلم در كشيد

(٢) چو بذل تو كردم جوانى خويش — بهنگام پيرى مرانم ز پيش

(٣) چو مشرف دودست أز امانت نداشت — ببايد برو ناظرى برگماشت

ورونيز در ساخت بـا خاطرش — زمشرف عمل بركن وناظرش

وإذا عزلت أحداً من منصبه

فاعف عنه ، إذا مضت عليه مده[1]

فان أسديته النصح ، ولم يستمع

فألقه فى السجن والقيد [2]

٣ — ثم دعوة إلى العمل ابتغاء حسن السمعة فى قوله

— لم يأت أحد إلى الدنيا ، نال فيها الخلود

إلا من بقى بعده الذكر الحميد [3] .

— فإن ذهب ، ولم يبق أثر بعده

فلا يليق أن تقرأ الفاتحة بعد مماته [4] .

قصة كركين :

وهذا الاسم يرد فى الشاهنامة « كرجين » وهو بطل من الأبطال القدماء الايرانيين ، يقال إن « بهرام گور » كان من نسله[5] .

وقصته تقع الخمسين فى الترتيب ، وأبياتها سبعة ، وهى من قبيل القصص الاستطرادية التعقيبية ، انتقل اليها الشاعر لتقوية المعنى الذى انتهى إليه فى القصة السابقه له .

وكان الحديث فيه عن شجاعة رجل من رجال الحرب بقوله .

---

(١) بكى راكه معزول كردى زجاه چو چندى برآيد ببخششش گناه

(٢) چو بارى بگفتند ونشنيد پند بده گوشمالش بزند ان وبند

(٣) نيامد كس أندر جهان كو بماند مگرآن كزو نام نيكو بماند

(٤) وگر رفت وآثار خيرش نماند نشايد پس أز سرگش الحمد خواند

(٥) الشاهنامه العربية للدكتور عزام بك ج ٢ ص ١٧٩ — حاشية .

إن المخنث خير ممن يتقلد السيف
ويفر يوم الهيجاء ، كأنه امرأة [1].

هذا هو آخر بيت فى القطعة التى سبقتها ، فرغب الشاعر أن يورد قصة على لسان بطل مارس الحرب وعركها ، فتخير لها هذا البطل القديم .

واستهلال القطعة هنا مخالف للقطع السابقة ، و بيت الاستهلال يقع التاسع بعد التسعمائة ، يورده الشاعر بكلمة استحسان ، ترد على لسان البطل .

ما أحسن قول گرگين إلى ابنه !
حين لبس الدرع وتقلد السلاح [2].

ثم يمضى فى تقوية المعنى فى قوله .

— إذا كنت تفر فى الهيجاء ، كما تفر النساء
فلا تذهب ولا ترق ماء وجه الأبطال .
— فالفارس الذى يولى بظهره يوم القتال
لم يقتل نفسه فحسب، بل يقتل سمعة الأبطال [3].

قصة عمر بن عبد العزيز

وقصته السادسة عشرة ، تبدأ بالبيت ٣٣٤ . فى تسعة عشر بيتاً .

تدور القصة حول معنى اشتهر به ابن «عبد العزيز» وهو مبلغ الإشفاق على الرعية ، والتجرد من مظاهر الترف والزينة . و يتخير الشاعر للقصة موضوعا يدور حول خاتم ثمين ، يملكه عمر بن عبد العزيز ، و يدير القصة على لسان أحد العظماء فى قوله .

---

(١) مخنث به أزمرد شمشير زن — كه روز غوغا سر بتابد چو زن
(٢) چه خوش گفت گرگين بفرزند خويش — چو قربان پيكار بربست وكيش
(٣) اگر چون زنان جست خواهى گريز — مرو آب مرد ان جنگى مريز
سوارى كه درجنگ بنمود پشت — نه خود را كه نام آورانرا بكشت

– يحكى أحد العظماء الأجلاء
عن عمر بن عبد العزيز .
– أنه كان لديه فص لخاتم
عجز الجوهرى عن تقدير ثمنه (١) .

ويمضى فى إبراز قيمة هذا الخاتم الثمين ، وأنه كان ينير الدنيا ، حتى تبدو كأنها النهار ، فنزلت بالقوم سنة قاسية ، فعرض الخاتم فى السوق فباعه . وتمضى القصة فتقول :

– أنفق ثمنه فى أسبوع واحد
منحه للفقير ، والمسكين ، والمحتاج .
– فأشبعه الناس ملامة ، وطعناً
قائلين له، لن تحصل على مثله مرة أخرى(٢) .

وهنا ينتقل الشاعر إلى مغزى القصة، فيجرى على لسان «عمر» هذا الرد :

– قبيح الملِك أن يطلب الزينة
وقلوب الرعية جرحى ، بما هم فيه من الحاجة .
– لا ضير أن يكون بلا فص – خاتمى
لكن لا يليق أن تكون قلوب الخلق فى غم(٣) .

والشاعر يختم القصة بدعوة عامة إلى الإصلاح ، وإلقاء بعض أبيات للنصح والإرشاد ، مشيراً فيها إلى حاكم شيراز ، المقصود بهذا التوجيه :

---

(١) يكى أز بزرگان أهل تميز حكايت كند زابن عبد العزيز
كه بودش نگينى در أنگشترى فرومانده در قيمتش جوهرى

(٢) بيك هفته نقدش بتاراج داد بدرويش ومسكين ومحتاج داد
فتادند دروى ملامت كنان كه ديگربدستت نيايد چنان

(٣) كه زشتست پيرايه بر شهريار دل شهرى أزنا توانى فگار
مراشايد أنگشترى بى نگين نشايد دل خلق أنسد وهگين

— إذا نام المليك منعماً على فراشه
فلست أظن الفقير يستريح فى نومه
— لكن إن سهر على صالح أمته
نام الناس فى ترف وراحه
— والحمد لله تعالى ، فهذه السيرة الحميده
هى سيرة الأتابك أبى بكر بن سعد (١)

أليس فى هذا رسم خطة يريدها الشاعر فى كل الحكام ؟ أليس يرغب أن يكون أمير شيراز على تلك الخطة ؟ أليس يدفع إليه هذه الأبيات الأخيرة ، وكأنما يتأكد مقدماً أن الأمير على مثل هذه الخطة ؟ .

قصة الحجاج

والقطعة رقمها الواحد والثلاثون ، و بيت المطلع ٥٦١ وعدد أبياتها عشرون .

وماذا يشتهر عن الحجاج إلا الظلم ، والعسف ، وأخذ الناس بالقوة ؟

فيأتيه الشاعر برجل طيب ليعرض مبلغ قسوة الحاكم وظلمه ، لمجرد الشبهة ، ولو كانت ممن لا شبهة فيهم ، وعنوانها « يوسف حجاج ومرد حق گوى» الحجاج والرجل الصادق ، ومطلعها :

يحكى أن رجلا من الأخيار
لم يبال بتعظيم الحجاج بن يوسف (٢)

ثم ينتقل الشاعر فيبرز معنى سرعة الغضب عند الحجاج ، ومبلغ القسوة بمجرد الشبهة . فيردف المطلع بهذا البيت :

---

(١) أگر خوش بخسبد ملك بر سرير — نپندا رم آسوده خسبد فقير
وگر زنده دارد شب دير باز — بخسبند مردم بآرام وناز
بحمد الله اين سيرت و راه راست — أتابك أبو بكر بن سعد راست
(٢) حكايت كنند أزيكى نيكمرد — كه إكرام حجاج يوسف نكرد

— فألق نظـــــــرة حادة إلى رئيس ديوانه
قائلا ! ألق النطع واســـــــفك دمه (١) .

ولكى يبث الشاعر روحاً فى القصة ، يجعل الرجل يغلب عليه الضحك والبكاء ، فيعجب الحجاج لذلك ، فيسأله . ماذا أضحكك ؟ وما يبكيك ؟ فيجيبه الرجل بمعنى آخر ، أدعى إلى العطف عليه :

— إن بـــكائى من الدهـــر
فلى أربعـــة من أطفـــال مســاكين .
— وإن ضحكى من لطف الله الرحيم
أنى أنا المظلوم ! يسفك دمى ، ويبقى الظالم(٢) .

أنظر فى الأول ، معنى استدرار الرحمة ، وفى الثانى مبلغ حرص الشاعر على استقامة القصة . فيجعل قضاء الله لطفاً منه ، مما يناسب أن يصدر من الصالحين .

ثم يمضى الشاعر فى تصوير معنى الظلم ، ومبلغ قسوة الحجاج ، حتى ينتهى به الأمر إلى القضاء على الرجل ظلماً ، وهنا يبدو نوع من براعة الشاعر ، فيجعل النهاية فى القصة من قبيل الرواية سماعاً .

— سمعت أنه لم يذعن للنصح ، وسَــفَك دمه
ومن ذا الذى يستطيع أن يفر من حكم الله ؟؟ (٣) .

ثم يخرج من هذه القصة بهذه المعانى العامة فى معاملة الرعية :

— إن المظلوم لاينـــام ، فاخش آهاته
واخش أنفاس قلبه حتى ينكشف الصباح (٤) .

---

(١) بسر هنـگ ديوان نگه كرد تيز   كه نطعى بينداز وخونش بـــريز
(٢) بگفتـــاهمى گريم أز روزگـــار   كه طفلان بيچاره دا رم چهـــار
همى خندم أز لطف يزدان پاك   كه مظلوم رفتم نه ظالم بخـــاك
(٣) شنيدم كه نشنيد وخونش بريخت   زفر سان داو ركه داند گريخت ؟
(٤) نخفتست مظلوم أز آهش بترس   زدود دل صبحگـــا هش بترس

يُعدُّ لها جارية من جوارى القصور التى كانت تزخر بها قصور آل عباس، ويجرى على لسانها بعض أدوار القصة، ولكنه لا يحيد فيها عن الطريقة التى التزمها، من إبراز المعانى، وراء المجسمات والحوادث.

يُؤْتى للمأمون بالجارية الجميلة، فتنفر منه، وهو الخليفة الذى ليس فى الملك مثله بسطة، وسعة، ورفاهية.

والقصة تقع فى الترتيب ٤٣ فى ٢٣ بيتاً ورقم المطلع ٧٥٤ وعنوانها « مأمون خليفة با كنيزك » الخليفة والجارية، ومطلعها:

— حين وصل دور الخلافة إلى المأمون
ابتاع جارية فاتنة، كأنها البدر [1].

ثم يمضى فى وصف جمالها، لكنها تنفر من المأمون، فيغضب، ثم يتمالك نفسه، فيسألها ما يغضبها ؟ فتوضح له ما تلقاه من عناء فى رائحة فمه، ثم يبرز الشاعر مدى حكمة المأمون، وترويه، واستجابته لرغبات جاريته.

— تكلم مع من يعرفون الطباع من كل إقليم
وسأل كثيراً، من كل جهة [2].

ثم ينتقل الشاعر إلى المعنى المقصود من القصة، وهو تقبل النقد، وسعة الصدر، والحلم عند الغضب.

— إن الذى يريد لك الخير، هو — فى رأيى
من يقول لك يافلان! إن الشوك فى طريقك [3].

---

(١) چودور خلافت بمأمون رسيد | بكى ماه پيكر كنيزك خريد
(٢) طبيعت شناسان هر كشورى | سخن گفت باهريك أز هردى
(٣) بنزد من آنكس نكو خواه تست | كه گويد فلان خاردر راه تست =

— أما أن تقول للضال إنك تسير سير المستقيم
فإن ذلك جفـــــاء تام ، وجور عظيم .

قزل أرسلان ، وفيه قصتان :

قصته الأولى تعالج غرور الملوك ، وقدكان قزل أرسلان من أتابكة آزر بيجان المشهورين ، حكم من سنة ٥٨١ — ٥٨٧ ﻫ . ومدحه كثير من مشاهير الشـعراء الإيرانيين المعاصرين له . مدحه النظـامى الگنجوى ، ومجير الدين البيلقانى ، وظهير الدين الفاريابى (١) .

والقطعة الأولى من هاتين القطعتين ، الثانية فى الباب وأبياتها ١٤ ورقم مطلعها٧ وعنوانها « نصيحة الملوك على وجه التعريض بظهير » . وظهير هو الفاريابى السابق الإشارة إليه . والتعريض به هنا لأنه مدح الأمير بقوله :

— وَضعَ الفكرُ تحت أقدامه تسعة كراسى من الفلك
حتى يستطيع أن يقبّل ركاب قزل أرسلان (٢) .

فأراد الشاعر أن يستحضر شخصية خدعت بالغرور والكبرياء ، واستجاب الشعراء لهـا بهذا الغرور ، فتخير « قزل أرســلان » وتلقف بيت « الظهير » وعرّض به فى مطلع قطعته :

— أى حاجة لك حتى تضع كراسى الفلك التسع
تحت أقدام قزل أرســــلان!؟ (٣) .

= بگمراه گفتن نكو مــــيروى جفائى تما مست وجـورى قـــوى

(١) انظر تراجم هؤلاء الشعراء وصلتهم بهذا الأمير فى ترجمة تاريخ الأدب الفارسى

(٢) نه كرسى فلك نهد أنديشه زير پاى تابوســه بر ركاب قزل أرسلان دهـد
انظر شرح جراف ص ٢٨ وسودى ص٨

(٣) چه حاجت كه نه كرسى آسمان نهى زيــر پاى قزل أرســـــلان

وهـذه القطعة تقوية للمعنى الذى ساقه الشاعر فى القطعة التى سبقتها . يعرض لموقفه من مدح الملوك ، و يرى أن يتجرد الإنسان من الطلب والحاجة ، حتى لا يتصنع فى مدحه ، وهـذا يبين لنا مدى محافظته على الروح الأخلاقية ، التى كان يتطلبهـا .

— لا تسلك ياسـعدى طريق التكلف
فان كنت صدوقا . فاحضر ! وتهيأ للقول .

— إنك خبـير بالطريق، والمليك سالك لهـا
وأنت تنشد الحقائق، والمليك مستمع لها(١) .

هذا هو موقف سعدى من أمير إمارته ، وهذه هى المعانى التى انتهى إليها فى هـذه القطعة ، فلما استقر هذا المعنى فى ذهنه ، عرّض بقول « ظهـير » فى مدح « قزل أرسلان » على الصورة التى وردت فى المطلع . والشاعر سرعان ما ينتقل إلى الغرض المقصود من استحضار « قزل أرسلان » فيعالج تواضع الملوك فى قصته .

— لا تقل ضـع قـدم العزة على الأفـلاك
بل قل ضع وجهك مخلصاً على التراب (٢) .

— و إن كنت مطيعاً ، فاركع على أعتاب ربك
والق تاج الملـكة عن رأسك ! (٣) .

— وحـين تطيع ، فلا تتحل بزينـة الملوك
بل تضرع ، كالدرويش المخـلص (٤) .

---

(١) بـراه تكـلف مرو سـعديا أگر صدق دارى بيار و بيـا
تو منزل شناسى وشـه راه رو تو حق گوى وخسرو حقايق شنو
(٢) مگو پاى عزت بـر أفلاك نه بگو روى إخلاص برخاك نـه
(٣) أگر بندهٔ سر بـرين در بنه كلاه خـد اونـدى أز سر بنـه
(٤) چو طاعت كنى لبس شاهى مپوش چو درويش مخلص برآور خروش

وهكذا يمضى الشاعر فى بيان الطريق إلى التواضع ، حتى ينتهى من القطعة بقوله :

— إذا كان العظماء مهيؤون على بابك للخدمه
فلتحن أنت رأسك ، على أعتاب الله ، طاعة له (١) .

* * *

أما القطعة الثانية فترد رقم ٣٨ ومطلعها ٦٣٧ وأبياتها ١٤ ، وتعالج القطعة مسألة أخرى ، هى أحوال الدنيا ، وأنها سريعة الزوال والانتقال . يتخير لهذا المعنى قصة تدور حول قلعة للأمير ، تستعصى على الزمن قوة وثباتا .

ويجعل الحديث بينه و بين سائح حكيم ، يقول فى المطلع :

— كان لقزل أرسلان ، قلعة منيعة
وكانت تفوق فى علوها ، جبل ألوند (٢) .

ويمضى فى وصف القلعة ومناعتها ، ووعورة الوصول إليها ، وأمن الأمير بها ثم يدخل الشخصية الأخرى فى القصة ، و يدير الحديث بينهما :

— قال قزل أرسلان ، هل رأيت
فى سياحاتك العديدة ، مكاناً محكماً ، كهذا (٣) .

فيجيبه الحكيم ضاحكا ، ساخراً ، نعم ! إن قلعتك هذه عظيمة ، ولكنى لست أظنها منيعة . و ينتقل من ذلك إلى الغرض من القصة :

— ألم يكن قبلك من ملكها من العظماء ؟ ؟
عاشوا طويلا ، لكنهم مضوا (٤) ! ! .

---

(١) كمر بسته گرد نكشان بر درت — توبر آستان عبادت سرت
(٢) قزل أرسلان قلعهٔ سخت داشت — كه گردن بألوند برسفراشت
(٣) قزل أرسلان چند بن كه گرديده اى — چنبن جاى سحكم دگر ديده‌اى ؟
(٤) نه بيش أزتو گرد نكشان داشتند — دمى چند بودند وبگذا شتند

ثم يختمها بهذا المعنى العام، فى تأييد المعنى السابق .

— الدنيا ـ لدى العاقل ـ لا تساوى شَرْوَ نقير
فسرعان ما يخلفها قوم، مكان آخرين[1] .

قصة تكلة بن زنكى

وقصته ١٨ وأبياتهـا ١١ ومطلعها ٣٥٩ .

وماذا كانت شهرة تكله بن زنـكى ؟ إنه اشتهر بالعدل ، وسعة السلطان ، حتى فاق أنوشروان، وسليان . مدحه بعض الشعراء بقوله .

فأين أنوشروان منـه وعدله وأين سـليمان النبى وخاتمه[2]

ومع ذلك ، كانت تغلب عليه الروح الصوفية ، حتى أنه نفر من السلطان .

ومطلع القطعه :

— جاء فى أخبـــار المـلوك الســـالفين
أن تكلة ، حين جلس على عرش آل زنكى[3] .

ثم يدخل الشاعر أحد المتصوفة فى القصة ، ليخلص إلى المعنى الذى يريد :

— قال ذات مرة ، لأحـــد الزاهدين
لقد انتهى عمرى دون أن أجنى ثمرا[4] .

ثم يرغب فى الابتعـاد عن الدنيا ، والانقطاع إلى العبادة . لـكن الشـاعر يرشد إلى طريق أقوم من هذا . وما الطريق الذى هو أقوم من الانقطاع إلى العبادة، عند ملك يريد أن يهجر الملك فى سبيلها ؟ هنا يأتى الشاعر بالمعنى المناسب للملك يشرف على رعيتـه .

---

(١) بـسـر مرد هشيار دنيـا خسست   كه هر مدتى جاى ديگر كسست
(٢) شيراز نامه ص ٥١
(٣) در أخبار شـا هان پيشينه هست   كه چون تكله برتخت زنگى نشست
(٤) چنين گفت يكره بصاحب دلى   كه عمـرم بسررفت بيحاصلى

— ليس الطريق السوى ، إلا فى خدمة الخلق
لا بالتسبيح ، والسجادة ، والدلق .
— فامض على عرش سلطانك ،
وكن درويشاً فى أخلاق الطاهرين [١] .

* * *

هذا هو منهج الشاعر فى اختيار الشخصية ، ومبلغ درايته بتاريخها وظروفها. يستحضرها ، ويعد لها الدور المناسب ، ويجرى على لسانها ، أو يستخلص من قصتها معنى من المعانى .

وهذه هى القصص التى تناولت شخصيات تاريخية معروفة ، أدركنا منها كيف أحكم الشاعر إدارة قصصه ؟ وكيف بلغ النتيجة التى يريدها ، والمعنى الذى يقصده . ؟؟

وهناك — كما قلنا سابقاً — قصص أخرى من التى سميناها قصصاً عن «سعدى» ، أو قصصاً عامة ، تكوّن مع القصص الشخصية جميع قصص الباب . وبعض القصص العامة ، تدخل فيها شخصيات عرضية ، للتشبيه أو لتوكيد المعنى ، وإدراك الصورة التى يطلبها الشاعر ، بالإضافة إلى المعانى التى تنطوى عليها هذه القصص ؟ وهذا ما يدعونا إلى الكلام على مجموع الأفكار العامة التى تناولها الشاعر فى جميع الباب .

* * *

الأفكار العامة فى باب العدل

تناول هذا الباب فى مختلف القصص — بالإضافة إلى ما لاحظناه فى القصص الشخصية — مجموعة من الأفكار العامة تتمشى مع الغرض منه .

---

(١) طريقت بجز خدمت خلق نيست بتسبيح وسجادهٔ ودلق نيست
تو بر تخت سلطانى خويش باش بأخلاق پاكيزه درويش باش

فهذا باب وضع للملوك وسياسة الملك ، فلا بد أن يعالج فيه الشاعر أموراً تتصل بهم، كذلك كان من قصد الشاعر أن يرسم فيه دستوراً للملك يعالج به شئون الرعية.

ويمكن تصويرنا لهذا كله فى ناحيتين :

أولا — تعرض الناحية الأولى لسياسة الملك الداخلية . وتنـاول فيها الشاعر أحوال ثلاث هيئات هى :

(١) شئون الرعية . (٢) شئون الموظفين . (٣) شئون الجيش .

ثانياً — والناحية الثانية تعرض للسياسة الخارجية . تناول فيها أحوالا ثلاثاً :

(١) خصوم الدولة . (٢) حالات الحرب والسلم . (٣) أمور الأجانب .

السياسة الداخلية :

١ ــ شئون الرعية :

ويبدو أن شـئون الرعية وسياستها استنفذت كثيراً من أفكار هذا الباب ، يظهر ذلك فيما نلاحظه من كثرة النصائح التى كان يرددها — رواية وسماعا — على ألسنة الملوك السابقين فى نصائحهم لأبنائهم ، أو لعمالهم فى إدارة دفة الحكم .

فهو يشبهها تشبيهات كثيرة :

— الرعية كالشـجرة ، إذا نالت رعايتك
جنيت ثمارها ، بقـــــدر رغبتك .

— فلا تقتلع جذورها ، وثمارها بغير رحمـه
فإن الجاهل يوقع الحيف بنفسـه[1] .

— والرعية كالجـذر ، والسـلطان كالشجر
والشجرة يا بنى! تستمدقوتها من الجذر[2].

---

(١) رعيت در خنست أگر برورى — بكام دل خويش بسـر خرى
ببير حمت أز بيخ وبارش مكن — كه نادان كند حيف بر خويشن ق١١

(٢) رعيت چوبيخند وسلطان در خت — درخت أى پسرباشد أزبيخ سخت =

— فلا تجرح — ما استطعت — قلوب رعيتك
فإذا جرحتها ، اقتلعت جذرك [١] .

— ولا ينبغي قتل الرعية ، ظلماً
فإنها ملاذ السلطنة ، وظهيرها .

— وارع الأجير ، من أجل نفسك ،
فإن العامل السعيد ، هو الذي يأتي بعمل وافر .

— وليس من المروءة أن تفعل الضُّرَّ
مع من رأيت منه خيراً كثيراً [٢] .

— وحرام على المليك ، أن ينام سعيداً ،
إذا ترك القوي على الضعيف .

— فلا تؤذ الرعية مقدار خردله ،
فإن السلطان راع ، والرعية قطيعه [٣] .

— وإذا نام المليك مستريحاً على السرير
فلست أظن نوماً هادئاً للفقير .

— فإن سهر طويلاً على راحة الرعية
نام الناس مستريحين ، وسعدوا به [٤] .

= مكن ناتوانى دل خويش ريش — وگر ميكنى ميكنى بيخ خويش ق ٤

(١) رعيت نشايد ببيداد گشت — كه سر سلطنت را پناهند وپشت
مراعات دهقان كن أز بهرخويش — كه مزدور خوش دل كند كاربيش
مروت نباشد بدى بما كسى — كزو نيكويى ديده باشى بسى ق٤

(٢) حرامست بر پادشه خواب خوش — چو باشد ضعيف أز قوى باركش
مبازار عامى بيك خردله — كه سلطان شبانست وعامى كله ق٤ ٢

(٣) أگر خوش بخسبد ملك بر سرير — نپندارم آسوده خسبد فقير
وگر زنده دارد شب دير باز — بخسبند مردم بآرام وناز ق١٦

— وقبيح للملك أن يطلب الزينة
وقلوب أهل المدينة جريحة عجزاً .
— طوبى! لمن يؤثر راحة الناس رجالا ونساء
على راحة نفسه ، وشهواتها [١] .

ثم يعرض لشيء من العقوبات التي توقع حين الجرم :

— التمس للمذنب عذر النسيان
ولا تحرمه ان طلب الأمان .
— وان لجأ إليك مذنب
لا ينبغي أن تقتله أولا بذنبه .
— فإذا نصحته مرة ، ولم يستمع لنصحك
فأسلمه إلى سجنك ، وقيدك .
— فإن لم تثمر فيه النصيحة ، والسجن
فاقتلعه من جذره ، فإنه شجرة خبيثة [٢] .
— ولا تؤذ الغريب الذى امتلأ رأسه بالفتنة
بل اطرده بعيداً ، من الدولة .
— فإن كان فارسياً ، ومن مواليدها
فلا تنفه إلى صنعاء، أو صقلاب ، أو الروم .
لكن لا تأمننه ، ولو لوقت قليل
ولا ينبغي أن توكل البلاء بالآخرين [٣] .

---

(١) كه زشتست بيرايه بر شهريار — دل شهرى أزنا توانى فـار
خنك آنكه آسايش مرد وزن — گز بند بر آرايش خويشتن ق١٦

(٢) گنهكار را عذر نسيان بنه — چو زنهار خواهد زنهارده
گر آيد گنهكارى أندر بناه — نه شرطست كشتن بأول گناه
چو بارى بگفتند ونشنيد پند — بده گوشمالش بزندان وبند
وگر پند وبندش نيايد بكار — در ختى خبيثست بيختش برآر ق٧

(٣) غريبى كه پرفتنه باشد سرش — ميازار وبيرون كن أز كشورش
وگر پارسى باشدش زاد وبوم — بصنعاش مفرست وسقلاب وروم
هم آنجا أمانش مده تا بجاشت — نشايد بلا بر دگركس گماشت ق١٧

– وانظر فى أحوال السجناء ،
فلعل من بينهم من هو برىء[1].

* * *

٢ – شئون الموظفين :

والشاعر لايتناول المسائل العامة وحدها ، فيدلى فيها برأيه ، و يطالب فيها بتوجيهاته . لكنه يتناول المسائل الخاصة ، المسائل العملية فى سياسة الدولة .

يعرض لأمور الموظفين و يتناولهم من الوزراء إلى العمال . عرض لأمر اختيار الوزراء ، وتناول هذا المنصب ، وتناول مايحدث بشأنه من الوشايات فى قطعة خاصة هى أطول قطع الباب ، بل لعلها كذلك أطول قطع الكتاب . ففى القطعة الثامنة وتبلغ مائة وعشرة أبيات ، يصور رغبة المليك فى اختيار الوزير ، وما يحدث بين الوزراء من الحسد ، والغيرة .وهو يرسم للمليك الخطط لعلاج هذه المشاكل . و بجانب هذه القطعة ، تتردد بعض المعانى المتصلة بهذا الموضوع ، فى قطع أخرى أهمها القطعة التاسعة .

وقد تناول الشاعر فى موضوع الوزراء ،أهم شىء فيه، وهو التنافس على كراسى الحكم ، وفى سبيل هذا التنافس تكثر الوشايات ، وتحيط بالأشخاص ، فتفعل هذه فعلها فى نفسية المليك ، فيغضب ، فيعالج عنده أمر الغضب ، ثم تتكشف الحقيقة لديه فيرتد إلى الصواب .

ونحن نتناول هذه الناحية من جانبيها :

(ا) السياسة مع الوزراء . (ب) السياسة مع بقية موظفى الدولة.

---

(١) نظر كن در أحوال زندانيان كه ممكن بود بيگنه در ميان ق . ا

١ ـ السياسة مع الوزراء :

يصور الوشاية فيما بينهم بقوله على لسان أحد الوزراء يخاطب المليك :

ـــ أنَّى للحسود الذى يرانى فى مكانه
أن يذكرني بغير لسان السوء ؟ ؟.

ـــ لقد اعتبرت نفسى عدواً له
منذ جعله المليك تحت أمرى .

ـــ ألا يعلم المليك أنه حين يفضلنى عليه
سيكون عدواً لى ، يقتفى أثرى ؟[١] .

ـــ إن لى أيضاً اسماً طيباً ، لكن خصمى
لا يذكره حسناً ، لعلة فى نفسه .

ـــ فالوزير الذى فقد مكانته بسبب جاهى
ينبغى أن أحتاط منه كثيراً [٢] .

ثم يصور الشاعر كيف استضاء المليك ، عندما لمس براءة الوزير :

ـــ لست أخشى غضب المليك
فإن البرىء شجاع فى الكلام .

ـــ والذى يخشى المحتسب
من كانت أثقال ميزانه ناقصة .

ـــ فإذا كتبت ـــ صحيحاً ـــ بقلمى
فكيف اغتم ممن يعترضون على ؟؟ [٣] .

---

(١) حسودى که بیند بجای خودم ... کجا بر زبان آورد جز بدم
من آنگاه انگاشتم دشمنش ... که بنشاند شه زیردست منش
چو سلطان فضلیت نهد بر ویم ... نداند که دشمن بود در پیم ؟ ق ٨

(٢) مرا همچنین نام نیکست لیك ... زعلت نگوید بد اندیش نیك
وزیری که جاه من آبش بر یخت ... بفرسنگ باید زمکرش گریخت ق ٩

(٣) ولیکن نینند یشم أز خشم شاه ... دلاور بود در سخن بیگناه
أگر محتسب گردد آنرا غمست ... که سنگ ترازوی بارش کمست
چو حرفم بسر آیدزدست أز قلم ... مرا أزهمه حرف گیران چه غم ؟ ق ٩

— استضاء المليك برأى الوزير
حتى اغتم الوزير القديم بغم جديد .
— لم ير ثغرة فى ذلك العاقل
حتي يمكن أن يطعنه بها .
فالأمين ، ومفكر السوء ، كالطشت والنمل
لا يستطيع النمل أن يحدث ثغرة فيه [1] .

ويعرض الشاعر مدى حلم المليك ، وعدم تأثير الغضب فى نفسه، عند الوشاية فى قوله :

— لو لم أكن قد اتبعت الأناة ، بتعقل
لكنت عاقبته بقول خصمه
— فالذى يمد يده سريعاً ، وهو فى ثورة الغضب
يعض بنان الندم أسفا .
— فلا تنصت إلى كلام الوشاة
فإذا عملت به ، فلا ريب أنك نادم [2]
— ولا تؤذ من عاش فى رعايتك
ولا تقتله بالسيف ، إذا أغضبك
— وما دمت لم تتيقن من إثمه
فلا تأخذنه بقول خصمه [3]

---

(١) ز روشن دلش ملك پرتو گرفت — وزير كهن را غم نو گرفت
نديد آن خرد مند را رخنه اى — كه دروى تواند زدن طعنه اى
أمين وبد أنديش طشتند ومور — نشايد درو رخنه كردن بزور — ق ٨

(٢) بعقل أرنه آهستگى كردمى — بگفتار خصمش بيازردمى
بتندى سبك دست بردن دريغ — بدندان برد پشت دست دريغ
ز صاحب غرض تا سخن نشنوى — كه گركار بندى پشيمان شوى — ق ٩

(٣) ميازار پرورده خويشتن — چو تير تو دارد بتيغش مزن
كنون تا يقينت نگردد گناه — بگفتار دشمن گزندش مخواه — ق ٨

ب ـ السياسة مع الموظفين :

ـــ حكِّم فى الرعيـــة من يخشى ربك
فإن العفيف عمـــــاد ملكك .
ـــ والذى يمتص دماء الخلق من أجلك
هو من يفكر الســــوء بك (١) .
ـــ وينبغى أن يكون أمينـاً يرعى الله
فلا تأمن لأمــين يخافك وحـدك .
ـــ وينبغى أن يفكر الأمين فى خشـــية ربه
لا فى رفع رانبه ، أوخوف زجره ، وهلاكه .
ـــ واعط ، وحاسب من تعطى ، تعش آمناً
فلن تجد واحداً من مائة أمينا (٢) .

كما يعرض الشاعر لسياسة عقوبة الموظفين ، وتأديبهم فى قوله :

ـــ إن المليك العــــادل ، فى رعيتـــــه
يغضب عليهم ، غضب الأب على ابنه .
ـــ يضـــــربه حينـــــاً ، حتى يؤلمه
وحيناً ، يمسح دموعه من عيونه البريئة (٣) .
ـــ وإذا زلَّ الـكاتب ، فى عمـــله
فـلا تقطعن حبـــــال أمـله (٤) .

---

(١) خدا ترس را بر رعيت گمار — كه معمار ملكست پرهيز كار
بداندیش تست آن وخونخوار خلق — كه نفع تو جـويد در آزار خلق ق ٥
(٢) خدا ترس بايـــد أما نتگزار — أمين كزتو ترســـد أمينش مدار
أمين بابد أز داور أنديشناك — نه أز رفع ديوان وزجر وهـلاك
بيفشان وبشمار وفارغ نشين — كه أز صد يكى را نبنى أمين ق ٧
(٣) بفرمان بران برشــــه دادگر — بــدر وار خشم آورد بر بسر
گهش ميزند تاشـود دردناك — گهى ميكند آبش أز ديده پاك
(٤) نويســنده را گر ســـتون عمل — بيفتد نـبرد طناب أمل =

ـــ وإذا لم يكُفّ المشرفُ يده ، عن الأمانه
فينبغى أن يعـــين رَقيبٌ عليـــــه .
ـــ وإذا عزلت أحداً ، من مكانه
فاعف عنـــه ، حين تمضى عليـــه مده .
ـــ ولا تعـــــاقب المؤذِى بأخذ أمواله
بل يجب اقتلاع جذره من أســـــاسه .
ـــ ولا تصـــبر على عامل تمـادى فى بطشـــه
بل ينبغي ـ متى سمن ـ أن تسلخ جلده(١) .

كذلك يتحدث الشاعر عن الذين تقادم عهدهم فى الخدمة ، أو تركوها :

ـــ زود قدر القــــــدماء فى خدمتك !
حتى لا يغـــدر بهم ، من يتول بعـــدك .
ـــ وحين يتقــــــادم العهـــــد بخادمك
لا تنس السنين التى أمضاها فى خدمتك .
ـــ فإذا كان الهَرَم قد حال بين العمل ، و بينه
فإن يدك الكريمة ، لاتزال موجوده (٢) .

٣ ـ شئون الجيش :

ولم تقف مقدرة الشاعر فى رسم دستوره ، عند العناية بالرعية ، أو بالموظفين المدنيين . بل تنـاول أيضاً أمور الجيش ، ورسم للملك سياسة يسلـكها حال السلم ،

= چو مشرف دودست أز أمانت نداشت — ببايـد برو ناظرى بر گماشت
يكى را كه معزول كردى زجاه — چو چندى بـر آيد ببخشش گـناه — ق٧
(١) مكافات مؤذى بمالش مكن — كه بيخش بر آورد بابـد زبن
مكن صبر بـر عامل ظلم دوست — كه أز فربهى بابدش كند پوست — ق٥
(٢) قديمان خو درا بيفزاى قـــــدر — كه هرگز نيايد ز پرورده غدر
چو خدمت گذاريت گردد كهن — حق سـاليانش فرامش مـكن
گر أو را هرم دست خدمت ببست — ترا بـر كرم همچنان دست هست — ق٦

وحال الحرب ، ورعاية شئون الجيش ، فى كلا الحالين ، ومسلكه مع العدو ، ومع الأسرى ، ومع البلاد التى يفتحها . مما يدل على مدى تجربته، وخبرته فى ألوان الحياة كلها . تلك الخبرة التى جمعها طوال عهده ، وخلال رحلاته .

وأول ما يطالعنا من أمور الجيش حديثه عن الأموال ، والخراج ، والخزانة . وعلاقة كل ذلك بتقوية الجيش لصيانة الدولة :

— لست أحصل على الخراج
من أجل زينتى ، وعرشى ، وتاجى .
— كم لى من ألوان الترف ، والهوى !
لكن الخزانة ليست ملكى وحدى .
— فإنما تمتلىء الخزائن لينفق منها على الجيش
لا على الزينة ، والزخرف ، والرياش (١).
— وأكرم الجيش وقت الصفاء
فإنه يفتديك وقت الهيجاء (٢) .
— وارع اثنين ! أيها المليك الحبيب
أحدهما المحارب ، والآخر المجرب .
— فَكَرَة الدولة يكسبها العظماء
الذين يرعون المحاربين ، والعلماء .
— ومن لم يمارس القلم ، والسيف
فإن مات ، لا تحزن عليه ، ولا تأسف (٣).

---

(١) نه أز بهر آن ميستانم خراج — كه زينت كنم برخود وتخت وتاج
سرا هم زصد گونه آز وهواست — وليكن خزينه نه تنها سراست
خزائن پر أز بهر لشكر بود — نه أز بهر آيين وزيور بود ق ١١

(٢) سپاهى در آسودگى خوش بدار — كه در حالت سختى آيد بكار ق ٤٨

(٣) دوتن پرور إى شاه كشورگشاى — يكى أهل رزم ودگر أهل راى
زنام آوران گوىٔ دولت برند — كه دانا وشمشير زن پرورند
هر آنكو قلم را نورزيد وتيغ — برو گر بميرد مگو إيد ريغ ق ٥١

ثانياً — السياسة الخارجية :

رأينا أن الشاعر تناول فيها أحوالاً ثلاثاً ، هى :

(١) خصوم الدولة (٢) حالات السلم والحرب (٣) أمور الأجانب

١ — خصوم الدولة :

حاول الشاعر أن يرسم سياسة للملك ، ليحذر أعداءه خارج دولته ، و ينادى فى هذه السياسة بما يأتى :

— ليس من الحكمة ، أن تعيش فى أمن
حتى ولو كنت ، بين عدوين ضعيفين (١) .
— ويجب أن تخفى للحرب استعدادك
فإن العدوّ يُخفى إغارته عليك .
— والحذرُ سياسة ذى الرأي السديد
وتَخيّرطليعة الجيش ، فإنها سَدٌّ من حديد (٢) .
— وإذا تمكنت باللين كسب الديار
فلا تسفك دماء أحد بالدمار .
— فإنى بحق الرجولة أرى مُلْك الأرض كلها
لا يساوى مسيل الدماء عليها (٣) .
— وانثر للعدو الذهب ، مكان الحسك
فإن الإحسان يثلم الأسنان الحادة (٤) .

---

(١) ميان دو بد خواه كوتاه دست — نه فرزانگى باشد إيمن نشست ق٢ ٥
(٢) ببايد نهان جنگ را ساختن — كه دشمن نهان آورد ساختن
حذر كار مردان كار آگهست — يزك سد روئين لشكر گهست ق٢ ٥
(٣) چو شايد گرفتن بنرمى ديار — بپيكار خون أز مسامى ميار
بمردى كه ملك سرا سر زمين — نيرزد كه خونى چكد بر زمين ق١١
(٤) عدو را بجاى حسك زربر يسز — كه احسان كند كند دندان تيز =

— و إذا لم تستطع أن تقطع يداً ، فقبلها !
فإن الحيلة — مع الغالبين — هى الخديعة .

— و إذا لم تسطع أن تهزم العدو بالقوه
فينبغى — بالرضا — قفل باب الفتنة .

— و إذا كنت تخشى الضرر من خصمك
فاعقد لسانه ، بتعويذة إحسانك [1] .

— و إذا كنت — عند الحرب — أقوى منه
فليس من الرجولة أن تستغل عجزه .

— فلو كانت لك قوة الفيل ، ومخلب الأسد
فعندى أن تؤثر الصلح على الحرب .

— واحذر هجوم الرجل المستضعف
فكم رأيت سيولاً كثيرة من قطرات [2] ! .

— و إذا كلّت — عن كل حيلة — يدك
فمن الخير أن تضعها على سيفك [3] .

— ولا تول قائداً على الجند
إلا من ذاق — كثيراً — مرارة الحرب .

— ولا تكلف الصغار جسام الأمور
فإن السنديان لا يكسر باليد [4] .

= چو دستی نشاید گزیدن ببوس ‏ ‏ ‏ ‏ که باغالبان چاره زرقست ولوس ‏ ‏ ‏ ‏ ق٤٧

(١) چو نتوان عدو را بقوت شکست ‏ ‏ ‏ ‏ بنعمت بباید در فتنه بست
گر أندیشه باشد زخصمت گزند ‏ ‏ ‏ ‏ بتعویذ احسان زبانش ببند

(٢) وگر زو توانا تری درنبرد ‏ ‏ ‏ ‏ نه مردیست برناتوان زور کرد
أگرپیل زوری وگر شیر جنگ ‏ ‏ ‏ ‏ بنزدیك من صلح بهتر که جنگ
حذر کن زپیکار کمتر کسی ‏ ‏ ‏ ‏ که أز قطره سیلاب دبدم بسی ‏ ‏ ‏ ‏ ق٤٧

(٣) چو دست أز همه حیلتی در گسست ‏ ‏ ‏ ‏ حلا لست بردن بشمشیر دست ‏ ‏ ‏ ‏ ق٤٧

(٤) سپا هرا مکن پیشرو جز کسی ‏ ‏ ‏ ‏ که در جنگها بوده باشد بسی ‏ ‏ ‏ ‏ ق٤٩
بخردان مفرمای کـار درشت ‏ ‏ ‏ ‏ که سندان نشایدشکستن بمشت

٢ ـ حالات السلم والحرب :

كذلك يرسم الشاعر خطته فيها ، فى قوله من تضليل العدو :

— إن « الأسكندر » حينما تطلع إلى الشرق
قالوا إنه فتح باب خيمته نحو الغرب

— وحين رغب « بهمن » الذهاب إلى « زابلستان »
أشاع أنه ذاهب شمالاً ، بينما اتجه يميناً .

— فإنه إن أطلع غيرك على عزمك
حق لك أن تبكى على الرأى والحكمة (١) .

— وإذا بقى بين الجيشين مسير يوم
فأقم هناك ! واضرب الخيام .

— ألست تعلم ، أن العدو إذا تقدم هذه المسافه
لم يبق له ساعد من القوة (٢) .

— وإن كنت فى ألف ، وعدوك فى مائتين
وجنّ عليك الليل ، فلا تمكث فى أرض العدو .

— ففى الليل المظلم ، إذا كان لك خمسون فارساً
فإنهم يحطمون الأرض مهابة ، وكأنهم خمسمائة .

— فإذا عنّ لك أن تقطع الطريق ليلاً
فاحذر مواضع المفاجأة أولاً (٣) .

---

(١) سكندر كه باشرقيان حرب داشت — در خيمه گويند در غرب داشت
چو بهمن بزا بلستان خواست شد — چپ آوازه أفگند وأز راست شد
أگر جزتو دا ندكه عزم توچيست — بران راى ودانش ببايد گريست ق٥٦

(٢) ميان دولشكر چو يكروز راه — بماند بزن خيمه بر جاى گاه
ندانى كه دشمن چو يكروز راند — سرپنجه زور مندش نماند ق٤٧

(٣) وگر خود هزارى ودشمن دويست — چو شب شد در اقليم دشمن مأيست
شب تيره پنجه سوار أز كمن — چو پانصد بهيبت بدرد زمين
چو خواهى بريدن بشب را هها — حذر كن نخست أز كمين گاهها =

— ولا تتعقب من حلّت به هزيمتك ،
فإنه لا ينبغى أن تبعد كثيراً عن أنصارك .
— ولا تكشف سرك لكل إنسان
فكثيراً ما رأيتُ الجاسوس نديماً فى الشراب (١) .

فإذا ما انتهت الحرب وكانت الهزيمة للعدو ، فإنه يرسم له الخطة ، فيما يأتى بقوله :

— إذا انتزعت بلاداً من عدوك
فازْعَ أهلها أكثر منه .
— فإنك لو طرقت باب الحرب مرة أخرى
فإنهم جميعاً يقضون عليه (٢) .
— و إذا انتصرت على عدوك ، فلا تؤذه
وكفاه ايذاء ما تجرعه من الغصه (٣) .
— و إذا وقع قائد من رجال العدو فى الأسر
فينبغى أن تتأنى فى قتله .
— فلو قتلت ذلك الأسير التعس
فلن تطرف عيناك أسيرك (٤) .

وماذا لو وقعت الهزيمة بجيشك ؟ ؟ .

— فإذا رأيت أعوانك المخلصين لا يصادقونك
فاغتنم الهزيمة ، وآثرها على الحرب (٥) .

= پس در قفاى هزيمت سران نبايد كه دور افتى أز ياوران ق٤٧

(١) منه در ميان راز باهر كسى كه جاسوس همكاسه ديدم بسى ق٥٦

(٢) چو بركندى أز دست دشمن ديار رعيت بسامانتر أز وى بدار
كه گرباز گويد در كارزار بـرآرند عام أز دماغش دمار ق٥٥

(٣) چو بر دشمنى باشدت دسترس مرنجانش كورا همين غصه بس ق١٢

(٤) چو سالارى أز دشمن أفتد بجنگ بكشتن درش كرد بايد درنگ
أگر كشتى اين بندى ريش را نبينى دگر بندى خويش را ق٥٤

(٥) چو بينى كه ياران نباشند يار هزيمت زميدان غنيمت شمار ف٥٥

— وإذا رأيت الجيش قد تفككت أوصاله
فلا تسلم — إلى الموت — روحك الطيبة .
— فإن كنت فى جانب ، فاجتهد فى العودة ،
وإذا كنت فى الميدان ، فالبس لباس العدو (١) .

٣ — أمور الأجانب

لا يفوت الشاعر — وهو يرسم تلك السياسة العامة فى الداخل والخارج — أن يعرض لجانب آخر خارجى ، هو علاقة الدولة فى الشئون المدنية بالأجانب .

فالدولة يقصدها الكثيرون ، إما للتجارة ، وإما للسياحة ، وإما لأمور سياسية ، والشاعر فى كل ذلك يرسم خططاً معينة :

— إذا بات تاجر فى ديارك
فمن الخسة أن تمد — إلى ماله — يدك (٢) .
— وإذا رغبت أن تكون طيب السمعة
فارع التجار والرسل رعاية طيبة (٣) .
— فكرام القوم ، يرعون السائحين بأرواحهم
لأنهم يحملون لهم السمعة الطيبة فى العالم .
— كن للغريب صديقاً ، وللوافد نعم المحب
فإنهم يجلبون لك الاسم الطيب (٤) .
— والغريب الذى امتلأ رأسه بالفتنة
لا تلحق أذاك به ، لكن ابعده عن المملكة (٥) .

---

(١) چو بينى كه لشكر زهم دست داد — بتنها سده جان شيرين بباد
وگر بر كنارى برفتن بكوش — وگر در ميسان لبس دشمن بپوش ق٤٧

(٢) چو بازرگان در ديارت بمرد — بمالس خساست بود دستبرد ق١٠

(٣) نكو بايدت نام ونيكى قبول — نكو دار بازاگان و رسول ق٦

(٤) بزرگان مسافر بجان پرورند — كه نام نكوئى بعالم برند
غريب آشنا باش ، وسياح دوست — كه سياح جلاب نام نكوست ق٦

(٥) غريبى كه پر فتنه باشد سرش — ميازار وبيرون كن أز كشورش ق٦

٢ — باب الإحسان

رقم ق	رقم المطلع	عدد الأبيات	قصة عن سعدي	عن شخصية تاريخية	عامة	المطلع
١	١	١٧			عامة	أگر هو شمندی بمعنی گرای
٢	١٨	١١			»	پدر مرده‌را سایه برسر فکن
٣	٢٩	٨			»	یکی خار پای یتیمی بکند
٤	٣٧	١٨		سيدنا إبراهيم		شنیدم که یکهفته ابن السبیل
٥	٥٥	٤			»	گره بر سر بند احسان مزن
٦	٥٩	٢٠			»	زبان دانی آمد بصاحب دلی
٧	٧٩	٦			»	یکی رفت ودینار أز أو صد هزار
٨	٨٥	٥			»	درین روزها زاهدی باپسر
٩	٩٠	٣٢			»	بد خترچه خوش گفت بانوی ده
١٠	١٢٢	٨			»	بزا رید وقتی زنی پیش شوی
١١	١٣٠	٨			»	شنیدم که پیری براه حجاز
١٢	١٣٨	١٠			»	بسر هنگ سلطان چنین گفت زن
١٣	١٤٨	٣٤			»	یکی را کرم بود وقوت نبود
١٤	١٧٢	٩			»	یکی دربیابان سگی تشنه یافت
١٥	١٨١	١٠			»	تو با خلق نیکی کن ای نیکبخت
١٦	١٩١	٢٦			»	بنالید درویش أز ضعف حال
١٧	٢١٧	١٢		شبلی		بکی سیرت نیکمردان شنو
١٨	٢٢٩	٦			»	ببخش إی پسر کادمی زاده صید
١٩	٢٣٥	٩			»	بره بربکی پیشم آمد جوان
٢٠	٢٤٤	٢٢			»	یکی روبه دید بیدست وپای
٢١	٢٦٦	١٥	سعدی		»	شنیدم که مردبست پاکیزه بوم
٢٢	٢٨١	٢٥		حاتم الطائی		شنیدم در أیام حاتم که بود
٢٣	٣٠٦	٢٧		حاتم الطائی		ندا نم که گفت این حکایت بمن
٢٤	٣٤٣	١١		ابنة حاتم		شنیدم که طی در زمان رسول
٢٥	٣٥٤	١٤		حاتم الطائی		زبنگاه حاتم بکی پیر مرد
٢٦	٣٦٨	١٤			»	یکی را خری درگل افتاده بود
٢٧	٣٨٢	١٩			»	شنیدم که مغروری أزکبر مست
٢٨	٤٠١	٤			»	آلاگر طلب کار أهل دلی
٢٩	٤٠٥	٦			»	بکی را پسرگم شد أزرا حله

رقم ق	رقم المطلع	عدد الأبيات	قصة عن سعدى	عن شخصية تاريخية	عامة	المطلع
٣٠	٤١١	١٦			عامة	زتاج ملكزادهٔ در منساخ
٣١	٤٢٧	٢٠			»	یکی زهره خرج کردن نداشت
٣٢	٤٤٧	٢٦			»	جوانی بدانگی کرم کرده بود
٣٣	٤٧٣	١٢			»	کسی دید صحرای محشر بخواب
٣٤	٤٨٥	٩			»	بگفتیم در باب احسان بسی
٣٥	٤٩٤	١٤			»	شنیدم که مردی غم خانه خورد
٣٦	٥٠٨	١٠		بهرام گور	»	چه خوش گفت بهرام صحرا نشین
	٥١٨					
			١ +	٧ +	٢٨	= ٣٦

★ ★ ★

قصص باب الإحسان

تبلغ قصص هذا الباب — كما رأينا — ستا وثلاثين قصة ، فى خمسماية وثمانية عشر بيتاً ، وتتوزع القصص كالآتى :

١ — قصة عن سعدى .

٢ — سبع قصص عن شخصيات تاريخية .

٣ — ثمانية وعشرون قصة عامة .

أما قصص هذا الباب فهى أيضاً تتمشى مع الغرض من إقامته ، فالباب فى الجود والكرم ، ومساعدة المعوزين ، ولا بد له حين يعرض لشخصيات تاريخية من أن يتناول المشهورين بالكرم ، أو يعد الشخص ليلقى على لسانه قصة مناسبة له .

فقد اتخذ «سيدنا إبراهيم» ، ليدير على لسانه قصة حول الكرم للعام والخاص ، — ولو مخالفاً فى الدين — مما يناسب أن تكون الشخصية فيها نبياً ، وقصص «حاتم» وابنته ليبين فيها أن الكرم طبع فى النفوس ، وقصة « شبلى » ليظهر من معانى الإحسان، عدم التعرض لإيذاء الخلق ، ولو كانت حشرة ، وقصة «بهرام» يديرها لبيان من لا يليق لهم الإحسان ، كما سيتضح ذلك عند تحليلنا لهذه القصص .

وهى الرابعة فى الترتيب ، وعدد أبياتها ثمـانية عشر بيتاً ، وتضع لهـا نسخة « سودى » عنوان « إبراهيم عليه السلام وكرمه مع الخاص والعام » .

ورقم مطلعها السابع والثلاثون ، وتدور القصة حول المعنى الذى اختير لعنوانها . وهوأن الـكرم لوجه الله وحده ، لا تقوم فيه تفرقة ، ولوكانت تفرقة فى الدين .

واختار لها الشاعر نبياً من الأنبياء ليخلص من القصة بأن الخلاف فى الدين لا يقتضى خلافا فى المعاملة .

ومن إحكام القصة عند الشاعر ، أن يجعل من عادة « سيدنا ابراهيم » عدم تناوله طعام إفطاره إلا أن يشاركه فيه أحد أبناء السبيل . فإذا لم يجد ، فيخرج هو يستطلع الطريق بنفسه . يقول فى أبيات من المطلع :

ــ سمعت أن ابن الســـبيل
انقطع أسبوعاً عن قصر ضيافة إبراهيم الخليل .
ــ فلم يتناول إفطاره ، جـرياً على طيب عادته
لعـل غريبـاً معوزاً يفد من الطريق .
ــ فخرج ، ونظـر فى كل ناحيـه
وألقى فى أطـراف الوادى ، ببصره [(١)] .

و يمضى الشـاعر فيقول إنه رأى قادماً فى الطريق ، وكان رجلا مسـناً ، فرحب به ، وخفف عنه وعثاء السفر ، وحمله إلى مائدة الطعام ، وأجلسه معه بين خواصه فلمـا همّ بتناوله ، لم يبدأ — مثلهم — بذكر اسم الله واهب الرزق ، فيغضب الخليل من أمره ، و يصور الشاعر ذلك فى قوله :

ــ أليس شرطاً عليك ، حين تتناول الطعام
أن تذكر اسم من منحك الرزق ؟ (٢) .

---

(١) شنيدم كه يكفته ابن السبيل — نيامد بهما نسراى خليل
ز فرخنده خوى نخو ردى بگاه — مگر بينواى در آيد ز راه
برون رفت وهر جانبى بنگريد — بر أطراف وادى نگاه كرد وديد

(٢) نه شرطست وقتيكه روزى خورى — كه نام خداوند روزى برى ؟ =

فيجيبه الشيخ :

— لست أدرى هـــــذه الطريقـــــة ؟ ؟
ولم أتعلم ذلك من شـــــيخى الوثنى ! .

عندئذ يهم الخليل بحرمانه من الأ كل . وهنا ينتقـــل الشاعر إلى المعنى المقصود من القصـــة .

وعندى أن هـــذه القصة تدعو إلى الإنسانية العـــامة ، لا يقتصر مغزاها على الـكرم وحده ، و إن يكون للخاص والعام ، بل الأمر فى المحتاج للطعام ، كالأمر فى غيره من وسائل الحاجة ، أى فى المعونة العامة .

وقد أشرك الشاعر شخصية جديدة ، مناسبة للقصة ليزيدها قوة و إحكاماً .

ينزل الله جبريل — فى هيئته — يلوم الخليل قائلاً له :

— لقد منحتُه — مائة عام — الرزق ، وطول العمر
أَ لِمَرَّةٍ ، واحدة ، يجزى منك بالنفـــــور ؟؟؟.
— إنه ، ولو كان يهوى للنـــــار السـجود
فلمـــاذا ترد عنـــــه يد الجود ؟ (١) .

قصة شبلى

أتى الشاعر فيها بشخصية صوفيـــة ، ليبرز معنى العطف على مخلوقات الله ، فرجال الله يحرصون على عدم إيذاء المخلوقات مهما كانت تافهة ، فالعطف واجب على كل من أصيب بأذى ، سواء أ كان ممن يحس الأذى ، و يقدر الخلاص منه أو لم يحسه ولم يقدره ؟ .

= بگفت نگيرم طريقى بـــــدست   كه نشنيـــدم أزپير آذر پرست

(١) سروش آمد أزكرد گـار جليل   بهيبت ملامت كنان كاى خليل
منش داده صد سال روزى وجان   ترا نفرت آمـــد أزو يكزمان
گر أوميبرد پيش آتش سـجود   تو وا پس چرا ميبرى دست جـود

والقطعة تقع فى الباب ، السابعة عشرة ، وأبياتها اثنا عشر بيتاً ، ورقم المطلع ٢١٧ وهو :

ـــ استمع لسيرة رجل من الأطهار ، الطيبين
إن كنت سعيداً ، سالكا سبل الرشاد[١].

ويمضى الشاعر فى عرض القصة فيقول عن «شبلى» إنه اشترى من حانوت بائع القمح جوالا ، وحمله على ظهره ، ومضى به إلى القرية . فلما بلغهـا ، رأى نملة تجوب القمح ، وتسرع حيرى ذات اليمين وذات الشمال . فلم ينم ليله ، وفكَّر فيهـا ـــ رحمة بها ـــ ثم ردها إلى مكانها ، وهو يقول :

ـــ ليس من شـــــرط المروءة
أن أبعـــد هذه النملة الحزينــه[٢] .

ثم ينتقل الشاعر إلى تقوية هذا المعنى بالاستشهاد ، بأقوال شـاعر آخر أقدم منه ، هو الفردوسى ، فى قوله :

ـــ أنعم ! بقول الفردوسى كريم الأصـــل .
وليمطر الله على تربته الطاهرة شآبيب رحمته .
ـــ لا تؤذ نملة ! من أجل حبـــة تحملها
فإنهـا ذات روح ، والروح عزيزة عليهـا .
ـــ فمن يبغ الأذى لنملة ضـــعيفه
اســود قلبــه ، وَرُمِىَ بالقســوه[٣] .

ثم يختم القصة بالدعوة إلى الرحمة على كل ضعيف مهما كان :

ـــ لا تضرب على رأس العـاجز بيـدك القوية
فلعل ـــ يوماً ـــ تقع تحت أقدامه كالنملة[٤].

---

(١) يكى سيرت نيمردان شــنو ... أگر نيكبختى ومردانــه رو

(٢) مروت نباشد كه اين مورريش ... پراكنده گردانم أزجاى خــويش

(٣) چه خوش گفت فردوسى پاكزاد ... كه رحمت بران تربت پاكــزاد
مياز ار مورى كه دانه كش است ... كه جان دارد وجان شيرين خوشست
سـياه أند رون باشد وسنگدل ... كه خواهد كه مورى شود تنگدل

(٤) مزن برسر ناتوان دست زور ... كه روزى بپايش درافتى چو مور

ونحن نكتفي بالإشارة إلى دلالة أحداها ، فهي كلها تدور حول معنى واحد . وتقع الأولى من قصصه ، الثانية والعشرين ، في خمسة وعشرين بيتاً ، تبدأ من البيت ٢٨١ . وتدور حول كرم حاتم وجوده ، بأعز مايملك . ومطلعها :

— سمعت أنه كان عند حاتم
جواد ، كأنه دخان في سرعته [١] .

وتمضي القصة في وصف سرعة الجواد وقوّته ، فهو سريع كريح الصبا ، أو خاطف كالبرق ، يصهل في صوت كأنه الرعد .

ويطيل الشاعر في وصف عظمة الجواد ، وقوته ، وسرعته ، حتى يجعل معنى التضحية به عظيمة . إلى أن يقول إن الناس تناقلت أخبار كرم حاتم ، وعطر ذكره كل إقليم وقطر ، فنقلوا طرفاً منها إلى مليك الروم ، وقالوا له :

— إنه ليس له ضريب في الكرم
كذلك لا مثيل لجواده في العَدْو [٢] .

وهنا تنتقل القصة إلى نوع من القضايا ، فهذه دعوى يريد الدليل عليها ، فليطلب ملك الروم هذا الجواد من حاتم ، ولينظر ماذا هو فاعل ؟ ؟

— هكذا قال المليك ، إلى الوزير الجليل
إنه مخجل ، .. أن تقوم دعوى بلا دليل .
— فسأطلب من حاتم ذلك الجواد العربي
فإن كان كريماً ، سخياً ، مجيب الطلب .
— علمت أن فيه رفعة العظماء
فإن رَدّ فهو طبل ملؤه الهواء [٣] .

---

(١) شنيدم در أيام حاتم كه بود بخيل اندرش باد پائى جودود

(٢) كه همتاى أو در كرم مرد نيست چواسبش بجولان وناورد نيست

(٣) بدستور دانا چنين گفت شاه كه دعوى خجالت بود بيگواه
من أز حاتم آن اسب تازى نژاد بخواهم گر أو مكرمت كرد وداد
بدانم كه دروى شكوه مهيست وگر رد كند بانگ طبل تهيست

ويمضى الشاعر فى القصة فيقول إن المليك قرر إيفاد رسول على رأس بعث من عشرة رفاق . ثم يأخذ فى تقوية الصورة ، فيجعل حاتماً يقع فى حيرة .

الدنيا تمطر كالسيل المنهمر ، والرسول قد لجأ إليه مع رفاقه ، ونزلوا عليه ، دون أن يعرف من أمرهم خبراً ، وفى الوقت نفسه ، لا يملك سوى هذا الجواد ، وهو فى أشد الحاجة إليه .

فماذا يصنع ؟ تنتصر النخوة عليه ، وطبع الكرم ، فيعمد إلى جواده الوحيد فينحره لضيوفه ، ليعد منه طعاماً لهم .

ثم يبيت الضيوف فيرون ألواناً كثيرة من كرم حاتم ، وحرصه على راحتهم حتى يأتى الصباح ، فيكاشفه الرسول بالأمر ، ويسأله الجواد لملك الروم ، فيخبره حاتم ، والأسف يملأ نفسه :

— أيها الرسول العاقل !
لماذا لم تبلغنى رسالتك قبل الآن ؟؟ .
— لقد صنعت شواء من أجلكم
واتخذت من الجواد الخاطف طعاماً لكم .
— فلست أعلم فى هول المطر والسيل
أن تبقى فى المراعى الخيل .
— ولم أجد أمامى غيره
وليس فى منزلى ما أقدمه .
— وليس من المروءة فى مذهبى
أن ينام الضيف على الطوى [1] .

---

(١) كه اى بهره‌ور موبد نيك نام — چرابيش أزاينم نگفتى بيام
من آن بادرفتار دلدل شتاب — ز بهر شما دوش كردم كباب
كه دانستم أزهول باران وسيل — نشايد شدن درچر اگاه خيل
بنوعى دگر روى و راهم نبود — جز أوبر در بارگا هم نبود
مروت نديدم در آبين خويش — كه‌مهمان بخسبند دل أزفاقه ريش

وأخيراً ينتقل الشاعر إلى المعنى الذى يطويه فى القصة ، وهو النظر فى الإحسان إلى المعنى لا إلى الصور ، كما أن الأخلاق الطيبة طبع لا كسب ، فى قوله على لسان حاتم :

ـــ ينبغى أن تظل ذكراى باقيـــة فى الأقليم
ولو فقدت بعد ذلك جوادى الأصيل ! .

ثم فى قول الشاعر :

ـــ أجزل للنـــــاس العطاء ونحر لهم جواده
وهكذا الأخلاق الطيبة طبع لا كسب[1] .

قصة ابنـــة حاتم

وتقع الرابعة والعشرين ، فى أحد عشر بيتاً ، ورقم المطلع ٣٤٣ .

وتعالج القصة كذلك موضوع الكرم ، وأنه طبع لا تقليد ، ووراثة لا تصنع ، والجود بالنفس عند الحاجة .

ومدار القصة أنه فى عهد الرسول عليه السلام ، رفضت طى الإســلام ، فأمضى إليها النبى عليه السلام جيشــاً قبضــوا على جماعة منهم أسرى ، وأخذوا بالسـيف ، كان من بينهم سيدة ، أجابت أنها ابنة حاتم ، فكف القوم عنهـا . ولكنها رفضت أن تبقى دون قومهـا ، وطلبت أن تلحق بهم ، فسمع الرســول بأمرها ، فكف عنها ، وعن بقية قومها :

ـــ وهَبَهــا أولئك القــوم ، ومنحها عطاء
فالجوهر الأصيل ، لن يظهر منه خطأ[2] .

---

(١) مرانام بايـــــد در اقليم فاش — دگر مركب نـــاسور گوبـــاش
كسانرا درم داد وتشريف واسب — طبيعست أخلاق نيكونه كسب

(٢) ببخشوش آن قوم وديگر عطا — كه هرگز نكرد أصـل گوهر خطا

هى الأخيرة ، وتقع السادسة والثلاثين ، فى عشرة أبيات ، ورقم المطلع ٥٠٨ وتعالج أمراً يتصل بباب العـدل ، فهذه القصة والسـابقتان لهـا تصلح أن تكون فى ذلك الباب .

فهى تعالج كلها ألواناً من الذين لا ينبغى الإحســان إليهم من الرعايا ، أو الموظفين ، ممن تتعلق بهم سياسة الملك .

واختيار « بهرام » للقصة ، ليلقى على لسانه تجربة من تجاربه فى السياسة ، فهو ملك ساسانى نشىء تنشئة ملـكية بين ملوك الحيرة ، وكان يشتهر بصيد حمر الوحش فى الصحراء ، ومن هنـا كانت له تجارب ، وكان موضع اختياره ملائماً . كما أن اختيار لوازم القصة التى أعدها الشاعر كان موافقاً ، فقد استخدمها للوصول إلى الغرض المقصود ، وهو التخلص من الذين يسيئون للدولة .

و يفتتح الشاعر القصة بعبارة استحسان ، وهى مناسبة لمثل هذه النصيحة :

— ما أحسن قول بهرام ، ربيب الفـلاه ! !
حين جمح به جواده ، وعلى الأرض ، ألقاه .
— ينبغى أن يؤخذ من القطيع جواد آخر
فلعـل هذا ، يجمح بى مرة أخرى (١) .

و ينتقل الشاعر من هذا ، إلى الغرض المقصود من القصة :

— تخلص من الذئب ، إذا وقع فى الشرك !!
و إلا فاقطع الأمل ، من أغنامك (٢) .!!
— والذى يسن لك النظام الفـــاسد
يحملك ، حتى يوردك شر الموارد (٣) .

---

(١) چه خوش گفت بهرام صحرا نشين — چو بكران توسن زدش بـر زمين
دگر أسب أز گله بايد گرفت — كه گر سركشد باز شـايد گرفت

(٢) چو گرگ خبيث آمدن در كمند — بكش و رنه دل بركن أز گوسفند

(٣) سد بر كه قانون بد مى نهـــد — تــرا مى برد تا بآتش دهـد

الأفكار العامة فى باب الإحسان

يمكن أن ترد هذه الأفكار إلى الأمور الآتية :

١ — دعوة إلى الإحسان .　　٢ — من يستحقون الإحسان .

٣ — من لا يستحقون الإحسان .　　٤ — دعوة إلى السعى والاقتصاد .

١ ـ الدعوة إلى الإحسان

تبدو هذه الدعوة فى مقابلة الإحسان ، بغيره من وجوه العبادة . فالمحسن خير من العابد البخيل ، فى قوله :

— والسابقون من الناس ، سبقوا بالإيثار
وليس فى إحياء الليل ، وقلوبهم كالأحجار (١) .

والمحسن خير من المصلِّى .

— لا تظنَّ ـ مهما أخذتَ نفسك ـ بالطاعة
أن تأتى نزيلاً ، على تلك الحضرة .
— فلو استطعتَ أن تجعل قلباً سعيداً بإحسان
فذلك خيرٌ من ألفِ ركعةٍ، فى كل مكان (٢) .

والمحسن خير من الصائم .

— والذى يفطر فى الصيام ، ويعم الناس فضله
خير من صائم الدهر ، والدنيا معبوده (٣) .

---

(١) بأيثار مردان سبق برده اند　　نه شب زنده داران دل مرده اند ق. ٢

(٢) مپندار أگر طاعتى كرده اى　　كه نزلى بدين حضرت آورده اى
باحسان آسوده كردن دلى　　به أز ألف ركعت بهر منزلى ق ١١

(٣) خورنده كه خيرش برآيد زدست　　به الصائم الدهر دنيا پرست ق ١٢

٢ - من يستحقون الاحسان

الإحسان إلى كل مخلوق .

— إلا لو كنتَ فطناً ، فَهلُمَّ بفكرك!!
واجعل الوفاءَ مقصدك ، والكرم حرفتك .
— فلم يفقد الإنسانُ ما يسديه إلى كلبٍ من الخيرِ
فكيف لا يلقى الجزاءَ ، من الأخيار ؟ (١) .

وعلى الأيتام فى قوله :

— أبسط — على اليتيم — ظلال عطفك
وانثر عنه الغبار ، وانزع منه الشوك .
— ألست تعلم حال هؤلاء العجزة ؟؟
إنهم كالشجرة ، لا تكونُ بغير جذرٍ غضة (٢) .

والإحسان إلى الغرباء فى قوله :

— لا تطرد الغريب عن بابك ، بغير نصيب ! ! !
فلعلك تقف — يوماً — غريباً على الأبواب(٣) .

والإحسان إلى من أساء فى قوله :

— وابذل ما معك من مال ، للطيب ، والردىء
فإنه كسب للوفاء ، ودفع للبلاء (٤) .
— وأحسِنْ — أيها الكريم — إلى من أساءك
فالكلب يرعاك ، حين تناوله من خبزك (٥) .

---

(١) ألا گر جفا كارى انديشه كن — وفاپيش گير و كرم پيشه كن
كسى باسگى نيكوى گم نكرد — كجا گم شود خير بانيكمرد — ق ١٤

(٢) پدر مرده را سايه بر سر فكن — غبارش بيفشان وخارش بكن
ندانى چه بودش فرومانده سخت — بود تازه بى بيخ هرگز درخت؟ — ق ٢

(٣) مگردان غريب أزدرت بى نصيب — مبادا كه كردى بدرها غريب — ق ٢

(٤) بد ونيك را بذل كن سيم وزر — كه إين كسب خيرست وآن دفع شر — ق ٦

(٥) بدا نرا نوازش كن إى نيكمرد — كه سگ پاس دار چو نان تو خورد — ق ١٩

والإحسان إلى العدو فى قوله :

ـــ واملكْ رقاب العـدوّ ، بالإحسـان ، واللطف
فلن تستطيع أن تقطع صنيعهما بالسيف .
ـــ فحين يرى العدو كرمك ، ولطفك ، وإحسانك
لن يصيبك شرّه ـ مرة أخرى ـ فى حياتك [(١)]

٣ ـ الذين لا يستحقون الاحسان

والشاعر لاينسي أن يعقد قطعاً بحالها عن الذين لا يستحقون العطف والإحسان وهذه القطع تأتى آخر البـاب من ٣٤ — ٣٦ وهى تدخل فى تدبير الملك ، وأخذ الذين يسيئون بالشدة والقسوة ، وفى طليعة الرابعة والثلاثين يرد هذا البيت :

ـــ كم بسطنا القول ، فى باب الإحسـان ! !
ولكنـه ليس شرطاً ، مع كل إنسـان [(٢)] .

وفى هذه القصص ترد الشخصيات التى يتناولها الشاعر بعدم العطف عليها ، وهو يدعو إلى شيء من سياسة الحزم فى معاملة الأشرار عامة :

ـــ لا تسلك مع الأشـرار ، سـبيلَ الخير!
فاحتمال الشـر ، يزيد نطاق الشـر .
ـــ واقتلع جذراً ، تجني الشـوك من ثمره
وازرع شجراً ، تنـال الخير من ثمره [(٣)] .

ومن الذين لا يستحقون العطف ، الرئيس الظالم :

ـــ إذا شـاهدت رئيسـاً ، يعـامل النـاس بالعنف
فاضرب عنقـه ـ قتلاً ـ بالسـيف [(٤)] .

---

(١) عدو را بألطاف كردن ببنـد — كه نتوان بريدن بتيغ إين كمند
چو دشمن كرم بيند ولطف وجود — نيايد دگر خبث أزو در وجود ق ١٨

(٢) بگفتيم در باب احسـان بسى — وليكن نه شرطست باهـر كسى ق ٣٦

(٣) كسى بابدان نيكوى چون كند — بدان را تحمل بد أفزون كند ق ٣٥
بر انداز بيخى كه خارآورد — درختى بپرور كه بار آورد ق ٣٤

(٤) چو اندر سرى بينى آزار خلق — بشمشير تيزش ببنداز حلق ق ٣٥

ـــ واسفك دم الظالم ، وصادر أمواله
وانزع ريش الطائر الغادر ، وجناحه [1] .

والعامل الذى يسىء معاملة الناس :

ـــ تخلص من الظالمين ، واجتز منهم الرؤوس ! !
فإن الظُّلم على الظالم ، عدلٌ ، وقسطاس .
ـــ والكاتب ، الذى يسىء لى رعيتك ،
من الخير ، أن تقطع يده بسيفك [2] .

٤ ـ الدعوة الى السعى وراء الرزق والاقتصاد

وحتى لا تكون الدعوة إلى الإحسان ، تؤدى إلى التواكل وعدم السعى . أورد الشاعر أفكاراً فى الباب ، تدعو إلى الكسب والاقتصاد . فالدعوة إلى السعى والكسب تبدو فيما يلى :

ـــ هَلُمَّ بقوتك ! واسع كالآخرين !
ولا تتسقط فضلات الآكلين .
ـــ وَعِشْ ـــ ما استطعت ـــ بساعدك
واجعل سعيك ، بقدر جُهْدك .
ـــ وتحمل المتاعب ، واعمل لراحة الآخرين
فالمخنث هو الذى يأكل من يد المكدودين [3] .

---

(١) بخور سردم آزار را خون ومال — كه أزمرغ بد كنند پر و بال ق٣٤
(٢) جفاپیشگانرا بده سر بباد — ستم برستم پیشه عدلست وداد
قلمزن كه بدكرد بر زيردست — قلم بهتر أورا بشمشير دست ق٣٦
(٣) بچنگ آر وبادیگران نوش كن — نه بر فضلهٔ دیگران گوش كن
بخور تاتوانى ببازوى خويش — كه سعيت بود در ترازوى خويش
چو سردان ببر رنج و راحت رسان — مخنث خورد دست رنج كسان ق ٢٠

وأما الدعوى إلى الاقتصاد ، فتبدو فيما يأتى ، من حديث بين سيدة وابنتها :

— قالت سـيدة ، لابنتها فى القرية
ما أحسن الادخار فى السَّعَة ، لوقت الشدة !!.
— ادَّخرى المـاء ، فى القِرابِ ، وفى الجرارِ
فلن يجري المـاء ، دائماً فى النهر [1] .

وكذلك تبدو الدعوة فى الاقتصاد ، حتى فى ظروف الكرم :

— لا تكن كريماً ، بكل ما لديك
فإن ذلك يؤدى ، إلى ضياع ثروتك [2] .
— ولو أنفقْتَ كلَّ ما ملكت يداك
ضِقْتَ بالأمر ، إذا عنَّت حاجةٌ لك .
— وعينُ الشيطانِ ، يقتلعها صاحب اليُسْر
ويوقع الجن فى الفخ ، بالحيلة ، والمكر [3]

★ ★ ★

(١) بدختر چه خوش گفت بانوى ده — كه روز نوا برگ سختى بنه
همه وقت پر دار مشك وسبوى — كه پيوسته درده روان نيست جوى — ق ٩

(٢) نه در خورد سرمايه كردى كرم — تنگ مايه بودى أزين لا جسرم — ق ١٣

(٣) وگر هرچه دارى بكف برنهى — كفت وقت حاجت نماند تهى
خداوند زر بركند چشم ديو — بدام آورد صخر جنى بسريو — ف ٩

٣ — باب العشق

رقم ق	رقم المطلع	عدد الأبيات	قصة عن سعدى	عن شخصية تاريخية	عامة	المطلع
١	١	١٣			عامة	خوشا وقت شوريدگان غمش
٢	١٤	٨			»	ترا عشق همچون خودى زآب وگل
٣	٢٢	١٥			»	چو عشقى كه بنياد أو بر هواست
٤	٣٧	٣٠			»	شنيدم كه وقتى گدا زادهٔ
٥	٦٧	٥			»	شنيدم كه بر لحن خنيا گرى
٦	٧٢	٢٤			»	چنين دارم أزپير داننده ياد
٧	٩٦	١٨			»	يكى شاهدى در سمر قند داشت
٨	١١٤	٨			»	يكى تشنه مى گفت وجان مى سپرد
٩	١٢٢	٢٠			»	چنين نقل دارم زمردان راه
١٠	١٤٢	١٢			»	شنيدم كه پيرى شبى زنده داشت
١١	١٥٤	٤			»	يكى در نشابور دانى چه گفت (١)
١٢	١٥٤	١١			»	شكايت كند نو عروسى جوان
١٣	١٦٤	٢			»	يكم روز بربندهٔ دل بسوخت
١٤	١٦٦	٦			»	طبيبى پرى چهره درمرو بود
١٥	١٧٢	٧			»	يكى پنجهٔ آهنى راست كرد
١٦	١٧٩	٩			»	ميان دوعم زاده وصلت فتاد
١٧	١٨٨	٢			»	يكى پيش شوريده حالى نبشت
١٨	١٩٠	٧		المجنون وليلى		بمجنون كسى گفت كاى نيك پى
١٩	١٩٧	١٦		محمود واياز		يكى خرده برشاه غزنين گرفت
٢٠	٢١٣	١٤	سعدى		»	قضا را من وپيرى أزفا رياب
٢١	٢٢٧	١٠			»	ره عقل جز پيچ نيست
٢٢	٢٣٧	١٢			»	رئيس دهى باپسر در رهى
٢٣	٢٤٩	٤		اليراع		مگر ديده باشى كه در باغ وراغ
٢٤	٢٥٣	٧			»	بشهرى در أزشام غوغا فتاد
٢٥	١٦٠	٨			»	ثنا گفت بر سعد زنگى كسى
٢٦	٢٦٨	١٦			»	يكى را چو من دل بدست كسى
٢٧	٢٨٤	١٣			»	أگر مرد عشقى كم خويش گير
٢٨	٢٩٧	٨			»	نگويم سماع إى برادركه چيست
٢٩	٣٠٥	١٠			»	شكر لب جوانى نى آموختى
٣٠	٣١٥	٢٧		الفراشة		كسى گفت پروانه را كاى حقير
٣١	٣٤٨	١٦		الفراشة		شبى ياد دارم كه چشمم نخفت
	٣٦٤					
			١ +	٥ +	٢٥	= ٣١

(١) هذه القصة زائدة فى نسخة سودى

قصص باب العشق

مجموع قصص هذا الباب إحدى وثلاثون قصة ، فى ثلثمائة وأربعة وستين بيتاً . تتوزع كالآتى :

(١) قصة واحدة عن سعدى . (٢) قصتان عن شخصيات تاريخية .

(٣) ثلاث قصص عن حيوانات . (٤) خمس وعشرون قصة عامة .

ويلاحظ أن القصة الحادية عشرة توجد فى «سودى» ، ولاتوجد فى نسخة «جراف» . وإن كانت قد أشارت إليها فى الهامش ص ٢٠٧ . وأبياتها أربعة . أثبتناها فى القائمة دون أن يؤثر اثباتها فى القصص العامة .

قصة المجنون وليلى

تضعها نسخة سودى تحت عنوان « المجنون وصدق محبته مع ليلى » وترتيبها الثامنة عشرة ، فى سبعة أبيات ، ورقم المطلع ١٩٠ وهو :

— قال شخص للمجنون ، أيها المحب الوفى !!
ماذا دهاك ؟ فلم تعد تأتى إلى الحي !! [١].

وينكر الرجل على المحب ، هذا الانقطاع عن حبيبته ، لكن المجنون حين يستمع إلى ذكر حبيبته، يلهبه الحديث عنها ، فينهمر باكياً ، ويسأل الرجل ألا يذكرها ، فإن قلبه جريح ، وذكراها تزيد آلامه ، كما يزيد الملح آلام الجراح ، حين يوضع عليها . ثم يأخذ الشاعر فى تعليل هذا البعد على لسان المجنون ، بهذا المعنى الصوفى :

— إن بُعْدى ، ليس دليلا على اصطبارى
لكن... كم يكون الابتعاد ضروريا [٢] !!!

---

(١) بمجنون كسى گفت كاى نيك پى چه بودت كه ديگر نيائى بحى ؟

(٢) نه دورى دليل صبورى بود كه بسيار دورى ضرورى بود

وأخيراً ينتقل الشاعر إلى المعنى الملتف فى تلك القصة ، وهو الصفاء فى المحبة بين الحبيب والمحبوب حتى الفناء . يقول على لسان الرجل فى سؤاله للمجنون ، وَرَدِّ المجنون عليه :

— أيها الوفى ، الكريم الطبع !!
أليس لديك ، رسالة أبلغها ليلى ؟؟ .
— أجاب ! لا تحمل اسمى إلى من أهيم
فذا جفاء ، واسمى لديها ، حيث تقيم[1] .

قصة محمود واياز

يبدو أن الشاعر تخير هذه القصة لتناسبها مع باب العشق . فهى نوع آخر من المحبة ، ولكنه يعالج فيها أمراً مناسباً للباب ، ويديرها كما أدار قصة المجنون فى أسلوب عفٍّ ، وانتهى منها إلى معنى صوفى يناسب الباب نفسه . وينطوى فى القصة قصة أخرى ، جاء بها توكيداً للمعنى الذى انتهى إليه فى القصة السابقة . والقطعة كلها تبلغ ستة عشر بيتاً . وترتيبها التاسعة عشرة ،ومطلعها رقم١٩٧ يقول :

— طعن رجل فى حاكم غزنه ، إذ تملكته الدهشة
فإن معشوقه إياز ، لم يكن ذا فتنة[2] .

ثم أيد الطاعن رأيه فى البيت الثانى :

— إن الوردة التى لا لون لها ، ولا عطر فيها
عجباً ! أن يقع البلبل فى حبها[3] .!!

ثم انتقل الشاعر إلى «محمود» ، وجاء بشخص آخر فى القصة لينقلها إلى مسامع السلطان ، وأخيراً ينتهى إلى توكيد المعنى المقصود منها ، وهو أن الحب ليس على الصورة ، ولكنه على حسن الطبع . يقول على لسان «محمود» :

---

(١) بگفت إى وفا دار فرخنده خوى　　پيامى كه دارى بلبلى بگوى
بگفت مبرنام من پيش دوست　　كه حيفست نام آنجا كه أوست
(٢) يكى خرده بر شاه غزنين گرفت　　كه حسنى ندارد إياز إى شگفت
(٣) گلى را كه نه رنگ باشد نه بوى　　غريبست سوداى بلبل برأوى

— إن عشقى له ، يا سيدى ، على حسن طِباعِه؟!!
وليس ، على فراعة قدّه ، وقوامِه [1] .!!

وهنا يُوَلّدَ الشاعر قصة أخرى ، للتدليل على ما انتهى إليه من المعانى ، وملخصها أن الشاعر يروى على لسان رجل ، أن جملاً وقع فى مكان ضيق ، فانكسر صندوق من الدر ، وانفرط مافيه ، فرأى «محمود» أن يأمر أتباعه كل يأخذ بنصيبه من هذا الدر ، ثم مضى فى طريقه عِجلاً ، وانفض الأتباع من خلفه يجمعون الدر ، وانصرفوا عنه ، ولم يبق من أتباعه — فى خدمته — سوى «إياز» .

وهنا ينتهى الشاعر إلى توكيد المعنى المقصود منها ، وهو أن حسن طباع «إياز» لم يحمله على أن ينصرف عن خدمة السلطان ، إلى الاهتمام بأعراض زائلة .

وهكذا يكون الانسان فى مطالب العشق السامية ، ينبغى أن يكون مخلصاً ، لاتلهيه الصور — مهما كانت — عما وراءها ، بل لا بد أن يكون الإخلاص فى المحبة إخلاصاً يلهى الانسان عن كل ما حوله .

ثم يختم القطعة بالمعنى الصوفى « الاخلاص فى المحبة حتى الفناء فى المحبوب » ويأتى فى نهاية القصة بما يؤكد هذا المعنى :

— إذا كانت عينك ، تنظر حسن الحبيب
فأنت فى هوى نفسك ، لا فى هوى الحبيب .
— وما دام فمك ، مليئاً بحرص المطالب
فلن يهبط أُذنَ القلب ، سرٌّ من الغيب .
— إن الحقائق قصر ، كلّه الزينة
والهوى ، والشهوة ، غبار يثار من حوله [2] .

---

(١) كه عشق من إى خواجه برخوى أوست   نــه برقد وبالاى نيكوى أوست

(٢) گر أز دوست چشمت بر احسان أوست   تو دربند خويشى نه در بند دوست
ترا تا دهن باشد أز حرص بــاز   نيــايد بگوش دل أزغيب راز
حقائق سرائيست آراســته   هوا وهوس گرد بر خاسـته

قصة اليراع

وهذه قصة على لسان الحيوان ، من القصص التى نظمها الشاعر لبيان المعنى الصوفى « وحدة الوجود » ونقع القصة الثالثة والعشرين ، فى أربعة أبيات ، وعنوانها « قصة على سبيل التمثيل على لسان اليراع » ومطلعها ٢٤٩ وهى :

— لعلك رأيت فى الحديقة ، وفى الصحراء ! !
حشرة تضىء كالمصباح ، تنشر الضياء .
— فسألها إنسان ، أيتها الحشرة المضيئة ليلا ! !
لماذا لا تظهرين نهاراً ؟ ؟ .
— تجيب ، إننى فى الخلاء ، ليل نهار ! !
لكني أمام الشمس ، ليس لى مجال للظهور [1] . ! !

قصتا الفراشه

وهما متتاليتان تقعان فى الترتيب الثلاثين ، والأربعين . والملاحظ أن الشاعر أدخل هنا نوعاً جديداً من مقومات القصة ، هو الجماد ليخلص منها إلى المعنى الصوفى « المحبة حتى الفناء فى المحبوب » .

وعدد أبيات الأولى سبعة وعشرون بيتاً ومطلعها ٣١٥ يقول فيها :

— سأل رجل الفراشة ، أيتها الحقيرة ! !
اذهبى ، واطلبى ، بقدر استطاعتك الصداقة !
— اسلكى سبيلا ، ترين فيه طريق الرجاء !!
فبينك و بين محبة الشمع ، بون وعناء [2] . !

و يمضى الشاعر فى عرض هذا المعنى ، مدللاً على صدها عن طريقها ، ببعض أمثلة أخرى ، و يتخذ لها أمثلة من الحيوانات :

---

(١) مگر ديده باشى كه در باغ و راغ — بتابد بشب كرمكى چون چراغ
يكى گفتش إى كرمك شب فروز — چبودت كه بيرون نيائى بروز؟
كه من روز وشب جز بصحرانيم — ولى بيش خورشيد پيدا نيم

(٢) كسى گفت پروانه را كاى حقير — برو دوستى درخور خود بگير
رهى رو كه بينى طريق رجا — تو ومهر شمع از كجا تا كجا ؟

— لستِ سمندراً ، فلا تحومين حول النـــار !!

اطلبى البطولة — أولاً — ثم عُدَّة القهر [١] . !!

ولكن الفراشة تجيب على صدق محبتها للشمعة المضيئة بقولها :

— إن ناراً — كنار الخليـــل — فى قلبى

حتى لتظنين ، أن هذه الشعلة ، وَرْدٌ علىَّ [٢] .

ثم يفسر كنه المحبة بين الحبيب والمحبوب ، أو بين العاشق والمعشوق ، والصلة التى بينهما ، فهى سر الجاذبية :

— لا يجذب القلبُ الحبيبَ من أطرافِه

بل الحُبُّ !! إنه جاذبُ الروحَ من جَبينِه

— ولست أُلقى نفسى — فى النار — بنفسى

بل سلاسل الشوق إليها ، تجذبنى من عنقى [٣] .!!

وأخيراً ينتقل الشاعر إلى المعنى المقصود من القصة ، وهو معنى « الفناء فى المحبوب » على القرب والبعد :

— ليس يحرقنى عندما — فى النـــار — أُلقى !!

لكنه يحرقنى — مهما كنت منه — فى نَجْوَى [٤] . !

أما القصة الثانية فتبلغ ستة عشر بيتاً — وموضوعها نفس الموضوع — يدور الحديث فيها بين الفراشة والشمعة . ترميها الشمعة بعدم الثبات على المحبة مثلها ، وينتهى فيها الشاعر بقوله على لسان الشمعة ، فى مخاطبة الفراشة ، حول معنى العشق :

— إن كان جناحك ، قد أحرقته نار العشق

فانظريني !! قد أحاط بى الإحراق [٥] !!.

---

(١) سمندر نه گرد آتش مــيگرد   كه مرد انگى بايــد آنگه نبرد

(٢) مرا چون خليل آتشى در دلست   كه پندارى إين شعله برمن گلست

(٣) نه دل دا من دلستان ميكشد   كه مهرش گريبان جان ميكشـد

نــه خود را بر آتش بخود ميزنم   كه زنجير شوقست در گــرد نم

(٤) مرا همچنان دور بودم كه سوخت   نه إين دم كه آتش بمن بر فروخت

(٥) ترا آتش عشق أگر پر بسوخت   مرا بين كه أزباى تاسر بسوخت

الأفكار العامة في باب العشق

دراسة هذا الباب ترد كثيراً من الاتهام الذى وجه إلى «سعدى» كيف يتناول مسائل تتصل بالعشق ؟ وكيف يحدثك بنفسه عن حوادث شخصية وقعت له تشير إلى هذا المعني ؟ . وشبيه بها القصة التى أشرنا إليها سابقاً فى الرحلات ، وهى قصة جامع «كشغر» مع الفتى الذى يقرأ مقدمة الزمخشرى .

أمثال هذه القصص ، وغيرها يرى بعض الأدباء أنها مدخولة على الشاعر ، تجنباً منهم أن يسندوا إلى شاعر أخلاقى كبير ، كالشيخ « سعدى » أمثال هذه الحوادث [1] .

ولكن تفسيرنا لهذه القصص — على النحو الذى نسير عليه — يرفع كل هذا الحرج ، فالقصة من ورائها مغزى ، هو المقصود منها ، سواء أسندت حوادثها إلى الشاعر أو إلى غيره .

الأمر عند الشاعر أبعد من تلك الصور التى يوردها ، والتى يجعلها موضوع القصة ، إذ هو يتصل بالغرض منها ، يختار لها الشخصية المناسبة . والعشق عنده عشق إلهى صوفى برىء ، وقد رأينا فى تناوله للشخصيات التاريخية كيف انتهى منها إلى المعني المقصود من اختيارها ؟ .

والباب بجانب هذا ، يتضمن كثيراً من أفكار الشاعر الصوفية ، التى كانت تسود فى ذلك العصر ، وهو يحاول أن يثبت وجود عالم آخر وراء هذه الماديات ، إذا ماقطعت الفواصل بين العالمين — بالسعى والاجتهاد والجد فى الطلب فى طهر وإخلاص — أمكن الوصول إلى العالم الآخر الذى لا يتكشف للإنسان العادى .

ويمكن أن نرتب أفكار الباب العامة على النحو الآتى :

---

(١) انظر مقدمة الكلستان للاستاذ الكركانى — ص — مط .

(١) أهل الصورة وأهل المعنى . (٢) صفات أهل المعنى .

ا — صفات قبل الوصول . ب — صفات بعد الوصول .

(٣) عقيدة الفنـاء فى الله . (٤) عقيدة وحدة الوجود .

أولاً — أهل الصورة وأهل المعنى :

وأهل الصورة لا يدركون أهل المعنى فى قوله :

— يبـــدو لك البحر ، عظيما بموجـــه ! !
وتبدو لك الشمس البراقة ، عاليـــة بأوجها .
— لـكن أنَّى الطريق لأهل الصورة ، فيسلـكونه
ليفهموا أن أهل المعنى ، فى ملك غيره ؟ [1] .

ولا بد من التجرد عن الماديات لإدراك ما وراءها :

— إن الهوى حجاب ، ليس له حاصـــل
فحين تقطع القيود ، فإنك واصـــل [2] .

والعالم ملىء بأهل المعنى وطرقهم معروفة ، ولـكن المبصرين :

— إن العـــالم ملىء بالسماع ، والسكر ، والتوله ! !
ولـكن ماذا يبصـر الأعمى ، فى المرآة ؟ ؟ [3] .

وما دام الإنسان يطلب الصورة فلن يبلغ شيئاً :

— إذا كانت عينك تنظـر حسن الحبيب
فأنت فى هوى نفسك ، لا فى هوى الحبيب .
— وما دام فمك مفتوحاً ، يرى هوى المطالب
فلن يدخل أذن القلب ، سر من الغيب [4] .

---

(١) عظيمست پيش تو دريا بمـــوج — بلندست خورشيد تابان بأوج
ولى أهل صورت كجا پى برنـــد — كه أرباب معنى بملكى درنـــد — ق ٢١

(٢) تعلق حجا بست وبى حاصـــلى — چو پيوندها بگسلى واصـــلى — ق ٢٩

(٣) جهان پر سماعست ومستى وشـــور — وليكن چه بيند در آيينه كـــور ؟ — ق ٢٨

(٤) گر أزدست چشمت بر احسان أوست — تو در بند خويشى نه در بند دوست
ترا تا دهن باشد أز حرص باز — نيايد بگوش دل أز غيب راز — ق ١٩

ثانياً — صفات أهل المعنى :

١ ـ صفات قبل الوصول

ضعف العقل أمام العشق :

— كم من عقـــل ، قـــوى ، ظافرٍ
تحيله ثورة العشق ، إلى ضعف ، وأسرٍ [1] !! .

والتجرد عن سلطان النفس :

— إن الذى يوجهك ، إلى معرفـــة ربك
هو الذى ينقـذك ، من سلطان نفسك [2] .

وعدم الاستماع للناصحين :

— ما أحسن هذه النكتة ، فى كتاب السندباد ! !
إن العشق نار ، يا بنى ! والنصـــيحة ريح .
— والريح تزيد النـــار اشـــتعالا
وكذا الضرب يزيد النَّمِرَ قتـــالا [3] .

والجِدُّ فى الطريق مهما كلفته :

— إن كنت عاشقاً ، فأمسك بأطراف حبيبك
فإن سـألك روحك ، فقل له هى ، تلك ! ! .
— فإنك الفـــائز بالفـــردوس ، المقيم
فى الوقت الذى تمر فيه ، على جحيم العَدم [4] .

---

(١) بسا عقل زور آور چير دست — كه سوداى عشقش كند زير دست ق١٤

(٢) ترا با حق آن آشنائى دهـــد — كه أزدست خويشت رهائى دهد ق٢٧

(٣) چه نغز آمد إين نكته در سندباد — كه‌عشق آتشست إى سر پندباد
بباد آتشى نيز برتر شـــود — پلنگ أز زدت كينه ورتر شـود ق٣٠

(٤) أگر عاشقى دامن أو بـــگير — وگر گويدت جان بده گو بگير
بهشت تن آسانى آنگه خـــورى — كه بر دوزخ نيستى بگذرى ق٨

والصبر حتى الوصول إلى الغاية ، و إدراك النهاية :

— لا عتب على ! أنا الغريق !
فإن الصبر ، لا حد له فى العشق .

— فلئن ابيضت عيناى ، كما ابيضت عينا يعقوب
فلن أقطع الأمل ، من رؤية يوسف [1] .

— و ينبغى أن يكون الطالب ، صبوراً ، فى احتمال
فلم أسمع أن الكيماوى ، ملَّ من العمل .

— فكم من الذهب يلقيه أسْودَ التراب ! !
لعل — يوماً — يتحول النحاس إلى ذهب .

— والذهب نفيس ، تقضى به حاجاتك
لكن — أى شىء — أغلى من دلال حبيبك [2] .

فإذا اكتملت للعاشق هذه الصفات : السيطرة على عقله ، وعدم الاستماع لناصحيه ، والجد فى الطريق ، والصبر على مايلقاه فيها ، واحتمال الأذى فى سبيلها . انتهى إلى السعادة الكاملة :

— طوبى ! ! للمولهين فى حب الحبيب ! !
سواء أكانوا يرون منه ، جرحاً ، أم مرهما .

— أنهم سائلون ! ينفرون من السلطنة
لكنهم صابرون على السؤال أملا فى محبته .

— يتجرعون شراب الألم ، فى كل لحظة
فإن وجدوه مراً ، لم ينبسوا ببنت شفه [3] .

---

(١) مكن با من ناشكيبا عتيب ‏ ‏ ‏ كه در عشق صورت نبندد شكيب
چو يعقوبم أر ديده گردد سپيد ‏ ‏ ‏ نبرم زديدار يوسف اميد ‏ ‏ ‏ ق ٤

(٢) طلبگار بايد صبور وحمول ‏ ‏ ‏ كه نشنيده ام كيميا گر ملول
چه زرها بخاك سيه در كند ‏ ‏ ‏ كه باشد كه روزى مسى زر كند
رز أز بهر چيزى خريدن نكوست ‏ ‏ ‏ چه خواهى خريدن به أزناز دوست ‏ ‏ ‏ ق ٩

(٣) خوشا وقت شوريدگان غمش ‏ ‏ ‏ أگر زخم بينند وگر مرهمش
گدايانى أز پادشاهى نفور ‏ ‏ ‏ بأميدش أندر گدائى صبور
دمادم شراب ألم در كشند ‏ ‏ ‏ وگر تلخ بينند دم در كشند ‏ ‏ ‏ ق ١



صورة من الداخل لمسجد وجماعة يتعبدون وآخرون يتهيأون للصلاة ،
وفى أعلى الصورة أبيات من القصة رقم ٩ من باب العشق .
عن النسخة الخطية بدار الكتب

ب ـ صفات بعد الوصول

يطلبون المزيد مما هم فيه :

ـ ينشدون الحبيب ، وهو فى الصدور
وشفاهم ذابلة ـ عطشاً ـ وهم على شاطىء النهر .

ـ لا أقول إنهم غير قادرين على الماء
لكنهم ـ كمن على النيل ـ أصيب بالاستسقاء (١) .

وهم أقوياء بضعفهم :

ـ هم أصحاب عمل ، لكنهم فى عزلة
وأرجلهم من تراب ، لكن أنفاسهم نارية .

ـ إنهم بصيحة واحدة ، يقتلعون جبلا
وبأنة واحدة يهدمون بلداً .

ـ هم كالرياح ، سراع ، مختفون
وكالأحجار ، صامتون ، صائحون (٢) .

ولا يحسون ما يعترضهم من صعاب :

ـ قوم خلت أيديهم ، لكنهم ملأى الحواصل
يقطعون الصحارى ، لكن بغير قوافل (٣) .

وهم فى رعاية الله دائماً ، يستمدون قوتهم من قوته :

ـ إن المستغرقين فى الوجد ، والمحبه
تحرسهم ـ ليلا ونهاراً ـ عين الله (٤) .

---

(١) دلارام در بر دلآرام جوى ــ لب أز تشنگى خشك بر طرف جوى
نگويم كه بر آب قادر نيند ــ كه بر شاطىء نيل مستسقيند ــ ق ١

(٢) گروهى عمل دار عزلت نشين ــ قدمهاى خاكى دم آتشين
بيك نعره كوهى زجا بر كنند ــ بيك ناله شهرى بهم بر كنند
چو بادند بنهاى وچالاك بسوى ــ چو سنگند خاموش وتسبيح گوى ــ ف ٣

(٣) تهى دست مردان پر حوصله ــ بيا بان نورد ند بى قافلة ــ ف ٦

(٤) پس آنانكه در وجد مستغرقند ــ شب و روز در عين حفظ حقند =

— إنه — من حرارة النار — حفظ الخليل
كما أنقذ — تابوت موسى — من لجة النيل .
— ولماذا لا يعتقد المدَّعُون ؟ ؟
أن الأبدال ، على الماء ، وفى النار ، يمشون .

ثالثاً — عقيدة الفناء فى الله :

والشاعر يعرض لفكرة « الفناء فى الله » فى قطعتين مستقلتين . القطعة الخامسة من نسخة « سودى » وعنوانها « فى معنى أهل المحبة » والقطعة الحادية والعشرون وعنوانها « فى فناء الموجودات مع وجود الله تعالى » .

و بجانب هاتين القطعتين تتردد تلك العقيدة فى الباب عموماً فيما يأتى :

— لا تنتظر أن يكون لى صبر بدونه ! !
ولا يمكن أن يكون لى قُرْبَى بغيره . ! !
— ليس عندى محل للصفاء ، ولا قدرة على الصبر
ولا مكان للبقاء ، ولا قدم للفرار .
— لاتقلْ لى ! ولِّ وجهك عن هذا الباب !
ولو وضعوا رأسى — كالوتد — فى الأطناب [1] .
— ومنذ ذلك الوقت ، الذى طلبني فيه حبيبي
لم تبق لى معرفة ، مع أحد غيره .
— ولأقسمنَّ بحقه ! حين ظهر لى ما فيه من جمال
فكل ما سواه ، بدا لى ! كأنه خيال [2] .

= نگه دارد أزتاب آتش خليل — چو تابوت موسى زغرقاب نيل
چرا أهل دعوى بدين نگروند — كه ابدال در آب وآتش روند ق ٢٠

(١) زمن صبر بى أو توقع مدار — كه با أو هم امكان ندارد قرار
نه نيروى صبرم نه جاى ستيز — نه امكان بودن نه پاى گريز
مگو زين در بارگه سر بتاب — وگر سر چو ميخم نهد درطناب ق ٤

(٢) أزانگه كه يارم كسى خويش خواند — دگر باكسم آشنائى نماند
بحقش كه تاحق جمالم نمود — دگر هرچه ديدم خيالم نمود ق ٦

— وإذ كنتَ حبيباً ، فلا تتحدث عن نفسك

فإنه شِركٌ، أن تجمع بين الحبيب، وبين نفسك[1] .

— وإذا كانت لك قُربى بأعتابه

فلا تشغل بما فى يدك، عن محبته .

— إن الأولياء يخالفون طريقهم

إذا تمنوا من ربهم، غير ربهم[2] .

رابعاً — عقيدة وحدة الوجود :

وبجوار عقيدة « الفناء فى الله » تبدو أيضاً عقيدة صوفية أخرى هى «عقيدة وحدة الوجود » فى قطع مختلفة فى الباب :

— ليس طريق العقل ، إلا التواء ، وتعقيداً

وعند العارفين ، ليس سوى الله موجوداً .

— ومن الممكن أن يدرك هذا ، كل خبير

ولكن — أهل القياس — قوم إنكار[3] .

ولن يذوق كأس الوحدة إلا من نسى الدنيا والعقبى :

— إن من شرب خمر الوحدة ، ذات الصفاء

هو من نسى الدنيا ، ودار البقاء[4] .

والعاشق يرى العالم فى وجوده تعالى :

— إنك تضع رأسك — فى صدق — تحت أقدامه

حتى ترى العالم — كأنه عدم — فى وجوده[5] .

---

(١) أگر يارى أز خويشتن دم مزن — كه شركست بايار و با خويشتن ق ٥

(٢) گرت قربتى هست دربار گاه — بخلعت مشو غافل أز پادشاه
خلاف طريقت بود كاوليا — تمنا كنند أز خدا جز خدا ق ١٩

(٣) ره عقل جز پيچ پيچ نيست — بر عارفان جز خدا هيچ نيست
توان گفتن إين با حقائق شناس — ولى خرده گيرند أهل قياس ف ٢١

(٤) مى صرف وحدت كسى نوش كرد — كه دنيا وعقبى فراموش كرد ق ٣

(٥) بصدقش چنان سر نهى در قدم — كه بينى جهان با وجودش عدم =

— فإذا لم يُقــدِّر الحبيب ، ما لديك من ذهب
فســواء ما عندك ، من تراب ، وذَهب .
— وعنــدئذ ! لا يحس بأَحــدٍ غَــيرِه
إذ لا يبقى مكان للغــير ، مع وجوده .

وعند الصفاء تبدو وحدة الوجود فى المخلوقات كلها :

— ثم ! ! مــا هى السماء والأرض ؟ ؟ ؟
ومن هم أولاد آدم ، والطــير ، والوحوش ؟ .
— أيها العاقل ! لقد سألت سؤالا ؛ مفيداً
وإنى أجيبــك ، جواباً ســديداً .
— إن الصحارى ، والبحار ، والجبال ، والأفلاك
والجن ، والإنس ، والشياطين ، والملائك .
— كلهم — جميعــاً — مهما كان وجودهم
أَقلُّ من أن يحملوا — اسم الوجود — مع وجوده .
— ولكن أنى الطريق لأهل الصــوره ؟
فإن أهــل المعنى فى عالم غير عالمهم[1] .

= چو در چشم شاهد بيايــد زرت | زر وخاك بكسان نمايد برت
دگر باكست برنيايد نفس | كه با أو نماند دگر جاى كس ق ٢

(١) كه پس آسمان و زمين چيستند | بنى آدم ودام ودد كيستند ؟
بسنديده پرسيدى إى هوشمنــد | بگويم گر آيد جوابت پسند
كه هامون ودريا وكوه وفلك | پرى وآدميزاده ودبو وملك
همه هرچه هستند أز آن كمترنــد | كه باهستيش نام هستى برند
ولى أهل صورت كجا پى برنــد | كه أرباب معنى بملكى درنــد ق ٢١

٤ — باب التواضـــع

رقم ق	رقم المطلع	عدد الأبيات	قصة عن سعدى	عن شخصية تاريخية	عامة	المطلع
١	١	٤			عامة	زخاك آفريدت خداونـد پاك
-	٥	٥			»	يكى قطره باران زأبرى چكيد
٣	١٠	١٢			»	جوانى خرد مند پاكيزه بـسوم
٤	٢٢	٨		بايزيد البسطامى		شنيدم كه وقتى سحرگاه عيد
	٣٠	١٢			»	زمغرو ر دنيا ره دين مجـسوى
٦	٤٢	٥١		سيدنا عيسى		محدث چنين آورد در كلام
	٩٣	٣٨	سعدى			فقيهى كهن جامه تنگدست
٨	١٣١	١٤	سعدى			چه خوش گفت خر مهره در گلى
٩	١٤٥	٥٧			»	يكى پادشه زاده در گنجه بـسود
١٠	٢٠٢	١٤			»	شكر خندهٔ انگبين مى فروخت
١١	٢١٦	٧			»	شنيدم كه فرزانهٔ حق پرست
١٢	٢٢٣	٧			»	سگى پاى صحرا نشينى گزيد
١٣	٢٣٠	١٧			»	بزرگى هنرمند آفاق بـسود
١٤	٢٤٧	٣٥		معروف الكرخى		كسى راه معروف كرخى بجست
١٥	٢٨٢	٣٥			»	طمع برد شوخى بصاحب دلى
١٦	٣١٧	٢٨			»	ملك صالح أزپاد شاهان شـسام
١٧	٣٤٥	٧		كوشيار الحكيم		يكى در نجوم أندكى دست داشت
١٨	٣٥٢	١٢			»	بخشم أز ملك بندهٔ سر بتـسافت
١٩	٣٦٤	١٢			»	زويرانهٔ عارفى ژنده پـوش
٢٠	٣٧٦	١٧		حاتم الأصم		گروهى بر آنند زأهل سـسخن
٢١	٣٩٣	٢٤			»	عزيزى در اقصـاى تبريز بـسود
٢٢	٤١٧	٨			»	يكى را چو سعدى دل ساده بود
٢٣	٤٢٥	٣		بهلول		چه خوش گفت بهلول فرخنده خوى
٢٤	٤٢٨	١٢		لقمان الحكيم		شـنيدم كه لقمان سـيه فام بود
٢٥	٤٤٠	١١		الجنيد		شنيدم كه در دشت صنعا جنيد
٢٦	٤٥١	٥			»	نكى بر بطى دربغل داشت مست
٢٧	٤٥٦	٢٠			»	شنيدم كه در خاك وخش أزمهان
٢٨	٤٧٦	١٧		سيدنا على		كسى مشكلى بـرد پيش على
٢٩	٤٩٣	٩		سيدنا عمر		گدائى شـنيدم كه در تنگنائى
٣٠	٥٠٢	٤			»	يكى خوب كردار و خوش خوى بود
٣١	٥٠٦	٢١		ذو النون المصرى		چنين ياد دا رم كه سقاء نيل
—	٥٢٧	—	+ ٢	+ ١١	١٨	٣١ =

قصص باب التواضع

تبلغ قصص هذا الباب احدى وثلاثين قصة ، فى خمسمائة وسبعة وعشرين بيتاً تتوزع كالآتى :

١ — قصتان عن سعدى .

٢ — إحدى عشرة قصة عن شخصيات تاريخية .

٣ — ثمانى عشرة قصة من القصص العامة .

قصة عيسى عليه السلام

وتقع السادسة فى الترتيب ، فى واحد وخمسين بيتاً ورقم المطلع ٤٢ تضع لها نسخة سودى عنواناً « عيسى عليه السلام والعابد المتكبر والفاسق النادم » . واختيار سيدنا عيسى لهذه القصة مناسب للغرض منها . فهى تدور حول مذنب متواضع ، نادم ، وعابد متكبر .

يستحضر فيها الشاعر شخصية أخرى تلائم النبوة ، وهو جبريل يوحى به إلى عيسى .

ويفتتح الشاعر الحديث عن المذنب الذى غرق فى ذنبه ، لكنه عاد فندم . فقُبلت توبته ، ورضى عنه ربه ، ثم ينتهى إلى بيان ، أن رحمة الله واسعة ، والأمل فى عفوه كبير :

هكذا قال محدثى فى الكلام ! !
إنه فى عهد عيسى عليه السلام ! ! .
أنفق أحد الناس ، عمره فى خسارة
وانتهى الأمر به ، إلى الجهل ، والضلالة[1] .

(١) محدث چنسين آورد در كلام — كه در عهد عيسى عليه السلام
يكى زندگانى تلف كرده بود — بجهل وضلالت سر آورده بود

والشاعر يمضى فى تقوية صور الآثام عند ذلك الرجل ، فكان مغامراً قاسى القلب ، يخجل إبليس من دنسه ، محباً للشهوة ، مخموراً ، غافلاً . ثم ينتهى فى عرض حال الرجل إلى الاستغفار ، والتوبة فى قوله :

ـــ كان خجولاً ـــ يردد كلمات الاستغفار ـــ بحرقة
فكم من ليال ! أمضاها فى غفلة .
ـــ تمطر عيونه ـــ دمعاً ـــ كالسيل المنهمر
قائلاً ! واحسرتا ! لقد أمضيت ـ فى غفلة ـ عمرى(1) .

ويردد الشاعر استغفاراً كثيراً على لسان ذلك المذنب ، ومناجاته ربه أن يغفر له . وأخيراً ينتقل إلى تصوير حال المتعبد المتكبر ، وقد جمعهما فى مكان واحد ، يستمع هذا لتوبة ذاك ، فى قوله :

ـــ ومن الجانب الآخر ، كان العابد المغرور
مقطّب الحاجب ، على الفاسق الشرير .
ـــ يقول ، ما لهذا التعس ، يسلك سبيلنا ! ! ؟ ؟
إنه شرير ! ! ليس مكانه بيننا .
ـــ لقد انغمس ـــ حتى عنقه ـــ فى النار
وأسلم ـــ أدراج الرياح ـــ عزيز العمر .
ـــ وما الخير الذي بدا من نفسه الملوثة
حتى يطلب صحبة المسيح ، وصحبتى ؟ (2) .

ثم يظهر الشاعر مدي ضيق المتعبد المغرور بهذا الرجل المذنب التائب ، ويدعو الله ألا يحشره معه . وهنا موضع مغزي القصة ، فرحمة الله واسعة . يقول على لسان المغرور :

---

(1) خجل زير لب عذر خواهان بسوز ... ز شبهاى در غفلت آورده روز
سرشك غم أزديده باران چو ميغ ... كه عمرم بغفلت گذشت اى دريغ

(2) وزآن نيمه عابد سرى پرغرور ... ترش كرده بر فاسق أبرو زدور
كه إين مدبر اندر پى ما چراست ... نگون بخت جاهل چه در خورد ماست
بگردن در آتش در افتاده‌اى . ... بباد هوا عمر بر داده اى
چه خير آمد أز نفس تر دامنش ... كه صحبت بود با مسيح وبنش

— إنى أتألم من طلعتـه ، وأخشى المصـير

فلعـل ناره تلحقنى ، وليس من مجير .

— رب ! ! يوم يسـاق للحشر العبـاد

لا تجمعنى — وإياه — فى واد [(١)] !!! .

وهنا يهيىء الشاعر الفرصة لينزل الوحى على عيسى عليه السلام ، فيأتيه هاتف من الله عزت قدرته ! إنه قبل دعاء الاثنين معاً ، فأمْضَى بالأول إلى الجنة ، استجابة لاستغفاره ، ولم يحشر الآخر معه استجابة لدعائه ، فكانت النار نصيبه . يقول :

— بينما كان المغرور يفكر ، واذا وحى الجليل

يهبط على عيسى عليـــــه السلام .

— قائلاً !! إن كان هذا عالمـاً ، وذاك جهولا

فإنى تقبلت دعاء الإثنين معـــاً .

— فصـاحب الأيام ، التى ملأها بالضـلال

تضرع إلىَّ بحرقـــــةٍ ، وإذلالٍ .

— وكل من أتانى ، مسـتغفراً ، ذليـلا

لا أبغى له عن أعتاب كرمى بديلا .

— إنى أعفو عنـه ، وأغفر أعماله السيئة

وأنعم عليـه — تفضلاً منى — بالجنـة .

— وإن كان يقع فى ظن ذلك العـابد

أن من العار ، أن يجالسـه فى الخلد [(٢)] .

---

(١) همی رنجم أز طلعت ناخو شش مبادا که در من فنـد آتشش

بحشر که حاضر شوند انجمن خـدایا تو با او مکن حشر من

(٢) درین بود ووحی أز جلیل الصفات در آمد بعیسی علیه الصلات

که گرعالمست این وگروی جهول مرا دعوت هـردو آن قبـول

تبه کرده أیام بر گشته. . . . روز بنالید بـر من بزاری وسـوز

ببیچارگی هـر که آمد بـرم بینـدازمش زآسـمان کرم

أزو درگذا رم عمل های زشت بانعـام خویش آر مش در بهشت

وگر عار دارد عبادت پـرست که در خلد باوی بـود هم نشست =

— قل له ! ! لن يصيبك منه — يوم القيامة — كبير عار

فإنه سيذهب إلى الجنـــــة ، وأنت إلى النار .

ويردّد الشاعر فى ختام القصة معنًى ، إن القبول عند الله إنما هو على أساس التواضع ، مهما كانت الذنوب كثيرة ، ومهما كان لون العبادة ، فإن الله لم يقفل باب غفرانه أمام تائب .

قصة سيدنا عمر

وهى التاسعة والعشرون فى الباب، فى تسعة أبيات، ورقم المطلع ٤٩٣ ، وتصور مبلغ عدل عمر ، وتواضعه، وترفقه بالرعية ، مع ما كان له من السلطان ، ثم دعوة إلى التمثل بأساليبهم :

— سمعت أن سائلاً ، كان يمر فى مكان ضيق

فمضى به « عمر » ، فداس على قدمه (١) .

ويصور الشاعر جهل الفقير المسكين ، لم يكن يدرى من الذى مضى به ؟ ؟ فثار ، ورمى « سيدنا عمر » بالعَمَى ، وعدم البصيرة ، فأجابه « عمر » مترفقاً :

— لست بالضرير ! ولـكنى أخطأت المسير

ولم أعلم بك ، فأغفر من ذنبى (٢) .

ويخرج الشاعر من هذه القصة بالدعوة إلى المعنى العام ، وهو التواضع . وعدم ظلم الراعى للرعية .

— إن كنت تخشى ربك ، يوم يطلبك للحساب

فاغفر خطيئة ، الذى يرهب منك العقـــاب .

— ولا تظلم — أيها البـــاغى — أتبـاعك

فإن هناك — كذلك — قوة فوق قوّتك (٣) .

= بگو تنگ أز و در قيامت سدار — كه آنرا بجنت برنـد إين بنار

(١) گدائى شـنيدم كه در تنگجائى — نهادش عمر پاى بـر پشت پاى

(٢) نـه كو رم وليـكن خطا رفت كـار — نـدا نستم أز من گنه در گـذار

(٣) اگر مى بترسى ز روز شمـار — أزآن كزتو ترسـد خطا در گذار

مكن خيره بـر زير دستان ستم — كه دستيست بالاى دست تو هم

قصة سيدنا على

وتقع الثمانية والعشرين ، فى سبعة عشر بيتاً ورقم المطلع ٤٧ وتدل على سعة حلمه ، مع تواضعه . ولكنها فى ثوب آخر ، وتضع نسخة «سودى» عنواناً لها « حكاية أمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه وسيرته الطيبة فى التواضع » .

وتعرض القصة رجلاً ، رفع إلى « علىّ رضى الله عنـه » مشكلة من المشاكل يطلب حلها ، فأجابه ، ولكن أحد القوم اعترض . ويصور الشاعر مدى حلم « علىّ » ، وتواضـعه ، مع ما كان عليه من العلم ، فيقول :

— سمعت أن رجلاً بين المسـتمعين
قال له ليس الأمر كذلك ، يا أبا الحسن ! ! .
— فلم يتـألم « الحيـدر » ، ذائع الصيت
بل قال له ، قل ما تعلم ! فإن كان خيراً ، سمعت (١) .

وهنا ينتقل الشاعر إلى تصوير مبلغ حلم « على » وتواضعه فى قوله :

— أعجب ، سـيد الرجال الجواب
قائلاً لقد كنتُ المخطىء وأجاب هو الصواب (٢)

ثم تمضى القصة فى توكيد معنى التواضع والدعوة إليه .

قصة حاتم الأصم (٣)

تخير الشاعر لهذه القصة رجلاً يدعى الصمم . ونقع قصته العشرين فى الترتيب ، فى سبعة عشر بيتاً ، ورقم المطلع ٣٧٦ .

وتدور القصة حول اصطناع الصمم عند «حاتم» هذا ، حتى يمكنه أن يستمع — من حيث لا يشعر الناس — لما فى طبعه من كمال ونقص ، فيرتد عن النقائص . واصطناع الصمم ملائم لهذا الباب ، مادام الإنسان سليم الحساسية .

---

(١) شنيدم كه شخصى در آن انجمن بگفتا چنين نيست يا با الحسن
نر نجيد أزو حيدر نامجـوى بگفت أز تـو دانى أزين به بگوى

(٢) پسنديد أزو شاه مردان جـواب كه من بر خطا بودم أو بر صـواب

(٣) كان رجلا ولياً؛ يعرف بحاتم الأصم . من قدماء مشايخ بلخ . مات بمدينة «واشجرد» سنة ٢٣٧ هـ . وكان مشهوراً بهذا اللقب؛ ومع ذلك لم يكن اصما ... ص ٢٦٩ بستان جراف .

فهذا باب فى التواضع ، وليس خيراً — فى هذا المعنى — من أن يستمع الإنسان لمآخذه ، ليعمل بالخير منها ، و يترك القبيح . فهى تعالج مسألة اجتماعية قلما يعتنقها الناس ، وهى إفساح الصدور للنقد البرىء .

يعرض الشاعر تصويراً على لسان متحدث ، أدرك أن « حاتماً » سمع صوت ذبابة وقعت فى شباك عنكبوت ، يقول له :

— كيف فهمت طنين الذبابة ؟ ؟
وقد طرق أسماعنا بصعوبة ! ! .
— إنك تدرى ، طنين الذباب
فلا ينبغى أن ندعوك أصماً ، لهذا السبب .
— تبسم — ضاحكا — وقال أيها العاقل
إن الأصم خير مِمَّن يسمع الباطل .
— فالذين يقيمون معى فى صفاء
يسترون علىَّ العيب ، و يبسطون الثناء .
— وحين يعلم القوم ، أنى أصم
أسْمعونى كل ما فِيَّ من كمال وَلَمَم [1] .

قصة لقمان الحكيم

يحضره الشاعر ، ليجري على لسانه بعض الحكم فى معنى الاحتمال والتواضع ، بعد أن عانى مشقة كبيرة — مدى عام — وهو يعمل مسخراً .

والقطعة تقع الرابعة والعشرين ، فى اثنى عشر بيتاً . و بيت المطلع ٤٢٨ ، وعنوانها « لقمان الحكيم وتحمله » . وتصفه بأنه كان أسود اللون ،

---

(١) مگسرا تو چون فهم كردى خروش   كه ما را بدشوارى آمد بگوش
توكاگاه گردى ببانگ مگس   نشايد أصم خواندنت زين سپس
تبسم كنان گفتش اى تيز هوش   أصم به كه گفتار باطل نيوش
كسانى كه باما بخلوت درند   مرا عيب پوش وثنا گسترند
چو كاليوه دانندم أهل نشست   بگويند نيك و بدم هرچه هست

ليس فى بداته ، ولا لطيف المندام، فظنه رجل أنه كان عبده ، فحمله وعاش عنده ذليلا ، مسخراً فى البناء . والشاعر يجعل « لقمان » صامتا ، محتملا ، مدى هذه المشقة ، تربية لنفسه ، وتواضعاً منه . إذ يقول :

— ذاق منه أذي ، وأذلّه جوراً وقهراً
حتى بنى له — بعد عام — قصراً [1] .

وتمضى القصة فتقول ، إنه لما استكمل البناء ، كان الخادم القديم قد عاد فأحس الرجل أنه أساء للقمان فاعتذر إليه ، ولكن لقمان أجابه ، مافائدة الإعتذار بعد أن احتملت جهد عام ؟ ؟ ؟ ثم يخرج الشاعر إلى مغزى القصة ، فيجرى على لسانه بعض الحكم فى معني الاحتمال ، حتى يشعر الإنسان بمدى حاجة الضعفاء إلى معونة الأقوياء .

— من لم يحتمل ظلم الكبار ، الأقوياء
لا يحترق قلبه ، على الصغار ، الضعفاء [2] .

قصة كوشيار الحكيم [3]

وقصته السابعة عشرة ، فى سبعة أبيات ، و بيت المطلع ٣٤٥ وعنوانها « محروم متكبر » . وتدور القصة حول رجل كان على علم واسع فى النجوم ، ولكنه كان متكبراً مغروراً . يمضى الشاعر فينقل هذا الرجل إلى « كوشيار » ليتلقى عليه بعض المعارف . ولكن « كوشيار » أعرض عنه — حين رآه مغتراً — ولم يعلمه حرفاً واحداً ، فلما هم بالرحيل عائداً إلى موطنه ، ألقى عليه « كوشيار » درساً فى التواضع ، على نسق الحكمة .

---

(١) جفا ديد وبا جور وقهرش بساخت بسالى سرائى ز بهرش بساخت
(٢) هر آنكس كه جور بزرگان نبرد نسوزد دلش بر ضعيفان وخرد
(٣) هو حكيم آخر من كيلان . كان تلميذاً لابن سينا — هامش نسخة جراف ص ٢٦٦ .

ـــ زعمت أن عقلك ، يفيض امتـــلاء
فكيف ـــ لأكثر من سعته ـــ يحتمل الإناء .
ـــ إنك ممتـــلىء ادعاء ، ولهذا عُدْ خاليـــاً
وأتنا خالياً !! حتى يمكن أن تمتلىء بالمعانى[1] .

قصة بهلول (٢)

وهى من القطع الصغيرة فى الباب وعنوانها « بهلول العاقل » ، وعدد أبياتها ثلاثة أبيات ، وترتيبها الثالثة والعشرون ،ويمكن أن تكون فى باب العشق كما سيبدو :

ـــ ما أحسن قول ـــ سعيد الخلق ـــ بهلول !!!
حين مر على عارف يثـــير الجدل .
ـــ لو كان هـــذا الدّعى يدرى الحبيب
لَمَا أعلن الخصـــومة لأوهى سبب .
ـــ ولو كان خبـــيراً بوجود الحق
لعدّ ـــ فى طى العـدم ـــ جميع الخلق[3] .

قصة أبو يزيد البسطامى (٤)

تخير الشاعر بعض الشخصيات الصوفية ، واختياره لهـا مناسب للباب تمـام المناسبة ، وهو يقلد كل شخصية قصة من القصص تدور حول معنى من المعـانى ،

---

(١) تو خو درا گمان برد پر خسـرد انائی كه پرشـد دگر چون برد ؟
زد عوی پری زان تهی میروی تهی آی تا پر معانی شـــوی

(٢) بهلول ، هو أحد اخوة هارون الرشيد. انصرف إلى العبادة والانقطاع لها ، حتى عد من رجال الله . انظر ص ١١٠ من شرح سودى و ٢٧٤ من شرح جراف .

(٣) چه خوش گفت فرخنده خوی چو بگذشت بر عارفی جنگجوی
گر این مدعی دوست بشناختی بپيكار دشمن نـپرد اختى
گر أز هستیء حق خبردا شـــتی همه خلق را نیست پند اشتی

(٤) هو أبو يزيد طيفو ر ابن عيسى البسطامى ، كان جده مجوسياً فأسلم ، وكانوا ثلاثة أخوة آدم ، وطيفور ، وعـلى . وكلهم كانوا زهاداً عباداً . وابو يزيد كان أجلهم حالا، قيل مات سنة ٢٦١ هـ — الرسالة القشرية ص ١٤ .

وتعالج موضوعاً من الموضوعات ، وقد تخيرها الشاعر من مواطن مختلفة كما سيبدو .

وقصة « ابو يزيد » تقع الرابعة فى البـاب ، فى ثمانية أبيات ، وتدور حول معنى التواضع ، وعلاج التـكبر . خرج « أبو يزيد » يوم العيد من حمَّامه ، فأُلقِى عليه رماد من شرفة — وهو فى الطريق — فتلوث شعره ، وعمامته ، فمسح وجهه بكفه ، وهو يقول : « شكراً يا إلهى » . ثم يتخلص الشاعر إلى المغزى المقصود من القصة ، وهو التواضع .

— إن التـــواضع يعـــلى من شـــأنك
و يهوى بك الكبرياء فى حضيض التراب .
— وما الذِّلَّة ، إلا مآل كل جبـــار عنيد
فلا تترفع ، إن كنت الرفعة ، تبغى المزيد[1] .

قصة معروف الكرخى [2]

وهى الرابعة عشر ، وتقع فى خمسة وثلاثين بيتاً ، وتضع لها نسخة سودى عنوان « معروف الـكرخى ، والمسافر المريض » .

وتعالج القصة موضوعاً يدور حول معنى الـكرم ، بجانب التواضع ، فهى من بعض جوانبها تصلح لأن تكون فى باب الإحسان ، ولعل الذى جعلها هنا أنها تدور حول شخصية صوفية .

وافتتاحية القصة ينطوى على امتحان « معروف » ومبلغ كرمه . إذ نزل عليه رجل مريض ، كثير الشكاية ، كثير الأنين ، حتى ضج النـــاس منه . و يبالغ

---

(١) تواضـــــع سر رفعت أفـــرازدت   تكبر بخاك انـــــدر اندازدت
بگردن فتد سر كش تند خوى   بلنديت بايد بلندى مجـوى

(٢) هو أبو محفوظ معروف الكرخى . كان من كبار المشايخ . يقول البغداديون قبر معروف ترياق مجرب . وهو من موالى على بن موسى الرضا . مـــات سنة ٢٠٠ ﻫ
— الرسالة القشيرية ص ١٠

الشاعر فى تشويه أمر هـذا المريض ، يجعله بذىء اللسان كذلك . يقول فى المطلع ، من معنى الكرم .

ـــ لم يسلك إنسان طريق معروف الكرخى
إلا ألقى عن رأسه تاج المعرفة .
فقد سمعت أن رجلا طلب ضيافته
وليس بينه ـــ و بين الموت ـــ إلا مدة قصيرة [١] .

و يردد الشاعر كثيراً من معانى الكرم بعد هذا المطلع ، ولكنه يشير أيضاً إلى معنى التواضع فى أبيات منها .

ـــ إن الذين ارتفعوا إلى العلياء
هم الذين ألقوا عن رؤوسهم ، تاج الكبرياء [٢] .

قصة الجنيد [٣]

وتقع الخامسة والعشرين ، فى ثلاثة عشر بيتاً ، وتدور القصة حول معنى التواضع والحلم ، يجعل الشاعرُ « الجنيد » يلتقى بكلبٍ هَرِمٍ ، أهلكته الأيام ، واستولى عليه الضعف ، فرثى لحاله وأشفق عليه ، وأعطاه نصف زاده .

ثم يطوى فى القصة بعض معانى التواضع ، فى مقارنة بين حاله ، وحال الكلب

لو لم تزيِّنُني كسوة المعرفة
فانى أَقَلُّ ـــ كثيراً ـــ من هذا الكلب [٤] .

---

(١) كسى راه معروف كرخى بجست ‏ ‏ ‏ كه بنهاد معروفى أز سر نخست
شنيدم كه مهمانش آسد يكى ‏ ‏ ‏ ز بماريش تا بمرگ أنـدكى

(٢) بدولت كسانى سر افراختند ‏ ‏ ‏ كه تاج تكبر بيندا ختند

(٣) أبو القاسم الجنيد . أصله من نهاوند وسولده بالعراق ، وكان أبوه يبيع الزجاج فيقال له القواريرى . كان فقيهاً على مذهب أبى ثور . مات سنة ٢٩٧ هـ — الرسالة القشيرية ص ٢٠ .

(٤) وگر كسوت معرفت در برم ‏ ‏ ‏ نماند بسار أز بن كمترم

قصة ذى النون المصرى (١)

هى الأخيرة فى الباب ، ورقمها الواحد والثلاثون ، فى واحد وعشرين بيتاً ، وتدور حول التـواضع أيضاً . وترمى القصة إلى أن رجال الله — مهما علت منزلتهم — هم الذين يدركون أنهم أقل عباد الله ، وأكثرهم شراً . وتصور القصة حادثة وقعت له إذ جفَّ النيـل ، وانقطع المطر ، ونزلت بالقوم شدة قاسية . فلجأوا إلى الله يدعونه ومضى أحدهم إلى « ذى النون » يرجوه أن يدعو إلى هؤلاء المساكين . فان كلام المقرَّب لا يرد عند الله .

ولكى يحبك الشاعر القصة يمضى « بذى النون » إلى خارج القطر لمدة من الزمن .

— سمعت أن ذا النـــون توجه تلقاء « مدين »
ولم تنقض مدة طويلة ، حتى سخت السماء .
— أمضى « بمـدين » عشرين يوماً ، جاء الخبر
إن السحاب تساقط ، وانهمــــر المطر (٢)

فلما ارتدت الحياة — رخية هانئة — عاد ذو النون إلى مصر ، وهنا يظهر معنى التواضع . يجرى الشاعر على لسان شخص آخر سؤالا « لذى النون » عن سبب سفره إلى « مدين » ، فيجيب « ذو النون » :

— سمعت أن الرزق يضيق على النمل ، والدواب ، والطير
بمـــا يقع من آثام ، فعـل الأشرار .
ففكرت — كثيراً — فلم أر فى هذا الوطن
من — هو أسوأ عمـــلا — منى (٣) .

---

(١) هو أبو الفيض ذو النون المصرى . كان أوحد وقته علماً و ورعاً وحالا وأدباً ، سعوا به إلى المتوكل ، فلما حمل اليه ودخل علبه ، وعظه ، فبكى المتوكل ، و رده إلى مصر . الرسالة القشيرية ص ٩ .

(٢) شنيدم كه ذو النون بمدين گريخت بسى برنيامد كه باران گريخت
خبر شد بمدين بس أز روز بيست كه أبر سيه دل بر إيشان گريست

(٣) شنيدم كه بر مرغ ومور وددان شـود تنگ روزى بفعل بدان
درين كشور أنديشه كردم بسى پرشان تر أز خود نديـدم كسى =

— فذهبت بعيــــداً أحمل ما أنا فيـــــه من شر
حتى لا يغـلق الله على عبـــاده باب الخـير .

ثم يختم القطعة بتأييد هذا المعنى :

— إن كنت تريد الرفعـــة فتواضع
فإن الأخيار ، لم يروا فى الدنيا من هو أسوأ منهم [1] .

* * *

الأفكار العامة فى باب التواضع

لا تعدو الأفكار العامة — فى الباب كله — ما دار فى القصص الشخصية ، ويمكن أن نجملها فى ناحيتين :

أولاً — دعوة عامة إلى التواضع فإن فيه الرفعة وعلو المنزلة . وليس — كما يفهمه الناس — حقارة وذلة .

ثانياً — صفات المتواضع .

١ — الدعوة إلى التواضع :

والشاعر نفسه فى مستهل الباب لا ينسى أن يجعل المطلع مناسباً المعنى :

— خلق الله الإنســـان من تـــراب
فتواضع — أيهـا العبـد — وكن كالتراب [2] .

ثم يتردد فى الباب الدعوة إلى هذا المعنى فى مواضع مختـلفة :

— إن التواضـــع يعـــلى رأس رفعتـك
ويلقيك الـكبرياء فى حضيض التراب [3] .

= برفتم مباداكه أز شـــــر من ببندد در خـير در انجمن

(١) بهى بايدت لطف كن كان بهان نديدندى أز خـود بتر در جهان

(٢) زخاك آفريدت خداونـــد پاك پس اى بنده‌أفتادگى كن چو خاك

(٣) تواضع سر رفعت أفـــــرازدت تكبر بخاك أندر أنـــدازدت ق ٤

— وحين تواضعت قطرة الماء أمام البحر
تَربَّى الصدف — عزيزاً — فى أحضانها (١) .
— وحين تواضع التراب ، خَلَق منه الإنسان
وحين تعاظمت النار ، خلق منها الشيطان (٢) .

٢ — صفات المتواضع :

ألا يغتر بعامه :

— زَعمتَ أن عقلك مليئاً بالمعرفه
فكيف يتسع الإناء لغير ما يحتمله (٣) ؟!.

ولا بماله :

— ليس الغنيُّ — بمالِهِ — أفضلَ الناس
فالحمار حمار ، ولو لبس رداء من أطلس (٤) .

ولا بمركزه :

— إن كنت شاغلاً منصباً جليلا
فلا تسخر من العاجز إن كنت عاقلا (٥) .

---

(١) چو خـود را بچشمی حقارت پديد — صدف در كنارش بجان پرورید ق٢
(٢) چو آن سر فـرازی نمود اين گمی — أزآن ديو كردند أز اين آدمی ق١
(٣) تو خود را گمان برده پر خرد — انائى كه پرشد دگر چون برد ؟ ق١٧
(٤) نه منعم بمال أزكس بهترست — خر أرجل أطلس بپوشيد ، خراست ق٨
(٥) چو استادهٔ بر مقامی بلنـد — بر افتاده گر هوشمندی مخند ق٥

٥ — باب الرضـــــا

رقم ق	رقم المطلع	عدد الأبيات	عن سعدى	عن شخصية أو حيوان	عامة	المطلع
١	١	٨			عامة	شبى زيت فكرت همى ســوختم
٢	٩	٧			«	سعادت ببخشايش داو رست
٣	١٦	٥١	سعدى			مرا در سپا هان يكى يا ر بود
٤	٦٧	٧			«	يكى آهنين پنجه در أردبيــل
٥	٨٤	٥			«	شبى گردى أز درد پهلو نخفت
٦	٨٩	٥			«	يكى روسـتائى سقط شد خرش
٧	٩٤	٤			«	شنيدم كه دينارى أز مفلسى
٨	٩٨	٣			«	فرو كوفت پيرى پسر را بچوب
٩	١٠١	١١			«	بلنـــد اخترى نام أو بختيــار
١٠	١١٢	٩			«	يكى مرد درويش در خاك كيش
١١	١٢١	١٢		النسر والحدأة		چنين گـفت پيس زغن كرگسى
١٢	١٣٣	٧			«	چه خوش گفت شا كردمنسوج باف
١٣	١٤٠	٦		البعير والناقة		شتربچه بامادر خويش گفت
١٤	١٤٦	٩			«	عبــادت باخلاص نيت نكوست
١٥	١٥٥	٥			«	ندانى كه بابايى كوهى چه گـفت
١٦	١٦٠	١٠			«	شنيدم كه نابالغى روزه داشت
١٧	١٧٠	٣٢			«	ســيه كارى أزنرد بانى فتـــاد
	٢٠٢					
			١ +	٢ +	١٤	١٧ =



قصص باب الرضا

وتبلغ قصص هذا الباب سبع عشرة قصة ، فى مائتين واثنين من الأبيات وتتوزع كالآتى :

١ — قصــة عن ســعدى . ٢ ـــ قصتان على لسان الحيوانات .

٣ — أربع عشرة قصة من القصص العامة

قصة كركس وزغن :

أى النسر والحدأة . ينظمها الشاعر ليجرى على لسان هذين الحيوانين حكمة مشهورة « إن الحذر لا ينجى من القدر » .

وتقع القطعة فى ترتيبها الحادية عشرة ، فى إثنى عشر بيتاً ، و بيت المطلع ١٢١ وتدور القطعة بشكل محاورة بين الطائرين . يقول النسر للحدأة لا يوجد من هو أبعد منى بصراً ، فترفض الحدأة التسليم بهذه الدعوى إلا على دليل يقدم . وهنا تدخل القصة فى إطارها المحكم . يرتفع النسر والحدأة فى الجو ، والأرض من تحتهما خلاء صحراء ، فينظر النسر إلى أسفل — على مسافة بعد يوم — فلما بلغا هذا العلو ، ألقى بنظره على الأرض ، فرأى بعينه حبة ملقاة عليها .

وهنا نكتة من نكت القصة ، يوردها الشاعر ليعطى لها شيئاً من القوة . فتعجب الحدأة من ذلك ، ولم يبق لهما صبر ، فيهبطا من علوهما فى الحال ، و يهوى النسر على الحبة ، ولكنه يقع فجأة فى الفخ المنصوب ، و يجد نفسه محاطاً بالشبكة . وهنا ينتهى الشاعر من القصة إلى المعنى المقصود من إيرادها :

— ليست كل صدفة ، حبلى بالدر
ولا يصيب الهدف دائماً ، كل شاطر (١) .

ثم يمضى الشاعر فى إبراز المعنى الذي قدمناه فى مطلع القصة . تسخر الحدأة من النسر بعد سقوطه فى الشرك . قائلة له . ما الفائدة فى رؤيتك للحبة ، ما لم يكن لك أبصار بشرك الخصم ! ؟ ؟ ؟ .

— سمعت أنه كان يجيب ، والقيد فى رقابه
إن الحذر ، لا ينجى من القدر (٢) .

---

(١) نه آبستن در بود هر صدف نه هر بار شاطر زند بر هدف

(٢) شنيدم كه ميگفت گردن ببند نباشد حذر با قدر سود مند

ويختم الشـــــاعر القصة بتأييد هذا المعنى :

– لما كان الأجل قد مد يده لسفك دمه
ضلّل القضاء عينه التي ترى دقائق الأشياء .

– إن المـاء الذى لا يظهر فيـه السـاحل
لا يصلح فيـه كبرياء السـابح[1] .

قصة البعير والناقة :

وتقع فى الترتيب الرابعـة عشرة ، فى ستة أبيات ، بعنوان « شـتر بچه » وتجرى القصة فى حديث يدور بين البعير وأمه . يستخلص منه الشاعر معنى « الجبر والاختيار » فما دام الإنسان ليس مخيراً فليرض بما قسمه الله . يدور الحديث بينهما فى قول البعير لأمه : استريحى أماه ! بعد جهادك الطويل . فتجيبه الأم :

– يا بنى ! ! لو كان الزمـــام بأمـرى
فلن يرانى أحد أحمل الأثقال فى القفار[2] .

* * *

تحليل الأفكار العامة فى باب الرضا

والشاعر يردد فى هذا الباب دعوة صادقة إلى العبادة الخالصة ، فإنها طريق الرضا بما قسم للإنسان ، والنفس الصافية هى التى تصل إلى مطلوبها ، وترضى بمقسومها .

كذلك يعرض الشاعر فى هـذا الباب بعض الأفـكار الفلسفية . فالأحداث قد تكون فوق طاقة الإنسان ، فلا بد أن يسلم با « القضاء والقدر » . كما أن كثيراً من الأحداث تحدث ولا اختيار للإنسان فيها ، وهنا فكرة « الجبر والاختيار » .

---

(١) أجل چون بخونش بر آورد دست — قضا چشم باريك بينش ببست
در آبى كه پيدا نگردد كنـار — غرور شناور نيـايد بكار

(٢) بگفت أر بدسـتى منستى مهار — ندبـدى كسم باركش در قطار

١ — القضاء والقدر :

القضاء والقدر لا رد لهما :

— ما دام لم يكن فى الوسع رد سهم القضا
فليس للعبد درع ، إلا الرضا [١] .

و إذا أعرض الطالع نفذ القضاء :

— لما كان الطالع معرضاً عنّا
تحطمت أمام سهم القضاء دروعنا [٢] .

والقوة ليست طريق السعادة :

— ومن ذا الذى ينال السعادة بالعمل
ومن ذا الذى يُشفي عين الأعمي بالكَحَل [٣] .

والإنسان مهما بلغ علمه لن يغير من الواقع شيئاً :

— إن جميع فلاسفة اليونان والروم
لن يستطيعوا أن يصنعوا عسلاً من الزقوم [٤] .

والطبيب مهما كان حاذقاً لن يغير من الواقع شيئاً :

— وكيف يدرى الطبيبُ طبَّ مريضه؟؟
بل كيف يدفع المسكينُ الموت عن نفسه [٥] ؟؟.

— فإن القضاء يجرى حتما عليه
ولو أنه يدفع المرض عن غيره [٦] .

---

(١) چو رد مى نگردد خدنگ قضا   سپر نيست مر بنده‌را جز رضا   ف ١٠
(٢) چو طالع زما روى برپيچ بود   سپر بنس تر قضا هيچ بود   ف ٣
(٣) كه حاصل كند نيكبختى بزور   بسرمه كه بينا كند چشم كور؟   ف ١٠
(٤) همه فيلسوفان يونان و روم   ندانند كرد انگبين أز زقوم   ف ١٠
(٥) چه داند طبيب أزكسى رنج برد   كه بيچاره خواهد خود أز رنج مرد   ف ٦
(٦) قضا را طبيب أندر آن ساعت بمرد   چهل سال أز دن رفت و زندست گرد   ق ٥

والبطل لا تغنيه قوته عن رد القضاء :

— وماذا تبدى قبضة البطل المجاهد
ما لم يسعفه من التوفيق ساعد[1] ؟ ؟ .

والله هو الموجِّه حيث يريد ، لا حيث يرغب الإنسان :

— يسوق القضاء السفينة حيث يشاء
ولو تقطّع ثياب الربان ، جهداً وعناء [2].

٢ — **الجبر والاختيار :**

ويبدو في الأبيات الآتية :

— إذا كانت صورة حالك سيئة أو طيبة
فهي مصورة ، من يدى تقديره [3].

— لم يضع الله أسباب الاختيار بيدى
حتى أكون سعيداً مجدوداً [4] .

— والأفلاك تجري بسعادتنا وشقائنا
ونحن لا نزال فى بطون أمهاتنا [5].

— إذا قلتَ إن زيداً أذانى ، وعمراً جرحني
ففي هذا اللون ، شركاً خافياً [6] .

— وحين لا تستطيع أن تمد إلى الأفلاك يدك
فإن الموافقة على دورانها أمر يلزمك[7] .

---

(١) چه زور آورد ينجهٔ جهد مرد — چه بازوى توفيق يارى نسكرد؟ ق٣

(٢) قضا كشتى آنجا كه خواهد برد — وگر ناخدا جامه برتن درد ق١٣

(٣) گرت صورت حال بد يانكوست — نگا رندهٔ دست تقدير أوست ف١٢

(٤) نكردند دردست من اختيار — كه سر خويش را كنم بختيار ق٩

(٥) بيسد بختى ونيكختى قلم — نگرديد وما همچنسان درشكم ق٧

(٦) درين نوعى أز شرك پوشيده هست — كه زيدم بيازرد وعمروم بخست ق١٢

(٧) جو نتوان بر افلاك دست آختن — ضروريست با گردشش ساختن ق٢

٦ — باب القنـــاعة

رقم ق	رقم المطلع	عدد الأبيات	عن سعدى	عن ذات	عامة	المطلع
١	١	٢٩			عامة	خدارا ندانست وطاعت نـكرد
٢	٣٠	٩			»	شكم صوفى را زبون كرد وفرج
٣	٣٩	٩	سعدى			سرا حا جى شانه عاج داد
٤	٤٨	١١			»	يكى باطمع پيش خوا رز مشـاه
٥	٥٩	١٣			»	يكى را كمب آمد زصاحب دلان
٦	٧٢	٩	سعدى			چه آوردم أز بصره دانى عجب
٧	٨١	٥			»	يكى نيشكر داشت در طبقـرى
٨	٨٦	٤			»	يكى را زمردان روشن ضـمير
٩	٩٠	٨			»	يكى نان خورش جز پيازى نداشت
١٠	٩٨	٦		الهـره		يكى گربه در خانه زال بـود
١١	١٠٤	٨			»	يكى طفل دندان بر آورده بـود
١٢	١١٢	١٢		الابدال		شنيدم كه در روزگار قديم
١٣	١٢٤	٥			»	شنيدم كه صاحب دلى نيكمرد
١٤	١٢٩	١١			»	يكى سلطنت ران صاحب شكوه
١٥	١٤٠	١٣			»	كمالست در نفس مرد سـليم
١٦	١٥٣	١٢			»	شنيدم زپيران شـيرين سخن
	١٧٤		٢ +	٢ +	١٢	١٦ =



قصص باب القناعة

تبلغ قصص هذا الباب ست عشرة قصة ، فى مائة وأربعة وسبعين بيتاً ، تتوزع كالآتى :

١ — قصتان عن سعدى .   ٢ — قصـة عن الأبدال .

٣ — قصـة عن الهرة .   ٤ — اثنتا عشرة قصة عامة .

قصة الابدال :

وتقع الثانية عشرة ، فى اثنى عشر بيتاً ، وعنوانها « تحول الحجر فى يد أبدال الله ذهبا وفضة » .

وتدور القصة حول رجال الله الطاهرين المعروفين « بالأبدال » الذين يمدهم الله بقوته ، فهى مماثلة لقصة رجل« فارياب » فى بلاد المغرب ، حيث انتقل معه الشاعر هناك ، وألقى الرجل سجادته على الماء فطاف عليه .

والشاعر هنا يقول قصته على طريق السماع لا المشاهدة ، ذلك أنه يبدؤنا بهذا المطلع :

ــ سمعت أنــه فى الزمــن الأول
تحول الحجــر فضة ، فى يد الأبدال (١)

وتدور القصة حول الدعوة إلى القناعة ، فى مقارنة بين سلطان وفقير .

والقصة تصلح لأن تكون فى باب الرضا كذلك ، ففيها دعوة إلى ما قسم لانسان . والشاعر يمضى بعد المطلع فى بيان كيف تحول الحجر إلى فضــة ؟ والأمر فى نظره أمر المعانى ، فالرضا أساس كل شىء .

ــ لا تظن أن هــذا الكلام تعوزه الحجــة
فإذا رضيت ، فسواء لديك الحجر والفضة (٢)

ويخرج الشاعر إلى عرض معانى القناعة ، فى المقارنة بين السلطان والدرويش :

ــ أخــبرْ الفقــير الذى يعبــد السلطان
إن السلطان يعيش بائساً مســكيناً

ــ فَدِرْهمٌ من الفضــة بسد رمق المعــدم
ولــكن «فريدون» نصف شبعان، بملكِ العجم (٣)

---

(١) شنيدم كه در روز گار قديم — شدى سنگ در دست أبدال سيم
(٢) نپندارى إين قول معقــول نيست — چو راضى شدى سيم وسنگت يكيست
(٣) خبرده بدرويش سلطان پرست — كه سلطان زدرويش مسكينترست
گدارا كند يكدرم سيم سير — فــريدون بملك عجم نيم ســـير

ويردد الشاعر معنى القناعة فى هذه المقارنة .

ــ إن حراســـة المُلْك يحوطها بلاء التــدبير

والفقـــير سلطان ، ولـكن سمى الفقـــير

ــ والفقـــير الذى لا شىء يشغــل خاطره

خـــير من السلطان الذى لا ينتهى شبعُه

ــ والفـــلاَّح وزوجه ، ينامان فى هنـــاء

يحسدهما الســلطان ، الذى يعيش فى عناء (1)

قصة الهرة :

وهى فى الترتيب العـاشرة ، فى ستة أبيات ، ورقم المطلع ٩٨ تدور حوادث القصة على الهرة . ومغزاها حول القناعة بماقسم للمخلوق من الرزق . يجعل الشاعر الهرة فى بيت أرملة عجوز ، لا كسب لها ، ولا مال عندها . فلما أصابها العــوز ، وسوء الحال ، انطلقت الهرة إلى نزُل الأمير ، فضر بها عبيده بالسهام .

ــ كانت هـــرة ، فى بيت امرأة ذات ِكبر

ولَّت أيامهــــا ، والحـــــال أدبر

ــ فســـارعت إلى الأمــــير تبغى نزله

فضربهـــا بالسهـــام عبيــده (2)

أنظر إلى اختيار كلمة نزل الأمير هنا ، والمعنى من وجوده . أليس قد وجد لينزل فيه الناس ، يتناولون فيه ما لذ وطاب ؟ أليس وقد اتسع لهؤلاء ، يتسع لهرة

---

(1) نگهبانى ملك ودولت بــلاست ... گدا ادشاهسب ونامش گـداست

گدائى كه بر خاطرش بند نيست ... به أز بادشاهى كه خرسند نيست

بخسبند خوش روستائى وجفت ... بذوق كه سلطان درابوان نخفت

(2) يكى گربه در خانهٔ زال بـــود ... كه برگشته أيام وبد حال بـود

روانشد بمهما نسراى أســير ... غلامان سلطان زدندش بـــير

ضعيفة ؟ وتفلت الهرة من تحت أيديهم ، والدم يتقاطر من جسمها ، فيقول على لسانها، وهي مسرعة ـ تبغي النجاة ـ من هول ماأصابها.

— إنى إن نجوت من ضربة هـــذا الزاجر
فانى قانعة فى خرابة العجـوز بالفـــأر [1]

وينتهى الشاعر إلى مغـزى القصة « لا يتطلع الإنسان إلى رزق شهى محاط بالشراهة » .

ـــ لا يســاوى العســل ـ يا عزيزى ـ جراح الإبر
فعنـــــد القناعة ، خير منــــه عصير التمر

ـــ والله لن يرضى عن عبـــــده
الـــــذى لا يرضى بمـــا قسمه له [2]

⋆ ⋆ ⋆

الأفكار العامة فى باب القناعة

هذا الباب جاء فى وضعه الطبيعى فى الترتيب بعد باب الرضا . فالرضا والقناعة قريبان من بعضهما . وأظهر المسائل التى يدور حولها هذا الباب لا تخرج عن أمرين.

١ — علاج للطمع فى صوره المختلفة .

٢ — دعوة إلى القناعة .

والمعنيان متداخلان فى بعضهما فى كل القصص ، فكل بيان لمساوىء الطمع بيان لفضائل القناعة.

١ — فأما علاج الطمع ، فيبدو فى قوله .

— لا تطلب ـ من طريق المال ـ رفعـــة
فان الماء الراكد ، فاســد الرائحه [3] .

---

(١) كه گر جستم أز دست إ بن نير زن ... من وموش و ويرانهٔ بــيرزن

(٢) نير زد عسل جان من زخم نيش ... قناعت نكوتر بدو شــاب خويش
خدا وند أز آن بنده خرسند نيست ... كه راضى بقسم خداونــد نيست

(٣) زنعمت نهادن بلندى مجـــوى ... كه ناخوش كند آب استاده بوى ف ٥ ٩

— ولم يعلم قارون عابد النعمة
أن كنز السلامة، فى زاوية السلامة (١).

— ولماذا تذهب إلى السلطان لتسأله
إنك سلطان، إذا تحاشيت الطمو ركته (٢).

— ولا تطع النفس التى تعبد الشهوه
فأن لها قبلة، تقصدها كل ساعه (٣).

— والنفس الأمارة تُخيل المرء ذليلا
فلا تطعها، إن كنت عاقلا! (٤).

— و إن كنت محباً لنفسك، فاجعل بطنك طبلة
واتخذ باب هذا، وذاك، قبلة (٥).

— وابغ جوفاً طاهراً أينما تذهب
فان البطن لن يملأه إلا التراب (٦).

— ولا تتْبع كلَّ ما تميل إليه نفسك
فانَّ هَوَى البدَن ينقص نور قلبك (٧).

— والُحرُّ هو الذى يتخذ الأرض فراشا
كيف يرضى تقبيلها، لأن ينال بساطاً ؟؟ (٨).

---

(١) ندانست قارون نعمت پرست — كه گنج سلامت بگنج اندرست — ق ٤ ١
(٢) چرا پيش خسرو بخواهش روى — چو بكسو نهادى طمع خسروى — ق ٣
(٣) مبر طاعت نفس شهوت پرست — كه هر ساعتش قبله ديگرست — ق ٤
(٤) كند مرد را نفس أماره خوار — أگر هو شمندى عزيزش مدار
(٥) وگر خود پرستى شكم طبله كن — در خانه إين وآن قبله كن — ق ٣
(٦) برو اندرونى بدست آر وپاك — شكم پر نخواهد شد الابخاك
(٧) مرو درپى هرچه دل خواهدت — كه تمكين تن نور جان كاهدت — ق ٥
(٨) گر آزاده بر زمين خسب و بس — مكن بهر قالى زمين بوس كس — ق ٨

ــ ولا تَبْنِ بيتك ياغلام !! فى طريق السيل

فان هذه الدنيـــا لاتتم لأحد [1] .

٢ ــ وأما الدعوة إلى القنـــاعة فتبدو فيما يأتى :

ــ اقنعى أيتهـــا النفس بالقليـــل ! !

حتى ترى السلطان ، والفقير، متساويين [2] .

ــ والطمـع يطردك من كل مجلس

فابعده ! حتى لا يطردك أحد من بابه [3] .

ــ والله لن يرضى عن عبـــده

الذى لا يرضى بمـــا قسمـه له [4] .

ــ ولا ترهب أيهـا الحبيب الشـــدة

فلعله يرجى أن يكون فيهـا ماء الحياة.

ــ ولا تحـــرق قلبـك يائساً بالفكر

فان الليـــلة حبلى بالنهـــار [5] .

ــ والله الذى خلق النـاس من التراب

عجبـــاً ! ! لو ضيّـــع آدميتهم [6] .

ــ والذى صـــوّر الطفـل فى الأرحام

هو من كتب العمر ، وكفل الطعام [7] .

---

(١) مكن خانه بر راه سيل إى غلام — كه كسرا نگشت اين عماره تمام — ق ١٣

(٢) قناعت كن إى نفس بر أند كى — كه سلطان ودرويش بينى يكى — ق ٣

(٣) توقع برانـــد زهر مجلست — بران أز خودش تانراند كست — ق ٤

(٤) خداوند ازآن بنده خرسند نيست — كه راضى بقسم خـداوند نيست — ق ١٠

(٥) زظلمت مترس اى پسنديده دوست — كه ممكن بود كاب حيات دروست

دل أز بى مرادى بفكرت مسوز — شب آبستنست إى برادر بروز — ف ١٦

(٦) خدائى كه أزخاك مردم كند — عجب دارم أر مردمى گم كند — ق ١٥

(٧) نگا رندهٔ كودك أندر شكم — نويسندهٔ عمر وروزيست هم — ق ١١

٧ — باب التربيـــة

رقم ق	رقم المطلع	عدد الأبيات	عن سعدى	عن شخصية	عامة	المطلع
١	١	١٢			عامة	سخن در صلاحست وتدبير وخوى
٢	١٥	١٥			»	أگر پاى در دامن آرى چوكوه
٣	٣٠	١٧		تكش		تكش باغلامان يكى راز گفت
٤	٤٧	١٧			»	يكى خوب خلق وخلق پوش بود
٥	٦٤	١٠			»	يكى ناسزا گفت دروقت جنگ
٦	٧٤	١١		عضد الدولة		عضد را پسر سخت رنجور بود
٧	٨٥	٤			»	شنيدم كه در بزم تركان مست
٨	٨٩	٥			»	دوكس گرد دبدند وآشوب وجنگ
٩	٩٤	١٣			»	چنين گفت پيرى پسند يده هوش
١٠	١١٧	١٧		داود الطائى		يكى پيش داود طائى نشست
١١	١٣٤	٥			»	بد اندر حق مردم نيك وبد
١٢	١٣٩	٣			»	زبان كرد شخصى بغيبت دراز
١٣	١٤٢	٥	سعدى			كسى گفت پنداشتم طيبت
١٤	١٤٧	٦	سعدى			مرا در نظاميه ادرار بود
١٥	١٥٣	٧		الحجاج		كسى گفت حجاج خونخواره ايست
١٦	١٠١	٤			»	شنيدم كه أز پارسايان يكى
١٧	١٦٥	١٧	سعدى			بطفلى درم رغبت روزه خاست
١٨	١٨٢	٦			»	طريقت شناسان ثابت قدم
١٩	١٨٨	٨			»	چه خوش گفت ديوانهٔ مرغزى
٢٠	١٩٦	٦			»	سه كس را شنيدم كه غيبت رواست
٢١	٢٠٢	٣			»	شنيدم كه دزدى در آمد زدشت
٢٢	٢٠٥	١٠			»	كسى گفت باصوفئ در صفا
٢٣	٢١٥	٢٥		فريدون ووزيره		فريدون وزيرى پسنديده داشت
٢٤	٢٤٠	٢٩		الزوجة		زن خوب فرمانبر پارسا
٢٥	٢٦٩	٥		الزوجة		چه نغز آمد اين يك سخن زان دوتن
٢٦	٢٧٤	٦		الزوجة		جوانى ز ناسازگارئ جفت
٢٧	٢٨٠	٣٠		الأولاد		پسر چون زده برگذشتش سنين
٢٨	٣١٠	١٠		الأولاد		خرابت كند شاهدى خانه كن

رقم ق	رقم المطلع	عدد الأبيات	عن سعدى	عن شخصية	عامة	المطلع
٢٩	٣٢٠	١٦		العبيد		درين شهر بارى بسمعم رسيد
٣٠	٣٣٦	٤			»	گروهى نشينند باخوش پسر
٣١	٣٤٠	١٩		بقراط		يكى صورتى ديد صاحب جمال
٣٢	٣٥٩	٤٦			»	أگردرجهان أز جهان رسته ايست
٣٣	٤٠٥	٣	سعدى			غلامى بمصر اند رم بنده بود(١)
٣٤	٤٠٨	٣٠			»	جوانى هنرمند وفر زانه بود
	٤٣٨		٤ +	١٢ +	١٨	= ٣٤

★ ★ ★

قصص باب التربية

تبلغ قصص الباب أربعاً وثلاثين قصة فى أربعمائة وثمانية وثلاثين بيتاً تتوزع كالآتى :

١ — أربع قصص عن سعدى. ٢ — ست قصص عن أشخاص تاريخية .

٣ — ست قصص عن أنواع — الزوجات والأولاد والعبيد .

٤ — ثمانى عشرة قصة عامة .

قصة تكش

وترتيبها الثالثة ، فى سبعة عشر بيتاً . وتدور القصة حول معنيين من معانى التربية

١ — كتمان السر وكيف يحفظه الانسان ٢ — علاج للوشاية

يتخير لها الشاعر سلطاناً من سلاطين التاريخ ، والشراح لا يعرفون عنه إلا أنه من سلاطين الأتراك ، وربما كان المقصود منه تكش أرسلان أحد سلاطين

---

١ — أشارت نسخة جراف إلى أنها زائده فى بعض النسخ . وتجعلها نسخة سودى قطعة مستقلة بذاتها . انظر نسخة جراف ص ٣٦٦ . ونسخة سودى ص ٣٠٥ .

الخوارزشاهيين الذى تولى الحكم سنة ٥٦٨ هـ والذى كان يمدحه رشيد الدين الوطواط .

واختيار « تكش » لموضوع القصة اختيار عام . فيصلح موضوعها لشخص غيره إلا أن تكون من الأقاصيص التى تنوقلت عنه ، فنظمها الشاعر ، ليخرج منها إلى الغرض الذى يقصده. ويجرى الشاعر حديثاً على لسانه فى قوله .

— قال تكش إلى غلمانه سراً من أسراره
وأوصاهم ألا يقولونه لأحد غيره[١] .

ولكن ما يكاد السر ينفلت من مكمنه فى صدر تكش، حتى يذاع بين الناس فيحتدم الغضب فى نفسه، فيطلب إلى جلاده أن يحتز رؤوس غلمانه، فصاح أحدهم طالباً الأمان، قائلا له ! ! لا تقتل غلمانك فان مبعث هذا الاثم منك .

ثم ينتقل الشاعر إلى عرض كثير من المعانى فى حفظ السر ، والتشبيه به .

— إنك لم تقفله حين كان ينبوعا فى صدرك ! !
وأية فائدة من سده حين يكون سيلا يجاوزك ؟ ؟[٢]

— إن الكلام شيطان مصفد فى طوايا الجنان
فلا تتركنه ، يجاوز الحلق، واللسان[٣] .

أما علاجه للوشاية فى هذه القصة فيبدو فى قوله:

— لا تنقل كلاما يُوقِعُ سماعه فى الضر
فانك تحصد الشعير، من زراعة البُرِّ[٤] .

— ولا تقل كلاماً إذا شاع بين الملأ
وقعوا منه فى محنة وبلاء[٥] .

---

(١) تكش باغلامان يكى راز گفت — كه اين را نبايد بكس باز گفت
(٢) تو أول نبستى كه سر چشمه بود — چو سيلاب شد پيش بستن چسود
(٣) سخن ديو بند ست درچاه دل — ببالاى كام و زبانش مهل
(٤) مگو آنچه طاقت ندارى شنود — كه جو كشته گندم نخواهى درود
(٥) مگو آنكه گر بر ملا أوفتد — وجودى أزآن در بلا أو فتد

قصة عضد الدولة وابنه

وهى السادسة ، فى أحد عشر بيتاً . وتعالج القصة معنى معروفاً من المعانى التى تدور أيضاً حول تربية النفس فى موضوع الباب . هو « نجاة الإنسان فى حفظ اللسان » . ويتخير لها الشاعر شخصية ملك هو « عضد الدولة البويهي » ولعله كان يهوى تربية الطيور ، حتى يدخلها الشاعر فى القصة .

ويدلف الشاعر للقصة فيجعل ابن «عضد الدولة» أصيب بمرض، حتى عيل صبر أبيه عليه . ثم يأتى بأحد رجال الطريق ، من الزهاد الورعين ، فيشير على «عضد الدولة» بعلاج ابنه، ويطلب إليه أن يطلق سراح الطيور ، التى وضعها فى أحباسها . فأطلقها كلها إلا بلبلا كان يغرد تغريداً جميلا ، احتفظ به حبيسا على باب البستان . وهنا مدخل المغزى للقصة .

ـــ أسرعَ الابنُ صباحاً نحو البستان
فلم يجد سوى ذلك الطائر على طاق الإيوان (١)

وهنا ينتقل الشاعر إلى المغزى الذي تكلمنا عنه سابقا ، يخاطب الإبن الطائر وقد رآه حبيسا فى قفصه ، بعد أن انطلق زملاؤه .

ـــ ضحك قائلا أيها البلبل الطيب اللحن ! !
إنك بقيت حبيسا فى القفص بسبب ألحانك (٢)
ـــ ما دمت لا تغرد ، فان المرء لا يعبأ بك
فان نطقت ، كان الكلام دليلا عليك (٣)

قصة داود الطائى

تقع العاشرة ، فى سبعة عشر بيتا، وعنوانها «فضيلة التستر، وسلامة الصمت» وتعالج القصة موضوعاً اجتماعياً هاماً ، يدور حول معنى الباب فى تربية النفس ،

---

(١) پسر صبحدم سوى بستان شتافت   جز آن مرغ بر طاق إيوان نيافت
(٢) بخنديد كاى بلبل خوش نفس   تو أز گفت خود مانده در قفس
(٣) ندارد كس باتو گفته كار   ولىكن چو گفتى دليلش بيار

وهو عدم التشهير بالنـاس ، ووجوب التستر عليهم . و يتخير الشاعر رجلا من رجال الصوفية ، يعالج هذه الأمراض ، ورجلا آخر يشارك فى حوادثها ، وتتلخص القصة فى أن شخصا ذهب إلى «داود الطائى» فتحدث عن صوفى رآه سكرانا ، ولوث القىء عمامته وقميصه .

— جلس إنســان أمام داود الطــائى
فقال إنى رأيت فلاناً ســقط من السكر .
ولوّث القىء عمامَتــــه وقميصـــــه
وضربت الــكلاب نطــاقاً حوله[1] .

ثم تمضى القصة ، ويمنحها الشاعر شـيئا من وسائل إحكامه ، فيعهد « داود الطائى » إلى ذلك الرجل بإحضاره ، وهنــا تظهر الحيلة ، و براعة الشاعر، فى جعل شخصية « داود » تقتص من ذلك الرجل الذي شنَّع ، ونقل الخبر. يقول «داود» للرجل . اليوم ينفع الصديق الشفوق .

ـــ انطلقْ إليه ، وأْتِ به ، من ذلك المكان الشنيع
فانه عار على أهل الطريق ، وخروج على الشرع[2] .

وهنا تدبير الحيلة فى الاقتصاص من الرجل ، فيتردد بين المعارضة فى الأمر وبين التنفيذ ، على الصورة التى سيتم عليها حمل السكران ، ثم انتهى الأمر أخيراً إلى الاستجابة .

ـــ تهيـــــأ ، وحمله ، مضــطراً ، على ظهره
ومضى به ، والناس يشنعون عليهما[3] .

وهنا موضع طرافة فى القصــة ـــ إن الجزاء من جنس العمل ـــ جزاء من

---

(١) يـكى پيش داود طائى نشست　　　كه ديدم فلان صـوفى افتاده مست
قى آلوده دســتار و پيرا هنش　　　گـروهى سگـان حلقه پيرامنش
(٢) برو زآن مقام شنيعش بيـــــــار　　　كه در شرع نهيست ودر خرقه عار
(٣) ميان بست وبى اختيارش بدوش　　　درآورد وشهرى برو عام جــوش

شهرَّ بالناس سراً أن يشهر به علناً ، يقول على لسان أحد النظاره ممن رأوهما على تلك الحـال.

— انظر إلى حال هـؤلاء الصوفيـة
الذين يشربون الخمر، ورهنوا فيها خرقهم الممزقة
— مشـيراً بيده إلى هـذا ، وذاك
إن ذاك ثمل ، وذا نصف سكران [1].

ثم يختتم الشاعر القصة بالغرض منها ، وهو علاج التشهير .

— لأن يضع العدو الحسام على الرقاب ، فى ظلم
خير من تشنيع أهل المدينة ، وضجيج العوام
— لاتهرق فى الحى، أيها الرفيق كرامتك !!
حتى لا يهرق الدهر فى المدينة شرفك [2].

قصة الحجاج

وترتيبها الخامسة عشرة وأبياتها سبعة ، وتعالج القصة معنى من معانى التربية النفسية فى الباب ، وهى الغيبة . فانها ليسـت مباحة ، حتى ولو فى ظالم ، واختيار الشخصية فى القصة لهذا المعنى، يعطى لوناً من براعة الشاعر فى المناسبة بين الشخصية والمعنى الذى يعالجه حولها .

فمهما يبلغ الانسـان من القسوة فى المعاملة ، لن يباح للغير أن يصفه — حتى بمافيه — فان ذلك من الغيبة ، وهذه تربية خلقية فى أعلى نواحيها .

وتتلخص القصـة فى أن شخصاً قال عن الحجاج إنه كان سفاكا ، وكأنما قُدَّ قلبه من، صخر وتمادى الرجل فدعا الله القصاص منه .

---

(١) تو إين صوفيان بين كه مى خورده اند — سرقع بسيـكى گرو كرده انـد
اشارت كنان إين وآنرا بـدست — كه آن سر گرانست وآن نيم مست

(٢) بگردن به أزجور دشمن حسام — به أز شنعت شهر وجوش عوام
مريز آبروى بـرادر بگوى — كه دهرت نريزد بشهر آبـروى

ـــ إنه لا يخشى آلام النــاس وعويلهم !!
فخُــــــذْ يا إلهى !! بحق الناس منه.[1]

ثم ينتقل الشاعر إلى مغزى القصة ، ولـكى يضيف إليها شــيئاً من الجدة ، والقسوة، يدخل فيها بعض الشيوخ المعمرين، يقلده دوراً . فينصح الرجل بقوله:

ـــ إن الله يقتص المظـــــلوم منـــــه
وكذا يقتص له ممن يغتـــــابه .
ـــ ليس ظلمــــه أيضاً مقبولاً عنـــــدى
ولـكن غيبتـــــك له لا ترضينى .
ـــ إن الآثم يحمل إلى جهنم آثامـــــه معه
فان عمله قد فاض بالآثام ، وسود كتابه.
ومن يدرى ؟ لعل الذى يطعن فيه اغتياباً
يذهب إلى الجحيم وحـــــده [2] .

قصة فريدون ووزيره

وتقع الثالثة والعشرين، فى خمسة وعشرين بيتاً،تعالج الوشاية، بمايتصل أيضاً بمعانى التربية النفسية ، فتخير لها الشاعر رجلا ذا منصب خطير . . تخير لها وزيراً حكيما مجرباً ، وملـكاً حليما، يزن الأمور ، ويضعها فى نصابها، فلايتسرع فى حكمه و يأخذ الناس بالشدة .

ولـكى يجعل الشــاعر الوشاية فى أمر يخشاه المليك، ينســب إلى الوزير علاقة مع الجيش ، و يضيف للقصة شيئا من القوة، فيجعل هذه العلاقة فى شبه رشوة نقوم

---

(١) نترسد همى زاه وفرباد خـــلق — خدايا تو بسنان أز و داد خلق
(٢) كز و داد مظلوم مسكين أو — بخواهند و أزديگران كين أو
نه بيداد أز أو بهره مند آمـــدم — نه نيز أز تو غيبت پسند آمـــدم
بد و زخ برد مدبرى را گـناه — كه بيمانه بر كرد وديوان ســـــياه
دگر كس بغيبت پيش ميدود — مبادا كه تنهـــا بد و زخ رود

على بذل المال لهم ، ثم يؤكد القوة فيها ، فيجعل المــــال يرد للوزير بعد انتهاء أجل الملك .

وهنا عقدة القصة. يجعل الواشى هذا التصرف من قبيل مؤامرة الوزير لخيانة المليك، ثم فى تبديد مال الدولة دون مبرر ، وعلى صورة لا ترضيه.

وهنا تبرز حكمة الوزير الموَشى فى حقه ، وحسن تصرفه ، مع حسن تخلصه فيجرى الشاعر على لسان الوزير رداً سديداً ، وينتهي الأمر بأن العقوبة ، تدور على الواشى ، فيبدو حسن التعليل فى هذا التصرف .

ــ قَبِّلَ الوزيرُ الأرض أمامَ المليــــك
وقال حيث سألتنى ، فالحقّ لا أكتمك.
ــ إنى أريد ، أيهــــا المليك ، الرفيع شأنه
أن يريد الخلقُ لك خيراً مثل الذى أريده.
ــ فحيث أن طولَ الأجل ميــعاد العطاء
فانهم ــ خوفاً منى ــ يسألون لك طول البقاء[1].

وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى إبراز المعنى المقصود من القصة فى علاج الوشاية وخاتمــة الواشى .

ــ لســــتُ أرى أكثر من الواشي!!
سيىء الطـــــــالع ، منكس الرأس .
ــ وليس من العقل أن تشعل ناراً بين شخصين
ثم إحراق نفسك فيما بين الاثنين[2] .

---

(١) زمين ببوسيد وگفت | نشايد چو بر سيدى أكنون نهفت
چنين خواهم إى نامور پادشاه | كه باشند خلقت همه نيكخواه
چو مرگت بود وعدهٔ سيم من | بقا بيش خواهندت أز بيم من

(٢) نديدم زغماز سرگشته تــر | نگون طالع وبخت برگشته تــر
ميان دوكس آتش أفروختن | نه عقلست وخود درميان سوختن

وتقع الحادية والثلاثين ، فى تسعة عشر بيتاً ، وتصلح القصة أن تكون فى باب العشق . فهى تعالج أمراً سبق أن عولج فى ذلك البـاب . هو أن المحبة ينبغى أن تكون للمعنى وليست للصورة ، ومن الخير أن يعمل الانسان لما بعد الصور. فالصور زائلة ، والمعانى باقية .

وقد تخير الشاعر للقصة زاهداً من الزهاد ليعطى لها شيئا من القوة .

ـــ رأى إنســـان ، صورة ذات جمـال
فصرعته فتنـة العشق فى التوّ والحال [(١)] .

ثم يأتى دور بقراط فيظهر فى القصة . يجعله الشاعر ماراً على ذلك الرجل، وهو راكب ، و يسأل ماذا جرى لهذا الرجل ؟؟ ثم يظهر فى القصة شخص آخر يجيب بقراط بأن هذا عابد زاهد، لم يأثم قط فى حياته .

و يمضى الشـاعر فى عرض كثير من الصور لبيان مدى زهد الرجل ، وأخيراً ينتهى إلى المعنى المقصود من القصة ، بما يدور حول معانى العشق .

ـــ ليست هذه الصورة هى التى تسلب القلب
بل الذى صورها ، هو الذى سلب [(٢)] .

على أن الذى يلتمس للشاعر فى وضعها فى باب التربية، أنه قصد من ورائها معنى خلقياً فى تربية النفس . «إن الإنسان فى عمله لا ينظر إلى الصورة ولكن إلى المعنى»

ـــ إن المعانى مستترة ، وراء الحروف السوداء
كما يستتر المعشوق فى خدره، والقمر فى السماء [(٣)] .

---

(١) يكى صـــورتى ديد صاحب جمال   بگرديدش أز شورش عشق حال
(٢) نه اين نقش دل مى ربايد زدست   دل آن ميربايد كه اين نقش بست
(٣) معانيست در زير حرف سـيـاه   چو در برده معشوق ودر ميغ ماه

قصص الأنواع :

وهذه القصص ترد متتابعة فى البـاب ، على الترتيب الذى رأيناه فى القائمة ، من القصة الرابعة والعشرين ، إلى التاسعة والعشرين .

وللزوجات منهـا ثلاث قطع ، وللأولاد قطعتان ، وللعبيد أو الأتباع قطعة واحدة ، ولا نعرض لهذه القصص على النمط الذى نذهب عليـه ، فالقصص هنا مقصود منها التربية بالمعنى المعروف ، وليس من وراء القصة غرض يرمى إليه بذاته فيجعل الزوجة أو الولد سبيلا إليه ، ولكنها دعوة إلى نوع التربية، التى تلزم لكل من هذه الأنواع .

قصص النساء :

يتردد فيها وصف للمراة الطيبة ، ووصف للمرأة السيئة، ثم علاج لشئون الزوجة.

ففى القصة الرابعة والعشرين وصف للمرأة الطيبة .

ـــ إذا اجتمع فى المرأة جمـال ، وطاعة ، وعفاف
فانهــا تجعـل الفقـير سـلطانا .

ـــ و إذا كانت طاهـرة ، لطيف كلامهـا
فلا ينبغى أن ينظـر ، فى حسنها ، وقبحها .

ـــ والمرأة الطيبـة ، هى التى تبغى لزوجها الخـير
أما السيئة الخلق ، فإلى الله منهـا المفر[1] .

أما أوصافه للمرأة السيئة وتصوير حياتها فى قوله :

ـــ إن تيسر حافى القدمين ، خير من ضيق الحذاء
ونزاع البيت ، خير منه رحيـل فى عناء[2] .

---

(١) زن خوب فرمان بر پارسـا ... كند مرد درويش را پادشـا
أگر پارسا باشـد وخوش سخن ... نگه در نكوئى وزشتى مكن
دلا رام باشـد زن نيكخواه ... وليكن زن بد خـدايا پناه

(٢) تهى پاى رفتن به أز كفش تنگ ... بلاى سفر به كه در خانه جنگ

ـــ والذى تعيش فى منزله امرأة قبيحة [1].
عيد عنده ، هجران منزله

ـــ واقفل باب السعادة ، والصفاء
فى كل بيت يعلو فيه صوت النساء [2].

ـــ والمرأة الجاهلة ، التى لا استقامة لها
تجلب البلاء على نفسها ، وحياتها [3].

ويظهر أن سعدى كان برماً بالنساء إلى حد بعيد ، فيجرى على لسان رجلين فى القصة الخامسة والعشرين ما يفيد هذا المعنى .

ـــ ما أحسن كلاماً تبادله رجلان !!
داخت رأساهما من النساء .

ـــ قال أحدهما ، لا كان للمرء زوجة رديئة !!
وقال الآخر، قطعت المرأة نفسها ، من الحياة [4].

ثم هو يدعو إلى تغيير النساء كلما دعت الفرصة فى قوله :

ـــ اتخذ يا صاحبى زوجة جديدة كل ربيع
فان تقويم العام الماضى ، لن يصلح بعد [5].

ولكنه فى القطعة السادسة والعشرين ، يدعو إلى تحمل الزوجة اللطيفة ، وقضاء مطالبها .

ـــ حين تجد السعادة من شجرة الورد
فعليك أن تحتمل آلام شوكها [6].

---

(١) سفر عيد باشد برآن كد خداى ... كه با نوى زشتش بود در سراى
(٢) درخرمى بر سرائى ببنه بند ... كه بانگ زن أزوى برآيد بلند
(٣) زنى را كه جهلست ونا راستى ... بلا برسر خود نه زن راستى
(٤) چه نغز آمد اين سخن زآندو تن ... كه بودن سر گشته أزدست زن
يكى گفت كرا زن بد مباد ... دگر گفت زن درجهان خود مباد
(٥) زن نوكن إيدوست هرنو بهار ... كه تقويم پار بن نيايد بكار
(٦) چو أزگلبنى ديده باشى خوشى ... روا باشد أز بار خارش كشى

قصص الأولاد :

فى القطعة السابعة والعشرين ، والثامنة والعشرين .

يردد فيهما ألواناً مختلفة ، من العناية بالأولاد ، وحسن الاشراف عليهم ، ونوع التربية التى تقصد منهم .

— إذا بلغ الابن عشر سنوات من عمره ! !
فامنعه من الاختلاط بمحارمه ! ![1] .

— إذا لم تنشىء الإبن على علم ورأى
فانك تمضى ، ولن تخلف بعدك إنسانا[2] .

— وازجره ، وعامه ، فى الصغر !!
وعِده ، وتوعده ، بالخير ، والشر[3] .

— وعَلّمه فى اليد حرفة
حتى ولو كان مثل قارون فى ثروة
— فَكِيسُ المال ذهباً ، وفضة
ينفذ ولا ينفذ كيس الحرفة .
فان كانت له صناعة فى يده
أنَّى له أن يمد يده محتاجاً إلى غيره[4] ؟؟ .

وفى القطعة الثامنة والعشرين ، يعرض لعلاج أمر يتصل بهم ، ويبدو ذلك من عنوانها «مقال فى التعفف عن حسنى الوجوه» .

ففيها دعوة إلى صيانة الأبناء من خلطاء السوء ، خوفاً من التأثير على أخلاقهم

---

(١) بسر چون ز ده بر گذشتش سنين — ز نامحرمان گو فراتر نشين
(٢) چو فرهنگ ورايش نباشد بسى — بميرى وأز تو نماند كسى
(٣) بخردى درش زجر وتعليم كن — بنيك وبدش وعده وبيم كن
(٤) بيا موزد پروردهرا دسترنج — وگردست دارى چو قارون بگنج
بپايان رسد كيسهٔ سيم وزر — نگردد تهى كيسهٔ پيشه ور
چو بر پيشه باشد ش دسترس — كجا دست حاجت برد پيش كس

والتربية فى هذا ، لا تنصب على الابن وحده ، ولكنه يرد الناس — عامة — عن الوقوع فى هذا الشر فى قوله :

— يهدم ملك الفاتن ، الذى تقع فى حبه
فاذهب ، واجعل بيتك عامراً بزوجتك ! !
— ولا تنظر بعين السوء إلى أبناء غيرك
فلعل نفس الشر ، يحيط بأبنائك[1] .

قصص الأتباع :

وهى فى القصة التاسعة والعشرين :

— إذا كنت تربِّى تابعاً لك
جنيت ثماره ، إذ نشأته على هيبتك .
ولتقفل باب الشهوة على نفسك
فان كنت عاشقاً ، فاحتمل الأذى ، واعصب رأسك[2]

★ ★ ★

الأفكار العامة فى باب التربية

قصد الشاعر من إقامة هذا الباب ، هو تقويم الأخلاق ، وفيه دعوة عامة إلى علاج كثير من الأمراض الاجتماعية ، التى تتفشى فى كل بيئة ، وقد ألممنا سابقاً ببعض هذه الأمراض وعلاجها ، فى تحليلنا القصص الشخصية .

ولم يهمل الشاعر أمر أنواع بذاتها ، قصد إلى علاج أمورها قصدا ، وهذه الأنواع

(١) خرابت كند شاهد خانه كن برو خانه آباد گردان بزن
مكن بد بفرزند سردم نگاه كه فرزند خويشت برآيد تباه

(٢) چو نر بنده را همى پرورى بهيبت برآرش كزو بر خورى
در شهوت نفس كافر ببند وگر عاشقى لت خور وسر ببند

تنحصر – كما رأينا – فى الابن ، والزوجة ، والتابع ، وقد نادى الشاعر بآرائه فى تربيتهم وتقويمهم .

والشاعر قد استهل هذا الباب عامة، بقصده من أنواع التربية التى يقصدها ، وذلك فى مطلع القطعة الأولى .

— الكلام هنا ، فى الصلاح ، والتدبير ، وحسن الطباع
وليس فى الفروسية ، والميدان ، واللعب بالصولجان[1] .

ولا يفهم من تلك الدعوة ، أن غير هذه الأشياء ، ليس مرغوبا فى تعليمها ، ولكن متى اجتمع للمرء تربية قويمة ، فنشّىء على حب الخير ، وصلاح نفسه وحسن التدبير لأموره، ورقة الطباع فى معاملة الغير، فانه بمجموع كل هذه الصفات الحميدة ، يكون قد أعد نفسه لمواجهة كل شىء فى الحياة – مهما كان – والشاعر كما يبدو فى هذا البيت،وفى مجموع القصص التى عرضها فى الباب ، يدعو إلى نوعين من التربية هما .

١ — التربية العقلية . ٢ — التربية الخلقية .

التربية العقلية :

وتبدو فى كثير من أقواله ، نأخذ منها قوله :

— إن وجودك ، مدينة ملؤها الخير والشر
وأنت سلطانها ، ووزيرها هو العقل المدبر[2] .

— إنك تقيم مع عدو لك ، هى نفسك
فكيف نفكر، فى قتال الأجنبى عنك ؟

— إن الذين ردوا عنان النفس عن الحرام
قد سبقوا فى البطولة «رستم وسام»[3] .

(١) سخن در صلاحست وتدبير وخوى   نه دراسپ وميدان وچوگان وگوى   ى ١

(٢) وجود تو شهريست پرنيك وبد   تو سلطان ودستور دانا خرد   ق ١

(٣) تو با دشمن نفس همخانه‌ئى   چه در بند پيكار بيگانه‌ئى
عنان باز پيچان نفس أز حرام   بمردى ز رستم گذشتند وسام   ى

— والعاقل فى الحياة هو فى نظرى
من انصرف إلى تقويم نفسه وشغل بها عن العالم [(١)] .

التربية الخلقية :

وقد عرض الشاعر فى هذا الباب إلى علاج كثير من الأمراض الاجتماعية ، تجتمع كلها حول هذا المعنى « تقويم الانسان فى تقويم اللسان » .

إذ يعرض الشاعر إلى علاج أمور كلها تتصل بتقويم اللسان ، كحفظ السر ، وتجنب الوشاية ، ومحاربة الغيبة .

— إن الكلام شيطان مصفد فى طوايا الجنان
فلا تتركنه يجاوز الحلق واللسان [(٢)] .

— ولا ينبغى للمرء أن يتسرع فيكشف عن طواياه
فمن الممكن أن يكشفها متى عَنَّ له

— فحين يظهر المرء أسراره
يمكن إخفاؤها مرة أخرى [(٣)] .

وأما نداؤه إلى تجنب الوشاية ومحاربتها ففى قوله

— لماذا ينقل الانسان كلاماً فى الخفاء
لو أفشاه ، لاصفر وجهه خجلا وحياء [(٤)] .

— والخصومة بين اثنين كالنار
والواشى التعس بينهما ، مثال ملقى الهشيم [(٥)] .

---

(١) کسی پیش من در جهان عاقلست — که مشغول خودو ز جهان غافلست ق ٩١
(٢) سخن دیو بندست در چاه دل — ببالای کام و زبانش مهل ف ٣
(٣) ضمیر دل خویش منمای زود — که هرگه که خواهی توانی نمود
ولیکن چو پیدا شود راز مهر — بکوشش نشاید نهان باز کرد ق ٤
(٤) چرا گوید آنچیز در خفیه مرد — که گر فاش گردد شوی روی زرد ق ٢
(٥) میان دوتن جنگ چون آتشست — سخن چین بد بخت هیزم کشست ق ٢٢

— والذين ينقلون أسرار العدو
إنما هم أكثر عداوة من العدو [1].

وأما محاربته للغيبة ففي قوله:

— ليس أسوأ ممن يغتاب الناس
فهو سيء الطالع، مدبر الحظ، منكس الرأس [2].

— ولن ينقل كلام العدو، إلى صديق له
إلا من يكون مشاركا له في العداوه [3].

— وماذا يريد ذلك الأحمق من وراء الغيبة ؟؟
إنه لم يصب شيئا، وقد سود كتابه [4].

— وإذا كان الحسد لا يعجبك من صديق
فمن أين علمت أن الغيبة تُرضى ؟؟.

— إن كان الحسود قد مضى خسيساً إلى النار
فأنت أيها المغتاب !! لاحق له من طريق آخر [5].

---

(١) كسانى كه پيغام دشمن برنسد — زدشمن همانا كه دشمن ترند — ف ٢٢
(٢) نديدم زغماز سرگشته تــر — نگون طالع وبخت بر گشته تر — ق ٢٣
(٣) كسى قول دشمن نيارد بدوست — جز آنكس كه در دشمنى يار أوست — ق ٣٣
(٤) چه مى خواهد أز غيبت آن ساده مرد — كه ديوان سيه كردوچيزى نخورد — ق ١٣
(٥) حسودى پسندت نيا مد زدوست — چه معلوم كردت كه غيبت نكوست
گرأو راه دوزخ گرفت أز خسى — أزين راه ديگر تو دروى رسى — ق ١٤

٨ — باب الشكر

رقم ق	رقم المطلع	عدد الأبيات	عن سعدى	عن شخصية	عامة	المطلع
١	١	٢٦	سعدى			نفس می نیارم زد أز شکر دوست
٢	٢٧	١١			عامة	جوانی سر أز رای مادر بتافت
٣	٣٨	١٧			»	به بین تایك أنگشت أز چند پند
٤	٥٠	١١			»	ملك زاده زاسپ أد هم فتاد
٥	٦٦	٥			»	یکی گوش کودك بمالید سخت
٦	٧١	١٧			»	شب أز بهر آسایش تست و روز
٧	٨٨	١١			»	نداند کسی قدر روز خوشی
٨	٩٩	١٩		طغرل		شنیدم که طغرل شبی در خزان
٩	١١٨	٥			»	یکی راعسس دست بربسته بود
١٠	١٢٣	٤			»	برهنه تنی یك درم وام کرد
١١	١٢٧	٤			»	یکی کرد بر پارسائی گذر
١٢	١٣١	٣			»	زره باز پس مانده می گریست
١٣	١٣٤	١٨			»	فقیهی بر افتاده مستی گذشت
١٤	١٤٢	٤			»	نگرتا قضا أزکجا سیر کرد
١٥	١٤٦	١٤			»	یکی گرز پولاد بر مغز خورد
١٦	١٦٠	١٤			»	نخست أو ارادت بدل بر نهاد
١٧	١٧٤	٩٩	سعدى			بتی دیدم أز عاج در سومنات
	٢٧٣		٢ +	١ +	١٤	١٧ =

* * *

قصص باب الشكر

تبلغ قصص هذا الباب سبع عشرة قصة ، فى مائتين وثلاثة وسبعين بيتاً ، تتوزع كالآتى :

١ — قصتان عن سعدى .   ٢ — قصة عن طغرل .

٣ — أربع عشرة قصة من القصص العامة .

قصة طغرل :

وتقع الثامنة فى الباب ، فى تسعة عشر بيتاً . وتعالج القصة عدم العناية بالرعية وعنوانها « سلطان طغرل باهندوى باسپان » ومعناه «السلطان طغرل والحارس الهندى » والقصة من هذه الناحية تصلح أن تكون فى باب العدل ، والشاعر يروى هذه القصة سماعا ، وملخصها أنه سمع أن «طغرل» مَرَّ ذات ليلة فى الخريف على حارس هندى ، وكان المسكين يرتجف كما يرتجف نجم سهيل ، فان الثلج ، والمطر، والسيول ، كانت تتساقط عليه .

و يشير الشاعر إلى أن السلطان قد مر به عرضاً ، فوجده على تلك الحال ، ورغب أن يعطيه بعض ما عليه من فراء ، ليتقى به هذا الزمهرير ، لكنه أمهله لحظة ، حتى ينتهى إلى قصره ، فيرسلها له مع خادمه إذا ما بلغ ، ولكن المليك انصرف إلى شئونه ، وشغل عن حارسه . والشاعر يختم القصة، بالدعوة العامة إلى العناية بالمنكوبين ، والبؤساء، الذين يحتاجون إلى المساعدة .

— سيدى ! أمسك الزورق على الماء !
فان المساكين قد جاوز الماء رؤوسهم.
— مهلاً ! أيها الشباب الخفاف
ففى القافلة ، شيوخ ضعاف[1].

وهو ينادى فى آخر القصة بما يلائم وضعها فى باب الشكر .

— إنك — نائم مستريحاً — فى هودج القافلة
لكن مقود الجمل فى يد الجمال
— إن النائمين فى بيوتهم مع من يحبون
ما يدريهم بحال الجائعين ؟ ؟ [2] .

---

(١) بدار إى خداوند زورق بر آب — كه بيچارگان را گذشت أز سراب
توقف كنيد إى جوانان جست — كه در كاروانند پيران سست

(٢) توخو شبخته در هودج كاروان — مهار شتر در كف ساروان
بـه آرام دل خفتگان در بنه — چه دانند حال شكم گرسنه

الافكار العامة فى باب الشكر

كثير من أفكار هذا الباب، ليست خاصة بالشكر وحده ، بل بعض قصصه ـ كذلك ـ يمكن أن تشارك فى علاج أمور من أبواب أخرى ، كما رأينا فى قصة السلطان طغرل .

ومن القصص التى تناسب باب الإحسان القصة السابعة ، وعنوانها « مقال فى النظر فى حال البؤساء وشكر نعم الله تعالى » .

ومن معانيها التى تناسب هذا الباب قوله :

ـــ وماذا يعرف قوم « جيجون» من فضل الماء ؟ ؟
اسأل عنه قوماً فى حرقة الشمس ومتاهة الصحراء[1] .

ـــ وكيف تحس الليــــل ، المظـلم ، الطويل
وأنت تتقلب من جانب إلى آخر فى نعمة ودلال[2] .

ـــ والسـيد يسـتيقظ على أنغـــــام الطبـول
فكيف يدرى ليلة الحارس على أية حال[3] .؟!

ولكن لعل الشاعر لاحظ فى وضعه لها فى هـذا الباب ، انه رأى أن النعمة التى يتقلب فيها العظيم ، موجبة للشكر على ما أولاه الله من نعم ، فهى من تلك الناحية صالحة للباب .

ومما يصلح لباب الرضا القطعة الرابعة عشرة ، وهى فى بيان ان الانسان ينبغى أن يقنع بما كتب له . وتدور القصة حول الإيمان بالقضاء والقدر ، وعنوان القطعة نفسه يشير إلى هذا المعنى « حكاية فى نظر أصحاب القلوب فى الله تعالى لا فى الأسباب » والقطعة تبلغ أربعة أبيات .

---

(١) چه دانند جیحونیان قدر آب ؟ روا ماند گان برس در آفتاب
(٢) ترا تیره شب که نماید دراز که خلطی ز پهلو بهلوی ناز
(٣) ببانگ دهل خواجه بیدار گشت چه اندر شب پاسبان چون گذشت

— تأمل !! ترى القضـاء من أين يسير ؟ ؟
فإنه عمًى أن تعتمد على الغـــير (١) .

والقطعة السادسة عشرة، تصلح لأن تكون فى نفس هذا الباب فهى فى معنى « الجبر والاختيار » وعنوانها يشير إلى ذلك «مقال فى سابق حكم الأزل والتوفيق إلى الخير» و يتردد فى القصة كلها هذا المعنى :

— إذا لم يكن الحق تعالى هو الموفق للخير
فانَّى يأتى الخير من العبد إلى الغير (٢) ؟؟.

والقطعة الثامنة عشرة، نصلح لأن تكون فى باب التربية ، ومغزاها « ألا يسخر الانسان بما كتبه الله على الغير» ونفس المطلع يشير إلى هذا المعنى:

— مَرَّ فقيــــهٌ على ثملٍ ملقًى على الثرى
فاغتر حـــين رأى نفسه مستورا(٣) .

ولـكن ـ مع هذا ـ يمكن أن نستخرج الأفكار العامة فى الباب من قصصه كلها ، وهذه الأفـكار تدور حول الشكر لله ، وموجبات هذا الشكر .

فالشكر لله على أنه الخلاق ، وتفضيله الانسان على جميع مخلوقاته ، وشـكره على معونته، ومساعدته ، وعلى نعمه المختلفة .

— إنه المبدع ، الذي خلق من الطين الإنســـان
ووهب له الروح ، والعقل ، والفـكر ، والجنان
ـــ تأمل ! ! كم من النعـــم أعطـــاك ! !
منذ صورك فى صلب أبيك ، حتى مشيبك (٤) .

---

(١) نگر تا قضا أز كجا سـير درد — كه كورى بودتكيه بر غير كرد
(٢) گر أز حق نه توفيق خيرى رسد — كه أز بنده خيرى بغيرى رسد ؟
(٣) فقهى بر افتاده مستى گذشت — بمستورى خويش مغرور گشت
(٤) بديعى كه شخص آفريند زگل — روان وخرد بخشد وهوش ودل
زپشت پدر تا بپــايان شيب — نگر تاچه تشريف دادت زغيب ق ١

— إن البهــــائم تمضى ، على وجوهها ذلة
وأنت تعلو قدميك ، كالألف فى استقامة

— فــــلا يليق بك وقد منحك السيادة
أن تحنى رأسك ، إلا فى شكره ، وطاعته (١).

— إن الله منحك عينــاً ، وفمــاً ، وأذنا
فلا تعصه ! إن كنت عاقــلا ! (٢) .

— فلست تمضى — وحدك — قدماً واحدة
بل تدركك المعونة من الغيب كل لحظة (٣) .

— ولا تلو عنقك عن شكر المنعم عليــك
فانك ستنتهي إلى اليوم الآخر ولاشيء يعينك (٤).

— إن عقــلاء الطبــاع الذين يعترفون بالنعمة
هم الذين يحيــكون النعمة بإبر الشكر (٥) .

— إلهي ! إن قلبي قد تحطم ، وعيني قد قرحت
فانى أرى نعمك أكثر مما يقال ، مهما وصفت

— لست أقول إن البهائم ، والسباع ، والنمل ، والسمك
بل أقول إن فوج الملائكة ، على أوج الفلك

— لايزالون كلهم يذكرون القليل ثنــاء عليك
لا ! بل قالوا واحداً من آلاف جديرة بك (٦).

---

(١) بهائم برو اندر افتاده خــوار — تو همچون ألف بر قدمها سوار
نزيبد ترا باچنيــن سرورى — كه سر جز بطاعت فرو داورى ف ٣

(٢) ترا آنكه چشم ودهان داد وگوش — أگر عاقلى در خلافس سكوش ف ٣

(٣) تو قائم بخــود نيستى يك قدم — زغيبت مدد ميرسـد دم بدم ف ١

(٤) مكن گردن أز شكر منعم سپيچ — كه روز يسين سر بر آرى بهيچ ق ٤

(٥) خردمند طبعان منت شناس — بدوزند نعمت بميخ سپاس ف ٣

(٦) خدايا دلم خون شـد وديده ريش — كه مى بينم انعامت أزگفت بيش
نگويم دد ودام ومـور وسمك — كه فوج ملايك بر أوج فلك
هنوزت سپاس اندكى گفته انـد — زچندين هزاران يكى گفته اند ف ٦

٩ — باب التـــوبة

رقم ق	رقم المطلع	عدد الأبيات	قصة عن سـعدى	عن شخصية تاريخية	عامة	المطلع
١	١	١٠			عامة	بيا إى كه عمرت بهفتاد رفت
٢	١١	٢٦	سـعدى			شبى در جـوانى وطيب نعم
٣	٣٧	١٧			»	كهن سـالى آمد بنزد طبيب
٤	٥٤	١١			»	جوانا ره طاعت إمروز گير
٥	٦٥	٢٦	سـعدى			شبى خوابم أندر بيـابان فيـد
٦	٩١	١٥			»	قضا زنـــده‌را رگ جان بريـد
٧	١٠٦	٧		جمشيد		فرو رفت جم را يكى نازنـــين
٨	١١٣	٢١			»	يكى پارسا سيرت حـق پرسـت
٩	١٣٤	٢٢				ميان دوتن دشمنى بود وجنگ
١٠	١٥٦	٢	سـعدى		»	زدم تيشه يك روز بريل خـاك
١١	١٥٨	٧	سـعدى			شبى گـفته بودم بعزم ســفر
١٢	١٦٥	١٤			»	خبر دارى اى استخوانى قفس
١٣	١٧٩	١٧	سـعدى			زعهــد پدر ياد دارم همــى
١٤	١٩٦	١٣			»	يكى بچهٔ گرگ مى پروريـد
١٥	٢٠٩	١٦			»	يكى برد بر پادشـــاه ستيز
١٦	٢١٥	١٤			»	يكى سال مردم بتلبيس خـو رد
١٧	٢٢٩	١٣			»	گل آلودهٔ راه مسـجد گرفت
١٨	٢٤٢	١٦	سـعدى			همى يادم آمــد زعهد صغر
١٩	٢٥٨	١١			»	يكى غله مر دادمه تـوده كرد
٢٠	٢٦٩	٦			»	يكى سنفق بــود بر منكــرى
٢١	٢٧٥	١٢		يوسف و زليخا		زليخا چوگشت أزپى عشق مست
٢٢	٢٨٧	٩			»	پليدى كند گربه بر جاى پاك
٢٣	٢٩٦	١٢	سـعدى			غريب آمدم در سواد حبش
٢٤	٣٠٨	١٠			»	يكى را بچوگان شه دا مغان
٢٥	٣١٨	١٢	سـعدى			بصنعا درم طفلى أندر گـذشت
	٣٤١		٨ +	٢ +	١٥	= ٢٥

قصص باب التوبة

تبلغ قصص هـذا الباب خمس وعشرون قصة ، فى ثلاثمائة وثلاثين بيتاً تتوزع كالآتى : —

١ — ثمانى قصص عن سعدى .
٢ — قصتان عن شخصيات تاريخية .
٣ — خمس عشرة قصة عامة .

قصة جمشيد :

وتقع السابعة ، فى سبعة أبيات ، وقد أسند الشاعر حوادثها إلى « جمشيد » ليلقى على لسانه عبرة خلال القرون الماضية على أن الحياة لا دوام لها ، ولا بد أن يحل دور الرحيل على من يقع عليه ، مهما كان عزيزاً ، يقول فى المطلع :

— مات لجمشيد ولد جميل
فكفنه فى الحرير ، كما تلتف دودة القز [(١)] .

ويمضى الشاعر إلى مرمى القصة ، فيجعل « جمشيد » يدخل القبر بعد مدة ليكشف عن ابنه ، فيبكيه بحرقة ، وضراعة ، فلما رأى الكفن قد أصابه البلى ، فكر فى نفسه قائلا :

— إنى كنت قد نزعت — من الدود — هذا الحرير
فنزعه منه — ثانية — دود القبر [(٢)] .

وهنا مغزى القصة ، واستخلاص العبرة منها ، فى تصوير تقلب الحياة الدنيا وزوالها . ثم يختم القصة بما يؤيد هذا المعنى :

---

(١) فسرو رفت جم را يكى نازنين   كفن كرد چون كرمش أبريشمين
(٢) من أز كرم بركنده بودم بزور   بكندند أزو باز كرمان گور

ـــ واأسفا ! ! إن الزمان ـــ كثيراً ـــ ما يُنبتُ الوردَ لنا
ومتى حل الربيع ، تفتح ، لكن فى غير وجودنا [1] .

قصة يوسف وزليخا :

وهى الحادية والعشرون فى الباب، فى إثنى عشر بيتاً، وتدور حول قصة «يوسف وزليخا» فى الكتب الدينية، ولكن الشاعر يرمى بها إلى غرض آخر هو دعوة إلى ترك اللذائذ العاجلة، والاستغفار بما وقع الانسان فيه من آثام، قبل فوات الأوان.

فاختيار الشخصية مناسب للقصة ، من حيث التوبة، وطلب الاستغفار، وقد تصلح لأن تكون فى باب العشق الروحى، وخشية الله، إذا نُظر إليها من وجهة موقف «يوسف» ومطلع القصة :

ـــ حـــين ثملت زليخا من خمرة العشـــق
هَمَّت بيوسف، وأمسكت بيدها أطرافه [2] .

ثم يفرق الشاعر بين عبادة يوسف وعبادة زليخا، فهى تعبد صنما، وهو يعبد الله، ويتخذ الشاعر من وضع الصنم فى القصة ، مدخلا إلى الغرض ، فيجعل زليخا تستره حين همت بيوسف :

ـــ أَخفَت فى تلك اللحظة ، وجهه ، ورأســه
حتى لا يرى أعمالها القبيـــحة [3].

وماذا كان موقف يوسف ؟؟

ـــ إنك تخجلين من وجه حجر، أنت له من العابدين! !
ألستُ أخجل أنا، من رب الطاهرين ؟؟ [4] .

(١) دريغا كه بى ما بسى روزگار برويد گل وبشكفد نوبهـــار
(٢) زليخا چوگشت أزمى عشق مست بدامان يوسف درآويخت دست
(٣) درآن لحظه رويش بپوشيد وسر مبادا كه زشت آيدش در نظـــر
(٤) تو در روى سنـــگى شدى شرمناك مرا شرم باد أز خداونـــد پاك

ثم يختم الشاعر القصة بالتوبه والاستغفار ، بما يلائم أغراض الباب ، ومرمى القصة :

— اطلب اليوم الاستغفار ، وجدَّ فى طلبه!!
ففى الغد لن يبقى لك مجال للكلام (١).

★ ★ ★

الأفكار العامة فى باب التوبة

يتردد فى هذا الباب ، كثير من الأفكار التى تدور حول الحياة الدنيا وقصرها ولا بد للعاقل أن ينتهز فرصتها للعمل الصالح . فمن أساء فليتب، ويستغفر ، فإن باب التوبة مفتوح ، ولن يرد الله لاجئاً إليه .

ويمكن تلخيص الأفكار العامة فيما يأتى : —

١ — تصوير للحياة الدنيا .　　　٢ — دعوة إلى العمل الصالح .

٣ — التوبة والاعتذار عن العمل السيىء .

١ — تصوير الحياة الدنيا :

الحياة دورة يحل فيها قوم محل آخرين .

— كثيراً ما أقمتَ مكان غيرك !!
وسيأتى غيْرك ، ليحل مكانك (٢) .

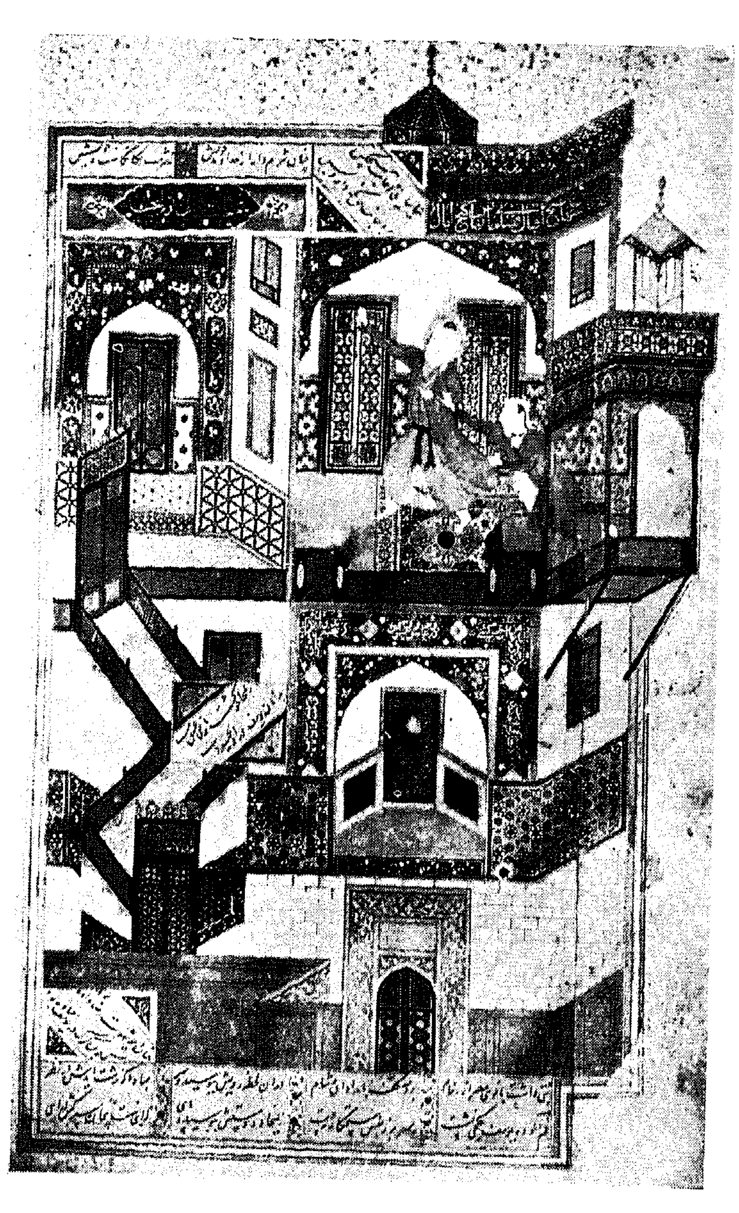
— ولقد مررنا متمتعين ـ بالهوى ـ والأمانى
على قبور كثير من الأنام
— وسيأتى — من عالم الغيب — غيرنا
ويمرون ، بعد الموت ، على قبورنا (٣) .

---

(١) بعذر آورى خواهش إمروز كن　　كه فردا نماند مجال سخن

(٢) نشستى بجاى دگر كس بسى　　نشيند بجاى تو ديگر كسى ف٦

(٣) تفرج كنان در هوا وهوس　　گذ ستيم بسر خاك بسيار كس
كسانى كه ديگر بغيب أندرنند　　بيايند و بسر خاك ما بگذرند ف ٣



صورة « يوسف وزليخا » وفى أعلى الصورة وأسفلها أبيات
من القصة . عن النسخة الخطية ص ٥٢ بدار الكتب

وتراب القبور تعد منه لَبِنات لقبور الآخرين :

— لماذا تربط ـ بهذه اللبنة الذهبية ـ قلبك
فعسى أن يصنعوا لَبِناً ـ يوماً ما ـ من ترابك (١)

والتراب كثيراً ما طوى أجساماً وحواس :

— خفف الضرب إن كنت شفوقاً !!
فانّ هنا عيناً، وأذناً، ووجهاً ، ورأساً (٢) .

والحياة لحظة :

— إنتهز فرصتك فى الحياة ، فإنها لحظة
واللحظة ـ لدى العاقل ـ خير من الحياة (٣) .

والفرصة عزيزة ، والوقت سيف :

— لا ينبغي ضياع العمر سدى
فإن الفرصة عزيزة، والوقت سيف (٤).

٢ ـ الدعوة الى العمل الصالح :

— ينبغى ـ الآن ـ أن تحسب للعمل كل حساب
وليس فى الوقت الذى ينشر فيه الكتاب (٥).

— واجتهد الآن ، فان الماء جاوز وسطك
ولا تركنه ، حتى يصير سيلاً فيجتاز رأسك (٦) .

---

(١) چه بندى در بن خشت زرين دلت   كه بكر و ز خشتى كنند از گلت   ف ٨

(٢) كه زنهار أگر مردى آهسته تر   كه چشم وبنا گوش وروى است وسر   ف ١٠

(٣) نگه دار فرصت كه عالم دمى است   دمى پيش دانا به أز عالمى است   ق ١٢

(٤) مكن عمر ضايع بأفسوس وحيف   كه فرصت عزيز است والوقت سيف   ف ٥

(٥) كنون كرد بايد عمل را حساب   نه وقتى كه منشور گردد كتاب   ف ٢٢

(٦) كنون كوش كاب أز كمر در گذشت   نه وقتى كه سيلاب أز سر گذشت   ف ٥

— وإذا أفلتت من يدك خمسون عاما
فاغتنم ، الأيام الخمسة ، الباقية (١)

— ومَنْ بذر الشعير ، وقت الربيع
كيف يجنى القمح وقت الحصاد (٢) ؟

— والآن ـ إذا اجتهدت ـ وقتُ البذر
وكنت ترجو الأمل بطيب الثمر (٣) .

— وإذا مضى العمر — هباء — فى الشر
فأنت كمن أشعل النار فى البَيْدرِ (٤) .

— ولا تذهب — يوم القيامة — ضيق ذات اليد
فلا وجه لأن تقعد متحسرا (٥) .

— ويوم القيامة حين تعقد سوق الجنة
توزع الدرجات، وِفْق طيِّبِ الأعمال

— وتكسب البضاعة بقدر العمل
فإن كنت مفلساً ، فتحمل الخجل (٦)

— والذى يكسب الجنة ، هو من قدم الطاعة
ومن قدَّم المال، تناول البضاعة (٧) .

---

(١) چو پنجاه سالت برون شد زدست — غنيمت شمر پنجر وزه كه هست ق ١

(٢) يكى در بهاران بيفشان جو — كه گندم ستاند بوقت درو ق ٥

(٣) كنون وقت تخمست أگر پرورى — گرأميد دارى كه خرمن برى ق ٥

(٤) گر أز دست شد عمرت أندر بدى — تو آنى كه در خرمن آتش زدى ق ١٥

(٥) بشهر قيامت مرو تنگ دست — كه وجهى ندارد بحسرت نشست ق ٥

(٦) قيامت كه بازار مينو نهند — منازل باعمال نيكو دهند
بضاعت بچندانكه آرى برى — وگر مفلسى شرمسارى برى ق ١

(٧) بهشت آن ستاند كه طاعت برد — كرا نقد بايد بضاعت برد ق ١٧

٣ ـ التوبة والاعتذار عن العمل السيىء :

— إذا أدرك المسيء نفسه
قبل يوم القيامة ، لم تحسب إساءته [(١)] .

— ولا تقل إن طائر الدولة ، قد انفلت من القيد
فإن طرف الحبل لايزال باليد [(٢)] .

— وإن جاوزتْ الحدَّ سيئاتك
كنت ظافراً إذا اعترفت بذنبك [(٣)] .

— وإذا كنت عاقلا ، فاسأل الله ليلا
أن يعفو عما جنت يداك فى النهار [(٤)] .

— وابحث عن صلح ، واتخذ طريقاً لك
واقصد شفيعاً ، واعتذر عما قدمت يداك [(٥)] .

— وإذا كنت لا تزال ترجو الصلح ، فلا خوف
فان الكريم لا يغلق الباب ، على التائبين [(٦)] .

— واقْبل ! ! ما دمت ترى باب الصلح مفتوحا
فَلَعَلَّ باب التوبة ، يغلق فجأة عليك [(٧)] .

— والنبى الكريم ، هو من ترجى شفاعته
لمن تبعه ، وسلك طريق شريعته [(٨)] .

---

(١) كسى گرچه بد كرد هم بد نكرد — كه پيش أز قيامت غم خود بخورد — ق ٢٢
(٢) مگو مرغ دولت زقيدم بجست — هنوزش سر رشته دارى بدست — ق ١٧
(٣) وگر رفت أز اندازه بيرون بدى — چو گفتى كه بد رفت نيك آمدى — ق ١٦
(٤) أگر هوشمندى زداور بخواه — شب توبه تقصير روز گناه — ق ٢٤
(٥) طريقى بدست آر وصلحى بجوى — شفيعى برانگيز وعذرى بگوى — ق ١٦
(٦) هنوز أز سر صلح دارى چه بيم — در عذر خواهان نبندد كريم — ق ٢٤
(٧) فرا شو چو بينى در صلح باز — كه ناگه در توبه گردد فراز
(٨) پيمبر كسى را شفاعت گرست — كه بر جادهٔ شرع پيغمبرست — ف ١٦

١٠ — باب المنـــــــاجاة

رقم ق	رقم المطلع	عدد الأبيات	قصة عن سعدى	عن شخصية	عامة	المطلـع
١	١	١٩	سعدى			بيا تا بر آريم دستی زدل
٢	٢٠	٣١	سعدى			تنم می بلرزد چـــوياد آورم
٣	٥١	٧			عامة	سيه جردهٔ را كسی زشت‌خواند
٤	٥٨	٧			»	چه‌خوش گفت درويش كوتاه‌دست
٥	٦٥	١٨		مجوسى		مغى در بروى أزجهان بسته بود
٦	٨٣	٢٩		سكران		شنيدم كه مستى زتاب نبيذ
	١١٢		٢ +	٢ +	٢	٦

* * *

قصص باب المناجاة

تبلغ قصص الباب ست ، تتوزع كالآتى :—

١ — قصتان عن سعدى .

٢ — قصتان عن مجوسى ، وسكران .

٣ — قصتان عامتان .

قصة المجوسى :

وهذه نوع من القصص المعروفة بموصوفها لا بشخصها ، فلم يتعين فيهـا اسم لشخص بعينه ، ولـكنه يعين فيها بصـفته ، وهـذا الاخيار مناسب لباب المناجاة نفسه .

وتقع القصة الخامسة فى الترتيب ، فى ثمانية عشر بيتاً ، وتدل على انتباهة

لطيفة من الشاعر ، فهى ترمى فى مضمونها . أنه مهما اختلفت العبادة — ولو كانت فى أصنام — فإن توجه العـابد إلى الخالق ، وتوسل إليه ، لن يرده خائباً عن مغفرته .

والشاعر يدير القصة إدارة محكمة . فهذا عابد مجوسى ، اعتكف على عبادة صنمه سنين طويلة ، وأقفل الباب على نفسه ليخلص لعبادته ، و بعد بضع سنوات عرضت له مشكلة مستعصية ، فجثى المسكين على قدمى الصنم ، يرجو الخير فى أرض الدير . وناجى الرجل صنمه كثيراً ، وأمضى فى هـذا السبيل مدة طويلة ولـكن حاجاته لم تنقض .

وهنا يهيىء الشاعر الفرصة للانتقال إلى المعنى المقصود .

— ثار عليهـــــا ، قائلا يامعقل الضلال ! !
لقد عبدتك سنين، طويلة،بالإثم والباطل
فاقض حاجتى التى أنشـــــــدها ! !
و إلا !! فانى أســأل الخالق قضاءها [1] .

وتبلغ مهارة الشاعر فى التوفيق، فيجعل هذا الاتجاه سبيلا لقضاء الله حاجته، حتى يكون هناك فارق بين الخالق ، و بين الصنم .

بينما لايزال وجهه ملوثاً بالتراب،أمام صنمه
إذ قضى الله تعـالى ، قصده ،ومراده [2] .

ولـكى يعطى الشاعر للقصـة شيئاً من الجدة والقوة ، يدخل فيهـا شخصيات جديدة .

---

(١) بر آشفت ؟ ناى پاى بند ضـــلال — بباطل پرستيد مت چند ســـال
مهمى كه در پيس دارم بر آر — وگرنه بخواهـــم ز پر ور دگـار
(٢) هنوز از بت آلوده رويش بخاك — كه كامش بر آورد يزدان پاك

— تحيّر — فى الأمر — عارف للحقـــائق
وتكدر وقته الصافى ، وحل به الضيق [١] .

— وقال إن ضالاً ، من عبّاد البـاطل والنار
لم يزل دماغه ثملا من خمرة الخمـار

— ولم يغسل قلبه من الكفر ، ولا يده من الخيانه
قضى الله مقصوده ، وأجاب مراده [٢] .

ثم يعرض الشـاعر للرد ، والتخلص من المأزق ، بأمر جدير بالملاحظة ،

— خاض فكر المعترض فى هـذه المشكلة
حتى جاءت رســالة إلى اذن قلبه

— إن الشيخ الناقص العقل أفاض فى القول
أمام الصنم ، ولم يجد لكلامه أدنى قبول [٣] .

وهنا يعرّض الشاعر بهذا العابد الذى يعكف على عبادة الصنم ، ويجعله ناقص العقل ، كما يجعل الصنم لا تدرك شيئاً من معنى التوسلات ، وبهذا ينتقل إلى المغزى من وضع القصة ، ومن اختيارها لتعالج فكرة صادقة حول قبول التوبة فيمضى فى الكلام :

— إذا رُدّ لاجىء — أيضاً — عن بابنــا
فما الفرق إذاً ! بين الصـنم و بيننا [٤] ؟
محال ! إذا وضعت رأسـك على أعتابه
أن تُرَد يدك خاليــة دون حاجة [٥] .

---

(١) حقايق شناسى در اين حيره شد — سر وقت صافى برأو تيره شد
(٢) كه سرگشته‌ٔ دون باطل پرست — هنوزش سر أز خمر بتخانه مست
دل أز كفر ودست أزخيانت بشست — خدايش بسر آورد كامى كه جست
(٣) فرو رفت خاطر درين مشكلش — كه پيغامى آمد بگوش دلش
كه پيش صنم پير ناقص عقول — بسى گفت وقولش نيامد قبول
(٤) گر أز درگه ما شود نيز رد — پس آنگه چه فرق أز صنم تا صمد
(٥) محالست أگر سر برين در نهى — كه باز آيدت دست حاجت تهى

قصة السكران :

وهى تعالج أمراً آخر شبيهاً لما فى القصة السابقة ، فهو فى تلك القصة تخير كافراً ، ضالا عن عبادة الله ، لجأ إليه وقت الشدة ، وفى هذه تخير ثملا مذنباً ، يحيد عن شريعة دينه .

ويجري الشاعر على لسانه قصة ملائمة له ، وادخل فيها شخصية أخرى وجعل حوادثها، فى مكان مقدس ليزيد من قوتها ، يقول فى المطلع :

— سمعت أن ثملا ، وهو فى حمأة النبيذ
سعى ـ مجداً ـ إلى مقصورة مسجد
وتضرع على أعتاب الكرم ، قائلا ! !
يارب!! ابعثنى إلى الفردوس الأعلى (١) .

ثم يأتى الشاعر برجل المسجد ، وهو المؤذن ، فيدخله فى القصة ليزيدها قوة وجدّه ، فيرد الثمل على المسجد مؤنباً له :

— أمسك المؤذن بتلابيبه ، أن أبعد!!
يامن لاعقل فيه ولا دين عنده ، أكلب ومسجد؟؟
وما العمل اللائق الذى عملته حتى تبحث عن الجنة ؟
أيليق بك الدلال، مع وجهك القبيح ؟؟ (٢) .

ثم ينتقل الشاعر إلى المغزى من وضع القصة . فيأتى بالرد على لسان السكران

— أتعَجَب من لطف الله الخالق؟؟
أن يَطلبَ المذنبُ الرجاء منه !! (٣) .

(١) شنيدم كه مستى زتاب نبيد — بمقصورهٔ مسجدى در دويد
بناليد بر آستان كرم — كه يا رب بفردوسى أعلى بسرم
(٢) مؤذن كريبان كرفتش كه هين — سگ ومسجد إيفاغ أز عقل ودين
چه شايسته كردى كه خواهى بهشت — نمى زيبدت ناز باروى زشت
(٣) عجب دارى أز لطف پروردگار — كه باشد گنه كارى أميد وار

ثم يخلص الشاعر إلى الحديث العام عن التوبة، والمناجاة، على لسان السكران:

— لست أقول ، لا تكن بالعفو ضنين ! !
فإن باب التوبة مفتوح ، وأنت المعين .

انى أستحى من لطف الله الكريم
أن أعُدَّ ذنبي عظيما، أمام عفوه العظيم (١)

ثم يمضى فيدخل فى أوصاف الله بما يوسّع من آماله فى العفو عن الذنوب :

— لو أدرك أحد أصدقائى قليلا من زلاتى
لشهَّرنى بقلة العقل ، وقبح الصفات

— نحن نخشى بعضنا ، وأنت بنا البصير
ونحن هاتكو الستر، وأنت نعم الساتر

— إن الناس يشهِّرون ، كلما حلَّ بى العار
لكنك الكاشف وراء الستر وعلى عبيدك الستار (٢).

— فإن عفوت عنى ، بمقدار جودك
ما بقى آثم واحد فى ملكك (٣) .

ويختتم الباب فى ختام القصة بما يلائم موضوعه تمام الملاءمة

— لم آت ببضاعة إلا الرجاء !
إلهي! لا تخيب فى عفوك رجائى !! (٤).

---

(١) ترامى نگويم كه عدرم بذير — در توبه بازاست وحق دستگير
همى شرم دارم زلطف كريم — كه خوانم گنه پيش عفوش عظيم

(٢) أگر يارى أندك زلل دانـدم — بنا بخردى شهره گردانـدم
تو بينا وما خائف أز بكد گر — كه تو پرده پوشى وما سرده در
بر آورده مردم زبيرون خروش — تو بيننده در پرده وپرده پوش

(٣) أگر جرم بخشى بمقدار جود — نماند گنه كارى أندر وجود

(٤) بضاعت نيا وردم إلا أميد — خدايا زعفوم مكن نا أميد

الأفكار العامة فى باب المناجاة

رأينا أن قصص هذا الباب قليلة جداً بالنسبة لغيره من الأبواب ، و يمكن أن تتوزع كثير من أفكاره على أفكار بعض الأبواب الأخرى ، وخاصة فى الباب السابق . والباب فى مجموعه لا يعرض لأفكار جديدة أخرى غير المناجاة .

ونحن نتكلم — بكلمة عامة — عن مغزى قصصه الأخرى،فالقصة الأولى تدور حول المناجاة ، وتشقيق الطريق لها، وتقع فى تسعة عشر بيتاً، يقول فى مطلعها:

— هلم !! حتى نرفع أيدينا عن القلب
فلن نستطيع غداً ، أن نخرجها من التراب (١) .

— ولا تحسبَنَّ من رفع يده يرد كالخائب
عن ذلك الباب ، الذى لم يغلق أمام تائب .

— ربِّ ! هلم بجودك وكرمك ! !
فإن الذنب ، والإثم ، شأن عبيدك (٢) .

— ولا تسلط علىَّ من كان مثلى من خلقك
فان كان لا بد من العقوبة ، فلا تحملها من يدك .

— فليس فى الدنيا كبير شرّ
أسوأ من أن يعاقب المرء البشر .

— يكفيني أننى خَجِل من رؤيتك
فلا تخجلنى — بعد ذلك — أمام غيرك (٣) .

---

(١) بيا تا بر آريم دستى زدل ... كه نتوان بر آورد فردا زكل

(٢) مپند ار أز آن در كه هر كز نبست ... كه نوميد كردد بر آورده دست
خداوند كارا نظر كن بجود ... كه جرم آيد أز بند كان در وجود

(٣) مسلط مكن چون منى بر سرم ... زدست تو به كر عقوبت بسرم
بكيتى نباشد بتر زين بدى ... جفا بردن أز دست همچون خودى
مرا شرمسارى ز روى تو بس ... دكر شرمسارم مكن پيش كس ق ١

أما قصصه الأخرى فيتردد فيها — بجانب المناجاة — كثير من المعانى المختلفة التى تدور حول معانى باب الرضا ، فى القضاء والقدر ، والجبر والاختيار فى قوله:

- إلهى ! نقضنا العهد ضلّةً ، وبلاء
فكيف تقاوم يد الجهد ، ما جرى به القضاء.

— لقد أبطلتَ تدبيرى ، وكل ما فعلته
فكيف يكون للنفسية ، قوة مع الألوهيه[1].

— فإذا هديتنى الطريق ، أوصلتنى إلى الخير
وإذا أضللتنى ، تخلفت عن إدراك كل أمر [2].

— إنك تعلم ضمائر من لا يتكلم
وإنك — على قلوب المرضى — واضع المرهم [3].

---

(١) خدايا بغفلت شكستيم عهد   چه زور آورد بافضا دست جهد
همى هرچه كردم تو برهم زدى   چه قوت كند باخدائى خودى   ق ٢
(٢) گرم ره نمائى . رسيدم به خير   وگر گم كنى باز ماندم زسير   ف٣
(٣) تو دانى ضمير زبان بستگان   تو مرهم نهى بردل خستگان   ق ٤

* * *

أرأيت ، إلى تلك الروح السامية، التى تجلت فى الشاعر عند عرض أفكاره وآرائه فى كتابه البوستان ؟ ؟

أرأيت ، إلى هذه الإنسانية العامة ، التى تتردد فى أبوابه ، لا على الإنسان فحسب ، بل على جميع المخلوقات ؟ ؟

أرأيت ، إلى هـذه الدعوة الصادقة ، فى أن ينظر الإنسان إلى أخيه ، من حيث هو إنسان ، لا من حيث دينه ، أو جنسه ؟؟؟

أرأيت، إلى هذا التوازن الاجتماعى الذى عرض له، فى بابى العدل، والإحسان من أوائل أبواب الكتاب ؟ ؟ ؟

أرأيت إليه ، حين عرض إلى العشق، فأحاله إلى صلة سامية ، فى ثوب طاهر شفاف ، تصفو فيه النفس ، حتى تبلغ أسمى مراتب الروحية ؟ ؟ ؟

أرأيت ، إليه وهو يدعو إلى تلك الصوفية العملية ، التى تقوم على التربية الروحية فى أطهر أثوابها ؟ ؟ ؟

أرأيت إليه ، وهو يقيم من أبواب الرضا ، والتواضع ، والتربية ، والقناعة ، تربية خلقية فى أعلى مراتبها ؟ ؟ ؟

أرأيت إليه، كيف يفهم العبادة على صحتها ؟ وكيف لا يقطع الأمل بين العبد — إذ ما عصى — وبين ربه — إذا ماتاب — فى أبواب التوبة ، والشكر ، والمناجاة ؟ ؟ ؟

أرأيت إليه ، كيف تناول القصة ، وهيأ لها من يديرها ، وكيف أحكمها ، حتى يملك على الإنسان حسه ، ومشاعره ، فينقله معه كيف يشاء ، ويحل به كيف يريد ، حتى ينتهي إلى الغرض المقصود ؟ ؟ ؟

كل هذا عرضناله ، وصوّرنا به الشاعر فى كتابه البوستان ، وصح عندنا ما سبق أن أطلقناه عليه ، من أنه طبيب أمام مجتمع مريض أخذ يشخص الداء و يعرض الدواء ، أو أنه مصلح اجتماعى ، أقام نفسه للهداية والإرشاد .

ومن هنا كانت أحكام النقـاد ، ورجال التاريخ والأدب ، على الشاعر أحكاما تلمس الحقيقة فى كل النواحى التى صوّر بها ، وصح ما كتبه عنه الغربيون والشرقيون فيما عرضناله سابقا .

صح ما كتبه الأستاذ آربرى من أن الشاعر الحق ، والكاتب المبدع هو الذى يجمع من سمو الفكرة وطرافتها ، مع رقة العبارة وسلاستها . ومن هنا كان السبب فى إعجاب الكثيرين من الفرنسيين بسعدى .

وصح كذلك ، ما اعترفت به دائرة المعارف البريطانية ، من أنه يعد فى طليعة شعراء الأخلاق فى الفارسية .

كما صح أخيراً ، ما كتبه الأستاذ على دشتى — سفير إيران — من أن مُلْك الكلام قد سلّم إليه ، وأنه رب الأدب الفارسى إذا ادعينا النبوة ، و إعجازه هو البوستان ، وديوان الطيبات ، وأن كلياته — عند الفرس — بمنزلة القرآن .

كشاف
أسماء الأشخاص والأسر والشعوب

كشاف
أسماء الكتب والمقالات

كشاف
أسماء المدن والأماكن والأقطار

المصـــادر

أثبتُّ هنا فقط المصادر التى تكوّن البحث منها

١ — المصادر العربيـــة

١ — أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم :
المقدسى . البشارى — الطبعة الثانية . ليدن سنة ١٩٠٩ م .

٢ — الاحياء فى علوم الدين :
الغزالى — أبو حامد محمد بن محمد — المطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٢ هـ .

٣ — تاريخ الخلفاء :
السيوطى — جلال الدين عبد الرحمن — طبعة الحلبى سنة ١٣٠٥ هـ .

٤ — تاريخ أبى الفداء « المختصر فى أخبار البشر » :
أبو الفدا — إسماعيل بن على عماد الدين — استانبول سنة ١٣٤٠ هـ .

٥ — تاريخ الحضارة الإسلامية :
بارتولد (ترجمة الأستاذ حمزة طاهر) . مطبعة المعارف سنة ١٩٤٢ م .

٦ — تاريخ مختصر الدول :
ابن العبرى — غريغورس أبو الفرج بن هارون الملطى . بيروت ١٨٩٠م .

٧ — تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار :
م . م . الرمزى . أورونبورغ سنة ١٩٠٨ م .

٨ — الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة :
ابن الفوطى — أبو الفضل عبد الرازق البغدادى — بغداد سنة ١٣٥١هـ .

٩ — الخميس فى أحوال أنفس نفيس . الديار بكرى :
القاهرة سنة ١٨٢٢ م .

١٠ — دائرة المعارف الإسلامية :
الترجمة العربية .

١١ — الدعوة إلى الإسلام .:
سير توماس أرنولد . (ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن وآخرين
الشوباكشي ١٩٤٧ .

١٢ — ذكرى أبي الطيب المتنبي :
الدكتور عبد الوهاب عزام بك — بغداد سنة ١٩٤٢ م .

١٣ — رحلة ابن بطوطه — تحفة النظار فى غرائب الأمصار :
القاهرة سنة ١٣٥٨ هـ

١٤ — الرسالة القشيرية :
أبو القاسم عبد الكريم القشيري — المطبعة الأدبية سنة ١٣٠٠ هـ .

١٥ — السلوك لمعرفة دول الملوك :
المقريزى — تقى الدين أحمد بن على — نشر الدكتور زيادة —
دار الكتب ١٩٣٦ م .

١٦ — سيرة جلال الدين منكبرتى :
النسوى — المنشى — شهاب الدين محمد بن أحمد — نشر هوداس
سنة ١٨٠١ م .

١٧ — الشـــاهنامة :
الدكتور عبد الوهاب عزام بك — دار الكتب سنة ١٩٣٢ م .

١٨ — العبر وديوان المبتدأ والخبر :
ابن خلدون — بولاق سنة ١٢٨٤ هـ .

١٩ — العـــراق بين احتلالين :
الأستاذ عباس العزاوى — بغداد سنة ١٩٣٥ م .

٢٠ ـ عوارف المعارف . على هامش الأحياء للغزالى :
شهاب الدين السهروردى ـ المطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٢ هـ .

٢١ ـ الفخـــــرى :
ابن طباطبا ـ المطبعة التجارية سنة ١٩٢٧ م .

٢٢ ـ الفنون الإيرانية :
الدكتور زكي محمد حسن ـ دار الكتب ١٩٤٦ م .

٢٣ ـ فـــــوات الوفيات :
ابن شاكر الكتبي ـ بولاق سنة ١٢٩٩ هـ .

٢٤ ـ قصة الأدب فى العالم :
الدكتورين أحمد أمين بك وزكى نجيب محمود ـ لجنة التأليف سنة ١٩٤٥

٢٥ ـ الكامل لابن الأثير :
ابن الأثير ـ على بن أحمد ـ المطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٢ هـ .

٢٦ ـ كشف الظنون :
ملاحاجى خليفه جلبى ـ طبع مصر سنة ١٣٧٤ هـ .

٢٧ ـ مختصر تاريخ العرب الإسلامى : تأليف سيد أمير على وترجمة الأستاذ
رياض رأفت ـ لجنة التأليف والترجمة ـ سنة ١٩٣٨ م .

٢٨ ـ مسالك الممالك :
تأليف الاصطخرى ـ ليدن سنة ١٨٧٠ م .

٢٩ ـ المسالك والممالك :
ابن خرداذبه ـ ليدن سنة ١٣٠٦ هـ .

٢٠ ـ معجم البلدان :
ياقوت الحموى ـ مطبعة الخانجى سنة ١٣٢٣ هـ .

٣١ ـ وفيات الأعيان :
ابن خلكان ـ طبعة الحلبى سنة ١٣١٠ هـ .

٢ ــ المصادر الفارسية

١ ــ آتشـــكده :

تأليف لطفعلى بيك آذر ــ طبع بمبى سنة ١٢٧٧ هـ .

٢ ــ بدائع غزليات سعدى :

تأليف سعدى الشيرازى ــ برلين سنة ١٣٠٤ هـ . ش .

٣ ــ بوستان سعدى ــ مع قاموس :

طبع كانبور سنة ١٩٠١م .

٤ ــ بوستان سعدى :

طبع المطبعة العامرة سنة ١٢٨٨ هـ .

٥ ــ بوستان سعدى :

نسخة جـــراف . ــ فينا سنة ١٨٥٤ م .

٦ ــ بوستان سعدى :

نسخة مخطوطة . تاريخ كتابتها سنة ٩٧٨ هـ .

٧ ــ بهـــارستان :

عبد الرحمن الجامى ــ القاهرة سنة ١٢٩١ هـ .

٨ ــ تاريخ تصوف در إسلام :

دكتور قاسم غنى ــ طهـــران سنة ١٣٢٢ هـ. ش .

٩ ــ تاريخ عصر حافظ :

دكتور قاسم غنى ــ طهـــران سنة ١٣٦١ هـ. ش .

١٠ ــ تاريخ گزيده :

تأليف حمد الله المستوفى . سلسلة جب . نشر براون . لندن سنة ١٩١٠م

١١ ــ تجربة الأمصار وتزجية الأعصار . المشهور بتاريخ وصاف :

وصاف الحضرة ــ بمبى سنة ١٢٦٩ هـ .

١٢ — تذكرة رياض العارفين :
تأليف رضا قليخان هدايت . طهران سنة ١٣١٦ ه .

١٣ — تذكرة الشعراء :.
دولتشاه السمرقندى — لندن سنة ١٩٠١ م .

١٤ — تعليم وتربيت در نظر سعدى :
محمد جناب زاده — مطبعة سروش سنة ١٣١٧ ه. ش .

١٥ — جامع التواريخ :
تأليف رشيد الدين فضل الله . نشر كاترمير . باريس سنة ١٨٤٣ م .

١٦ — جـــامى :
الأستاذ على أصغر حكمت — طهران سنة ١٣٢٠ ه. ش.

١٧ — حبيب السير فى أخبار البشر :
خواندمير — بمبى سنة ١٢٧١ ه — ١٨٥٧ م .

١٨ — حديقة الحقيقة :
السنائى الغزنوى — بمبى سنة ١٨٥٩ م .

١٩ — حيات سعدى :
تأليف ألطاف حسين وترجمة سيد نصر الله سروش — طهران سنة١٣١٦

٢٠ — ســـايه :
الأستاذ على دشتى — طهران سنة ١٣٤٢ ه . ش

٢١ — سبك شناسى :
« الشاعر بهار » طهران سنة ١٣١٩ ه . ش

٢٢ — سخن سعدى :
الأستاذ قاسم تويسركانى — طهـــران

٢٣ — سعد ينامه :
مجموعة مقالات فى العيد السبعمائوى للگلستان سنة ١٣٦٥ ه .

٢٤ — شرح بوستان سعدى :
ســودى — استانبول سنة ١٢٨٨ ه .

٢٥ ــ شيراز نامه :
أبو العباس أحمد زركوب . نشر الأستاذ بهمن كريمى ــ طهران سنة ١٣٥٠ هـ. ش.

٢٦ ــ فارس نامة :
ابن البلخى ــ طبع كامبردج سنة ١٣٣٩ هـ ــ ١٩٣١ م .

٢٧ ــ كليات سعدى :
نسخة تبريز ــ طبع حجر سنة ١٣٥٨ هـ .

٢٨ ــ كليات سعدى :
نسخة الأستاذ محمد على فروغى . نشر شركة التضامن العلمية . طهران سنة ١٣٢١ هـ. ش.

٢٩ ــ گلستان سعدى :
نشر الأستاذ عبد العظيم خان الگرگانى سنة ١٣١٠ هـ. ش.

٣٠ ــ گلستان سعدى :
نشر بلاتس . لندن سنة ١٨٧٤ م .

٣١ ــ مجلة مهر :
السنة الخامسة . الأعداد السبعة الأولى .

٣٢ ــ مجمع الفصحاء :
تأليف رضا قليخان هدايت ــ طهران سنة ١٢٨٤ هـ .

٣٣ ــ المعجم فى معايير أشعار العجم :
تأليف شمس الدين محمد بن قيس ــ نشر الأستاذ القزوينى ــ بيروت سنة ١٩٠٩ م .

٣٤ ــ نزهة القلوب :
تأليف حمد الله المستوفى ــ سلسلة جب ــ ليدن سنة ١٨١٠ م .

٣٥ ــ نفحات الأنس :
تأليف الجامى ــ مخطوط سنة ١٠٣٢ هـ . رقم ٦٨٤ ــ مكتبة الجامعة .

٣ ـــ المصادر الأفرنجيــة

1. Arberry, (A.J.),
   Kings & Beggars. The First two Chapters of Sa'd's culistan, London 1945.
2. Browne, (A.G.),
   A Literary History of Persia, London 1906.
3. Ross, (J.),
   Sa'd's Gulistan, New York 1923.
4. The Encyclopaedia Britanica.
5. The Encyclopaedia of Islam.

استدراك

خطأ وصـــواب

وقعت بعض أخطاء يمكن إدراكها ولكننا نشير إليها ونرجو ردها أماكنها

ص	س	الخطأ	الصواب
١٥	٢٥	كرد	گرد
١٥	٢٧	هيج	هيچ
١٥	٢٧	بيج	پيچ
٣٣	٤	جدا	خدا
٥٠	١٢	المكتبة	المكتبات
٨١	١٣	احديهما	احداهما
٨٢	١٥	الكمنبد	الگنبد
٩٠	٥	جمطاى	جغطاى
٩٦	٢	فى الوقع	فى الواقع
١٠٣	١	الحويشى	الحوينى
١٠٦	٨	طيع	طبع
١٢٩	١	قا آخان	قا آن خان
١٣٧	١٧	القضلاء	الفضلاء
١٤١	٨	استفتا	استغنا
١٤١	٨	ودد	ودر
١٤٤	٢٢	كوى	گوى
١٤٨	١٣	أزست	أز زرست
١٤٨	٢٤	نحفل	تجعل
١٦٣	٤	فى عهده	فى عهد

ص	س	الخطأ	الصواب
١٧٠	٣	بلاد الاوز	بلاد اللور
١٨٣	١٦	قبيلة	قبيلهٔ
١٨٧	١٦	گنار	كنار
١٨٩	١٠	ميكى	ميكنى
١٩٠	٢١	برا ددم	برا درم
١٩١	١٧	حد سنهٔ ود	حدود سنهٔ
٢٧٠	١٤	مزار من كثير	مزار كثير من
٣٠٣	٩	تمدحه	تمدحه
٣٣٦	١٥	٧٩	٩٩
٣٣٨	١٤	قدرتك	قدرك
٣٤٩	٢٥	درعاد	در
٣٨٧	٣	إلالو	ألالو
٣٨٧	٢٠	گرم	كرم
٣٩٥	١٢	والاربعين	والواحد والثلاثين
٤١٣	١٧	برد	بردهٔ
٤١٥	٢٤	گمسترم	كمترم
٤٢٨	٤	الطمو	الطمع
٤٢٨	٧	تخيل	تحيل
٤٣٢	١	الخوارزشاهيين	الخوارزم شاهيين
٤٣٣	٢٤	كس	كسى
٤٣٦	٤	القسوة	القوة
٤٣٧	٢٤	عقسلت	عقلست
٤٣٨	٢٢	برده	پرده
٤٥٨	٨	الأخيار	الاختيار

كتب للمؤلف

(ا) مطبوعة :

١ ــ تاريخ الأدب الفارسى « مترجم » شامل فى دراسة الحياة الأدبية فى إيران قبل الإسلام وبعده . يعرض لتراجم كثير من الشعراء ورجال الأدب والعلم فى العصور المختلفة .

٢ ــ المعجم فى اللغة الفارسية. يجرى إتمام طبعه الآن فى مطبعة مصر يحتوى قرابة ٢٠ ألف كلمة واستعمال ، ومعانيها المختلفة فى العربية ، مع الإشارة إلى الدخيل من هذه الكلمات فى اللغة العربية .

(ب) تحت الطبع :

٣ ــ ترجمة بوستان سعدى الشيرازى مع النص .

٤ ــ ترجمة بدائع سعدى الشيرازى مع النص .

٥ ــ ترجمة قصة يوسف وزليخا للشاعر الفردوسى مع النص .

يطلب المطبوع من هذه الكتب من :
مكتبة الخانجى ، ودار الفكر العربى ، والمكتبات الشهيرة